العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

دراسات في الفكر التربوي

عند الإمام الحسن عليه السلام

تأليف

الأستاذ يوسف مدن

شعبة الإعلام
وحدة الدراسات والنشرات

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الإعلام
وحدة الدراسات والنشرات

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٣٣)

هاتف:٣٢٢٦٠٠، داخلي: ١٧٥ـ١٦٣

www.alkafeel.net
info@alkafeel.net

الكتاب: دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن عليه السلام.

الكاتب: الأستاذ يوسف مدن.

الناشر:قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

مراجعة: وحدة الدراسات والنشرات / شعبة الإعلام.

التدقيق اللغوي: الدكتور رحيم الشريفي.

الاخراج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الأسدي، محمد قاسم النصراوي.

رقم التسجيل في دار الكتب والوثائق في بغداد ٢٣١٩ لعام ٢٠١٣م.

المطبعة:مطبعة المستقبل، بيروت لبنان.

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ٢٠٠٠.

رمضان ١٤٣٤-تموز ٢٠١٣

الإهداء

إلى سيدي

أبي محمد، كريم

أهل البيت عليهم السلام الإمام الحسن المجتبى

سبط المصطفى وحفيده

أهدي هذا المجهود

عسى أن يفتح أذهان الباحثين على

اهتمام موسع بتراثه العلمي والأخلاقي والروحي

حكمة خالدة

«من أكثر من مجالسة العلماء

أطلق عقال لسانه وفتق ما رتق من ذهنه،

وسرَّه ما وجد من الزيادة في نفسه،

وكانت له ولاية لما لا يعلم وإفادة لما تعلَّم»

من أقوال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وله سبحانه وتعالى الحمد على نعمائه وآلائه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وآله من أئمة الهدى الأطهار.

من الملحوظات في تاريخ سبط المصطفى الإمام الحسن عليه السلام أنَّ الظلم التاريخي بمختلف أشكاله قد أحاط بهذا الإمام العظيم سواء في حياته الشريفة أو بعد مماته، وما تزال مظلوميته نتلمسها بعد مضي قرون من الزمان، فهو – كسائر عباد الله الصالحين – تلاحقه أباطيل الطغاة وأراجيفهم وتخرصاتهم، وقد لحقت آثار هذا الظلم بجوانب عديدة في جوانب من حياته الشخصية، ومع مناوئيه، وفي فكره السياسي ولاسيما قضية صلحه مع معاوية ومنهم لسوء الحظ بعض أتباعه الخُلَّص، وتخطى الظلم مداه الطبيعي ليحاصر فكر الإمام التربوي وثقافته وتراثه الأخلاقي حتى من بعض أتباعه المخلصين جهلاً وكسلاً وتقاعساً وتقصيراً، ولكنه مع ذلك كله لم يستطع هذا الحصار المقصود منه وغير المقصود أن يتطاول على قامته، وأن ينال من سموه وتألقه في التاريخ، فالشمس وهي في رابعة النهار تبدو ((جلية)) لا تحجبها السحب إلاً في لحظات عابرة، ولكن لا تمنع نورها المضيء.

والمفجع حقاً أنَّ هذا الظلم إنْ أتى من خصومه فأمر مألوف في علاقات المتخاصمين، بيد أن الأكثر إيذاء وأشد مضاضة أن يأتي من ذوي القربى، فكما ظلمه

أعداؤه ظلماً شديداً فإنَّ تقصير بعض أتباعه في فهم مراميه، بل وتطاولهم عليه تحت وهج انفعال غير رشيد، فلم يعطوا تراثه الفكري حقه من العناية والاهتمام والدراسة العلمية الموضوعية، وقد عانى فكره من متاعب تغييب نصوصه من خطب وأدعية ومراسلات ومكاتبات ووصايا وحكم قصار زمناً طويلاً حتى بدأت جهود بعض الباحثين في مراحل متأخرة من زماننا في جمع هذه النصوص وحصرها من مصادر مختلفة مبعثرة.

ومع أنه من الصعوبة بمكان تحديد الدراسات التي قامت بهذه المهمة إلاَّ أنها قليلة لا تناسب حجم الأهمية التاريخية والدينية للإمام الحسن الزكي سلام الله عليه، ونذكر من هذه المصادر الروائية التي حفظت تراثه كتاب «تحف العقول عن آل الرسول» لابن شعبة الحراني، وكذلك كتاب «كشف الغمة في معرفة الأئمة» بجزئه الثاني لمصنفه العلامة المحقق أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، فقد كتب السيرة الذاتية للإمام الحسن ضمن حديثه عن سائر الأئمة الأربعة عشر عليهم السلام، وقد عرض الأربلي لتراثه الثقافي فنقل جانباً منه للمتأخرين عن عصره، وغلب على هذا الجمع الحكم القصار بالإضافة لبعض خطبه ومراسلاته وأدعيته وعدد من الروايات المتداولة في مصادر متعددة، ويدخل جهده كله فيما يسمى بعملية «النقل الروائي» أو ما يعرف لدى علماء عصرنا بـ «المنهج النقلي» ومهمته تدوين الأحاديث النبوية وحفظها ونقلها وروايات المعصومين وأقوالهم ومنها ما ورد عن الإمام الحسن السبط بن علي عليهما السلام.

ثمَّ ما دونه المحدث العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي في سفره الكبير «بحار الأنوار»، وهذه الكتب الثلاثة اخترناها كنماذج لكتب العلماء القدماء المتقدمين على وجودنا في الزمان، فالأول من علماء القرن الرابع الهجري، أمَّا البحار فمصنفه من

علماء القرن الثاني عشر الهجري، وقد جمع بعض آثار الإمام الحسن في أحد مجلدات هذا السفر الكبير.

وجمع جوانب من التراث الفكري والأخلاقي للإمام الحسن عدد من العلماء المعاصرين ومنهم الشهيد العلامة السيد حسن الشيرازي، إذ جمع بعض خطبه ومراسلاته وأدعيته وأشعاره وحكمه القصار في كتابه «كلمة الإمام الحسن»، وصدر هذا الكتاب في رمضان سنة ١٣٨٥هـ، وأعطت هذه المحاولة الباحثين فرصة التعرف على التراث الثقافي للإمام، وهناك محاولة جمع لهذا التراث قام بها العلامة السيد مصطفى الموسوي، فقد نظم عملية الجمع لخطبه ومراسلاته ووصاياه وأدعيته ومراسلاته وحكمه القصار في كتاب أسماه «الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن السبط وكتبه ورسائله وكلماته القصار»، وهذا الكتاب على حد تعبير مصنفه أشبه بكتاب مصغر مماثل لكتاب «نهج البلاغة» ولكن في فكر الإمام الحسن وتراثه الثقافي، وصدر كتاب الروائع المختارة في سنة ١٤١٣ هجرية، ١٩٩٣م.

ولهذا الجهد قيمته العلمية بالنسبة للعلماء والباحثين في سيرة أئمة أهل البيت وتراثهم الثقافي، فمن الصعب على ذوي الاهتمام بالعلم والمعرفة كتابة هذا التراث في مجمله وتفصيله ما لم تصلنا نصوصه بواسطة عملية «النقل الروائي» وتدوينها، فالباحثون من ذوي المنهج التحليلي يؤسسون نشاطهم في دراسة وفحصها المعرفة عند الإمام الحسن وتحليلها على قواعد عملية النقل لخطب هذا التراث وكتبه ومراسلاته وأدعيته وكلماته القصار.

***

ومما يلفت النظر أن الدراسات الروائية السابقة التي بذلت جهوداً كبيرة في تعاملها

مع عناصر هذا التراث الثقافي والروحي والأخلاقي تدخل كما نرى في نطاق «المنهج النقلي» الذي يركز على عملية جمع الروايات وحصرها ونقللها من مصادر متعددة ومتقدمة إلى مصادر متأخرة جديدة كي يتم التواصل مع هذا التراث ومظاهره لا بغرض معرفته فحسب، وإنَّما باستثماره في حركة حياتنا الفردية والاجتماعية، وهذا بلا شك خطوة تقدمية للحفاظ على هذا التراث، وحركة علمية جادة تمهد سبيل الباحثين لدراسته بمناهج جديدة.

وتقتضي الحاجة اليوم إلى دراسة تراث الإمام الحسن عليه السلام بأبحاث ودراسات تحليلية تعتمد المناهج التحليلية والتاريخية واللغوية، ومن هنا نرى أن عملية جمع تراثه لا تكفي لمعرفة الأبعاد الإنسانية في محتواه ما لم يتم تحليل نصوص هذا التراث ومظاهره، وصياغة رؤاه بطرائق الكتابة الجديدة لاستخراج معانيه الإنسانية المتعددة في جوانب الثقافة والتربية وعلوم حياتية قائمة في عصرنا، فالدراسات التحليلية والكتابات التاريخية تأخذ بفكره عليه السلام إلى مواقع متقدمة لسبر أغواره والتنقيب في كنوزه، ويأخذ موقعه المتألق في ثقافتنا الجديدة التي نحتاجها لضبط حركتنا المعرفية والعملية على هداها، ونسترشد بإبداعات هذا التراث وأدبياته في توجيه حياتنا المعاصرة التي تشهد انقطاعاً جزئياً عن هذا التراث.

وكتابنا الذي بين يدي القارئ العزيز خطوة تقدمية لدراسة نماذج من أقوال وأفكار الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام قد اخترناها في إعداد دراسات تحليلية لبعض أقواله ونصوصه من تراثه الخالد، وغرضها ليس فقط رفع الظلم عن هذا التراث، بل كذلك لإتاحة الفرصة لبعض الباحثين لدراسة هذا التراث، وإعطائه موقعه من الفكر التربوي

والمعرفي والأخلاقي الإنساني، وأسمينا كتابنا «دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن عليه السلام»، إذ انتقينا من تراثه مجموعة نصوص متفاوتة الموضوعات والمعاني، وقمنا بعملية ترتيبها في دراسات تحليلية في حلقات ومباحث موضوعية موحدة، حيث شكلت جميعاً مادة تعليمية تصلح لكتاب هو الآن بين يديك.

إنَّ هذا الكتاب محاولة علمية جادة للتحرك بفكر الإمام الحسن وتراثه الأخلاقي والروحي والثقافي بواسطة « المنهج النقلي « المتداول تاريخياً في عالم المسلمين عبر قرون متتالية إلى منهج تحليلي جديد يفتح أذهان الباحثين على كنوزه العلمية والقيمية، ويطلع عقولهم على مدخلاته ومعطياته وإبداعاته، وهي مهمة علمية حيوية تحتاجها الأجيال المعاصرة للاتصال بتاريخهم الثقافي وإضاءته العقائدية والأخلاقية والروحية والفكرية.

ويتكون هذا الكتاب من ست دراسات أنجزنا أغلبها في شهر رمضان عام ١٤٣٢ هـ، وتدور جميعها حول أربعة موضوعات هي:

- التعلم والتعليم.
- الحاجات الإنسانية بخصائصها وأنواعها وكيفية تنظيم إشباعها.
- موضوع الاعتذار كفن ومبدأ في تنظيم العلاقات الإنسانية.
- أما المبحث الرابع للكتاب، فموضوعه الأخلاق والصحة النفسية.
- والمبحث الخامس ناقشنا فيه الانفعالات النفسية.

ونظراً للمادة الإثرائية التي تضمنتها نصوص الإمام الحسن وأقواله وخطبه وكتبه

ومراسلاته فإننا ربطنا هذه الموضوعات في وحدة معرفية ساعدتنا على تصنيف هذا الكتاب ومحتواه ومادته العلمية.

وهي كما يأتي:

• تمحورت الحلقات الثلاث من الكتاب أو مباحثه (الأولى والثانية والثالثة) حول الموضوع الرئيس لهذا الكتاب وهو موضوع «التعلم والتعليم» عند الإمام الحسن السبط عليه السلام، فقد شكَّل هذا الموضوع أكثر من نصف المادة التعليمية لهذا الكتاب بوصفه قلب الفكر التربوي في تراث الإمام الحسن عليه السلام.

• وفي الحلقتين الرابعة والخامسة من كتابنا درسنا موضوع «الحاجات الإنسانية» بأنواعها وضبط إشباعها.

• وفي الحلقتين السادسة كانت مبحثاً لموضوع التفكير، وسيكون مبحث «القدرات العقلية في تراث الإمام الحسن» مخصوصاً بالحلقة السابعة.

• أما الحلقة الثامنة من الكتاب فتناول موضوع «الاعتذار كفن ومبدأ في العلاقات الإنسانية».

•وتبحث الحلقة التاسعة آخر موضوعات هذا الكتاب ودراساته، وعنوانها «الانفعالات النفسية».

•وفي المبحث الأخير أو مبحث (الحلقة العاشرة) من كتابنا تناولنا موضوع «الأخلاق والصحَّة النفسية» في خطاب الإمام الحسن عليه السلام وفكره القيمي والثقافي والروحي.

وأخيراً نرجو أن تكون مباحث هذا الكتاب خطوة معززة للجهود العلمية التي تحاول كتابة جانب من التراث الثقافي عند الإمام الحسن وصياغته بروح جديدة تناسب أذواق الأجيال الجديدة من أبناء هذه الأمة الذين يرتاحون لعملية تحليل نصوص تراثهم الثقافي والروحي للتعرف عليه وفهمه.

والله سبحانه من وراء القصد.

يوم عيد الفطر السعيد ١٤٣٢هـ

٣١ من آب ٢٠١١م.

يوسف مدن

البحرين

الحلقة الأولى

التعلم والتعليم في التراث التربوي

عند الإمام الحسن عليه السلام

التعلم والتعليم في التراث التربوي عند الإمام الحسن عليه السلام

إذا ما تأملنا – كباحثين أو قراء أو مستمعين – في النصوص والأقوال المنسوبة في مصادر عديدة إلى الزكي الإمام الحسن بن علي عليهما السلام سوف نجد اهتماماته الواسعة بالقضايا الإنسانية كإحدى واجباته الدينية والمعرفية ومسئولياته في الإمامة والتوجيه والإرشاد وإدارة المجتمع الإسلامي الذي يعيش في أسواره، وقد عبر عليه السلام بنصوصه المجملة والتفصيلية عن هذه الاهتمامات الحياة الإنسانية، ومع أننا عثرنا على جملة محدودة من النصوص في هذا الشأن إلاَّ تشكل في مجموعها حركة معرفية جيدة لكتابة جوانب من النظرية التعليمية والتربوية عند الإمـام الحسن وملامحها وأسسها.

إنَّ من أبرز قضايا الحياة التي تناولها الإمام الحسن بن علي في تراثه المعرفي والروحي هي إثارته لقضية التعلم والتعليم التي هي جوهر النظرية التربوية لدى المشرع الإسلامي، حيث خطى عليه السلام – كجده وأبيه – طريقه الآمن لتوجيه حركة الإنسان نحو قضاياه الحياتية الكبرى والاهتمام بها، ومن هذه القضايا عملية التعلم والتعليم التي كانت موضوعاً لأول آية قرآنية هبط بها الوحي الأمين على سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله في غار حرَاء موضع تعبده لله سبحانه وتعالى، ومما لا شك فيه أن اهتمامات الإمام الحسن الزكي بهذه القضية مرتبطة مباشرة بموقف المشرع التربوي الإسلامي في نصوصه القرآنية والنبوية وأقوال أبيه أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام والصلاة.

ولهذا فإن لهذه المسألة مساحتها الواسعة في تراثه التربوي والفكري، وقد عُبّر

عنها بنصوص وأقوال قصيرة، وفي عدد من روايات وخطب وأدعية ورسائل الإمام الحسن وخطبه وأدعية ورسائله المدونة في بعض مصادر تدوين التراث الثقافي لأئمة أهل البيت عليهم السلام ككتاب «تحف العقول عن آراء الرسول «لابن شعبة الحراني، و" بحار الأنوار «للمرحوم المحدِّث محمد باقر المجلسي، ومصادر أخر جمعت بعض رواياته فيها ككتابي «كلمة الإمام الحسن «للسيد حسن الشيرازي»، والروائع المختارة «للسيد مصطفى الموسوي، وكان تراثه مدوناً في هذه المصادر، وفي غيرها كموسوعة العلامة ري شهري محمدي.. ميزان الحكمة بأجزائه العشرة، وفي غيرها.

إنَّ قضية التعلم والتعليم كانت بارزة في تراثه الفكري، وجلية في أشكال من حديثه التربوي المتناثر في هذه المصادر، وتحتاج نصوصه في هذا المجال ليس فحسب لعملية جمع وحصر تمكِّن الباحثين من دراسة مادتها الثقافية وتحليلها بلغة معاصرة يرتاح لها الناس في زماننا الحاضر، وإنَّما لعملية تحليل تبسط القول في تفاصيلها وخطوطها العامة لاكتشاف أسس النظرية التربوية عند الإمام الحسن الزكي وملامحها العامة، وصياغة مبناها الفكري في إطار النصوص والمصادر الروائية المتعددة وسياقها التي حفظت لنا تراثه الفكري والروحي.

ومما يؤسف له أنَّ الباحثين – باستثناء ثلة منهم – لم يؤدوا دورهم العلمي في دراسة هذا الفكر وفهم تراثه التربوي، ونظراً للاهتمام بعمليات التعلم والتعليم في تراثه الغني فإننا في هذه الحلقة سنبسط القول في هذه المسألة ودراسة نصوصها المستمدة من خطاب الإمام الحسن الزكي عليه السلام، ونأمل أن نتمكن – كمحاولة أولية – من صياغة المبنى الفكري العام لنظريته التربوية – والتعليمية التي هي مفتاح الحياة للإنسان.

وسنتناول في هذا المبحث النقاط الآتية:

- التعلم كمفهوم.
- تحديد عناصره.
- العلاقة التبادلية بين التعلم والتعليم.
- أهداف العملية التعليمية – التعلمية.
- ومبادئ التعلم التربوية العامة الملحوظة في نصوصه.
- طرائق العملية التعليمية – التعلمية وآلياتها.
- وتأثيرها التربوي في حياة الناس.. فرادى وجماعات.

***

نصوص تعليمية من أقوال الإمام الحسن:

قدم الإمام الحسن السبط عليه السلام مجموعة من النصوص شكلت ما نسميه بـ «التراث الفكري «لديه في مجالات معرفية وتربوية وأخلاقية، وقد جمع بعض العلماء والباحثين القدماء والمحدثين هذه النصوص في مواضع مختلفة وأبواب متفرقة، وسنذكر في هذا المبحث من دراستنا عن الفكر التربوي عند الإمام الحسن الزكي بعض النصوص القصيرة لاستخدامها في عملية تحليل هادفة لاكتشاف جوانب من النظرية التربوية عند الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام.

ومن هذه النصوص أقواله المباركة:

- «**ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم**[١]».
- قال عليه السلام لبعض ولده: «**يا بنَّي لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استنبطت الخبرة ورضيت العشرة فآخه على إقالة العثرة، والمواساة على العسرة**[٢]».
- وقال عليه السلام: «**تعلموا العلم فإنَّكم صغار القوم وكبارهم غداً، ومن لم يحفظ منكم فليكتب**[٣]».
- قال: «**يا بني وبني أخي، إنكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته**[٤]». العمر
- وفي قوله عليه السلام الله تعالى: «**علم الناس، وتعلم علم غيرك، تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم**[٥]».
- وقال عليه السلام: «**لا تأتِ رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله، أو تخاف يده، أو تستفيد من**

---

(١) تحف العقول ص ١٦٨، الروائع المختارة ص ١٢٦

(٢) تحف العقول ص ١٦٨، الروائع المختارة ص ١٢٦.

(٣) الروائع المختارة ص ١٣١

(٤) كلمة الإمام الحسن ص ٦٨.

(٥) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١١١، وكتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٧، وكتاب (كلمة الإمام الحسن)، ص ٦٨، وكتاب الروائع المختارة للسيد الموسوي ص ١٣١، وكتاب ميزان الحكمة، ج٦، ص ٤٧١

علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه[١]».

- وقال كذلك: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم[٢]**».
- وقال سلام الله عليه: «**كفاك من لسانك ما أوضح لك سبيل رشدك من غيِّكَ[٣]**».
- وفي سؤال حدد فيه بعض المفاهيم العلمية والأخلاقية سُئِلَ عليه السلام فقال: «ما العقل؟، فأجاب: «**حفظ القلب كل ما استرعيته[٤]**».
- وقال: «**العقل خليل المرء[٥]**».
- وقوله عليه السلام: «**رأس العقل معاشرة الناس بالجميل[٦]**».
- وقال عليه السلام: «**ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة، ولكن من الإفك أن ينطق الرجل بالخنا ويصور الباطل بصورة الحق[٧]**».

---

(١) الروائع المختارة ص ١٣٢.

(٢) الروائع المختارة ص ١٣٤

(٣) كلمة الإمام الحسن ص ٢٠١، وكتاب (الروائع المختارة) ص ١٣٤

(٤) كلمة الحسن ص ٦٠، وكتاب الروائع المختارة ص ١٣٨.

(٥) المجلسي، بحار الانوار، ج ٧١، ص ٤٠٩، وكتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٧، وكتاب ميزان الحكمة، ٦ ص ٤٠٤

(٦) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ١١١، كلمة الحسن ص ٦٣، ٢٠١، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، ص ١٣١، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ٤٣٤.

(٧) الروائع المختارة ص ١٣٩.

- وقال الإمام الحسن أيضاً في نص آخر: «**إنَّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير مذهبه، وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به، أسلم القلوب ما طهر من الشبهات**[١]».

وجاء عنه عليه السلام: «**لا يغش العاقل من استنصحه**[٢]».

وقوله: «**أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكر، فإن التفكر أبو كل خير وأمه**[٣]».

وقال الإمام الحسن عليه السلام: «**حسن السؤال نصف العلم**[٤]، **ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة**[٥]».

وقوله: «**وبالعقل تدرك سعادة الدارين، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً**[٦]».. أي سعادة الدنيا والآخرة.

وقال كذلك «**من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى ثمان: آية محكمة، وأخاً مستفاداً، وعلماً مستطرفاً، ورحمة منتظرة، وكلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، وترك الذنوب حبّاً أو خشية** [٧]».

وفي نص قال عليه السلام: «**والعقل أفضل ما وهب الله تعالى للعبد، إذ به نجاته في الدنيا**

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول، ص ١٧٠، كلمة الحسن ص ١٩٩، وكتاب الروائع المختارة ص ١٤٠.

(٢) الروائع المختارة ص ١٤٢.

(٣) كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٠.

(٤) كشف الغمة في معرفة الأئمة للأربلي، ج٢ ص ٢٠١، وكتاب كلمة الإمام الحسن ص ٦٨

(٥) الروائع المختارة ص ١٤٢.

(٦) كلمة الإمام الحسن، ص ٦٣، ٢٠٠، وكتاب الروائع المختارة ص ١٣١.

(٧) كلمة الإمام الحسن ص ٤١، وكتاب الروائع المختارة ص ١٢٧ – ١٢٨.

من آفاتها، وسلامته في الآخرة من عذابها، وقد قيل: إنهم وصفوا رجلاً عند رسول الله صلى الله عليه وآله بحسن عبادته، فقال صلى الله عليه وآله: انظروا إلى عقله فإنما يجزى العباد يوم القيامة على قدر عقولهم، وحسن الأدب دليل على صحة العقل[١]».

وقال كذلك: «**عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه[٢]**».

وقوله: «**عليكم بالفكر، فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة[٣]**».

وقوله: «**التفكير حياة القلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور[٤]**».

في تفسير قوله تعالى: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة «قال: هي العلم والعبادة في الدنيا، والجنة في الآخرة[٥]**».

سُئِل عن السياسة فقال: «**هي أن ترعى حقوق الله، وحقوق الأحياء، وحقوق الأموات، فأما حقوق الله فأداء ما طلب والاجتناب عما نهى، وأما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر عن خدمة أمتك، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأمته، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوي، وأما حقوق الأموات فهي أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم فإن لهم ربًّاً يحاسبهم[٦]**».

***

(١) كلمة الإمام الحسن ص ٦٢.
(٢) كلمة الحسن ص ٥٠.
(٣) كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.
(٤) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٩.
(٥) كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.
(٦) الموسوي، الروائع المختارة رقم الحديث ٤٧، ص ١٣٤

التعلم كمفهوم:

تشير دراسات علماء النفس التربوي المعاصرين إلى تحديد مفهوم التعلم ومعناه كعادتهم في تحديد المفاهيم العامة والجزئية لهذا العلم، وقد تعددت في ذلك أقوالهم، ونحن هنا لا نجد حاجة في متابعة هذه التعريفات لأن ما يعني القارئ الكريم هو درايته بالمفهوم العام للتعلم بوصفه مثيراً إدراكياً ينقل الخبرة وينميها من حالة الكمون إلى عالم التحقق والبروز في صيغ وأساليب متعددة تبرز في الحياة الاجتماعية للأفراد.

وهنا - يلحظ بوجه عام - أن هناك مفهوماً شائعاً للتعلم، وأنَّ نفراً من هؤلاء العلماء يحددون المفهوم العام لهذا المصطلح بقولهم بوجه عام: «إنه عملية تغير تدريجي شبه دائم في أداء الفرد المتعلم نتيجة الممارسة الهادفة في مواقف تدريب متصلة ومتداخلة ومتتابعة ومستمرة تؤدي إلى تنمية الإمكانيات الفطرية في سلوك تعليمي ظاهري في الحياة الفردية والاجتماعية».

فالتعلم في معناه العام المشترك هو «خبرة ناتجة عن تدريب منظم ومقصود وممارسة معززة، وفعل هادف، وتغير شبه مستمر في أداء الفـرد لاكتساب مهارة معينة في أي مجال من مجالات النمو الإنساني»لتوظيفها في دعم وتعزيز هذه المجالات.

إنَّ التعلم الإنساني وليد استثارة تبدأ من الإحساس بمشكلة تفرضها أحياناً طبيعة النمو أو تتولد عن متطلبات الواقع، وينتهي الاستثارة وما يعقبها من حدوث استجابات بتكوين خبرة تستجيب لمبادئ النمو وقوانينه وتراعي مبدأ الواقع، ويمر الكائن الآدمي خلال مرحلة التعلم بمعاناة نفسية وعقلية بين ولادة «الإحساس» به وإتقان الخبرة [1].

(١) ينظر الفصل الثاني من كتابنا (التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلاميَّة).

وبواسطته يسعى الفرد لتحصيل المعرفة واكتساب مهاراتها، وإضافة تراكميَّة ومتصاعدة للخبرات الجديدة الناجمة عن عملية تدريب منظمة ومقصودة وهادفة، فالتعلم في علم النفس هو « العملية التي يكتسب بواسطتها الشخص خبرات يستطيع عند استعادتها أن يقلِّل من جهوده، ويختصر طاقته، ويحسن التصرف في المواقف الجديدة[١]».

وفي تعريف آخر – من أكثر التعريفات شيوعاً في كتابات علماء النفس التربوي – يرى علماء نفس بأنَّ التعلم هو: «كل تغير شبه دائم في سلوك الفرد بفعل التكرار والممارسة المعززة[٢]».

وإذا تكرر نفس الموقف التعليمي للفرد فإنَّه يعيده بزمن أقل، وبأخطاء أقل أيضاً، فيزداد الإتقان ويتحسن سلوكه بصورة مستمرة ودائمة، وإذا كان التعريف الشائع للتعلم يؤكد أنَّ: « لب التعلم هو التغيير الذي يطرأ على الأداء أو الاستجابة الظاهرة « وما يترتب عنه من تغيير في الخبرة والأداء الإنسانيين فإنَّه كما يقول أحد علماء النفس التعليمي العرب ليس كل تغيير يطرأ على الأداء يدخل في باب التعلم، فمجالات التعب أو الوقوع تحت تأثير مخدر ألوان من التغير في الأداء الناتجة عن خبرة، ومع ذلك لا نعدّها تعلماً، لأنَّ التعلم كتغير في الأداء تحت تأثير الخبرة أو الممارسة أو التدريب له صفة الدوام أو الاستمرار النسبي، وتشير إلى هذه الخاصية جميع المؤلفات في الميدان[٣]، ولكن التغير في السلوك هو في حد ذاته تغير في النضج والمثيرات البيئية، فما دام النضج وعناصر بيئة المتعلم لا تستقر على حال فإنَّ سلوكه في تغير مستمر، فالطفل مثلاً يبدأ

(١) د. عبدالقادر، محمود، ود. فائق، أحمد / مدخل إلى علم النفس العام ص ١٦٤.
(٢) د.سيد خيري، محمد / علم النفس التربوي ص ١٢٥.
(٣) د. فؤاد أبو حطب، ود. آمال صادق، علم النفس التربوي (بتصرف) ص١٦١.

نموه اللغوي بالمناغاة، وبعد أن يجتاز الشهر السادس ينطق عدة مقاطع لفظية لا معنى لها، ثم يتعلم بعد مدة وجيزة البدء بنطق كلمة أو كلمتين أو ثلاث[1].

ومن تجاربنا في الميدان التربوي اليومي – مدرسياً كان أو في نطاق مواقف الحياة بأسرها – نلحظ أن أداء الفرد في تعليمه المدرسي أو في غيره من مجالات الحياة الواسعة يبدأ الفرد في تعلمه بداية عشوائية صعبة، ثم بالتدريب المستمر والممارسة الهادفة يحدث تغير تدريجي بنحو تتغير قدرات الفرد ومهاراته حتى يتمكن من الإتقان المطلوب.

***

عناصر التعلم:

تستخلص هذه العناصر من باطن المفهوم العام للتعلم، وبتأمل بسيط نجد العناصر واضحة في طبيعة النص كمفهوم عام، ويمكن تحديدها فيما يأتي:

١. حدوث تغير شبه دائم في سلوك الفرد.

٢. الممارسة الهادفة واستمرارية التدريب.

٣. بروز في إمكانية الذات وتنمية خبرتها الفطرية.

***

١. حدوث تغير شبه دائم:

يبدأ المتعلم بخاماته الطبيعية ومنها قابليته للتعلم، وعندما يبدأ المربي نقل المهارات المطلوبة بطريقة تدريجية، وغالباً ما تكون الحركات صعبة ومجهدة حتى وإنْ كانت منظمة أحياناً، وبتتابع عملية الممارسة المعززة والتدريب المستمر يحدث تدريجياً تغير

(١) انظر دراستنا (مقدمات لدراسة علم النفس عند الإمام علي، مدخل الفصل السادس).

شبه يومي لا ينقطع، ولا يتوقف حتى يكتمل التغير ويأخذ مداه الأقصى، وحينئذ تبرز خبرة جديدة في التكوُّن، وتصبح جزءًا من النمو العام للشخصية، فعلى سبيل المثال يبدأ المتعلم في التدرب على كتابة محدد كحرف «الألف»، ويظل مع الصعوبات المتوقعة يحاول، وباستمرار المحاولات وتتابعها تظهر مهارة بمستوى معين في كتابة الحرف المذكور، فمن المنطق الطبيعي أن تكون المحاولة الأولى حرفاً مائلاً، وأضخم من حجمه المعتاد في الكتابة الطبيعية، وغير متآزر، ثم يتحسن أداء المتعلم في محاولة ثانية وثالثة حتى تنتظم المهارة في حدها الطبيعي التي تعبر عن إمكانية المتعلم، وهكذا فإن التغير في الأداء يتتابع فيجد المتعلم نفسه قد اكتسب الخـبرة، وتعلم المهارة بأداء مقبول.

٢. الممارسة المعززة:

ينقسم هذا العنصر لكلمتين أو لفظين تربويين هما الممارسة ويشير إلى عملية التدريب المنظم لكي يسير الأداء من خطوة سابقة إلى خطوة لاحقة أكثر تطوراً تحت إشراف مدرب قد يكون الفرد نفسه، وقد يكون فرداً آخر، وبمقدار نوع الممارسة وتنظيمها يكون نوع التعلم الناتج عنها، ويكون مستوى الجودة في المهارة التي تم تكوينها، واللفظ الآخر من هذا العنصر هو تعزيز عملية «الممارسة «التي يقوم بها المتعلم لتطوير الأداء، فلا يكفي تتابع التدريب من دون استخدام «محفززات»أو «مثيرات تعزيزية» للسلوك التعليمي لدى الكائن الآدمي، فالممارسة المعززة تعني إمداد المتعلم بحوافز تدفع بالمتعلم للاستمرارية في أدائه، فإعطاء هدية أو كلمة ثناء أو توجيه شكر أو الربت على كتف المتعلم مصحوبة بابتسامة تعزز الثقة لديه، ولها قوة تأثير إيجابي في سلوكه ووضعه في مسار التحسين وتطوير الأداء التعليمي لدى الفرد.

٣. بروز تدريجي لإمكانيات الذات وخاماتها الكامنة:

التعلم تعبير عن أمرين أحدهما ((قابلية)) داخلية كامنة لدى الفرد المتعلم، وتعبر هذه القابلية عن إمكانيات طبيعية غير نشطة حتى يبدأ المربي في التدخل فينقلها بطريقة تدريجية إلى عالم التحقق يظهر مستوى الذكاء، ومستوى الجودة في المهارة التعليمية، فالعلم كما جاء في حديث الإمام علي عليه السلام علمان أو نتاج تفاعل عقلين هما: «**عقل ولادة وعقل إفادة**[١]»، أو أنَّه.. إمَّا أنه «**عقل الطبع وعقل التجربة، وكلاهما يؤدي إلى المنفعة**[٢]»، والنتيجة من ظهور مهارات يبتغيها المربي تجسد مظاهر لإمكانيات الذات الطبيعية غير المفعلة قبل الممارسة والتدريب المعزز، فإمكانيات الذات هي – في أصلها – قدرات طبيعية كامنة تنتظر التحقق بجهد المربي الهادف، ثم بعد استكمال تطويرها تتحول إلى قدرات حقيقية جاهزة للعمل في حركة الذات وفي حركة الواقع، وبالتالي فإن الإمكانيات تنقسم إلى ذكاء فطري، ونمو خبرات جديدة تتم من خلال عملية تعليمية متقنة، وتتجلى في النتيجة التي أظهرتها عملية التدريب والتعامل مع الخامات الطبيعية للفرد من قدرات كامنة كالقدرة العقلية العامة أو الذكاء، ثم تبرز في صورة خبرات تشكل بالنسبة للفرد المتعلم «قدرات عقلية «مهيأة للعمل والتوظيف والاستخدام.

***

العملية التعليمية ـ التعلمية

أظهر أحد النصوص التعليمية – التربوية التي قالها الإمام الحسن الزكي العلاقة التبادلية الوطيدة بين عمليتي «التعلم والتعليم» بنحو يربطهما في موقف موحد ومتداخل، وكأنها في منظوره المعرفي عملية تربوية موحدة لا سبيل لتجزئتها، أو تفكيك

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ١ ص ١٦٠، ميزان الحكمة، ج٦ ص ٤١٣.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ٩، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ٤١٣.

بنائها التعليمي، وهذا يؤكد أسبقية المشرع التربوي الإسلامي على اكتشاف هذه الحقيقة قبل الجهود التي توصلت إليها الدراسات التربوية الحديثة التي تتحدث عن ما أسماه التربويون بالعملية التعليمية – التعلمية، يقول الإمام الحسن السبط بن علي عليهما السلام في نصه ما لفظه: «**علم الناس علمك، وتعلم علم غيرك، تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم**[1]».

***

المعاني التربوية في النص:

استخرجنا من النص التربوي المتقدم ذكره بعض المعاني التربوية، وهي أفكار تمثل اجتهادنا الشخصي، ومنها ما يأتي:

١. تأكيده على العملية التعليمية – التعلمية

يشير النص في معناه الظاهري إلى عمليتين مترابطتين يطلق عليهما مفهوم «التعليم والتعلم»، وتتمان بترتيب زمني متصل، بحيث تبدأ الأولى منهما بقيام الإنسان الموجه له هذا الخطاب بعملية «تعليم»الناس، ثم يستكمل الإنسان دوره التعليمي بمتابعة تعلمه لعلوم الآخرين واكتساب خبراتهم العلمية والمهنية، فكلمات النص «**علم الناس، وتعلم علم غيرك**» توحي بضرورة قيام الفرد بعملية تعليم وتعلم في آن واحد وتختزن علاقة تبادلية بينهما، فعلِّم الناس هي عملية التعليم، وتعلَّم علم غيرك تعني «تعلم الفرد» من الآخرين.

***

(١) المجلسي، بموسوعة (بحار الأنوار)، ج ٧٨، ص ١١١، وكتاب الروائع المختارة للسيد الموسوي ص ١٣١، وكتاب ميزان الحكمة، ج٦، ص ٤٧١

٢. العلاقة التبادلية لأدوار الفرد بين عمليتي التعليم والتعلم

بالإشارة إلى الدور المزدوج للفرد من قيامه بتعليم الناس وتعلم علومهم منهم كما صرح النص في مدخله فإنَّ النص التربوي الحسني يؤكد على علاقة تبادلية في حياة الفرد وهو يؤدي هاتين الوظيفتين، بحيث لا تنقطع رغبته في التعلم والتعليم في آن واحد بنحو يكون جهده عملية تعلم مستمر، وتربية مستديمة، فيكون الفرد معلماً ومتعلماً في آن واحد كجزء من وظيفته الشرعية في حركة الحياة، ويتجسد المعنى الصحيح لقوله عليه أفضل الصلاة والسَّلام: «**علم الناس وتعلم علم غيرك**».

***

٣. تكوين الخبرات التربوية الهادفة

يتحرك النص التربوي المتقدم ذكره على شكل علاقة قوامها ((فعل الشرط وجوابه)) بدون استخدام أداة الشرط كما في الجمل الشرطية، فإذا ما عَلَّمَ الإنسان من حوله عِلْمَهُ، وتعلَّم علمَ غيره يكون نتيجة هذا الدور التربوي والتعليمي المزدوج تكوين خبرات مربية وتنميتها كجواب منطقي.

ويتحدد نمو «الخبرات التربوية» الهادفة لدى الفرد في مسارين أساسيين هما:

أ. أولهما تقدم عملية التعلم في مستوياتها بالنسبة للفرد المعلم فيتقن خبراته التي اكتسبها من قبل، ويزيد مستوى إتقان الفرد للخبرات التعليمية وترسيخها بما يقوم به من تعليم علمه وخبراته للآخرين.

ب. والمسار الآخر هو تعلم الفرد «خبرة جديدة» التي تنمو تدريجياً من خلال تعلم علوم الغير بحيث تكون جزءًا من الذات بعد أن أتاحت له عملية تعليمه للآخرين إتقان محكم لمهارته السابقة وترسيخ خبراته.

٤. المبادئ التعليمية[١] في النص

يوحي النص الإنساني المعرفي مباشرة بالتعرف على مبادئ تعليمية تضبط السلوك التعليمي لدى الفرد كمبدأ الإتقان الواضح في المقطع الثاني من النص، ومن هذه المبادئ ما واضح بصورة مباشرة كمبدأ الإتقان، وقد عبَّر النص عن ذلك بجملة «**تكون قد أتقنت علمك**»، ومن هذه المبادئ ما يحتاج إلى تدبر غير مباشر لاستخراجها، فما نلحظه في تأملنا لمادة النص المعرفية وجود إشارات لمبادئ تعليمية تم التعرف عليها بصورة غير مباشرة من السياقات الداخلية في المفردات الفظية للنص التربوي عند الإمام الحسن، ومن هذه المبادئ.. مبدأ التدرج، والتعلم المستمر، والتمايز أو الفروق الفردية، والانفتاح على خبرات الآخرين.

***

٥. تحقيق مفهوم التعلم بعناصره الثلاثة

يلحظ من النص تأكيده بصوره غير مباشرة على المعنى العام للتعلم، وقد طوى النص في مفرداته اللفظية العناصر الثلاثة التي اختزنها مفهوم هذا المصطلح من «تغير شبه دائم في أداء الفرد، والممارسة المعززة، وبروز إمكانيات الذات الكامنة بعد التدريب في شكل «إتقان الخبرات» أو «تعلم خبرات جديدة» بعد أن كانت كامنة أو قابليات مركوزة في داخل الفرد وتركيبته مصداقاً لقوله عليه السلام: «**تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم**»، فهاتان الخبرتان كانتا في مرحلة الكمون بمستويين مختلفين، فالخبرات المتقنة كانت موجودة بمستوى معين ثم تم ترسيخها بمزيد من التعليم والتدريب، أما

(١) سنعالج في حلقة قادمة مجموعة من المبادئ التربوية التي استبطنها النص التربوي في التراث المعرفي للإمام الحسن عليه السلام، وأن الإشارة لمبدأ الاتقان اقتضتها الإشارة للمعاني الإنسانية في النص الحسنيّ المتقدم.

الخبرات الجديدة فتم تكوينها بتعلم جديد خلال قيام الفرد في مراحل مختلفة من عمره بالعملية التعليمية – التعلمية.

***

٦. قدرة النص على الاستثارة الذاتية للفرد

ونلحظ هذه القدرة المحركة في استثارة دافعية التعلم والتعلم لدى الفرد، وفي توجيه النشاط وضبط الدور التعليمي لتحقيق هدف مرجو، وكذلك نلحظها في عملية «تنظيم الخبرة التعليمية» المطلوبة ما تم – على حد سواء – إتقانها، وما تم اكتسابها كخبرة جديدة، فالنص يدفع الذات نحو مزيد من الجهد التعليمي وضبط حركته، والفرز بين ما أتقنه الفرد، وما تعلمه من خبرات ومهارات جديدة من خلال تنشيط دافعية التعلم والعمل لدى الكائن الآدمي.

***

وظيفة العقل:

يؤدي العقل في نظر الإمام الحسن دوراً مزدوجاً يمزج الدور الوظيفي بدور عبادي، ويتمثل الدور الوظيفي في طلب العلم والمعرفة وتنمية القدرات العقلية وتطورها بالعلم والتدريب العلمي كما سيأتي في نصوص متفرقة من مباحث هذا الكتاب، أما الدور العبادي فيتم بالعبادة وإشباع الحاجات الروحية للفرد، فقوله عليه السلام: «**من طلب العبادة تزكى لها**[1]» يعني إشباع الحاجات الروحية العبادية، وكلاهما (أي العلم والعبادة) فيتم في الدنيا كما في تفسير الإمام الحسن بن علي لآية ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وفي تفسير قوله تعالى:

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٧٠.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ قال: «**هي العلم والعبادة في الدنيا، والجنة في الآخرة**[١]».

وفي نص آخر قال عليه السلام: «**والعقل أفضل ما وهب الله تعالى للعبد، إذ به نجاته في الدنيا من آفاتها، وسلامته في الآخرة من عذابها، وقد قيل: إنهم وصفوا رجلاً عند رسول الله صلى الله عليه وآله بحسن عبادته، فقال صلى الله عليه وآله: انظروا إلى عقله فإنما يجزى العباد يوم القيامة على قدر عقولهم، وحسن الأدب دليل على صحة العقل**[٢]».

ويلحظ من النصين ما يأتي:

١. الإشارة للذكاء الفطري، وهو ما عبر عنه النص الثاني بالعقل الموهوب، أي هو القدرة العقلية الفطرية التي نولد بها أو زودنا الله بها، وهي – كما جاء في النص الحسني – أفضل ما وهبنا الله تعالى أو عقل «الولادة» كما في نص آخر.

٢. أنه يتم تنمية الذكاء الفطري أو العقل الوظيفي وقدراته وإظهار تمايزها في مراحل من نمو الفرد من خلال العلم أو التدريب والممارسة المعززة.

٣. أن العلم حسنة، وهو بالنسبة للإمام الحسن قيمة موضوعية، كما في نظر المشرع التربوي الإسلامي، وهو كقيمة إدراكية كالعبادة تماماً، لكن الحكم على المرء بحسن عبادته مرهون بالنظر إلى حصافة عقله لأنه يجزى به يوم القيامة.

٤. أن للعقل وظيفتين.. تنمية القدرات العلمية في الدنيا ، واستخدام قدراته وتوظيفه للنجاة في الدنيا من آفاتها، وسلامته في الآخرة من عذابها.

---

(١) كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.

(٢) كلمة الإمام الحسن ص ٦٢.

٥. العقل في منظور المشرع التربوي الإسلامي – كما تبين من النص أعلاه – هو أساس المسؤولة والجزاء الأخروي كما في الدنيا.

٦. أن مجازاة الناس يوم القيامة يكون على قدر عقولهم، وفي ذلك إشارة إلى تمايز قدرات الناس العقلية التي يسميها علماء النفس التربوي بظاهرة «الفروق الفردية» بين الناس.

٧. أن حسن الأدب وهو أحد نواتج التربية واهتمامات العلم هو دليل على صحة العقل، ويراد من ذلك استثمار الذكاء والعلم معاً في تحقيق تربية أخلاقية وروحية تجسد سلامة العقل ونجاح الفرد في تحقيق الهدفين.. الوظيفي والعبادي.

***

أهداف العملية التعليمية ـ التعلمية

لعملية «التعلم والتعليم» كسائر العمليات الاجتماعية أهدافها، ومما لا شك فيه أن عبارات الإمام الحسن وأقواله وكلماته القصار استبطنت في داخلها معاني إنسانية وأهدافاً تربوية، وتوحي نصوصه لنا بجملة من الأهداف التربوية التي يتوخاها المشرع التربوي الإسلامي ويبتغيها تحقيقها الإمام من إثارة هذه الأقوال بين الناس ونشرها في عالمهم الاجتماعي والشخصي، وكعادتنا سنحاول وباجتهادنا الفردي معرفة بعض الأهداف التربوية التي يستهدفها الإمام الحسن من اهتمامه بالفكر التعليمي في خطابه، ونأمل نجاحنا في اشتقاق ما نراه أهدافاً للنظرية التربوية – التعليمية عند إمام الحق الحسن بن علي عليه السلام.

ومن هذه الأهداف:

تنوعت أهداف النظرية التربوية والتعليمية عند الإمام الحسن الزكي، لكنها اجتمعت في هدفين أساسيين.. هدف عبادي وكبير هو طاعة الله وعبادته سبحانه وتعالى، وهدف إنمائي أو علاجي لسلوك الشخصية أو تنمية الإمكانيات الفطرية لدى الإنسان، وقد قمنا باشتقاق هذه الأهداف من مجموعة النصوص السابقة ومنها:

١. تحقيق هدف عبادي، وهو طاعة الله وعبادته وتجنب معاصيه ابتغاء مرضاته تعالى.

٢. السعي إلى تنمية الإمكانيات الذاتية والفطرية لدى الإنسان (عقلية وغير عقلية)، وإبرازها أو تحقيقها في عالم اجتماعي متغير.

٣. إتقان السلوك المرجو وتنمية الخبرات الموجودة بمستوى أفضل.

٤. تعلم خبرات جديدة تساعد على إنماء «الذات «وتطويرها.

٥. تعلم مهارات الحياة الاجتماعية للذات ومحفزاتها.

٦. اكتساب مهارات التعامل الاجتماعي الجيد للشخصية مع الآخرين والتكيف مع حياتهم ومعاشرتهم بالجميل.

٧. الإفادة من تجارب الآخرين وخبراتهم المؤثرة كالنخب، والجماعات العلماء وأصحاب الرأي والمشورة والبصيرة.

٨. توظيف عملية التعلم ومهاراتها في خدمة عملية النمو الشامل للشخصية الإنسانية وبخاصة المؤمنة.

٩. تنمية المهارات العقلية واللغوية كالحفظ والكتابة وإثارة السؤال.

١٠. تحقيق التنمية الروحية والأخلاقية للشخصية الإنسانية في مختلف مراحلها النمائية.

***

تصنيف الأهداف ونماذج من نصوصها التربوية:

قمنا بتصنيف مبسط للأهداف التربوية المشتقة من بعض النصوص التعليمية للإمام الحسن بن علي، وإيضاحاً للقارئ الكريم وتسهيلاً عليه أتبعنا هذا التصنيف بتوزيع بعض هذه النصوص في قبالة أهداف كل مجال على حدة، وهي تغطي مجالات من نمو الشخصية وجوانبها.

المجال	الأهداف	النصوص التربوية الحسنية
العبادي والروحي	-طاعة الله وعبادته وتجنب معاصيه ابتغاء مرضاته تعالى. -تحقيق التنمية الروحية والأخلاقية للشخصية الإنسانية في مختلف مراحلها النمائية.	قال: «**أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكر، فإنَّ التفكر أبو كل خير وأمه**». وقال كذلك «**من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى ثمان: آية محكمة، وأخاً مستفاداً، وعلماً مستطرفاً، ورحمة منتظرة، وكلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، وترك الذنوب حبّاً أو خشية**». وقوله كذلك: «**وبالعقل تدرك سعادة الدارين، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً**»

المجال	الأهداف	النصوص
النمو الإنساني	-توظيف عملية التعلم ومهاراتها في خدمة عملية النمو الشامل للشخصية الإنسانية وبخاصة المؤمنة. -تنمية الإمكانيات الذاتية والفطرية لدى الإنسان وإبرازها في عالم اجتماعي متغير.	- في نص نمو الفرد النفسي والعقلي قال: «**تعلموا العلم فإنَّكم صغار القوم وكبارهم غداً، ومن لم يحفظ منكم فليكتب**». - وقال:«**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**»

المجال	الأهداف	النصوص
المهارات الاجتماعية	-اكتساب مهارات التعامل الاجتماعي الجيد مع الآخرين والتكيف مع حياتهم ومعاشرتهم بالجميل. -الإفادة من تجارب الآخرين كالعلماء وأصحاب الرأي والمشورة والبصيرة. -تعلم المهارات الاجتماعية.	- قال عليه السلام لبعض ولده: «**يا بنَّي لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استنبطت الخبرة ورضيت العشرة فآخه على إقالة العثرة، والمواساة على العسرة**» وفي نص قال: «**رأس العقل معاشرة الناس بالجميل**»، وفي قول: «**ومداراة الناس نصف العقل**» وقال كذلك: «**ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم**»

المجال	الأهداف	النصوص
الجانب العقلي.	-إتقان السلوك المرجو. -تنمية الخبرات الموجودة بمستوى أفضل. - تعلم خبرات جديدة.	قال: «**علم الناس علمك، وتعلم علم غيرك، تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم**»، وفي نص آخر: «**ومن لم يحفظ منكم فليكتب**»، وقال: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**»، وقال كذلك: «**حسن السؤال نصف العلم**»، فقال: «ما العقل؟، فأجاب: «**حفظ القلب كل ما استرعيته**»، وجاء عنه قوله عليه السلام: «**لا يغش العاقل من استنصحه**».

المجال	الأهداف	النصوص
الجانب اللغوي	- تنمية المهارات اللغوية.	- «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**». - وقال سلام الله عليه: «**كفاك من لسانك ما أوضح لك سبيل رشدك من غيِّكَ**»

المجال	الأهداف	النصوص
الجانب العاطفي	تنمية المهارات العاطفية والاستجابة للحاجات الوجدانية.	- «**لا تأتِ رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله، أو تخاف يده، أو تستفيد من علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه**». - وكذلك قوله: «**ومداراة الناس نصف العقل**». - وقال في نص آخر: «**إنَّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير مذهبه، وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به، أسلم القلوب ما طهر من الشبهات**».

***

العوامل المؤثرة في التعلم»

تتأثر عملية تعليم الأفراد بعوامل تخضع لها، وتساعدها على التحقق في الميدان التربوي، وثمة عوامل تؤثر على عملية التعلم والتعليم لدى الفرد يتصل بعضها بطبيعة الفرد المتعلم كذكائه وحالته الجسمية والانفعالية وعمره وجنسه ودافعية التعلم

لديه، واستشارة العقلاء، ونشاطه التعليمي أو مجهوده فيه، أما العوامل الثانية المقابلة للأولى فموضوعية، وهي" من خارج ذاتية الفرد كمادة التعلم وكميتها ونوعيتها، ومستوى مضمونها من حيث السهولة أو التعقيد، ومكان التعليم وزمانه، وطرق التعلم المستخدمة، وجودة التدريب، وفاعلية المعلم المرشد والموجه للأداء في الموقف التعليمي[1]»، وكذلك الظروف المكانية الخاصة بالموقف التعليمي كالإضاءة والحرارة وغيرهما.

ومن الصعب القول: أننا رصدنا كل العوامل المؤثرة في العملية التعليمية – التعلمية لأنه مع توافر بعض النصوص التعليمية المنسوبة للإمام الحسن عليه السلام إلاَّ أننا لم نجد وفرة كافية تمكننا – كباحثين – من رصد هذه العوامل مجتمعة كما فعلنا في دراستنا عن التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية، ولسوء الحظ فإن أغلب ما رصدناه من خلال المفردات اللفظية لهذه النصوص – على قلتها – هو عوامل تتصل بطبيعة المتعلم، ولهذا لم يتم تحديد العوامل المؤثرة على المتعلم من خارج ذاته كمادة التعلم ونوعيتها وكميتها ومستوى السهولة والتعقيد، وربما يعود ذلك إلى خلو النصوص التعليمية المتوافرة بين أيدينا وما تنطوي عليه من إشارات عن العوامل المؤثرة على المتعلم من خارج كيان الفرد المتعلم، ومع ذلك لم تخلو عبارات بعض هذه النصوص من إشارات لتأثير البيئة الاجتماعية المحيطة بالمتعلم.

ومما لا شك فيه أن بعض النصوص التعليمية عند الإمام الحسن عليه أفضل الصلاة والسلام قد لفتت النظر إلى تأثيرها، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع أو ظروف أخرى، وتعد هذه العوامل جزءًا من النظرية التعليمية في خطاب الإمام الحسن

(١) مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية، بتصرف ص ١٦٩.

طالما أنها وردت في كلماته، فهذه العوامل كما سيلحظ القارئ منبعثة من داخل الفرد أو متصلة بحياته الخارجية وبخاصة الاجتماعية المحيطة به، وسنمر على هذه العوامل وبيان موجز لتأثيرها في تعلم الفرد ونمو قدراته العقلية والعلمية، بل في جوانب مختلفة من شخصيته.

***

أولاً: العوامل الذاتية للفرد

من العوامل المؤثرة على تعلم الأفراد ذكاؤهم الفطري أو مستواهم العقلي وقت الولادة، وتركيز الاستماع أو الانتباه، والنضج الطبيعي، وحالتهم الانفعالية، ودافعية التعلم لديهم، والخبرة السابقة للتعلم عند الفرد ورغبة الفرد في التفكر، وتخلية النفس ما أمكن من عوائق التعلم، وبتأمل بعض النصوص التعليمية نجد إشاراته عليه السلام إلى عوامل ذاتية تخصه من الداخل.

يقول عليه أفضل الصلاة والسلام:

«العقل أفضل ما وهب الله تعالى للعبد، إذ به نجاته في الدنيا من آفاتها، وسلامته في الآخرة من عذابها، وقد قيل: إنهم وصفوا رجلاً عند رسول الله صلى الله عليه وآله بحسن عبادته، فقال صلى الله عليه وآله: انظروا إلى عقله فإنما يجزى العباد يوم القيامة على قدر عقولهم، وحسن الأدب دليل على صحة العقل»، وسُئِلَ عليه السلام فقال: ما العقل؟، فأجاب: **«حفظ القلب كل ما استرعيته»**..

«إنَّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير مذهبه، وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به، أسلم القلوب ما طهر من الشبهات[1]».

(١) تحف العقول عن آل الرسول، ص ١٧٠، وكتاب الروائع المختارة ص ١٤٠.

«تعلموا العلم فإنَّكم صغار القوم وكبارهم غداً».

«عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه».

وفي حديثه عليه السلام عن مجالسة الفرد للعلماء قال: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه**»، وفي المقطع الأخير من هذا النص حقائق مترابطة عدة ذات طبيعة سيكولوجية محضة ولاسيما «الحالة الانفعالية الإيجابية» للفرد، ونوجزها كما يأتي:

١. تأكيد هذا المقطع الذي وضعنا تحت كلماته «خطاً «على علاقة إيجابية بين التعلم الجيد والتحسن الملحوظ في الصحة النفسية للفرد.

٢. أن تقدم الفرد في أدائه التعليمي بنحو تدريجي متصاعد يرافقه بالضرورة تغير شبه مستمر، ونحو الأفضل في حالته الانفعالية بظهور حالة سرور لديه.

٣. يؤدي التعلم الجيد، وتحسن حالته النفسية أو ارتفاع معنوياته النفسية إلى زيادة مستوى الثقة بنفسه.

٤. أن التعلم الجيد وارتفاع معنويات الفرد إلى إمكانية تنشيط دافعية التعلم لدى الفرد.

٥. أن تلك التعديلات المذكورة من تحسن الأداء وتحسن الروح المعنوية وتنشيط دافعية التعلم يثبت حاجة الفرد للانفعال الإيجابي كالسرور بمحدد طبيعي معتدل، وهو انفعال مصاحب لهذه التعديلات.

٦. أوضح النص قيمة الانفعال الإيجابي ممثلاً في سرور المتعلم في النمو النفسي،

والتدريب التعليمي، ولاسيما ما حققه الفرد من نجاح تعليمي في مستوى تنمية قدراته اللغوية والعقلية.

٧. أن النص بإيجابية محتواه المعرفي والسيكولوجي يقدم لنا نموذجاً لترابط الحالة الانفعالية بعملية التعلم والتعليم.

***

ثانياً: العوامل الاجتماعية (من خارج الذات)

إضافة الى وجود عوامل مؤثرة ذات علاقة بطبيعة المتعلم، فإن هناك عوامل اجتماعية تؤثر على العملية التعليمية – التعلمية كمخالطة العلماء، توافر مجالس العلم في المجتمع، والتدريب العلمي أو التربوي، وظروفه المعيشية، والمكافآت المادية[1]، والتحفيز الاجتماعي المعنوي، ومشاورة الآخرين، والشعور بالأمن والإخاء الاجتماعي لقوله عليه السلام:

– «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به**[2]».

– «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**».

«**لا يغش العاقل من استنصحه**».

---

(١) لقد عدد الإمام الحسن عشر مكارم للأخلاق كما نقل ذلك جابر، قال جابر: «سمعت الحسن عليه السلام: «**مكارم الأخلاق عشرة: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، ومعرفة الحق للصاحب، وقري الضيف، ورأسهنَّ الحياء**». انظر كلمة الإمام الحسن، للسيد حسن الشيرازي، ص ٦١.

(٢) الروائع المختارة ص ١٣٩.

«ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم».

الرقم	النص	نوع العامل المؤثر في الأداء التعليمي
١	العقل أفضل ما وهب الله تعالى للعبد، إذ به نجاته في الدنيا من آفاتها، وسلامته في الآخرة من عذابها، وقد قيل: إنهم وصفوا رجلاً عند رسول الله صلى الله عليه وآله بحسن عبادته، فقال صلى الله عليه وآله: «**انظروا إلى عقله فإنما يجزى العباد يوم القيامة على قدر عقولهم، وحسن الأدب دليل على صحة العقل**»، وسُئِلَ عليه السلام في نص آخر فقال عليه السلام: ما العقل؟ فأجاب: «**حفظ القلب كل ما استرعيته**».	الذكاء الفطري
٢	وقال عليه السلام: «**تعلموا العلم فإنَّكم صغار القوم وكبارهم غداً، ومن لم يحفظ منكم فليكتب**»، وقال: «**يا بني وبني أخي، إنكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته**».	العمر الزمني للفرد المتعلم
٣	وفي قوله عليه السلام الله تعالى: «**علم الناس علمك، وتعلم علم غيرك، تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم**».	الخبرة السابقة للفرد

٤	وقال الإمام الحسن في نص آخر: «**إنَّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير مذهبه، وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به**».	الاستماع الذهني المركز الذاتي
٥	فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته «**والإمام يعني أبناءه وأبناء أخيه الصغار**».	النشاط الذاتي (والمجهود الفرد)
٦	قوله عليه السلام: «**عجبت لمن يفكر في مآكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه**». وقوله «**أسلم القلوب ما طهر من الشبهات**».	الحالة الفسيولوجية والانفعالية للفرد
٧	«عليكم بالفكر، فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة»، وقال: «أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكر، فإن التفكر أبو كل خير وأمه».	التفكير والتأمل العقلي الذاتي
٨	«من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم».	الاختلاط بالعلماء ومجالستهم
٩	وجاء عنه قوله عليه السلام: «لا يغش العاقل من استنصحه».	استشارة العقلاء

أنواع التعلم:

من الحقائق الحياتية والسيكولوجية أن شخصية الإنسان متعددة الجوانب، وأن كل جانب هو الآخر يتفرع إلى خطوط داخلية ويتشابك معه في حركة النمو الإنساني وسياقاتها التصاعدية، وهذا ما ينسحب على عملية التعلم نفسها، فهذه العملية تمثل بأسرها جانباً من النمو النفسي، ولكن في سياق هذا الجانب نجد تقسيماً لمساراته إلى فروع تجتمع فتشكل الجانب التعليمي في شخصية الكائن الآدمي، فنجد تعلماً لغوياً،وتعلماً وجدانياً، ومهنياً، وتعلماً مهارياً، وتعلماً شرعياً، وآخر عقلياً، وهكذا تتوزع عملية التعلم والتعليم في مساراتها الفرعية لعدد من الأنماط المتعددة التي تجتمع كلها في مسارات واحدة غايتها تحقيق أهداف متكاملة للشخصية البشرية، وقد تعرفنا على أنماط من التعلم ومساراته، وذلك في إشارات متفرقة مبثوثة بين ثنايا مفردات بعض النصوص التعليمية للإمام الحسن بن علي عليه السلام، وهي كما نقول دائماً مجرد اجتهادات ذاتية في فهم نصوصه التعليمية.

وسنحدد هذه الإشارات معززة بمقاطع لفظية مستمدة من بعض النصوص التعليمية، وهي كما يأتي:

١. التعلم اللغوي

يقول أحد نصوص الإمام الحسن الزكي عليه السلام: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**».

إذا ركزنا النظر في الكلمات الموضوعة تحت خط، وتمثلان مقطعين أوليين في النص المذكور، وجدنا ارتباطاً بين «مجالسة العلماء» كمتغير مستقل مؤثر وبين «النمو

اللغوي عند الفرد» و«نمو القدرات العقلية» كمتغيرين تابعين، فطالما كان الفرد مواظباً على حضور حلقات العلم ودروسه أدى ذلك إلى نمو تصاعدي.. في قدراته العقلية، ومهاراته اللغوية.

ونلحظ على ضوء هذا الترابط بروز علاقة بين اللغة والفكر التي أكد عليها المشرع التربوي الإسلامي وعلماء المنطق، فالألفاظ كما يقول الإمام علي «قوالب المعاني»، فالنص الكريم يدعو «للإكثار من مجالسة العلماء وحضور حلقاتهم التعليمية «والمواظبة عليها، حيث تؤدي المجالسة المستمرة للعلماء وأصحاب الفكر وبصائر المعرفة إلى تعلم لغوي تصاعدي وتنمية القدرة اللفظية عند الأفراد بطريقة تدريجية نتيجة تعلم مفردات لغوية من المواد الدراسية التي يحضرها الفرد، ونتيجة تعلمه بعض علوم اللغة وآدابها، وتنمو في الوقت – نتيجة التعلم والمران التعليمي – القدرات العقلية لدى الفرد وتتمايز كلَّما زادت تجارب الفرد من عمليات التعلم وفرصها المتراكمة، فحضور مجالس العلم تجمع علوم مختلفة كعلوم اللغة والحكمة العقلية والعلوم الشرعية، وتزداد الثروة اللغوية والمعارف والمهارات العقلية بدراسة الأفراد لهذه العلوم.

وهنا نكرّر ما قاله الإمام علي في نص الإتقان من أن تعلم علم الغير وتعليم الناس لما يعرفه الفرد من العلوم والحكمة والآداب يساعدان على تعلم الخبرة الجديدة، وزيادة نسبة تراكماتها الصحيحة حتى تبلغ مستوى الإتقان الكامل أو قريبة منه، كما يتم إتقان الخبرة السابقة، وينسحب ذلك على مهارات الفرد في الجوانب اللغوية والعقلية والشرعية وغيرها، وهذا ما قصده نص الإمام من أن الإكثار من: «مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم».

٢. التعلم الاجتماعي

ويشير الإمام الحسن في بعض نصوصه المختلفة إلى مهارات الاتصال والعلاقات الاجتماعية كالمؤاخاة بين الناس ومداراة أنفسهم لبعضهم، ومشاورة الآخرين لبعضهم بعضاً، وغرس مشاعر الموحدة والحب الاجتماعي وتبادل المنفعة، كما حذرت بعض نصوصه من إشاعة قيم سلبية منفرة ومضادة لمهارات الاتصال والعلاقات الاجتماعية، ومن نصوصه في هذا الشأن:

«**رأس العقل معاشرة الناس بالجميل**[١]».

«**ومدارة الناس نصف العقـل**[٢]».

«**يا بني لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استنبطت الخبرة ورضيت العشرة.. فآخه على إقالة العثرة والمواساة في العسرة**[٣]»، وفي ذلك إشارة لما يسميه بعض علماء النفس بالمشاركة الوجدانية.

وقوله: «**ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم**[٤]».

وقوله عليه السلام: «**القريب من قربته المودة وإنْ بعد نسبه، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه**[٥]».

ويقول كذلك: «**البخل جامع للمساوئ والعيوب، وقاطع للمودات من**

---

(١) الروائع المختارة ص ١٣١، رقم الحديث ٢٦.
(٢) الروائع المختارة ص ١٤٢، رقم الحديث ١٠٠.
(٣) الروائع المختارة ص ١٢٦
(٤) الروائع المختارة، ص ١٢٦، رقم الحديث ٢
(٥) الروائع المختارة ص ١٢٦ – ١٢٧، رقم الحديث ٥.

القلوب[١]».

وقال: «**لا تأت رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله أو تخاف يده، أو تستفيد من علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه**[٢]».

وقال: «**الوعد مرض في الجود، والانجاز دواءه**[٣]».

وفي نص سابق قال الإمام الحسن: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**[٤]».

وقال عليه السلام: «**لقضاء حاجة أخ لي في الله أحب إليَّ من اعتكاف شهر**[٥]».

وقوله عليه السلام: «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به**[٦]»، وفي نص آخر مماثل قال الإمام الحسن عليه السلام: «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به، تكن عادلاً**[٧]».

***

(١) الروائع المختارة ص ١٢٨، رقم الحديث ١٥.
(٢) الروائع المختارة ص ١٣٢، رقم الحديث ٣١.
(٣) الروائع المختارة ص ١٣٣، رقم الحديث ٣٨
(٤) الروائع المختارة ص ١٣٤، رقم الحديث ٤٥.
(٥) الروائع المختارة ص ١٣٩، رقم الحديث ٨١
(٦) الروائع المختارة ص ١٣٩، رقم الحديث ٨٢
(٧) كلمة الإمام الحسن ص ٤٩.

٣. التعلم العقلي

تلازم الحديث في نص «مجالسة العلماء» بين حضور جلساتهم ونمو القدرات اللغوية والعقلية على حد سواء، وإذا كان ذلك يدخل في النمو اللغوي للفرد، وزيادة قدراته اللفظية، والفهم اللفظي، وطلاقة اللسان وفصاحته، وزيادة مفرداته اللغوية فإنَّ ذلك يصاحبه نتيجة هذا الجلوس نمو في القدرات العقلية، وكما تقدم تصحبها كذلك زيادة تصاعدية في القدرة اللفظية والفهم اللفظي، وأيضاً نمو قدرته العقلية العامة ((الذكاء)) وتنمية خلاياه، وبروز قدراته مثل القدرات الرياضية العددية وغيرها، والقدرة على الحفظ ورواية العلم ونشره، وقدرته على حل المشكلات والتعامل الجيد معها، وقدرته على التفكير المنطقي، والقدرة على إدراك الأشياء بصورة استبصارية، والقدرة على إدراك أوجه الشبه وأوجه الاختلاف، وقدرات أخرى وتمايزها كالقدرة على التحليل والتفكيك والربط بين الأشياء والخبرات والمواقف، والقدرة على التركيب والتقويم والنقد، وإصدار الأحكام، وأيضاً نمو قدرته على التأمل العقلي.

وقد أوردنا أكثر من نص في رغبة الإمام الحسن عليه السلام في تأصيل التفكير وإدامة التأمل العقلي، كما انطوى النص السابق الخاص بالجلوس على مائدة علوم العلماء ربطاً بين حضور الناس لمجالسهم ونمو قدراتهم، وفي ذلك قال الإمام الحسن الزكي كما ذكرنا: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**».

كما أشرنا مسبقاً لمجموعة نصوص تعليمية عن العقل الفطري (الذكاء)، ويسميه الإمام الحسن بالعقل الموهوب، وكذلك أشرنا للعقل المكتسب (العوامل البيئية) وتوظيف قدراتهما في حركة بناء الشخصية وتطوير الواقع الإنساني.

ومن أقواله التي عرضنا بعضها فيما تقدم:

فقال: «**ما العقل؟، فأجاب: «حفظ القلب كل ما استرعيته**[١]».

وقال: «**العقل خليل المرء**[٢]».

وقوله عليه السلام: «**رأس العقل معاشرة الناس بالجميل**[٣]».

وقال في نص آخر: «**أسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به**[٤]».

وجاء عنه قوله عليه السلام: «**لا يغش العاقل من استنصحه**[٥]».

وقوله: «**أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكر، فإن التفكر أبو كل خير وأمه**[٦]».

وقال الإمام الحسن عليه السلام: «**حسن السؤال نصف العلم**[٧]، **ومداراة الناس نصف العقل**».

وفي نص قال عليه السلام: «**والعقل أفضل ما وهب الله تعالى للعبد، إذ به نجاته في الدنيا من آفاتها، وسلامته في الآخرة من عذابها، وقد قيل: إنهم وصفوا رجلاً عند رسول الله صلى الله عليه وآله بحسن عبادته، فقال صلى الله عليه وآله: انظروا إلى عقله فإنما يجزى العباد يوم القيامة على**

(١) كلمة الحسن ص ٦٠، وكتاب الروائع المختارة ص ١٣٨.

(٢) المجلسي، بحار الانوار، ج ٧١، ص ٤٠٩، وكتاب ميزان الحكمة، ٦ ص ٤٠٤

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ١١١، كلمة الحسن ص ٦٣، ٢٠١، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، ص ١٣١، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ٤٣٤.

(٤) تحف العقول عن آل الرسول، ص ١٧٠، كلمة الحسن ص ١٩٩، وكتاب الروائع المختارة ص ١٤٠.

(٥) الروائع المختارة ص ١٤٢.

(٦) كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٠.

(٧) كلمة الإمام الحسن ص ٦٨

قدر عقولهم، وحسن الأدب دليل على صحة العقل[١]».

وقال عليه السلام كذلك: «**عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه[٢]».**

وقوله: «**عليكم بالفكر، فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة[٣]».**

***

٤. التعلم المهاري - العبادي

هذا النوع من التعلم له علاقة بنشاط جسم الفرد، ونمو مهارات الحركية بنحو تصاعدي كالكتابة التي شددت عليها بعض نصوص الإمام الحسن عليه السلام، وكذلك المهارات البدنية – النفسية اللازمة لبعض الأعمال العبادية مثل مهارات أداء الصلاة اليومية، وأيضاً مهارات آداب الطعام كغسل اليدين والوضوء قبل أكل الطعام، ومما يجدر التنبيه عليه أننا لم نوفق في العثور على نصوص عن مهارات النمو الحركي المترتبة عن مهارات رياضية محضة كركوب الخيل، والسباحة، وفنون القتال، والرياضات اليومية كالمشي، بينما وجدنا نصوصاً حركية ذات علاقة بالأهداف العبادية المباشرة.

ويمكننا عرض نموذج لنصين من كلمات الإمام الحسن عن التعلم المهاري – العبادي، حيث قال عليه السلام:

«**غسل اليدين قبل الطعام ينفي الفقر، وبعده ينفي الهم[٤]».**

---

(١) كلمة الإمام الحسن ص ٦٢.
(٢) كلمة الحسن ص ٥٠.
(٣) كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.
(٤) الروائع المختارة، ص ١٢٩

وقال عليه السلام: «**في المائدة اثنتي عشر خصلة يجب على كل مسلم أن يعرفها، أربع فيها فرض، وأربع سنَّة، وأربع تأديب.**

الفرض: المعرفة، الرضا، التسمية، الشكر.

السنَّة: الوضوء قبل الطعام، الجلوس على الجانب الأيسر، الأكل بثلاث أصابع، ولعق الأصابع.

التأديب: الأكل مما يليك، تصغير اللقمة، تجويد المضغ، قلة النظر في وجوه الناس[1]».

كل هذه المهارات يتم تكوينها بعمليات تدريب مستمرة ومعززة.

***

٥. التعلم الإتقاني

ومضمونه العام أن يقوم الأفراد بتعلم علم الآخرين وتعليم خبراتهم لهم بشكل مستمر وبممارسة دائمة معززة، وهذا يؤدي بتكرار السلوك التعليمي وممارسته وتعزيزه إلى نمو تصاعدي في الخبرة التي يداوم الفرد على تعلمها وتعليمها بنحو مترابط لا فكاك فيه، ونذكر بنص حديث «إتقان السلوك أو إتقان الخبرة دونما تفاصيل، ولقد أكثرنا القول في موضوع «التعلم الاتقاني»، وتحدثنا في مواضع متفرقة من هذا المبحث عن إتقان الخبرة التعليمية التي يمارسها الفرد ((معلماً ومتعلماً)) في آن واحد،ولا حاجة لنا في إعادة الكلام، ونستعيد فقط للتذكير بنص حديثه الشريف: «**علم الناس علمك، وتعلَّم علم غيرك، فتكون قد أتقنت علماك، وعلمت ما لم تعلم**»، وهو أحد نصوص

(١) الروائع المختارة، ص ١٢٩ – ١٣٠.

الإمام الحسن بن علي في التأكيد على هذا المبدأ.

٦. التعلم الوجداني

ويعرف أحياناً «بالذكاء العاطفي» وهو نوع من التعلم الذي له صلة بتنمية المهارات الوجدانية كتبادل الحب والمودة معهم ومشاركة الناس في أفراحهم وأحزانهم والتعاطف الاجتماعي بينهم، وتنمية القيم الأخلاقية الإيجابية التي تعز هذه المشاعر كالكرم والمودة والتعاطف والحب وغير ذلك، حيث يحاول العقل بفطرته السوية ابتكار أساليب تفعيل العاطفة الإنسانية لدى الطرف الآخر بطريقة إيجابية، وتفعيل مشاعر الود والمحبة في العلاقات مع الناس، فالتعلم الوجداني حركة إنسانية إيجابية للحديث مع الناس بأساليب ذكية حضارية تقرب نفوسهم.

ومن الأقوال في هذا المجال:

«**يا بني لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استنبطت الخبرة ورضيت العشرة.. فآخه على إقالة العثرة والمواساة في العسرة**[١]»، وفي ذلك إشارة للمشاركة الوجدانية التي يؤكد عليها علماء النفس.

وقوله: «**ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم**[٢]».

وقوله عليه السلام: «**القريب من قربته المودة وإنْ بعد نسبه، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه**[٣]».

وفي قوله أيضاً: «**إذا ولد لأحدكم غلام فأتيتموه فقولوا له: «شكرت الواهب،**

(١) الروائع المختارة ص ١٢٦

(٢) الروائع المختارة، ص ١٢٦، رقم الحديث ٢

(٣) الروائع المختارة ص ١٢٦ – ١٢٧، رقم الحديث ٥.

وبورك لك في الموهوب، بلَّغ الله به أشدَّه، ورزقك بِرَّه[١]».

ويقول كذلك: «**البخل جامع للمساوئ والعيوب، وقاطع للمودات من القلوب[٢]**».

وعنه: «**لا أدب لمن لا عقل له، ولا مودة لمن لا همة له، ولا حياء لمن لا دين له، ورأس العقل معاشرة الناش بالجميل[٣]**».

وقال: «**لا تأت رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله أو تخاف يده، أو تستفيد من علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه[٤]**».

وفي قول للإمام عليه السلام لفظه: «**أما الكرم فالتبرع بالمعروف، والإعطاء قبل السؤال، وأمَّا النجدة فالذب عن المحارم، والصبر في المواطن عند المكاره، وأما المروءة فحفظ الرجل دينه وإحراز نفسه من الدنس، وقيامه بأداء الحقوق، وإفشاء السلام[٥]**».

وقول الإمام الحسن الزكي بن علي سلام الله وصلواته عليهما: «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به[٦]**»، وفي نص مماثل قال: «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلاً[٧]**».

---

(١) الروائع المختارة ص ١٢٨، رقم الحديث ١٤

(٢) الروائع المختارة ص ١٢٨، رقم الحديث ١٥.

(٣) الروائع المختارة ص ١٣١، رقم الحديث ٢٦.

(٤) الروائع المختارة ص ١٣٢، رقم الحديث ٣١.

(٥) الروائع المختارة، ص ١٤١، رقم الحديث ٩٢.

(٦) الروائع المختارة ص ١٣٩، رقم الحديث ٨٢

(٧) كلمة الإمام الحسن ص ٤٩.

وقال عليه السلام: «**لقضاء حاجة أخ لي في الله أحب إليَّ من اعتكاف شهر**[١]».

***

٧. أماكن التعليم

كان التعليم في مجتمع المسلمين الأول، ولقرون متتالية، يتم في أماكن محددة، ولم يكن عصر الإمام الحسن استثنائياً، فقد عاش زمن جده المصطفى صلى الله عليه وآله، وقد أشار عليه السلام في أثناء بعض الروايات والنصوص التعليمية إلى بعض أماكن التعليم السائدة في مجتمعه، ويمكننا الوقوف عند إشاراته لأماكن التعليم في المدة الزمنية التي عاشها الإمام الحسن المجتبى من خلال بعض النصوص التعليمية، وباستعادة بعضها تجد الإشارات واضحة، وهذه الأماكن التي تقام فيها عملية التعليم في مجتمع الإمام الحسن هي كما يأتي:

- البيت.
- المسجد.
- مجالس العلماء[٢].

***

(١) الروائع المختارة ص ١٣٩، رقم الحديث ٨١

(٢) كان من الممكن أن يشير الإمام الحسن إلى مؤسسات مكانية للتعليم، ولكن الإمام عليه السلام اكتفى بذكر الأماكن التي كانت شائعة في مجتمع عصره، وترك الإشارة لأماكن تعليم ليست قائمة في بيئته، وسبب ذلك أنه عليه السلام كان يخاطب الناس في زمانهم على عقولهم استجابة لحديث جده خاطبوا الناس على قدر عقولهم، ووجد من غير المفيد عن أماكن تعليم ليست قائمة آنذاك.

أولاً: التعليم بالبيت

حينما نتأمل النصين الآتيين نجد إشارتهما بطريقة مباشرة إلى البيت في مجتمع الإمام الحسن كمكان للتعليم والتعلم، فالإمام الحسن المجتبى كان يدعو أطفاله الصغار، وأطفال أخيه للتعلم والتعليم، ورواية العلم وحفظه وكتابته في البيت ، جاء في النص الأول:

«يا بني وبني أخي، إنكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته[١]».

ونقل المعنى مع تغيير طفيف في ألفاظه نص حسني آخر فقال عليه السلام: «**تعلموا العلم فإنَّكم صغار القوم وكبارهم غداً، ومن لم يحفظ منكم فليكتب[٢]**».

ويلحظ في النص التربوي الثاني أنه خلا من تحديد مكان بعينه للتعليم كالبيت، وطالما أن النص الأول ذكر البيت كمكان للتعليم والتعلم، وأن النص الثاني أمر بالكتابة العلم وروايته فالمتوقع أن يتم في أماكن متعددة منها المسجد والبيت ومجالس العلماء وغير ذلك، ومن ثم فإن العبارة تغطي أماكن متعددة لإنجاز عملية التعلم والتعليم منها البيت، ولا تعارض بينهما.

***

ثانياً: التعليم في المسجد

المسجد في عصر الإمام الحسن مكان طبيعي مألوف للتعليم لاسيما بعد أن اتخذه جده المصطفى مقرًّا للعملية التعليمية وإنجاز أنشطة عبادية وحياتية أخر، وفي أحد

(١) كلمة الإمام الحسن ص ٦٨.

(٢) الروائع المختارة ص ١٣١

نصوصه وأحاديثه ذكر الإمام الحسن المسجد كمقر المجال التعليمي، وذكر فوائد التردد على المسجد، وتضمن هذا الحديث الكريم ثمان فوائد لدخول المسجد والتردد عليه، وكان اكتساب العلم إحدى هذه الفوائد وثمار الارتباط بهذا المكان المقدس لدى المسلمين، ومعنى ذلك أن المسجد هو مكان للتعلم، وهو ما كان سائداً في عصره، وظل مكاناً للتعليم في المراحل الزمنية اللاحقة.

ونستعيد نصاً سابقاً ونلحظ إشارته للفوائد التي يكتسبها الفرد في المسجد منها العلم، جاء في النص: «من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى ثمان:

آية محكمة، وأخاً مستفاداً، وعلماً مستطرفاً، ورحمة منتظرة، وكلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، وترك الذنوب حبّاً أو خشية[1]».

***

ثالثاً: مجالس العلماء

يقول الإمام الحسن الزكي عليه السلام:

«من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم[2]».

ويستخدم النص التعليمي عند الإمام الحسن بوضوح تام تعبير «مجالسة العلماء»، وفي ذلك إشارة لأماكن التعليم دون تحديد لاسم مكان معيَّن، فالتعبير المذكور غير محدد، بيد أن مجالسة العلماء لن تكون فحسب في بيت أو مسجد، وقد تكون في خاصة يمكن تسميتها «مجالس العلماء» التي هي أكثر سعة وشمولية من التحديد السابق الذي

(١) كلمة الإمام الحسن ص ٤١، وكتاب الروائع المختارة ص ١٢٧ – ١٢٨.
(٢) الروائع المختارة ص ١٣٤

يذكر البيت فقط أو يذكر المسجد، فالمجالس العلمية – وهي إشارة أماكن متعددة – وأكثر سعة، بحيث تغطي أماكن عديدة في مجتمع الإمام الحسن كالبيت والمسجد وأماكن الخلاء وواجهات المنازل وفضاءاتها، ومن هنا فإن نص الاختلاط بالعلماء وحضور مجالسهم ينسحب على الأماكن المذكورة وأماكن نجهلها كالتعليم تحت ظلال الأشجار في الخلاء أو المزارع، وإنْ كنَّا لا نملك حتى الآن دليلاً تاريخياً على ذلك.

الحلقة الثانية

المبادئ التربوية للتعلم والتعليم

في خطاب الإمام الحسن عليه السلام التربوي

مدخل

إنَّ لكل نظرية في المجال السيكولوجي كالنمو النفسي وقوانين الإدراك وغيرهما مبادئ تنظيمية تتيح للفرد الاسترشاد بها وضبط أدائه، فكذلك هناك مبادئ تربوية عامة في المجال التعليمي، ونقصد ضبط الأداء التعليمي للفرد وترشيده منذ المراحل الأول للتعلم والتعليم، ولهذا ترتكز الأهمية التربوية لهذه المبادئ في قدرة هذه المبادئ على ضبط عملية «التعلم والتعليم» وتنظيمها، والتحكم بحركة المعلم وأداء المتعلم بمجموعة قواعد إرشادية وتنظيمية، وتحقيق التلاؤم المطلوب بين هذه المبادئ العامة وسيكولوجية الإنسان.. معلماً ومتعلماً.. وسلوكهما في الموقف التعليمي.

إن مجموعة المبادئ التربوية التي تحكم ((العملية التعليمية التعلمية)) ليست من صنع العقل التربوي المعاصر، وليست من إسهامات الثقافة التربوية الحديثة حتى وإنْ أقررنا بإبداعاتها، فالعقل البشري عبر امتداداته الزمنية وفعله الحضاري التراكمي قد توصل لمجموعة من المبادئ الاسترشادية الحاكمة للفعل التربوي والتعليمي، كما أنَّ الأديان المنزلة ولاسيما الإسلام قد أدركت هذه المبادئ، وأتاحت للنخب العلمية من الجنسين التفاعل معها واستثمار قيمتها العلمية والتربوية في ضبط السلوك التعليمي، ويأتي أئمة أهل البيت عليهم السلام ومنهم كريمهم أبو محمد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في مقدمة من نص في خطابه التربوي على بعض المبادئ التي تحكم عملية التعلم والتعليم، وينتظم عليها أداء الكائن الآدمي معلماً ومتعلماً على حد سواء، فخطابه امتداد لخطاب جده وأبيه والمنهج القرآني في بناء الذات وحركتها في مجال الأداء التعليمي بوجه عام.

وإذا ما قرأنا الخيوط العامة للتراث الثقافي والتربوي للإمام الحسن سنجد هذه المبادئ واضحة وجلية فيها سواء أكانت نصوصاً مباشرة أحياناً أم نصوصاً غير مباشرة في أحيان أخرى، وتحتاج فقط إلى من يتصدى من الباحثين لمهمة اكتشافها وصياغتها بلغة جديدة ومشوقة ومبنية على خطاب تربوي له جاذبية مؤثرة في العقل المعاصر، فالحالة النفسية والعقلية لكثير من أفراد الأجيال الجديدة تجد بينها قد لا تعنى بالأساليب الثقافية السائدة في تراثنا الحضاري المجيد بفعل تدخل خارجي في بناء ذهنية هذه الأجيال بطريقة عصرية.

ومن المؤكد أنه يصعب الحديث عن بناء «نظرية في التعلم والتعليم» أو جوانب مهمة منها عند الإمام الحسن بن علي عليهما السلام من دون الحديث عن إشاراتها للمبادئ التربوية العامة التي تحكم السلوك التعليمي لدى الأفراد، ولهذا فإن النصوص التعليمية في خطاب الإمام الحسن السبط عليه السلام وكلماته القصار هي في نظرنا إشارات معلنة ومدثرة لمجموعة من المبادئ التربوية التي تنتظم على أساسها العملية التعليمية – التعلمية في حياة الكائن الآدمي، وما نحاول التعرف عليه في هذا المبحث هو في نظرنا مجرد عمل اجتهادي قد لا نكون موفقين إليه كما ينبغي، ومع ذلك رأينا البحث في سياقات اجتهادنا الشخصي عن بعض المبادئ التعليمية الضابطة لسلوك الأفراد في المواقف التعليمية هي خطوة ضرورية لكشف جانب من النظرية التربوية عند الإمام الحسن، ومن هذه المبادئ ما جاء بلغة واضحة ومباشرة، ومنها ما استنبطناه من النص بطريقة غير مباشرة.

***

ومن هذه المبادئ:

أولاً: مبدأ التعزيز

ويعني إمداد الفرد وبخاصة «المتعلم» بحاجته من المكافأة المناسبة في الموقف التعليمي سواء بمكافآت مادية أو بكلمات معنوية معززة كعبارات الثناء والشكر والدعاء للفرد بما يحقق إليه شعوراً بالارتياح والرضا النفسي، وهذا في حد ذاته يثير لدى الفرد المتعلم دافعيته في التعلم فيزيد من نشاطه وإصراره في تكوين الاستجابة التعليمية المطلوبة التي تؤدي إلى نمو الخبرة التعليمية الإيجابية بطريقة تصاعدية.

إن التعزيز عنصر إيجابي مؤثر في عملية التعلم، فهو يستثير همة الفرد من داخله، ويحرك الدافعية للإقبال عليه بهمة ونشاط وجهد أكثر تنظيماً، وإذا ما تأملنا نص الإتقان ونمو الخبرة التعليمية الجديدة أو إتقانها نجد أن الإمام الحسن السبط أراد أن يشير إلى أحد أشكال التعزيز، وهو في الوقت ذاته إشارة لأحد أهم مبادئ التعلم في الخطاب التربوي للإمام الحسن الزكي، فإتقان التعلم الذي يشدد عليه النص هو بحد ذاته «نوع من السلوك التعليمي المعزز» لدى الفرد، وكذلك دعوة لـ «تعلم خبرة جديدة» معززة تزيد من قناعة الفرد بأهمية التعلم ومتابعته والمواظبة عليه بأداء تراكمي، فاكتمال الخبرة الناقصة واستكمالها بالمران والممارسة المعززة، وتعلم الخبرات الجديدة له دلالته الإيجابية على النفس البشرية، مما يحملها على المتابعة والاستمرار حتى استكمال الخبرة الناقصة، والبدء في تعلم خبرة جديدة، ومن هنا فالتعزيز من العوامل المحفزة والمؤثرة على عملية تعلم الأفراد وتعليمهم.

ويؤيد هذا الفهم ما جاء في تفسير الإمام الحسن الزكي لقوله تعالى:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

فقال: هي العلم والعبادة في الدنيا، والجنة في الآخرة[١]»، فقد عدّ الإمام الحسن الزكي بن علي اعتبر «العلم» بأسره خبرة معززة لخبرات التعلم ذاته باكتساب الناقص منها والاستمرار في التقدم لاكتساب المزيد من نسب إتقان أكثر للمادة المتعلمة وتعلم ما هو جديد، وبالمفهوم العام عدّ الإمام الحسن العلم «حسنة» في الدنيا، أما في الآخرة فيثاب المرء بالمواظبة على اكتساب العلم في دنياه، ومن ثم كسب العلم في الدنيا حسنة للفرد، وثواب الله له في الآخرة حسنة أخرى معززة.

***

ثانياً: مَبْدَأ التوازن بين الحاجات

جميع حاجاتنا البشرية هي مزيج من التكوين الفطري والممارسة أو الإشباع الاجتماعي المتنوع، فالمؤكد أن الحياة البشرية لها ثوابتها المحددة التي تتمثل في القابليات الوراثية، وهي ما نولد مزوّدين بها، وللحياة البشرية في جانبها الآخر صوراً تعبيرية متغيرة من مدة إلى أخرى على وفق مثيرات حياتنا وعالمنا الخارجي، وهي مختلفة من مكان إلى أخر، ومن بيئة لأخرى، فعلى سبيل المثال يمكن لحاظ الرغبة في «المسكن» حاجة فطرية لدى الإنسان في كل زمان ومكان، لكن يتم التعبير عنها بصور مختلفة من زمن لآخر ومن بيئة مكانية لأخرى، فبعض البشر يبنون مساكنهم من الخيام، ويعيش آخرون في كهوف، ويبني قسم ثالث من الناس بيوتهم في أزمنة مختلفة ومتتالية من الخوص وسعف النخيل، بينما يبني آخرون مساكنهم بأدوات البناء الحديثة، فالصور المعبرة عن الشكل الخارجي للبناء متغيرة، ولكنها في النهاية معبرة عن رغبة فطرية، وحاجة ثابتة في تكويننا النفسي، وما انطبق على حاجتنا للمسكن، ينطبق كذلك على

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.

سائر الحاجات الفطرية والفسيولوجية والاجتماعية أو النفسية كالحاجة إلى التعلم ينطبق على حاجات عديدة.

فـ «الرغبة في التعلم» تمثل حاجة فطرية في التركيبة الآدمية، وهي ثابتة في التكوين الفطري الإنساني، ولكن فعل «التعلم» كسلوك اجتماعي وكأداء تربوي يتم اكتسابه بفعل التفاعل بين القابليات الفطرية وبين عناصر البيئة الاجتماعية التي يعيش في كنفها الأفراد، وتمارس دورها منذ الصغر، ويعبّرعنها بصور مختلفة، كالتعليم الديني أو المهني أو تعلم الصناعات أو تعلم العلوم الحديثة، فالقابلية للتعلم فطرية وثابتة في كياننا الإنساني يتم التعبير عنها بصور مختلفة، أي أن صور الإشباع متبدلة من زمن لآخر ومختلفة من مكان لآخر مع ثبات الرغبة ككيان أصيل في داخلنا البشري.

فالتعلم كرغبة داخلية مركوزة في التكوين الفطري، وهي إحدى القابليات والاستعدادات الداخلية التي نرثها دونما تدخل من أحد سوى خالق النفس، ولهذا فإن التعلم وطلب العلم – كرغبة داخلية – تجسد بالنسبة للإنسان حاجة رئيسة فطرية لكنها لن تكتمل في حركها إلاَّ بالتحقق في عالم الوجود الاجتماعي، أي أن التعلم كحاجة إنسانية هو في النهاية مزيج من الاستعداد الفطري الداخلي والممارسة التعليمية المستمدة من البيئة الاجتماعية التي تكسبه في النهاية إشباعاً معيناً بقدر محدد وفقاً لظروف تكوينها التدريجي، فهناك من يميل على تعلم ديني، وآخر لتعلم مهني، وقسم ثالث ورابع ينحو نحو تعلم صناعي وزراعي وغير ذلك.

ونظراً لأهمية حاجة الإنسان للتعلم ركز خطابه التربوي على إشباعها، وطالب الإمام الحسن عليه السلام أن تأخذ حظها من الإشباع السوي بتوازن تام لا حيف فيه ولا اضطراب كما يفعل بعض الناس، حيث يميلون – كما شاهد الإمام الحسن بنفسه – إلى

سلوك غير متوازن في إشباع حاجاتهم للتعلم وفي مجالات أخر، وهو سلوك يتجاوز الإشباع السوي لبعض الحاجات الجسدية على حساب الإشباع للحاجات المعنوية.

والحاجة للتعلم في صدارة الحاجات المعنوية التي لا تأخذ حظها من الاهتمام في خطابه كما سيبينه نص واصح لديه، لذلك كان هذا السلوك (أي الاشباع غير المتوازن للحاجات) موضع انتقاد الإمام الحسن عليه أفضل الصلاة والسلام، وطالب في نص له تحقيق توازن في إشباع الحاجات الجسدية والتعليمية وتجنب مخاطر الإشباع غير المتوازن.

يقول الإمام الحسن عليه السلام في إشارته الواضحة لمبدأ التوازن في إشباع حاجات الكائن الآدمي بشقيها المادي والمعنوي:

«**عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه**[1]»، وسنناقش هذا المبدأ في الحلقة الخاصة بالحاجات الإنسانية وبخاصة في عنوانها الفرعي «خصائص الحاجات الإنسانية[2]».

***

ثالثاً: مبدأ التعلم المستمر

توحي كلمات النص الذي أسميناه بنص «الإتقان» بأن الإمام الحسن الزكي دعا للعمل بمبدأ التعلم المستمر أو التعلم على مدى الحياة، حيث يحثهم هذا النص الحسني كالنصوص الأخر على التعلم المستمر، وعدم انقطاعه مدى الحياة، فكلماته «علِّم، وتعلَّم، وأتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم» تشير إلى المراتب التصاعدية المستمرة

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٥٠.

(٢) انظر الحلقة الخامسة (حلقة الحاجات الإنسانية) من هذا الكتاب.

في عملية التعلم، وفي أداء الفرد التعليمي، وفي نمو الخبرة التربوية الهادفة على امتداد العمر، بحيث لا تتوقف جهود الفرد في عمليات التعلم والتعليم في كل مراحل نموه المختلفة وبخاصة أن الإمام عليه السلام دعا أبناءه وأبناء أخيه إلى التعلم وهم صغار، وأبلغهم أنهم اليوم صغار قوم، ويوشكوا غداً أن يكونوا كبار قوم في زمن لاحق، وهنا يجعل التعلم في نظر الإمام الحسن أداءً تراكمياً في تواصل لا ينقطع منذ الصغر حتى مراحل متقدمة من العمر، وهي ما سمّاها الإمام الحسن عليه السلام بـ «الكبر»، وأنه بين مرحلة الصغر ومرحلة الكبر «تعلم لا يتوقف وتعليم لا ينقطع»، فكلاهما جهد بشري يعبر عما يسميه علماء التعلم، وعلماء النفس التعليمي بالعملية التعليمية – التعلمية، وهذا ما أكده الإمام الحسن منذ النصف الأول من القرن الهجري الأول حينما قال عليه السلام: «علم الناس، وتعلَّم علم غيرك».

وهذا الخطاب موجه للإنسان مسلماً أو غير مسلم، معلماً أو متعلماً، وهذا بكل تأكيد لا يحدث عادة إلاَّ بالرغبة في التعلم، والممارسة والتعلم المستمر الذي قد يستغرق العمر كله أو على أقل تقدير مدة كافية من الزمن حتى يتم تكوين الخبرات المطلوبة، وحتى يتمكن الفرد من تنمية رغبة لديه في التعلم بلا انقطاع.

ومما هو جدير بالانتباه والذكر أن هذا المبدأ يؤكد أن عمليتي «التعلم والتعليم» متلازمتان في حياة الفرد، ولا ينبغي انقطاعهما، فيكون الفرد «عالماً ومتعلماً» في زمن واحد متصل، وتوحي المفردات اللغوية للنص المشار إليه بالأدوار التعليمية بطريقة تبادلية للفرد، فيظل الفرد يتعلم «خبرة تعليمية» من أحد، ويقوم في الوقت نفسه بـ «تعليم غيره» ويستفيد من تجاربه في تنمية خبرة لم تكتمل أو تعلم «خبرة جديدة» لم يعلمها بعد.

رابعاً: مبدأ الفروق الفردية

ويسميه بعض علماء النفس التربوي المعاصرين بـ «التمايز»، أما في القرآن الكريم فيعرف في مفهومه العام بـ «الوِسْعِ» انسجاماً مع قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، وفي بعض الأحاديث النبوية يسمى بـ «قدْر عقولهم» «لقول النبي صلى الله عليه وآله: «**إنَّا معشر أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم**[1]»، وما جاء في حديث لحفيده الإمام الحسن كما سيأتي في أحد نصوصه التربوية، وقد اقتدى أثر جده المصطفى في استخدام اللفظ بمعناه التربوي.

ويقصد بهذا المصطلح أن الأفراد على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأعمارهم وجنسياتهم متمايزون في قدراتهم العقلية، ومختلفون في ذكائهم واستعداداتهم العقلية وتجاربهم الثقافية والتربوية والاجتماعية، وفي التفاعل مع مثيرات البيئة الخارجية ومتغيراتها، وأن لهذا التمايز أو الاختلاف الفردي أو الوسع مدى بين أقل درجة وأكبر درجة، بين أقصر شخص مثلاً وأطول شخص تتوزع درجات الطول بين الناس، وهكذا في كل الصفات والسمات، فكما أن الصفات الجسدية كالطول ليست واحدة بين الأفراد، فكذلك طباعهم الوجدانية والاجتماعية وسماتهم العقلية ليست متساوية، ولا يحتاج المرء إلى كثير قول لمعرفة ذلك وإدراك الفروقات بين سمات الأفراد وصفاتهم في مجالات مختلفة من شخصياتهم.

ومما تقدمت الإشارة إليه فإنَّ الإمام الحسن الزكي عليه السلام قاله في نص بظاهرة الفروق الفردية، وتعبيره في النص المذكور «**قدْر عقولهم**» تعني التباين بين الأفراد في الذكاء كقدرة عقلية فطرية، وهو أمر يترتب عليه اختلاف في مستويات التفكير فيما بعد ونوعيته

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص ٢٥

الإنتاجية، ولا يوجد أحد منَّا بحاجة لدليل إثبات أو برهـان بأن الأفراد متفاوتون في قدراتهم العقلية الفطرية أو ذكائهم ومستويات تفكيرهم، وإنتاجهم الثقافي والعلمي.

وفي نص قال الإمام الحسن عليه السلام: «**والعقل أفضل ما وهب الله تعالى للعبد، إذ به نجاته في الدنيا من آفاتها، وسلامته في الآخرة من عذابها، وقد قيل: إنهم وصفوا رجلاً عند رسول الله صلى الله عليه وآله بحسن عبادته، فقال صلى الله عليه وآله: انظروا إلى عقله فإنما يجزى العباد يوم القيامة على قدر عقولهم، وحسن الأدب دليل على صحة العقل**[1]».

ويلحظ من النص ما ذكرناه من نقاط سبع عند حديثنا عن وظيفة العقل الفطري أو ما يعرفه الناس بالذكاء وهي إشارته للذكاء الفطري أو العقل الموهوب الذي نولد به أو نولد مزودين بها كأفضل ما وهبنا الله تعالى، وأنه يتم تنمية الذكاء الفطري أو العقل الوظيفي وقدراته وإظهار تمايزها في مراحل من نمو الفرد من خلال العلم أو التدريب والممارسة المعززة، وأن العلم حسنة كالعبادة تماماً، لكن الحكم على المرء بحسن عبادته مرهون بالنظر إلى عقله لأنه يجزى به يوم القيامة، وأن للعقل وظيفتين.. تنمية القدرات العلمية في عالمنا الدنيوي الذي نعيشه، واستخدام قدراته وتوظيفه للنجاة في الدنيا من آفاتها، وسلامته في الآخرة من عذابها.

كما أن «العقل الإنساني» في نظر المشرع التربوي الإسلامي هو أساس المسؤولة والجزاء الأخروي كما في الدنيا، وأن مجازاة الناس يوم القيامة يكون على قدر عقولهم، وفي ذلك إشارة إلى تمايز قدرات الناس العقلية التي يسميها علماء النفس التربوي بظاهرة «الفروق الفردية» بين الناس أو التمايز، أما حسن الأدب وهو أحد نواتج التربية وجهدها واهتمامات العلم فهو دليل على صحة العقل وسلامته، ويراد من ذلك استثمار

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٢.

الذكاء والعلم معاً في تحقيق تربية أخلاقية وروحية تجسد سلامة العقل ونجاح الفرد في تحقيق هدفي العقل.. الوظيفي والعبادي.

***

خامساً: مبدأ إتقان السلوك أو الخبرة التربوية

هذا المبدأ من أوضح ما تحدث عنه أحد النصوص التعليمية البارزة التي نطق بها الإمام الحسن،وعدّت أحد أهم نظريته التربوية والتعليمية وأبرزها، وجاءت الإشارة الى مبدأ إتقان السلوك واكتمال تكوين الخبرة بالممارسة المعززة في المقطع الثاني من قوله عليه السلام: «علم الناس، وتعلَّم علم غيرك، تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم».

ويؤكد هذا المبدأ على أن قيام الفرد بالتعلم والتعليم بطريقة تبادلية في ترتيبها الزمني وفي ظروف متعاقبة ينمي لدى الفرد «الخبرة» ويستكمل نواقصها، ويبلغ بها تدريجياً، وبالممارسة المعززة مستوى «الإتقان»، كما يؤكد هذا النص التربوي على تعلم الفرد لخبرات جديدة، وكلاهما يعزز كما ذكرنا عملية التعزز ويجعلها مفيدة للفرد أو المتعلم، ويثبت مبدأ الإتقان بأن الخبرة العلمية الناقصة تكتمل بالممارسة وتعليمها للآخرين فتثبت في الذاكرة وترسخ وتكون أقوى من وضعها السابق، وهو أمر يهيّئ الفرد لتعلم خبرات جديدة بالضرورة؛ لأنَّ الدعوة إلى إتقان الخبرة بمزاولة العملية التعليمية – التعلمية وممارستها دونما انقطاع أو توقف، وهذا يعني أنها في وضعها السابق خبرة غير مكتملة، وتحتاج لتمكينها وترسيخها إلى الاستمرار في ممارسة العملية التعليمية – التعلمية، فيزيد رصيد خبرة الفرد السابقة تدريجياً، فكلما باشر استخدام علمه وخبرته زاد من ثباتها وترسخها أكثر، وبتتابع هذه الممارسة يتقن الفرد في نهاية الأمر ويتمكن من جعلها خبرة كاملة، كما يتعلم في الوقت نفسه خبرات جديدة لا علم

بها، وهذا ما جاء في متن النص التربوي الحسيني.

وتدل كلمات مباشرة في النص الحسني المذكور على مبدأ إتقان السلوك لتصل لمستوى خبرة مكتملة، فكلمتا «أتقنت علمك» الواردتين في المقطع الثاني من النص المذكور آنفا، وتشير كلمتاه المذكورتين إلى تغير تدريجي تصاعدي في مستوى الخبرة ونموها من خبرة غير مكتملة إلى مستوى خبرة مكتملة، وتستقر عند مستوى «اكتمال الخبرة» التربوية، وقد عبَّر النص عن اكتمالها بكلمتيه «أتقنت علمك»، وهي مرحلة تعليمية تمهد لتعلم جديد أو توظيف ما أتقنه المتعلم في الكشف عن جديد بطريقة إبداعية غير مألوفة.

***

سادساً: مبدأ تكرار السلوك

هذا مبدأ يكرره علماء النفس، ونقصد هنا بالمبدأ المذكور «التكرار الهادف بوصفه ممارسة منظمة تجعل التعلم يتم على مراحل موزعة بينها فواصل زمنية للراحة، وهو في الوقت ذاته جهد متواصل يستمر المتعلم في القيام به حتى ينتهي إلى إتقان الخبرة المراد تعلمها أو تكوين «المفاهيم» التعليمية المطلوبة في عقل الإنسان ((والتي يحتاجها في تنظيم حركة حياته))، فكل محاولة تزيد من نسبة الخبرة التي يبتغيها، فالتكرار الموجه والهادف عملية بناء تدريجي للخبرة والاقتراب بها من دائرة الثبات والرسوخ[1]».

وهذا ما يجسده تماماً نص إتقان التعلم في الخطاب التربوي عند الإمام الحسن الزكي عليه السلام.

ولا يمكن للتعلم أن يحدث من بدون تكرار السلوك وإعادة الاستجابات

(١) يوسف مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية ص ٣٢٤ – ٣٢٥.

التعليمية، فلا يحدث التغير شبه الدائم كما يقول التربويون «في سلوك الأفراد إلاَّ بالتكرار وإعادة التعلم مراراً حتى يتقن نهائياً[١]»، فالممارسة المقصودة التي أكّدتها بعض النصوص التعليمية لدى الإمام الحسن كما في نص الإتقان السالف الذكر هي ممارسة هادفة ومعززة، فهذا النص – كما تقدم – تضمن في محتواه تكرار الأداء الهادف المعزز حتى ينتهي إلى تكوين خبرات تعليمية مقصودة إمَّا بإتقان متزايد في النسب الكمية للخبرة التي يتم تكرار الإتيان بها فيحدث التعلم في خبرة ناقصة، أو يتم تعلم «خبرة جديدة»ورسوخها بالطريقة ذاتها.

ونلفت نظر القارئ إلى ما قلناه في مواضع متفرقة ولاسيما في أقوالنا عن نص الإتقان في خطاب الإمام الحسن عليه السلام عما تضمنه هذا النص من تأكيد معلن ومبطن على تكرار الفعل التعليمي والاقتران والربط بين خبرات سابقة وخبرات لاحقة، فهذا الربط ضرورة كي «تكون حركة التعلم الأولى صحيحة ومتقنة لأنَّ صحة الحركة الثانية متوقفة عليها، ولأنَّ أثر الخبرة السابقة ينتقل إلى الخبرة اللاحقة، وهكذا يفيد التعلم السابق في تعلم ما هو جديد إذا كان بينهما عنصر تماثل أو تداخل[٢]»، فيكون أحدهما مؤثراً، ويكون الآخر متأثراً.

ونعود إلى نص إتقان الخبرة التعليمية القائل: «علم الناس، وتعلَّم علم غيرك، تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم» فنقول أنه إنطوى على الأمور الآتية:

وجود التدريب الذي عبر عنه النص بكلمتي «علَّم، وتعلمَّ»، وهذا ما يسمى اليوم بالعملية التعليميّة – التعلّمية.

---

(١) يوسف مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية ص ٣٢٤.

(٢) يوسف مدن، مصدر السابق ص ٢٦٨.

تدعيم (خبرة) علمية عند المعلم إلى مستوى الإتقان.

تعلم خبرة جديدة[١]، وهذا ما عناه الإمام علي بالعلم المستفاد حينما قال عليه السلام: «وفي التجارب علم مستفاد[٢]».

***

كما أن تأكيدات الإمام الحسن عليه السلام في نصوص تربوية أخرى، ففي حديثه عن مخالطة «العلماء» يؤكد دعوة صريحة على الإكثار من مجالستهم، فالنص المذكور لا يقصد من المخالطة حضور جلسات العلماء مرة واحدة، أو اثنتين أو ثلاث، وإنما مخالطتهم دائماً، وحضورهم المستمر لجلساتهم كي تؤدي هذه الجلسات دورها التربوي المفيد في إنجاح العملية التعليمية – التعلمية لدى الكائن الآدمي، ويراد من ذلك أن تكون مجالسة العلماء «مختبراً لتدريب الذات وتنمية طاقاتها الفطرية»، ويكرر فيه السلوك التعليمي المراد تكوينه حتى تبدأ الخبرة في التكوُّن والظهور والإتقان السهل، فالتكرار الذي استنبطناه من حديث الإمام الحسن عليه السلام في نص الإتقان ومجالسة العلماء وتكرار التأمل العقلي وديمومة التفكر يسهل على المتعلم الاستجابة الناجحة بتقليل تدريجي للأخطاء، وتلقائية الأداء وسهولته، وتقليل زمن وقوع الفعل التعليمي المتقن، ومن ثم فإن تكرار السلوك في نصي إتقان التعلم ومجالسة العلماء هو في حقيقته مداومة هادفة ومقصودة ومعززة على التعلم والتعليم والتدرب عليهما، وهي مداومة تنتهي بنمو الخبرة المربية وتكوينها.

جاءت نصوص الإمام الحسن عليه السلام في الحث على مجالسة العلماء وديمومة التفكير:

---

(١) يوسف مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية ص ٢٦٢.

(٢) الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ج١ ص ٥٠.

«من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم[١]».

«عليكم بالفكر، فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة[٢]».

«أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكر، فإنَّ التفكر أبو كل خير وأمه[٣]».

«يا بني وبني أخي، إنكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته[٤]».

***

سابعاً: مبدأ التغذية الراجعة

كما دل النص التربوي الحسني بطريقة مباشرة على إتقان الفرد للخبرات العلمية التي يمارسها بمواظبة وتكرار وتتابع فإنه يدرك بجهوده الذاتية أنه «أتقن»خبرته أو أتقن علمه، وبذلك يشير النص المذكور بأن الفرد يدرك مدى إتقانه في مراحل من تجاربه التعليمية، ويفرق بين مستوى أقل ومستوى أقل من خلال ما يعرف في علم النفس بمبدأ «التغذية الراجعة» الذي يتيح للفرد العالم والمتعلم على حد سواء أن يعرف مقدار تقدمه العلمي (ما أتقن وما لم يتقن) بعد تكرار الممارسة وتقويمها، وهذا يعني أن المرء يجب أن يعرف نتيجة عمله، وأن يتعلم من جملة ما تعلمه من خبرات نتيجة ممارسة علمه مقدار ما أتقن، ومقدار ما تبقى، وما لم يتقنه بعد، فإذا كان يتعلم حفظ

(١) الموسوي، كتاب الروائع المختارة ص ١٣٤

(٢) السيد الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.

(٣) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٢٩.

(٤) السيد الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٨.

نص سورة قرآنية مكونة من آيات محددة رقمياً كعشر آيات على سبيل المثال فإنه بتكرار قراءة الآيات وتفسيرها بين حين وآخر يعرف أنه أتقن قراءة آيات سبع من نص السورة وحفظها وتفسيرها، وأنه أدرك بحاجة لممارسة جهد متتابع لاستكمال خبرته بالنص الكامل للسورة.. قراءة وحفظاً وتفسيراً، وبعد اكتمال خبرته قد يطور فهمه لمعنى آيات السورة ويطرح رؤية جديدة غير مسبوقة، وهكذا فإن الفرد بتكرار علمه يعرف نتيجة عمله ويدرك مقدار ما أتقن وما لم يتقن.

وتنطوي كلمتا «أتقنت علمك» الواردة في حديث الإمام الحسن بن علي عليه السلام على هذا المعنى العام، فالفرد في سياق النص يكون قد عرف ما علمه من خبرة، ومعرفة ما يعلمه منها بنسب محددة تقريبية، وبتزايد نمو الخبرات وتزايد مستويات الإتقان في تعلم خبرة معينة ترتفع نسبة الإتقان حتى تكتمل الخبرة وتصل إلى مداها الأقصى، بحيث تكون المعرفة كاملة، وسهلة، وتلقائية وراسخة في العقل والذاكرة.

وهكذا فإن الفرد في الموقف التعليمي أستاذاً عالماً أو متعلماً يكون هو من يفحص معرفته باستمرار، ويدرك الخبرة ما أتقن وما لم يتمكن من إتقانه، فيبني على هذا ((القدر من العلم)) بمستواه خطوة جديدة لاحقة لتطوير قدراته على إتقان الخبرة التربوية التي يسعى إلى الوصول بها إلى الكمال النهائي.

***

ثامناً: مبدأ الاقتران بين الخبرات التعليمية

وهذا المبدأ هو أيضاً من المبادئ التربوية التي يتم اكتشافها عادة عن طريق الملاحظة الدقيقة والخبرة التخصصية للباحث، فالإتقان بين حالاته يتم في سياق الترابط والاقتران بين مستويات من الخبرة التعليمية الواحدة، وبينها وبين خبرات جديدة تتكون بالممارسة

وبانتباه المتعلم وتركيزه، والتأمل فيه بنظرة ثاقبة.

ونعود من جديد إلى قوله عليه أفضل الصلاة والسلام فيما سميناه بنص «الإتقان»، حيث قال: «علم الناس، وتعلَّم علم غيرك، تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم».

ويلحظ الاقتران بين نوعين من الخبرات التربوية، فالتعلم يقترن بالتعليم، تعلم من المتعلم، ونشاط تعليمي يقوم به الشيخ، الأستاذ، العالم، المعلم، وفي سياق العلاقة بين عمليتي التعلم والتعليم يتم الاقتران بين الخبرة المتقنة وبين الخبرة الجديدة، ذلك ارتباط مقدمات ونتائج، ويترتب عن هذا الاقتران ارتباط بين ما أتقن في موقف سابق بما يتقن في موقف لاحق، لهذا يمكن القول: إنَّ هناك ارتباطاً واقتراناً بين مستويات الخبرة التربوية الواحدة التي يتم تعلمها بين مستوى سابق ومستوى لاحق ، فإذا ما قام الفرد بتعليم الناس، وتعلَّم – في الوقت نفسه – علّم غيره، وإذا ما كان قد بلغ نسبة إتقان أقل لخبرة تعليمية معينة فإنه بالممارسة المعززة تزداد نسبة هذا الإتقان في موقف تعليمي لاحق، وبذلك يكون هناك مستوى لاحق من الإتقان قدره (٨٠ ٪) مرتبط بمستوى سابق من الإتقان قدره (٧٠ ٪)، وهكذا تترابط مستويات الإتقان للخبرة التربوية الواحدة، وتقترن أجزاؤها المتأخرة بالأجزاء المتقدمة حتى توشك أن تبلغ نسبة الإتقان بصورة تصاعدية (١٠٠ ٪).

وتوحي هذه العلاقات الاقترانية المستمدة من نص «إتقان التعلم»بنتائج إيجابية تصنع حالة من التغير في أداء الفرد من مستوى أقل إلى مستوى أعلى تنتهي بأمرين:

معرفة الفرد نسبة «ما أتقنه» من مستويات الخبرة التربوية، ونسبة ما «لم يتقن»، ومتابعة ذلك حتى الإتقان الكامل.

تعلم خبرة جديدة.

تاسعاً: مبدأ التدرج في تكوين الخبرة

كما تقدم فإن المصادر التي ذكرناها نوهت بوجود نصين لهما علاقة بعملية نمو الأفراد وانتقالهم من مرحلة الصغر إلى مرحلة الكبر، واكتفى النصان بمعناهما الإجمالي دون تفاصيل، وتركا لنا التفاصيل مجاراة لظروف حياتنا ومثيرات بيئتينا الداخلية والخارجية، حيث ذكر الإمام في نصيه لتوجيه أبنائه وأبناء أخيه الحسين أنهم أبناء «صغار قوم»ويوشك أن يكونوا غدا «كبار قوم» على وفق قواعد النمو الإنساني المعتاد، وذلك كما أشارت إليه عملية النمو النفسي من مرحلة الطفولة بمراحلها المتفرعة إلى مرحلة الكبر، وأحكام التكليف الشرعي بمراحلها الفرعية الداخلة في نطاقها، وهاتان المرحلتان يتفرع عنهما مراحل نمائية صغيرة، وتشهد تغيرات نمائية تساعد تدريجياً على معرفة مستويات النضج في حياة الأفراد، وفهم طبيعة هذه التغيرات، وتفسر لنا كثيراً من أوجه الشبه والاختلاف بين الناس حتى في شخصية الفرد الواحدة من مرحلة سابقة لمراحل لاحقة.

ومما يلحظ أن جوانب النمو المختلفة للفرد تشهد في حركتها تغيرات بطيئة حيناً وسريعة حيناً آخر من مرحلة إلى مرحلة أخرى، لكنها بوجه عام تخضع في الموقف التعليمي الذي يعنينا في هذا المبحث لمجموعة مبادئ ومن أهمها مبدأ التدرج، و يمكن تحديد معناه بأنه توزيع جهد المربي والمتعلم، وتوزيع الموقف التعليمي إلى خطوات متتابعة يبدأ فيها الفرد بتعلم الخطوة السهلة وإتقانها،ثم ينتقل لما بعدها التي تحتاج إلى جهد أكبر، وهكذا ينتهي المتعلم إلى الخطوة الأخيرة الأكثر صعوبة وتعقيداً، فيكون إتقانها أمراً هيِّناً، فالتدرج في حد ذاته توزيع منظم للجهد والأداء وفحص نتائج الأداء التعليمي، فيسهل على الفرد المتعلم اكتساب الخبرة على خطوات تسير من خطوة أسهل إلى خطوة أشد وأكثر صعوبة.

وأول خطوات التعلم التدريجي أن يهيئ المعلم سيكولوجيَّة تلميذه للتعلم أولاً إذا ما اكتشف تعثراً في استعداده ورغبته في التعلم، وينشِّط قدر المستطاع قابلية المتعلم من خلال تكوين اتجاه إيجابي لديه بقبول التعلم، وترسيخ أهميَّته في ذهنيَّته باستخدام المحفزات المادية والمعنوية وتكوين العلاقات الحسنة بينه وبين تلميذه، ومن الضروري أن يقترن بهذه التهيئة النفسيَّة تكوين استجابة مضادة تجعل المتعلم ينفر من الجهل، ثم ينتقل المعلم بتلميذه إلى خطوة ثانية يكون فيها الموقف التعليمي متكافئاً مع وسع المتعلم وطاقته الذاتيَّة ويتناسب مع «قَدْرِه العقلي»، وبعد ذلك يترك المتعلم في موقف تعليمي أكثر صعوبة، ويراقبه، ولا يتدخل فيه إلاَّ بالنصح والتوجيه والإرشاد، وتعيين أخطائه، وتحديد المسارات الصحيحة لكيفية اكتساب المعلومات أو التدرب على إتقان المهارة الجديدة، أو كيفية التخلص من عادة سيئة تمهيداً لإحلال عادة حسنة مرغوبة لدى المتعلم.

إنَّ تدرج الفرد في تعلمه لأشكال التدريب خطوة خطوة يشبه ما يجري في عملية النمو النفسي للكائن الآدمي، فكل جانب من جوانب هذه العلمية ـ كالنمو الجسمي مثلاً ـ يسير على وفق نظام ترتيبي واحد يبدأ من الخاصيَّة النمائية الأقل سهولة، وينتهي عند الخاصيَّة النمائية الأكثر صعوبة، لاحظوا كيف يمشي الطفل وحده معتمداً على نفسه، وكيف تستقر اللغة لديه؟ يفعل ذلك على وفق تسلسل نمائي متدرج كما في توصيَّة الإمام الصادق عليه السلام، وهذا هو منطق الحياة.

إنَّ الطفل مثلاً يجلس مستنداً إلى غيره ثم يجلس وحده دون مساعدة، وقبل أن يمشي معتمداً على نفسه، يتعلَّم الوقوف بمعونة غيره أو مستنداً إلى شيء كجدار أو حائط، وبعد ذلك يقف وحده بصعوبة وعدم توازن تام، ولكنه بين عثراته التي يقع

فيها خلال عملية المشي يتمكن من المشي وحده وعلى نحو طبيعي، ومعتمداً على نفسه.

وفي جانب نموه اللغوي يبدأ تعلمه للغة بالمناغاة، ثم ينطق أحرفاً ومقاطع صغيرة ومحدودة من كلمات، ثم ينطق كلمة واحدة، فكلمتين، ثمَّ ثلاث فينطق كلمات بابا وماما، ويظل فيما بعد يردد الأصوات المصاحبة لعملية نطقها، ثم يتكلم بعد ذلك عددا أكبر من الكلمات تدريجياً حتى تستقر اللغة لديه في نهاية السنة الرابعة أو منتصف الخامسة أو نهايتها.

وهكذا يكتسب الفرد خصائصه النمائية شيئاً فشيئاً بدءاً من نقطة الصفر حتى يبلغ الإتقان مداه الكامل، ثم لا يغيِّر تكرار التعلم من مستوى الأداء، وإنْ أتيحت له فرصة صغيرة تعلم جديدة لخبرة جديدة، فالتدرج بأداء المتعلم إذن هي قاعدة المشرع الإسلامي في تكوين الاستجابة السلوكيَّة سواء في عمل عبادي مباشر بين المتعلم وربه كالتدرج في تعليمه ((الصلاة، أو في مهارة أخرى كالرماية والسباحة والاستئذان في الدخول على الغير)).

لاحظ النص الإسلامي السابق[1] كيف يتدرج بالمتعلم في تدريبه على الصلاة، فيبدأ بنطق الشهادتين والتدرب على لفظهما خلال السنة الرابعة، ثم يتدرب بعد ذلك على نطق جملة «اللهم صل على محمد وآل محمد» ويترك لنهاية الخامسة من عمره ليدرب نفسه على التمييز بين الجهات.. يمينه وشماله مثلاً، وبعد أن يعرف ذلك يوجهه المربي (والده، معلمه، إنسان آخر) نحو جهة القبلة ويدربه مباشرة على الركوع والسجود والمهارات الحركية للصلاة.

فإذا أتمَّ الطفل السادسة صلَّى وعُلِّم الركوع والسجود، ويظل كذلك حتى يبلغ

(١) الطبرسي، مكارم الأخلاق ص ٢٢٢.

السابعة فيدرب على كيفية الغسل للوجه والكفين، ويقال له مباشرة «صلِّ» ويعلم الوضوء كاملاً ثم الصلاة كاملة ويؤدب عليهما.

إنَّ المشرع طلب ـ هنا ـ تكرار التعلم والتدرج به من خطوة أقل لخطوة أكبر على وفق تدرج في الزمن، وعلى وفق مراحل النمو التي يمر بها المتعلم حيث تتغير أشكال التدريب بتغير سن المتعلم وبتغير قدراته، وبدخوله عمراً جديداً، هذا مثال في مجال معيَّن ينطبق على كل المجالات.

فالمربي ـ أقصد الوالدين خاصة ـ يعلّم الطفل على عادة الاستئذان حينما يريد الدخول عليهما، فإذا كان غير بالغ فيؤدب على الاستئذان ثلاث مرّات ذكرها النص القرآني رقم ٥٨ ـ ٥٩ من سورة النور، ولكن بعد بلوغه الحلم يستأذن في كل وقت، ومن ثم فالتدرج في الفعل متوقف على تدرج في النمو النفسي والعقلي كذلك، وكما يتدرج المعلم بالمتعلم في بناء عادة دينيَّة أو سلوكيَّة فإنَّ هذه القاعدة هي نفسها قاعدة تعلم المهارات الأخر في كل مجالات المعرفة سواء أكانت شرعيَّة أم كونيَّة أم رياضيَّة أم عسكريَّة أم اجتماعية، فالفرد المتعلم يبدأ بتعلم أسهل المهارات حتى يتقن أصعبها في مراحل آتية:

ويراعى في التدرج:

١ـ فكرة الإتقان المرتبطة إلى حد كبير بالتدرج، ومتأثرة به.

٢ـ ينظر كذلك في التعلم المتدرج إلى مسألة الفارقيَّة بين الأفراد، فلا يعطى كل المتعلمين الخطوات والأساليب نفسها ما داموا غير متساوين في الخلقة، والقدرات والظروف، وخصائص التكوين السيكولوجي للمتعلم، ولا ينبغي للمعلم أن يغفل عن مخاطبة الناس على قدر عقولهم؛ فإن الله سبحانه يؤاخذ عباده على « قدر ما أعطاهم

من عقول» وهي طاقات فطرية خلقوا بها منذ لحظة تكونهم وولاداتهم، لذلك يجب أن يكون المعلم متفهماً لخصائص كل متعلم على حدة، وحين يتعذر ذلك تخضع كل جماعة متقاربة في قدراتها العقليَّة وخصائصها النفسيَّة لعدد من أساليب التعلم والتدريب المتماثلة.

٣ـ وينبغي أيضاً أن يدرك المربي، هل أنَّ التعلم لموقف جديد جاء على أنقاض تعلم عادة خاطئة يود تحرير نفسه منها، أو أنَّ هذا التعلم موقف جديد لم يتعلمه من قبل، وبعبارة أخرى هل التعلم لتعديل سلوك خاطئ، أو لإضافة خبرة جديدة؟

وقبل أن أنتهي من هذا الإيضاح أشير إلى وجود علاقة بين التدرج والتعلم بالاستبصار، وإدراك الموقف التعليمي كخبرة متكاملة، فعندما يرغب الفرد في تعلم مهارة الكتابة على شاشة جهاز الحاسوب، فعليه أن يبدأ أولاً بتعلم أساسيات هذا المهارة، كتعلم قاعدة الارتكاز وكيفية استخدام المهارات المتصلة بها، ثم يبدأ بعد ذلك في إدراك التفاصيل الجزئية لتعلم مهارة استخدام جهاز الحاسوب في إنتاج برامج تعليمية[١]».

***

ذلك ما عناه النصان للإمام الحسن السبط بن علي في مضمونهما العام عن النمو التدريجي للفرد في جوانب أساسية من شخصيته في انتقالها النمائي التصاعدي من مرحلة سابقة إلى مرحلة تالية، بحيث يتحقق قوله وهو يصور نمو الأفراد بتحولهم من مرحلة « صغار قوم» في مرحلة سابقة وفي زمن ماضي إلى أن يكونا « كبار قوم» آخرين في زمن لاحق.

(١) ينظر كتابنا «التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية» ص ٣١٤ – ٣١٨.

يقول عليه السلام لبعض ولده في النص الأول:

«يا بني وبني أخي، إنكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته[١]».

وقال الإمام الحسن عليه السلام في نص مماثل: «**تعلموا العلم فإنَّكم صغار القوم وكبارهم غداً، ومن لم يحفظ منكم فليكتب[٢]**».

وهناك مجموعة أفكار أساسية في النصين نذكر بعضها كما يأتي:

إشارة النصين التربويين الواضحة لعملية النمو النفسي للأفراد وانتقالهم من مرحلة الصغر إلى مرحلة الكبر، وبينهما مراحل صغيرة متفرعة عنهما تشهد تغيرات نمائية في جوانب متعددة من شخصية كل فرد يمر في نموه بالمراحل الأساسية والمراحل الصغيرة المتفرعة عنها أو الداخلة في نطاقها.

وأن حركة هذا النمو تتم بصورة تدريجية كما تقدمت الإشارة في جوانب الشخصية المتعددة كي تتآزر فيما بينها، وتؤدي إلى تكوين شخصية متكاملة.

أن النصين شدد فيهما الإمام الحسن الزكي عليه السلام على التعلم «المبكر»، فالحديث الحسني الكريم كان موجهاً لأفراد صغار هم كما قال: «صغار قوم»، وأنهم يصبحون بمقتضى القوانين الإلهية في النمو النفسي سيكونون «كبار قوم» في زمن لاحق، وأنه يجب أن يقبل الصغار عليه مبكراً كي يرسخ ويثبت في الذاكرة.

يخضع «التعلم»وحفظه وروايته وكتابته لمبدأ التدرج، بحيث يتم تعلمه تدريجياً

---

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٨.

(٢) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٣١

ويحافظ عليه بإمكانيات جديدة متفاوتة من مرحلة إلى أخرى.

إن التوجيه التربوي حسني لمجموعة الصغار من أبنائه وبني أخيه الحسين عليهما السلام تجاه «قضية التعلم والتعليم المبكر للصغار» هو تركيز القناعة الداخلية لديهم بأن التعلم هو واجب ديني على الأفراد.

إن أدوات تداول التعلم كـ (أداء)، ونقله ليست بالضرورة واحدة، فقد ذكر النصان في دعوتهما للاهتمام بالتعلم والتعليم آليات حفظ العلم وتداوله، وقد حدد الإمام الحسن عليه السلام في توجيهه آليتين لحفظ العلم وتداوله هما «حفظه أو روايته كآلية أولى، والآلية الثانية هي كتابته»، لهذا قال عليه السلام: «**فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته**».

إنَّ الإمام الحسن الزكي بن علي عنى من «الحفظ» حفظ النصوص الدينية كالآيات القرآنية وأحاديث النبي والمعصومين عن ظهر قلب أو روايته للناس ونشره مع شروحاتهم بالطريقة ذاتها.

ذكر الإمام الحسن بن علي عليهما السلام عنصر المكان ودوره في حفظ «العلم»، فآلية حفظه الثانية وهو كتابته إنما تتم في البيت سواء كتابة النصوص الدينية ذاتها أو كتابة شروحات المعصومين وناقلي الروايات في البيت، وهكذا لا يكفي الاعتماد على حفظ العلم بروايته عن ظهر قلب لأن حامليه ورواته يموتون ويتناقصون، وهذا بالتأكيد يؤثر سلباً على حفظ العلم وروايته ما لم يتمكن حملته من البقاء وتكاثرهم، ولا بد من اعتماد «حفظ العلم» بالكتابة اليدوية، وتداول صحفها جيلاً بعد جيل من عصر سابق إلى زمن لاحق.

أن آليتي الحفظ.. الرواية بحفظ العلم عن ظهر قلب أو كتابته في صحف لا تترك

أثرها على هؤلاء الصغار، بل تسري فائدتها على أجيال متعاقبة.

***

عاشراً: مبدأ «التعليم الإلزامي»

قد لا نجد أحياناً نصاً مباشرة على دعوة الإمام الحسن الزكي إلى إلزامية التعليم كمبدأ تربوي والالتزام به في حياة الناس، وليس صعوبة عثورنا على نص يدعو إلى التعليم الإلزامي تعني بالضرورة عدم توافر نص في هذا المجال وعدم اهتمام الإمام الحسن به، فكثير من أفكاره، وآراء أئمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام مغيَّبة تماماً في مصادر نجهلها، ونجد صعوبة في الوصول إليها، أو نصوص تم هُمّشت وأُهملت تماماً بسبب التدليس والتعتيم الثقافي، وتعمد عدم إتاحة فرصة نشر فكر أهل البيت وثقافتهم.

وإذا لم نتمكن بعد من التوصل لنص واحد للإمام الحسن الزكي يحدد تأكيده على هذا المبدأ التربوي الكبير فإنَّ ثمة نصوص نستطيع استنباط دعوته بطريقة غير مباشرة على مبدأ التعليم الإلزامي، ولهذا اضطررنا للنصوص التربوية غير المباشرة لاستخراج موقف نظري وتطبيقي للإمام الحسن من مبدأ «إلزامية التعليم» الذي يجد له مساحة كبرى في النصوص التربوية والتعليمية للمشرع الإسلامي.

إنَّ كلمات متناثرة في تراث الإمام الحسن عن العقل، والتفكر وديمومته، والعلم والتعلم، وحفظه وروايته للناس، ومخالطة العلماء تستبطن موقفه عليه السلام من مبدأ التعليم الإلزامي، وبمراجعة النصوص التي أثبتناها في صدر هذا المبحث نستطيع أن ننسجَ خيوط موقفه من هذه المسألة، فمضمون بعض أحاديثه عن العقل والتفكير والعلم وحفظه وروايته ودعوته لمخالطة العلماء والاندماج بيآتهم العلمية والتربوية تعزز إيماننا

بموقفه الإيجابي من «التعليم الإلزامي» كمبدأ تربوي سليم.

إذا كان قد صعب علينا العثور على نصوص تربوية تؤكد إيمان الإمام الحسن السبط بمبدأ «التعليم الإلزامي»، وتفتقر في سياقاتها الداخلية إلى «كلمات وعبائر وجمل مباشرة» كالقول على سبيل المثال في نصوص أو مقاطع منها: (أوجب الله العلم عليكم أو عبارة فرض الله عليكم العلم والتعلم)، وعبارات مماثلة تدل على الوجوب، وكان من الصعوبة استنطاق مضامين نصوصه في المجال التعليمي للتعرف على موقفه بطريقة مباشرة من مبدأ «التعليم الإلزامي»، لهذا لم نجد فكاكاً من البحث في النصوص التربوية لتحديد موقفه بطريقة غير مباشرة من مبدأ «التعليم الإلزامي» وتحديد نظرته من وجوب العلم والتعلم والتعليم.

ونشير مسبقاً إلى أن عبارات الإمام الحسن الزكي عليه السلام التي عرضناها في بعض نصوصه التعليمية عن المبادئ التربوية الأخرى المنمية للسلوك التعليمي وحركته، وناقشنا بعضها في سياق هذا المبحث كانت كافية لمعرفة موقفه من إلزامية التعليم وتأكيد إيمانه بهذا المبدأ إلاَّ أننا سنضطر لتعزيز ذلك بنصوص أُخر.

إن الإمام الحسن بن علي عليه السلام على وفق أغلب النصوص المتوافرة بين أيدينا الآن في شأن العلم لم يقل كلمات ((يجب، أوجب، فرض الله، وكلمات مماثلة))، ولكنَّ استخلاص رؤيته في هذا المجال غير المباشرة توحي بإيمانه القوي بمبدأ التعليم الإلزامي، وثمة صيغ تعبيرية تتناغم مع هذا الاعتقاد الديني – التربوي، وسنمر على هذه الإيحاءات التعبيرية من نصوص أشرنا إليها، ومن نصوص أخرى معززة لها، ونعتقد أن صيغ التعبير عن هذا المبدأ في خطاب الإمام الحسن بن علي عليهما السلام تتراوح بين الأمر، والتحفيز والتشجيع، والاستثناء، والتعيين أو التحديد.

والآن ما هي الصيغ التعبيرية؟.

١. صيغة الأمر بالعلم والتعلم

وقد لمسناه في بعض النصوص الذي تضمنت بصيغة الأمر، وتوجيه الناس نحو التعلم بنحو أشبه بالأمر الديني الملزم، ونجد ذلك في بعض العبارات والكلمات مثل قوله: «**تعلموا العلم فإنَّكم صغار القوم وكبارهم غداً، ومن لم يحفظ منكم فليكتب**[١]»، وقوله: «يا بني وبني أخي، إنكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته[٢]»، وفي قوله عليه السلام الله تعالى: «**علم الناس علمك، وتعلم علم غيرك، تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم**[٣]».

وبتأمل النصوص الثلاثة التي مررنا بها في أكثر من موقع من المبحث نجد تأكيده الثابت على دعوة دينية نحو التعليم وتوجيه الناس نحوه بدافع الإلزام الديني لهم، فقوله في النصوص الثلاثة المتقدمة: «**تعلموا العلم**»، وقوله «**فليكتب**»، و«**ليكتبه في بيته**»، وقوله «**علِّم الناس، وتعلَّم علم غيرك**» هي صيغة بالأمر، وتنطوي على إلزام ديني بالعلم وكونه فريضة عبادية.

٢. صيغة التحفيز والتشجيع

جاءت بعض النصوص مشجعة على التعلم ومحفزة للناس، ومن ذلك ما قاله محفزاً على العلم والتعليم: «**من أكثر من مخالطة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما**

(١) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٣١

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٨.

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١١١، كلمة الإمام الحسن ص ٦٨، وكتاب الروائع المختارة للسيد الموسوي ص ١٣١، وكتاب ميزان الحكمة، ج٦، ص ٤٧١

رتق من ذهنه، وسرَّه ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم وإفادة لما تعلم[١]»، وفي قول آخر للإمام الحسن الزكي عليه السلام وهو يحدد الحقوق العامة: «**أما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر عن خدمة أمتك**[٢]»، ومما هو مؤكد أن التعلم حق عام من حقوق الأحياء، وخدمة اجتماعية للأمة وواجب ديني، ويجب إعطاء الأفراد الأحياء حقهم في التعلم وحقوق أخرى كالحرية والصحة والعمل والأمن وغيرها من الحقوق التي كفلها الدين للناس.

٣. صيغة التوكيد

في الصيغتين السابقتين أمر وتشجيع، ولكننا في الصيغة الثالثة توكيد على الالتزام بالتعليم في مراحل العمر كلها، ودعوة صريحة للناس ومنهم المسلمون في المقام الأول بأنهم ملزمون بتعلم الدين وأحكامه وتعلم العلم في مجالات الحياة.

ومن النصوص في هذا القبيل التي نفهم منها تأكيده على التعلم والتفكر قوله عليه السلام: «**عليكم بالفكر فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة**[٣]»، فهذا النص تعبير واضح عن تبني الإمام الحسن الزكي بن علي النظرة العبادية من العلم والتعلم التي تؤكد إلزامية التعلم، كما أن ينطوي على تحفيز وتشجيع على ممارسة التفكير، يقول عليه الصلاة والسلام في نص يؤكد فيه على ديمومة التفكير والتأمل العقلي: «**أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكر، فإنَّ التفكر أبو كل خير وأمه**[٤]».

وقول آخر: «**عليكم بالفكر فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة**».

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٥، ص ١٣٤.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٧ ص ١٣٤
(٣) الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٣٨.
(٤) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٢٩.

٤. صيغة النهي

ونقصد نهي الإمام الحسن بن علي عن رذيلة الجهل، وقد تأكدنا من ذلك في الصيغ الثلاث المذكورة، فأّمر عليه السلام بالعلم كفضيلة أخلاقية وقيمة إدراكية، وحفز عليه وشجع الناس، وأوجبه بصيغة «التوكيد» الواردة في بداية النص الأخير «**عليكم بالفكر فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة**»، وهذا نهي بطريقة غير مباشرة عن الجهل والتقاعس عنه، وقال عليه السلام: «**لا تأتِ رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله، أو تخاف يده، أو تستفيد من علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه**[1]».

***

الحادي عشر: مبدأ الانفتاح على تجارب الآخرين

تستوجب العملية التعليمية – التعلمية بجميع جوانبها جهوداً وأدواراً وعلاقات واسعة داخل المؤسسة التعليمية وخارجها تتسم بالانفتاح على الآخرين، فهي علاقات بين أفراد يتبادلون أدواراً ومواقف عمل في بيئة تربوية تحاول صنع حدث أو تحسين أداء أو تكوين مهارات لدى جميع الفاعلين في الموقف التعليمي، فالتعلم يكون أحياناً في نطاق الفرد الواحد، ويسمونه بالتعلم الذاتي، ولكنها في أحيان لا تتم إلا بعلاقات مع طرف خارجي كعلاقة المعلم بتلميذه أو العكس، وعلاقة بالكتب المدروسة، والمكان الذي يدرس فيه.

وفي سياق هذه العلاقات تتحقق الأهداف التعليمية وتتم بواسطة جهود العاملين في العملية التعلمية – التعلمية، والانفتاح على بعضهم، والإفادة المتبادلة – كل بحسب طاقته – من التجارب المفيدة، فالعلم كما يقول الإمام علي علم مستفاد، وهي عملية

(١) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٣٢.

تعلم من الآخر وتعليم للناس كما ذهب في ذلك أبو محمد الإمام الحسن الزكي عليه السلام، فعندما يقول الإمام عليه السلام في نص سابقه: «**لا تأتِ رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله، أو تخاف يده، أو تستفيد من علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه**» إنما أكد الإمام الحسن فيه وجود علاقات منفعة متبادلة بين الأفراد والجماعات ومنها الجماعات التعليمية، فالمرء يأت غيره للحصول على نواله أو عطائه وإمَّا خوفاً منه، أو للإفادَة من علمه أو رجاء بركة دعائه أو لصلة رحم.

كما أن قوله: «**ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم**[1]»يفيد في معناه العام بتبادل تجاربهم بالمشورة والتأكيد على تحقيق الهداية في المعالجة والحلول، فهذا الاسلوب الحواري الجماعي ينتهي إلى إنضاج العقول وصقل التجارب بينهم.

وكذلك فإن مبدأ الانفتاح على الآخرين يتجسد في دعوة الإمام الحسن عليه السلام لمخالطة العلماء وحضور مجالسهم بغرض تنمية قدراتهم اللغوية والعقلية وتحسين العلاقات الاجتماعية وتطويرها، فـ «**أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**[2]»، وقول الإمام الحسن عليه السلام: «**رأس العقل معاشرة الناس بالجميل**[3]»، ونصوص النمو النفسي من الصغر إلى مرحلة الكبر، والتعلم والتفكير مع الذات ومع الآخر، والمشاورة التشاركية، وإتقان التعلم وتعلم خبرات جديدة لا تحدث إلاَّ في سياق علاقات منفتحة بين الفرد والآخرين في عالمه الاجتماعي والتعليمي بوجه خاص.

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٨، الروائع المختارة ص ١٢٦

(٢) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٣٤

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ١١١، كلمة الحسن ص ٦٣، ٢٠١، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، ص ١٣١، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ٤٣٤.

وثمة أقوال تدل على علاقة منفتحة بين الأفراد كقوله عليه السلام في نص تربوي سابق الذكر هو قوله: «**إنَّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير مذهبه، وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به، أسلم القلوب ما طهر من الشبهات**[١]»، وجاء عنه قوله عليه السلام: «لا يغش العاقل من استنصحه[٢]»، وقال الإمام الحسن عليه السلام: «**حسن السؤال نصف العلم**[٣]، **ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة**[٤]»، فطرح الأسئلة ومدارة الناس في علاقات حميمية هي صور للعلاقات التعليمية والاجتماعية المنفتحة التي أكد عليها المشرع التربوي الإسلامي، وآمن بها الإمام الحسن في خطابه التربوي.

وكذلك قال الإمام الحسن بن علي عليهما السلام في مقطع من نص آخر يشير فيه للعلاقة المنفتحة والتفاعل بين الإفراد والآخرين: «**إنَّ أبصر الأبصار ما نفذ في الخير مذهبه، وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به**[٥]».

***

ثاني عشر: مبدأ «التعلم بالعمل»

ولهذا المبدأ التربوي عناوين وأسماء كالتعلم بالمشاركة، والتعلم بالطريقة الفعَّالة في التربية أو «التعلم بالممارسة العملية» أو التعلم بالتجربة، ونسميه نحن بمبدأ «تطبيق المعرفة» أو «تطبيق المادة المتعلمة» أو «التعلم بالتطبيق»، وبمقتضى هذا المبدأ يترابط

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، ص ١٧٠، كلمة الحسن ص ١٩٩، وكتاب الروائع المختارة ص ١٤٠.

(٢) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٤٢.

(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٨

(٤) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٤٢.

(٥) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، ص ١٧٠، كلمة الحسن ص ١٩٩، وكتاب الروائع المختارة ص ١٤٠.

الجانب النظري بالجانب التطبيقي كجناحين للعلم أو الترابط بين العلم والعمل، فكلاهما قرين للآخر ومكمل له، فالمتعلم يسترشد بـ «قواعد توجيه عملية» للتحكم بالسلوك التعليمي، وضبط حركة تعلم، كما أن التعلم النظري لا يبلغ مداه، ولا يحقق أهدافه ما لم يعزز بتطبيقات عملية، بل لا يستفاد من قيمته الفعلية بدون نجاحه في الميدان العملي، لهذا فإنَّ «التعلم بالممارسة العملية، والمشاركة الفعالة في عمليات التدريب المستمرة يكون أفضل وأسرع من التعلم الذي يقوم على أقوال نظرية أو التعلم الذي يقوم على مجرد نصائح أو توجيه نظري بعيد عن الممارسة العملية للسلوك المراد تعلمه[1]».

وعلى أرضية التوازن بين جناحي العلم (النظر والعمل) فإن النصوص التربوية الإسلامية تدعو في وحدة معرفية منظمة إلى ((العمل بالعلم، والعلم بالعمل))، وحذرت هذه النصوص من العمل بلا علم أو «العلم» بلا عمل، فكلاهما لا يحقق للذات المسلمة أغراضها في النمو والتربية وتنمية قدراتها العقلية وغيرها، فالعلم حركة «رشد» ضابطة للسلوك في مجالات الحياة بأسرها، و« ما زكا علم بمثل العمل» كما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام لأنه يكشف نجاحاته، بل ويسمو بالذات في حركة الحياة.

ولهذا المبدأ قيمته التربوية من حيث تثبيت التعلم واستبقائه بالعمل به ومقاومة ضموره، وأنه يساعد على تنمية القدرات العقلية، وحفظ الشخصية من الازدواجية وتناقض مكوناتها المعرفية والوجدانية والسلوكية، وتحسين أداء المتعلم ومعالجة حالات القصور كالنسيان وقلة الانتباه، وتعديل السلوك وصيانة الشخصية من غوائل الانحراف، ولهذا المبدأ دور أساسي في تأكيد الإحساس بالذات وقيمتها، وإثبات

(١) يوسف مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية ص ١٠٤.

إبداعها بعد تجاوز الفرد مرحلة الإتقان[١]».

وأهم نتائج العمل بهذا المبدأ التربوي الإسلامي هداية الفرد لعبادة الله وطاعته سبحانه وتعالى وإرضائه، والبحث المخلص عن تقدير إلهي كما حققه العبد من انجاز يستحق هذا التثمين، ولم يغفل الإمام الحسن بن علي عليهما السلام عن هذا المبدأ، فقد أشار إليه في أكثر من نص تربوي، فعندما تعرَّض عليه السلام للقرآن الكريم، وهو المصدر الأول لدى المسلمين في العلم بدينهم ومعارفهم العقائدية، قال عليه السلام:

«**ما بقي في الدنيا بقية غير هذا القرآن، فاتخذوه إماماً يدلُّكم على هداكم، وإنَّ أحق الناس منْ عمل به وإنْ لم يحفظه، وأبعدهم منْ لم يعمل به وَإنْ كان يقرأه**[٢]»أو «**يقرؤه** [٣]».

وتكمن استخلاصاتنا من النص المذكور التي يمكن توضيحها في نقاط جوهرية، وهي كما يأتي:

أن القرآن كتاب مقدس مهم في حياة المسلمين، وهو ذخيرتهم الروحية والعقائدية والأخلاقية والسلوكية في ترشيد حياتهم الدنيوية.

أن الإمام الحسن عليه السلام طلب من الناس في مجتمعه، وفي مجتمعات لاحقة على مدار التاريخ اتخاذ القرآن إماماً لهدايتهم.

دعا الإمام عليه السلام إلى العمل بـ «المحتوى التعليمي والتربوي والعقائدي والعلمي» للنص القرآني لا مجرد قراءته أو حفظه، وإنما الاسترشاد به كمنهج عمل، وبرنامج

(١) يوسف مدن، مصدر السابق ص ١٠٦، ٣٢٣، ٣٢٤.
(٢) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣.
(٣) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٤١.

هداية ربَّانية، وتوجيه مستنير لحركة الحياة.

أنَّ أحق الناس ارتباطاً بالقرآن الكريم من عمل بمعانية حتى وإنْ لم يحفظ آياته وسوره.

وأن أبعد الناس عن القرآن الكريم «من لم يعمل به وإنْ كان يقرؤه يومياً»، ولا يتفاعل مع معانيه بالعمل والتطبيق كما أراد الله سبحانه.

الحلقة الثالثة

الطرق التعليمية وأساليبها

عند الإمام الحسن عليه السلام

الطرق التعليمية وأساليبها عند الإمام الحسن عليه السلام

تعددت أساليب التوجيه التربوي في الخطاب التعليمي عند الإمام الحسن بن علي عليهما السلام بما يتفق مع فلسفة المشرع التربوي الإسلامي ومنهجه، وبما يجاري التجارب البشرية السليمة في المجال التربوي خلال تاريخها المتعاقب، وذلك على نحو يرضي الله سبحانه وتعالى، وقد لمحنا بين كلمات النصوص التعليمية وسطورها التي نسبها علماء الرواية أو الحديث لأبي محمد الإمام الحسن الزكي بعض أساليب التوجيه التعليمي وغايتها ضبط حركة المتعلم، وحاولنا في هذا المبحث حصر بعض ما نراه من «أساليب تعليمية – تعلمية» جمعها وانتقائها دعا الإمام الحسن بن علي عليهما السلام إلى استخدامها سواء كانت لغة هذه النصوص حديثاً مباشراً أو تضمنت دعوات ومعاني غير مباشرة تتيح للباحث جعلها أساليب توجيه تربوي للمتعلم، فهذه الأساليب هي جزء من خطابه التربوي بشكل عام، ويمكننا الحديث عن بعضها.

ومن هذه الأساليب:

١. طريقة حفظ العلم بالاستظهار

في نهاية أحد أحاديث الإمام الحسن الزكي عليه السلام قال لبنيه الصغار وبني أخيه من نظرائهم في السن: «**ومن لم يحفظ فليكتب**[1]»بعد أن أسدى لهم نصيحته الخالدة بـ «التعلم» منذ المراحل الأولى في الصغر، وفي حديث مماثل له في المضمون ومفرداته

(١) الروائع المختارة ص ١٣١

اللفظية مع تغيير هيّن في بعض كلماته قال عليه السلام: «**فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته**[1]»، وهنا يقصد حفظ العلم بالرواية أو بالكتابة اليدوية.

لقد تنبه عليه السلام في توجيه السابق على خطر يواجه دائماً المتعلمين ولاسيما في سن الصغر إذا لم يحفظوا علمهم الذي اكتسبوه بأدواتهم المتاحة في أي مدة من تاريخهم، ولفت عليه السلام أنظار صغاره وصغار أخيه الذين توجه إليهم بخطابه الذي هو وثيقة تربوية تاريخية بأنَّ «تعلم العلم» واكتسابه ليس كافياً، وإنما لا بد من حفظه، وبخاصة أنهم صغار قوم سيكونون في المستقبل كبار قوم، وأنه سوف سيضمر علمهم، ويتراجع مستوى ما تعلموه في الصغر ما لم يثبت هذا العلم ويرسخ في أذهانهم، وأمام هذا الخطر الداهم في نمو الأفراد ((خطر ضمور العلم)) ما لم يتداركوا أمر تثبيته وترسيخه فإنَّه عليه السلام اقترح عليهم في توجيهه بالنصين السابقين لحفظه بطريقين وهما:

أ ـ حفظ العلم بالرواية أو الاستظهار:

المراد بحفظ العلم روايته عن ظهر قلب واستعادة رواياته ودروسه عن ظهر قلب وقت الحاجة ونقلها وتداولها من جيل إلى جيل بعده، وقد استعمل الإمام الحسن في أحد النصين المتقدمين جملة «ومن لم يحفظ فليكتب» للإشارة إلى الطريقة التقليدية السائدة في البيآت التربوية منذ تاريخ طويل وهي طريقة حفظ الرواية عن ظهر القلب وإبقائها في الذاكرة، ثم استظهاره وقت الحاجة واللزوم، والميزة التي تنفرد بها هذه الطريقة المعتادة في التاريخ التربوي الإنساني أنها تبقى في ذاكرة الراوي والسامع الذي سيتحول بعد تكرارها لراوٍ آخر، وأن الراوي يستطيع استعادتها بالنص الكامل وبمضمونها حينما يريد، وعندما يتطلب الموقف التعليمي بطريقة سهلة وتلقائية في حديثه، وتتوقف رواية

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٨.

الرواية بموت راويها إلاَّ إذا قام الراوي بتدريب مقصود للآخرين ليقوموا بمهمة نقلها روايتها بحفظها واستظهارها شفوياً، وربما يكون «حفظ» العلم بهذا الطريق شائعاً في السنوات الأول من تاريخنا الثقافي الإسلامي، ثم بقي طريقاً يسلكه كثير من الرواة في القرون القابلة.

ب- طريقة حفظ العلم بالكتابة

وإذا لم يستطع المرء حفظ العلم واستظهاره قلبياً فهناك الطريقة الأخرى لحفظ الرواية والعلم، وهي كتابتها كما نصح بذلك الإمام الحسن الزكي في المقطعين النهائيين من النصين السابقين، حيث أمر عليه السلام بـ «الكتابة اليدوية» وترسيخ المادة المتعلمة في وثيقة مكتوبة، وعادة ما تكون الكتابة اليدوية في مجتمع الإمام إما بكتابة العلم في صحيفة، أو رقعة جلد، أو قطعة خشب مأخوذة من جريد النخيل، وإذا كان أحد النصين أمر بالكتابة دون تحديد مكانها فإنَّ النص الثاني قال ما لفظه: «فليكتبه في بيته» كإشارة إلى مكان التعلم والكتابة اليدوية للعلم، وميزة هذه الطريقة بقاء «الرواية» مكتوبة بعد موت كاتبها لأن الوثيقة المكتوبة لا تموت، وتظل محفوظة بيد الناس، وتتيح هذه الوثيقة المادية قراءتها بمجرد الاطلاع على الوثيقة المكتوبة، وهكذا يستمر العلم ويحفظ إما بروايته محفوظاً في ذاكرة المتعلمين والعلماء، ويستطيعون استعادة رواياته عن ظهر قلب أو كتابته باليد في وثيقة مادية (صحيفة ورقية، رقعة جلد أو غيرهما)، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «**اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا**» وجاء عنه أيضاً: «**احتفظوا بكتبكم فأنكم سوف تحتاجون إليها**» وقال للمفضل بن عمر: «**اكتب وبث علمك في إخوانك، فإن مِتَّ فأورث كتبك بينك فانه يأتي على الناس زمان هرج لا يأنسون فيه إلاَّ بكتبهم**[1]»، وهذا التأكيد معناه أنَّ النص المكتوب نشر للعلم والمعرفة التي يؤكد عليها

(١) القزويني، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، ص ٢٢٥-٢٢٦.

الإسلام وعلمائه وأئمته، ومنهم الإمام الحسن كما نص على ذلك في الحديثين المتقدمين.

***

٢. المواعظ والتوجيه الإرشادي

وهي التي يسميها علماء الأخلاق والإرشاد النفسي والسيكولوجيون بالطريقة الإرشادية لتقويم السلوك وضبطه وتعديله وتحسينه وتطويره، فهذه الطريقة تسمح للمرشد في أي موقع له كونه معلماً، مربياً، إدارياً، مسؤولاً جماعياً أن يتابع سلوك الأفراد وتقويم أدائهم، وإعطائهم كمسترشدين ما هم بحاجة إليه من مواعظ ونصائح وأفكار إرشادية هادفة، لأنها تتيح لهم المعرفة المسبقة بنتائج ما يفعلونه، ويمنحهم القدرة على إدراك نتائج أعمالهم في مواقف السلوك المختلفة سواء في موقف تعليمي أو أخلاقي أو تعامل اجتماعي أو موقف آخر، فعلى اثر تقديم هذه المعرفة الإرشادية وما تتضمنه من مواعظ فاعلة في إثارة الانتباه وإحداث حركة داخل الذات نحو التغيير وتعديل السلوك، فإدراك الفرد ما فعله من سلوك صحيح وما أخطأه، وما لم يتقنه له أهمية كبرى في تغيير القناعات الداخلية للأفراد، واستثارة الهمة الداخلية لهم في تحسين سلوكهم نحو الأفضل من خلال الاستجابة للموعظة أو النصيحة أو التوجيه الإرشادي ومحاولتهم التلاؤم معها.

فالمواعظ والنصائح والأفكار الإرشادية التوجيهية خطوة ضرورية لمعرفة السلوك وضبطه والسيطرة عليه والتنبؤ بحركته ومساراته المستقبلية والوصول به إلى معايير الصحة النفسية ومحددات النظرة العبادية الإيمانية التي يتبناها الإمام الحسن بن علي عليهما السلام في تراثه الأخلاقي والإرشادي القويم الذي يوافق رؤية المشرع الإسلامي.

إنَّ العملية الإرشادية بمختلف صيغها من نصائح ومواعظ وتوجيهات وأفكار

تنظيمية للسلوك تتيح للفرد تفهم نفسه، والتأمل في دوافعها وإمكانياتها، وإدراك بواعثها بنحو يساعد المسترشد على الإفادة من العون النفسي والفكري المقدم له من المرشد، مما يؤدي إلى تفهم الذات والاستعداد لتطوير قدراتها بما يرضي الله سبحانه وتعالى، وهو أمر مفيد في إحداث تعلم اجتماعي وأخلاقي جديد ينتقل فيه الفرد من مستوى أقل لذاته إلى مستوى أفضل.

ويمكن جعل كثير من النصوص التربوية،لاسيما كلماته القصار نماذج أو وثائق إرشادية يختزنها تراثه الفكري والأخلاقي ومواعظه القيمية، وما ذكرناه من نصوص الخطاب التربوي الحسني في مواضع متفرقة من هذا المبحث هو في حقيقته جزء من مواعظه وتراثه الإرشادي التوجيهي القيم لضبط عملية تعلم السلوك في مجالات عديدة سواء كان هذا التعلم في مجال مهاري أو في مجال اجتماعي أو حركة ووجداني.

ومن مواعظه ونصوصه الإرشادية :

«**يا ابن آدم: عف عن محارم الله تكن عابداً، وأرضّ بما قسم الله تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلاً**[1]، **إنه كان بين يديكم أقوام يجمعون كثيراً، ويبنون مشيداً، ويأملون بعيداً، أصبح جمعهم بوراً، وعملهم غروراً، ومساكنهم قبوراً، يا ابن آدم: لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فخذ مما في يديك لم بين يديك، فإنَّ المؤمن يتزود، والكافر يتمتع**[2]».

(١) ذكر العلامة المحقق الشيخ علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي كلمة « عدلًا » بدلًا مما جاء في هذا النص من قوله: «تكن عادلاً » أ انظر كتابه كشف الغمة في معرفة الأئمة ج٢ ص ١٩٩.

(٢) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢، ص ١٩٨ – ١٩٩، وكتاب كلمة الإمام الحسن ص ٤٥.

-ومن مواعظه كذلك قوله عليه السلام: «**يا ابن آدم ! منْ مثْلُك؟ وقد خلا ربُّك بينه وبينك متى شئت أن تدخل إليه، توضأت وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا بوَّاباً، تشكو إليه همومك، وتطلب منه حوائجك، وتستعينه على أمورك**[١]».

***

نماذج من المواعظ والوثائق أو النصوص الإرشادية

الرقم	نص الوثيقة الإرشادية (الموعظة)	المجال
١	**إنَّ من طلب العبادة تزكى لها**	الروحي
٢	**يا ابن آدم ! منْ مثْلُك؟ وقد خلا ربُّك بينه وبينك متى شئت أن تدخل إليه، توضأت وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا بوَّاباً، تشكو إليه همومك، وتطلب منه حوائجك، وتستعينه على أمورك**[٢]	الروحي - النفسي
٣	**أوصيكم بتقوى الله وإدامة التفكر**	العقلي
٤	**عليكم بالفكر، فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة**	العقلي
٥	**التفكير حياة القلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور**[٣]	العقلي

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٤٦.

(٢) الشيرازي ، كلمة الإمام الحسن ص ٢٤٦.

(٣) الأربلي ، كشف الغمة في معرفة الأئمة ، ج ٢ ، ص ١٩٩ .

٥	**الوعد مرض في الجود والانجاز دواؤه**	الأخلاقي
٦	**إن لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه مما تكره، فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى**[١]	الأخلاقي النفسي
٧	**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**[٢]	الاجتماعي
٨	قال عليه السلام: «**يا بني وبني أخي، إنكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته**».	النمو النفسي
٩	«**صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به**»[٣]، وفي روايات أخرى بنفس لفظ النص زيادة بقوله «**تكن عدلاً أو تكن عادلاً**».	العاطفي أو الوجداني
١٠	سئل عن السياسة فقال: «**هي أن ترعى حقوق الله، وحقوق الأحياء، وحقوق الأموات، فأما حقوق الله فأداء ما طلب والاجتناب عما نهى، وأما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر عن خدمة أمتك، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأمته، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوي، وأما حقوق الأموات فهي أن تذكر خيراتهم وتتغاضى عن مساوئهم فإن لهم ربّاً يحاسبهم**».	السياسي

طريقة التعلم بالأضداد.

لعل من أكثر الطرائق الإسلامية في التعلم بقسميه الوقائي والعلاجي طريقة العلاج النفسي بالأضداد، وفكرتها الجوهرية علاج الصفات بأضدادها، فيعالج البخل كسلوك مذموم بالسخاء والتسخي، والخوف والجبن بالشجاعة، واللؤم بالكرم والمروءة، والجهل بالعلم والمعرفة، والسفه بالحكمة، والكفر بالإيمان، وهكذا يعالج السلوك غير السوي بسلوك سوي، وتستبدل الرذائل بالفضائل، وقد شرحنا هذه الطريقة بشروطها وعواملها وأنماطها في كتابنا «العلاج النفسي وتعديل السلوك الإنساني بطريقة الأضداد»، ومما لاشك فيه أن هذه الطريقة أخذت موقعها في الخطاب التربوي والإرشادي للإمام السبط الحسن بن علي، فعلى سبيل المثال قوله عليه السلام:

«واعلموا علماً يقيناً، أنكم لن تعرفوا التقى حتى تعرفوا صفة الهدى، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه، ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرَّفه(٤)».

وقوله عليه السلام: **«إن لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه مما تكره، فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى(٥)».**

ونقل المحدث العلامة محمد باقر المجلسي في بحاره عن المبرد وابن عائشة أنَّ شامياً رأى الإمام راكباً، فجعل يلعنه، والحسن لا يرد عليه، فلما فرغ أقبل الحسن فسلّم عليه

(١) كلمة الحسن ص ١٩٩، والروائع المختارة ص ١٣٥.
(٢) الروائع المختارة ص ١٣٤
(٣) كلمة الحسن ص ٢٤٢ .
(٤) كلمة الحسن ص ٤٦.
(٥) كلمة الحسن ص ١٩٩، والروائع المختارة ص ١٣٥.

وضحك، ثم قال كنموذج على استخدامه لطريقة معالجة السلوك الخاطئ بضده، وفي موقف عملي للطريقة: «**أيُّها الشيخ أظنك غريباً، ولعلّك شبَّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإنْ كنت جائعاً أشبعناك، وإنْ كنت عرياناً كسوناك، وإنْ كنت محتاجاً أغنيناك، وإنْ كنت طريداً آويناك، وإنْ كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حرَّكت رحْلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعودّ عليك، لأنَّ لنا موضعاً رحْباً، وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً**[1]».

***

٣. طريقة توجيه الأسئلة

إثـارة الأسئلة وتوجيهها للناس لاسيما العلماء والمعلمين وأصحاب الفكر والبصيرة والحكمة طريقة سائدة في التاريخ التربوي الإنساني منذ مراحله الأولى، وقد استخدمها لا استثناء كل التجارب التربوية.. كبرى وصغرى.. على حد سواء، كما أنَّ الأديان السماوية وكتبها المقدسة لاسيما القرآن الكريم، بل وجميع المذاهب الدينية الوضعية كانت دائماً تستخدم طريقة طرح السؤال بأغراض متعددة كالبحث عن جديد أو حل معضلة أو إثارة انتباه الفرد ودفعه للتفكير في حل المشكلات والسعي للإجابة عن التساؤلات التي يطرحها العقل البشري، وتمتلئ سجلاتها الثقافية والروحية بكثير من الأسئلة في مجالات التفكير المتعددة.

وما تزال طريقة الأسئلة وإثارة إشكاليات العقل البشري لها حظ وافر وحضور كبير في التراث التربوي المعاصر ومدارسه المختلفة، بل إن مدارس علماء النفس التربوي والتعليمي ورجالات التربية قد بذلوا جهوداً كبيرة لتطوير هذه إمكانيات المربية في

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ١٩٢.

استخدام هذه الطريقة وجعلها فعالة في التربية الحديثة وبيآتها المتعددة.

وليست تجربة الإمام الحسن الزكي بدعاً عن الجهود البشرية وتجارب العلماء والمربين ورجال الفكر والمعرفة، فهو عليه السلام ينتمي لإحدى المدارس التربوية الكبرى في التاريخ الإنساني، فقد استخدم طريقة طرح الأسئلة وإثارتها ورد عليها لحل إشكاليات العقل وما يدور في داخله من غموض، وخضع الإمام بنفسه لتربية تعتمد طريقة الأسئلة لتربية الجانب العقلي من شخصيته الكريمة، وقد وجه والده إليه في نص تربوي إسلامي جملة من الأسئلة كان غرضها تحديد بعض المفاهيم المعرفية والأخلاقية واختبار قدرة الإمام الحسن عليه السلام في الإجابة عليها، بل أن بعض الباحثين يجدون في تراثه التربوي والمعرفي والروحي متعة نفسية وعقلية.

وتقول بعض مصادر دراسة السيرة الذاتية للإمام الحسن بن علي أنه عليه السلام كان يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، ويجتمع الناس حوله، فيتكلم بما يشفي غليل السائلين، ويقطع حجج القائلين[1]»، فهذا النص يتضمن مهمتين:

إحداهما التدريس في مسجد جده.

والمهمة الثانية الرد على أسئلة الجالسين، فمفاد النص المتقدم أنه عليه السلام «يتكلم» في مسجد رسول الله، وأنه بكلامه «يشفي غليل السائلين ويقطع حجج القائلين «يعني تصديه لعمليتي التدريس والحوار التعليمي والردود على تساؤلات بعضٍ ممن يحضر مجالس دروسه بمسجد جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه يملك القدرة الحوارية التي تقطع حجج القائلين ممن يسمعون دروسه.

وعلى الرغم من اهتمامات الإمام الحسن عليه السلام بالسؤال في تجربته التربوية وحياته

(١) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢، ص ١٦٩.

الشخصية والاجتماعية فإنه من الصعوبة تتبع نصوصه في هذا الشأن لأن ذلك قد يحتاج إلى دراسة مستقلة ومنفردة لا سبيل لهذا في هذا المبحث، لهذا فإننا سنقف على بعض النماذج من اهتمامه بالسؤال كطريقة تعليمية وآلية تربوية لتوليد المعرفة الصحيحة، ومعرفة الحقيقة وتأصيلها وتثبيتها في الواقع الإنساني.

يقول الإمام الحسن الزكي عليه السلام في نص قصير عن الأهمية التربوية للسؤال:

«**حسن السؤال نصف العلم**[١]».

وقوله كذلك: «**ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤونة**[٢]».

وقال عليه السلام في تعجب من سلوك بعض الناس الذين يُخِلُّون بالتوازن في إشباع الحاجات فيفرطون في إشباع بعضها ويفرطون في إشباع أخرى:

«**عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه**[٣]».

***

النص الأول: وهو قوله عليه السلام: «**حسن السؤال نصف العلم**[٤]».

هذه الكلمات الأربع هي المقطع الأول من نص مكون من ثلاثة مقاطع كما تقدم، كل مقطع يمثل جملة ذات معنى تربوي واجتماعي ومعيشي.

(١) كلمة الإمام الحسن ص ٦٨

(٢) الروائع المختارة ص ١٤٢.

(٣) كلمة الحسن ص ٥٠.

(٤) الأربلي، كشف الغمة، ج٢ ص ٢٠١.

يكشف الإمام الحسن الزكي بن علي عليه السلام في المقطع الأول، وهو ما يعنينا، عن القيمة العلمية – التربوية للسؤال في تنمية المعرفة والتفكير،حيث جعل منه «نصف العلم «كما يوضح النص التربوي السابق، فالنص في خطاب الإمام ليس غاية في ذاتها، بل هو وسيلة الباحث عن الحقيقة، ولا بد من جعله سؤالاً حسناً كي يتمكن من تحقيق أهدافه التربوية.، لهذا وصف الإمام عليه ((السؤال الجيد)) بأنه نصف العلم، ويستفاد من ذلك أن يتمتع السؤال بمواصفات سماها علماء النفس التربويّون بالسؤال الجيد أو السؤال الحسن، كما أنه يعكس الإمكانيات الفكرية للشخص الذي يثير السؤال.

فالنص التربوي الحسني المذكور في أعلاه لا يطالب بمجرد طرح أي سؤال، وإنما حدد لنا أهمية الطرح الجيد للسؤال ومواصفاته، وطالبنا بنوعية جيدة للسؤال كي تكون مادته علمية تمكن الباحث والسائل والمجيب من الحوار العلمي الذي يحقق ما وصفه الإمام الحسن بـ «نصف العلم»، وبلغة واضحة يجب أن يكون السؤال علمياً كي يكون نصف العلم، والإجابة عليه نصفه الثاني.

ونعتقد في ضوء تجربتنا التربوية ما يأتي:

١. أن الإمام أعطى السؤال أهميته التربوية والمعرفية ودوره في توليد المعرفة وتكوينها.

٢. أنَّ النص حدد أبرز مواصفات «السؤال الجيد» القادر على توليد المعرفة والفاعل في تنمية التفكير السليم بقوله: «حسن السؤال نصف العلم»، وقد وصف النص التربوي الحسني السؤال الجيد بأنه «نصف المعرفة» على وفق هذه المواصفات، وستكون الإجابة عليه نصفه الآخر، واتضح ذلك من قوله: «حسن السؤال نصف العلم «وبذلك يكون السؤال الجيد والإجابة الكاملة والصحيحة هي العلم الصحيح

والحقيقة المطلوبة.

٣. ويدخل في وصف «السؤال «بأنه نصف العلم مجموعة مواصفات تجعله سؤالاً جيداً يحظى بقيمته التربوية الفاعلة في تنشيط الفكر وتوليد المعرفة وحل إشكاليات العقل البشـري، ومن هذه المواصفات التي أراد الإمـام الحسن أن يكون السؤال «حسناً»، وهذا ما عناه علماء النفس التعليمي بـ «السؤال التربوي الجيد».

٤. إنَّ من مواصفات السؤال كي يكون «حسناً» بلغته كما في نصه التربوي المتقدم ذكره، وكي يكون جيداً بلغة علماء النفس التعليمي ما يأتي:

أ – الصياغة الجيدة للسؤال بنحو واضح لا يثير الحساسية.

ب– قدرة السؤال على طرح أفكار حوارية تشغل العقل وتثير الانتباه، وتجعل المشاركين في الإجابة عليه نشطة أشبه بخلية «نحل».

ج – أن يكون السؤال الجيد قصيراً ومحدداً، ومركزاً على موضوع معيَّن بعيد عن الشخصنة والحساسية الانفعالية.

د – أن يكون السؤال هادفاً لكشف المعرفة وتوليدها.

هـ – أن يكون السؤال موصولاً بفكرة منظمة حتى لا تكون الأفكار مبعثرة.

***

النص الثاني: يقول الإمام الحسن في نقد سلوك بعض الناس:

«عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه».

ونستخلص من النص الحقائق الآتية:

أن النص الحسني هو سؤال ناقد للسلوك الاجتماعي عند بعض الناس، والنص المتقدم – كسؤال تربوي – يثير الانتباه لدى الناس على وجود خلل في حياتهم الاجتماعية، وفي طريقة إشباع حاجاتهم، فبعضهم يبالغ في إشباع حاجته إلى الأكل والشراب بنحو أثار تعجب الإمام الحسن عليه السلام، حيث يفرط بعضهم في تلبية حاجة بطنه، ويفكر بإسراف في إشباع متطلبات مأكوله وشرابه، ويكاد إهمال متطلبات حاجاته العقلية والروحية.

أن الإمام عليه السلام استخدم السؤال للإثارة في اتجاه تغيير سلوك خاطئ وتعديله باتجاه سلوك إيجابي آخر، وهو التوازن في الإشباع بين تلبية حاجة العقل وتنمية قدراته أسوة بتلبية حاجة الإنسان للأكل والشراب.

كذلك استعمل الإمام الحسن عليه السلام سؤاله لإثارة انتباه الإنسان كي يربط بين الإشباع الخاطئ والسوي وبين نتائجهما في حياته، فقال: عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه»، ومعناه أن الإفراط في الإشباع لحاجات البطن له نتائج سيئة، وإن إهمال اشباع تلبية حاجات العقل نتائج سيئة أيضاً، ولهذا أراد أن يتمكن نصه التربوي المذكور من تحقيق مهمة توجيهية هي ((تعديل السلوك لدى الأفراد المفرطين في اشباع حاجاتهم)) بتحقيق توازن الاشباع لحاجات متعددة تلامس جميع عناصر الشخصية المتكاملة، وبالتفكير في اشباع الحاجات العقلية وكل ما هو معقول كتفكيره في كل ما هو ((مأكول)) بنسبة متعادلة لا غلبة فيها لطرف على الأقل.

النص كان في حقيقته سؤالاً للإثارة انتباه الفرد نحو خلل الإشباع بين حاجات البطن وحاجات العقل والتفكير، وتضمن هذا النص تحذيراً من الإفراط والتفريط في

الإشباع، فأراد بيان بأن الغاية من تعديل السلوك الخاطئ بسلوك بديل عنه هو: «تجنيب البطن ما يؤذيه» و «أن لا يودع صدره ما يرديه».

أنَّ الإمام الحسن عليه السلام باستعمال السؤال كإثارة كان هدفه محو طريقة سلوكية خاطئة مستخدمة في حياة بعض الناس، وهذا مقدمة لنتيجة هادفة هي «توليد معرفة جديدة «تستهدف في نهاية الأمر تصحيح الخطأ في حياتهم.

***

النص الثالث:

خضع الإمام الحسن بن علي عليهما السلام لتجربة تربوية في موقف تعليمي أشبه بعملية إعداد وتدريب وامتحان معرفي بأساليب متعددة منها تدريبه على الإلقاء وطرح الأسئلة والإجابة عليها، وقد روى الأربلي صاحب كتاب «كشف الغمة «أن أباه علياً بن أبي طالب عليه السلام قال لابنه الحسن عليه السلام: «**قم فأخطب لأسمع كلامك، فقام فقال: الحمد لله الذي من تكلم سمع كلامه، ومن سكت علم ما في نفسه، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه معاده، أما بعد فإن القبور محلتنا، والقيامة موعدنا، والله عارضنا، إنَّ علياً باب من دخله كان مؤمناً، ومن خرج عنه كان كافراً، فقام إليه علي فالتزمه فقال: بأبي أنت وأمي ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم**[1]».

وقد تم ذلك بطريقة طرح الأسئلة، وكان مجيباً عليها، ووالده سائلاً، وكانت نتيجة هذا اللقاء التعليمي تحديداً دقيقاً لمفاهيم معرفية يمكن استخدامها في ثقافتنا لفرز معاني روحية وتربوية وثقافية وتحديدها، وتدل هذه الطريقة الحوارية على نشاط طرفين، معلم سائل، ومتعلم مجيب، وقد أثنى الإمام علي عليه السلام على إجابات ابنه، وتكشف هذه التجربة

(١) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢، ص ١٩٨.

عن قدرة الإمام الحسن على الإجابة عن سلسلة من التساؤلات، وعن قدرته في أن واحد على «تحديد المفاهيم «بدقة في جانبيها اللغوي والمعرفي كما سيأتي بيانه، وبذلك تمكن الإمام الحسن في إجاباته من الربط السليم بين اللغة والفكر كما يقول علماء المنطق.

وفيما يأتي النص الحواري القيِّم القائم على السؤال والجواب، وهي طريقة تسمى في التربية الحديثة بـ «الطريقة الاستجوابية»، وهذا الحوار يمثل أنموذجاً للنص الحواري في هذا المجال، ولنتأمله كما جاء من مصادره الروائية المتعددة.

قيل له عليه السلام: ما الزهد؟ قال: **الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا**.

قيل: فما الحلم؟ قال: **كظم الغيظ وملك النفس**.

قيل: ما السداد؟ قال: **دفع المنكر بالمعروف**.

قيل: فما الشرف؟ قال: **اصطناع العشيرة وحمل الجريرة**.

قيل: فما النجدة؟ قال: **الذب عن الجار والصبر في المواطن والإقدام عند الكريهة**.

قيل: فما المجد؟ قال: **أن تعطي في الغُرم، وأن تعفو عن الجرم**.

قيل: فما المروَّة؟ قال: **حفظ الدين وإعزاز النفس ولين الكنف وتعهد الصنيعة وأداء الحقوق والتحبب إلى الناس**.

قيل: فما الكرم؟ قال: **الابتداء بالعطية قبل المسألة وإطعام الطعام في المحل**.

قيل: فما الدنيئة؟ قال: **النظر في اليسير ومنع الحقير**.

قيل: فما اللؤم؟ قال: **قلة الندى، وأن ينطق بالخنا**.

قيل: فما السماح؟ قال: **البذل في السراء والضراء**.

قيل: فما الشح؟ قال: **أن ترى ما في يديك شرفاً، وما أنفقته تلفاً.**

قيل: فما الإخاء؟ قال: **الإخاء في الشدة والرخاء.**

قيل: فما الجبن؟ قال: **الجرأة على الصديق والنكول عن العدو.**

قيل: فما الغنى؟ قال: **رضى النفس بما قسم لها وإنْ قلَّ.**

قيل: فما الفقر؟ قال: **شره النفس إلى كل شيء.**

قيل: فما الجود؟ قال: **بذل المجهود.**

قيل: فما الكرم؟ قال: **الحفاظ في الشدة والرخاء.**

قيل: فما الجرأة؟ قال: **موافقة الأقران.**

قيل: فما المنعة؟ قال: **شدة البأس ومنازعة أعز الناس.**

قيل: فما الذُّل؟ قال: **الفرق عند المصدوقة.**

قيل: فما الخرق؟ قال: **ماوأتك أميرك، ومن يقدر على ضرِّك.**

قيل: فما السناء؟ قال: **إتيان الجميل وترك القبيح.**

قيل: فما الحزم؟ قال: **طول الأناة والرفق بالولاة والاحتراس من جميع الناس.**

قيل: فما الشرف؟ قال: **موافقة الإخوان وحفظ الجيران.**

قيل: فما الحرمان؟ قال: **تركك حظك وقد عرض عليك.**

قيل: فما السفه؟ قال: **إتباع الدناءة ومصاحبة الغواة.**

قيل فما العي؟ قال: **العبث باللحية وكثرة التنحنح عند المنطق.**

قيل: فما الشجاعة؟ قال: **موافقة الأقران والصبر عند الطعان**.

قيل: فما الكلفة؟ قال: **كلامك فيما لا يعنيك**.

قيل: فما السفاء[١]؟ قال: **الأحمق في ماله، المتهاون بعرضه**.

قيل: فما اللؤم؟ قال: **إحرز المرء نفسه، وإسلامه عرسه**[٢].

***

٤. مشاورة «الجماعة» والمشاركة الحوارية الهادفة

دعا الإمام الحسن عليه السلام في أحد نصوصه القصار التي تعرفنا عليها في جملة نصوصه التعليمية المنظمة للسلوك الفردي والاجتماعي في حياة الإنسان إلى التشاور بين الأفراد وأعضاء الجماعات دون تحديد لنمط المشورة أو شكل الاستشارة، حيث قال الإمام الحسن بن علي عليهما السلام في هذا الشأن: «**ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم**[٣]».

***

المكونات المعرفية للنص

للنص أعلاه مكونات لفظية ومعرفية يمكن تحديدها في بعض العناصر التي استنبطناها من التركيبة اللفظية والعقلية الداخلية، وهي كما يأتي:

أولاً: المكون اللفظي:

(١) ربما المقصود من الكلمة « السفيه».

(٢) ابن شعبة الحراني، تحفة العقول عن آل الرسول، ص ١٦٢ – ١٦٣، وكشف الغمة في معرفة الأئمة « للعلامة علي بن عيسى الأربلي، ج ٢، ص ١٩٤ – ١٩٥.

(٣) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، ص ١٦٨، وكتاب الروائع المختارة لمصطفى الموسوي، ص ١٢٦

وهو ما يعرف في علم النفس التربوي بـ «القدرة اللفظية «التي هي إحدى القدرات العقلية الكبرى لدى الإنسان، ويبلغ عدد كلمات هذه القدرة كلمات سبع.

ثانياً: المكوِّن المعرفي:

وهو المحتوى الفكري للنص السابق، أي مادته الثقافية التي أراد الإمام الحسن عليه السلام تبليغها للناس وترسيخها في عقولهم وممارساتهم اليومية، وينطوي هذا المكون على عناصر فرعية متصلة مع بعضها، وهي كما يأتي:

١. وجود جماعة من الناس لم يحدد عدد أفرادها، وقد جاء النص بلفظ الحسني «قوم»، وهو تعبير قرآني أصيل عن جماعة متفاعلة، تؤثر في غيرها وتتأثر بهم.

٢. والعنصر الفرعي الثاني للمكون المعرفي هو «الدور «الذي تقوم به الجماعة المعبر عنها بلفظ «القوم» كما جاء في نص الإمام الحسن عليه السلام، وهو الفعل أو النشاط المتداول بين الجماعة في زمن محدد وفي مكان معيَّن.

٣. المادة الثقافية للمشورة: (أو المشورة ذاتها)، وتشمل الأفكار والطريقة التعبيرية وآلية التداول، وهي عبارة عن موضوع المشورة ومحتواها وآلية تداول أفكار محددة بين جماعة معينة أو قوم الناس حول موضوع معيَّن.

ثالثاً: المكون السلوكي أو التنفيذي:

وهو تنفيذ القرار الذي اتخذته الجماعة بعد تشاورها في موضوع معين، وهو كما ينبئ النص التربوي الحسني ((قرار رشيد)) ومسؤُول توصل إليه قوم أو نفر من الناس تحت ضمانة الحوار الجماعي، وهذا القرار تتخذه الجماعة نتيجة تداول جماعي بين المتشاورين في موضوع تمت مناقشته، وانتهوا إلى اتخاذ قرار وصفه الإمام الحسن بالرشد، ولم يحدد عليه السلام الشكل النهائي للقرار الذي عبر عنه محتوى النص بمقطع لغوي

واضح المعنى، وهو مكون من كلمات أربع تصفه بالقرار الرشيد والهداية، جاء المقطع: «**إلاَّ هدوا إلى رشدهم**».

***

٥. الحاجة إلى المشورة

بحسب التركيبة الآدمية فإن الإنسان بسبب طبيعته الناقصة التي قد تعييه الحيلة عن اتخاذ قرار سليم حاسم في مواجهة بعض الظروف قد يحتاج إلى الخروج منها أو معالجة التقصير عن طبيعة النقص في التركيبة الداخلية للإنسان، وتشكل الحاجة إلى استشارة أطراف من ذوي الرأي والخبرة والتفكير العقلاني إحدى آليات الخروج من الموقف أو المأزق، وثمة مسوغات لهذه الحاجة في طلب الاستشارة، ومنها ما يأتي:

١. أن الإنسان كما تقدم قد تعييه الحيلة نتيجة طبيعته الناقصة أو قلة خبرته أو ضعف إمكانياته أو حجم المشكلة فيضطر إلى طلب المشورة من أشخاص يعنيهم الأمر أو من ذوي الخبرة والرأي الحكيم.

٢. أن المشورة تعني اتخاذ قرار جماعي منظم، وفي ذلك موقف ديمقراطي حتى وإنْ كان رأي الأغلبية مضاداً لرأي شخص معتبر الأهمية في التفكير.

٣. المشورة قرار صائب وحركة عقلية راشدة يطلبها شخص للإفادة من تجارب الآخرين واستثمار خبراتهم في مجال محدد يكون طالب الاستشارة بحاجة إليها وتقديم العون النفسي والفكري له.

٤. قد يحتاج المرء لطلب المشورة من غيره من ذوي الخبرة ليدفع عن نفسه تهم الآخرين، وليخفف عن نفسه ضغوط القرار الانفرادي يصاحبه حالة من الندم، أو

مهددة حياته بعواقب وخيمة.

٥. تعني المشورة توظيف منظم للعقل الجماعي بدلاً عن العقل الفردي لمواجهة مشكلة بتفكير أكثر من شخص لوضع حلول لها، فإذا كان التفكير لا يتفجر إلاَّ بمواجهة مشكلة أو عقبة فإن حلها والتغلب عليها بتفكير جماعي أنسب من التفكير الفردي في غالب الأمر، وهذا ما عناه إلاَّ: «**هدوا إلى رشدهم**».

٦. إن المشورة في صورتها العامة وضمان نتائج سليمة ينتهي باتخاذ قرار صحيح تنمي مشاعر الثقة بالذات، وتمنح الأفراد فرص تمحيص الآراء وغربلتها، وتخصيب العقل فالإبداع بأفكار غير مألوفة.

٧. إن المشورة في حقيقتها تجسيد فعلي لتعلم عقلي جماعي يتيح لمجموعة من الأفراد مناقشة موضوع محدد أو مشكلة وتحديدها، ووضع احتمالات المعالجة وتفسيرها، واتخاذ قرار سليم وصفه الإمام بالرشد، وهذه خطوات «عقلية»منهجية.

٨. تمثل المشورة اسلوباً تربوياً أراد الإمام الحسن عليه السلام اعتماده في تربية «الذات الفردية» وتربية «الذات الجماعية»حتى تتعود عليه كسلوك حواري وحضاري فعال مع نفسها ومع الآخر.

***

المشورة والتعلم:

لا يحتاج أحد منَّا إلى إدراك العلاقة بين طريقة «المشورة» كشكل حواري تقدمي لحل المشاكل، وبين التعلم كعملية تربوية، فالمشورة تحتاج إلى مهارات حوارية هادفة كتحديد مشكلة البحث أو موضوع الحوار التشاوري، وتدريب النفس على الاستماع

للآخر، وصياغة احتمالات المعالجة والتفسير، والجرأة في اتخاذ القرار السليم بناءً على توافر أدلة عقلية موثوقة لا غلبة فيها للعاطفة الشخصية لدى الإنسان.

كما أن الأفراد «المتشاورين» في أي ظرف بحاجة إلى تعلم فن قواعد الحوار وآلياته، والحوار التشاوري فرصة لتحقيق ذلك، وعن طريقه يتاح لهم العمل كفريق في تداول الأفكار واحترام آراء الأفراد، ونقل الخبرة الهادفة من شخص لآخر وتقويمها، وتقبلها بعد فحصها معرفياً، ومن ثم فإن طريقة «المشورة» تؤدي إلى تعلم مهارات في مجالات عقلية واجتماعية وغيرهما، وهذه النتائج – كما يدرك القارئ – هي جميعاً أفعال متعلمة، وتدخل في إطار ما يهتدي إليه القوم في مواقف «التشاور «من نتائج راشدة وإيجابية للمشورة التي تداولوها في بحث موضوع معيَّن ومعالجته، وقد جعلها الإمام الحسن ابن علي نتيجة لازمة ومنطقية لعملية التشاور وضرورة من ضرورات «التداول العقلي» الجماعي للموضوعات والمشكلات التي تحتاج إلى بحث منظم بآراء فريق من الأفراد لا برأي شخصي.

***

٦. طريقة الصحبة والمصاحبة

يتحدث علماء الاجتماع والمشتغلون بالدراسات النفسية عن الدور التربوي للصحبة وتأثيرها في حياة الأفراد والجماعات، كما أن نصوصاً كثيرة من نصوص المشرع التربوي الإسلامي أوضحت التأثير الحضاري والاجتماعي والشخصي للصحبة، وصداقة الأفراد لبعضهم، فالمصاحبة وفاقاً للنصوص التربوية الشرعية ودراسات العلماء بيئة تربوية واجتماعية تسهم في تنشئة الأفراد والتطبيع الاجتماعي لشخصياتهم في مراحل مختلفة من أعمارهم، وتحدد الصحبة نوع التأثير السائد بين الأصحاب،

فإنْ كانت الصحبة ذات طابع إيجابي انعكس ذلك على العلاقة بينهم، وإذا غَلُبَ على الصحبة طابع سلبي سادت بين الأصدقاء علاقة سيئة.

وأشار الإمام الحسن بن علي عليه السلام – كقائد للمسلمين وإمام روحي وموجه أخلاقي – في عدد من نصوصه وكلماته إلى الأهمية التربوية للصحبة والمصاحبة بين الناس في مواقف الحياة الاجتماعية المتعددة.

ومن هذه النصوص:

قال عليه السلام: «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن تصاحبوك به**[١]».

وقال: «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن تصاحبوك به تكن عدلاً**[٢]».

وفي نص آخر قال عليه السلام: «**يا ابن آدم: عف عن محارم الله تكن عابداً، وأرضّ بما قسم الله تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلاً، إنه كان بين يديكم أقوام يجمعون كثيراً، ويبنون مشيداً، ويأملون بعيداً، أصبح جمعهم بوراً، وعملهم غروراً، ومساكنهم قبوراً، يا ابن آدم: لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فخذ مما في يديك لما بين يديك، فإنَّ المؤمن يتزود، والكافر يتمتع**[٣]».

دخل جنادة بن أبي أمية على الإمام الحسن بن علي عليهما السلام بعد أن تجرع السم من الظالمين فطلب منه جنادة أن يعظه في هذا الموقف الصعب، فقال له في نص مطوَّل إلى حد ما، ونقتطع منه نصاً قصيراً هو المراد هنا في حديثنا: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش**

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٤٢، والموسوي في كتابه الروائع المختارة ص ١٣٩.
(٢) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٩.
(٣) الشيرازي، كلمة الحسن ص ٤٥، وكتاب الروائع المختارة للموسوي ص ١٩.

أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، وإذا أردت عزّاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله عزَّ وجل، وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من إذا صحبته زانك، وإذا أخذت منه صانك، وإذا أردت منه معونة أعانك، وإنْ قلت صدق قولك، وإنْ صِلْت شدَّ صولتك، وإنْ مددت يدك بفضل مدَّها، وإنْ بدت منك ثلمة سدَّها، وإنْ رأى منك حسنة عدَّها، وإنْ سألته أعطاك، وإنْ سكت عنه ابتدأك، وإنْ نزلت بك إحدى الملمات واسّاك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق وإنْ تنازعتما منقسماً آثرك[1]».

***

استخلاصات النصوص الثلاثة:

١. تأكيد الإمام الحسن بأن «الصحبة» حاجة سيكولوجية في حياة الأفراد وتكوينهم النفسي والاجتماعي سواء كان من أُمِرَ بالصحبة أو الشخص الذي سيصاحبه، لهذا أمر الإمام الحسن بن علي بالصحبة الناس بقوله عليه السلام في صيغة أمر واضحة لتوجيه الإنسان: «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن تصاحبوك به**»، فالمأمور بحاجة لصحبة الناس ومرافقتهم وعقد صداقة معهم، وهو إحساس مماثل لدى الآخرين، فكما يحب المرء أن يصاحبه الناس ليحقق إحساسه بالانتماء والاندماج مع الجماعة التي يعيش معها فكذلك يجب عليه أن يصاحبهم في حياته، ويتخذ من بعضهم أصحاباً له، فالرغبة في الصحبة والمصاحبة شعور وجداني متبادل بين الفرد والأفراد الآخرين، حيث إنه شعور طبيعي ركّزه الخالق في التركيبة النفسية والداخلية لدى الكائن الآدمي.

٢. أنَّ الإمام الحسن في موعظته للناس وتوجيههم بالكلمات بنفسها مع تغيير في

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٥٢.

اللفظ، فقال عليه السلام: «**وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلاً**»، ففي هذا النص لا يختلف مضمونه عن النص السابق باستثناء الإضافة في نهاية هذا المقطع من نص أكبر، فإذا أراد الراغب في صحبة الآخرين أن يكون عادلاً في مشاعره وفي تقدير إحساسات الآخرين فعليه أن يكون، فقسمة المشاعر بينه وبين الناس في موضوع الصحبة وفي غيرها تكون بتحسس مشاعر الناس كما يتحسسها الفرد لنفسه، فالعدالة هنا أن يكون الفرد «عادلاً»في توزيع الإحساسات بنحو لا يحرم الآخرين فيها مما يرغبون فيه، وبذلك يكون إحساسه طبيعياً وعادلاً ومحباً للآخرين، فكما يحب لنفسه شيء ما فكذلك يحب لهم، وكما يحب أن يصاحبه الناس فعليه أن يرتضي صحبتهم لنفسه وبمشاعر عادلة متوازنة.

٣. أما في التوجيه الأخلاقي والتربوي الثالث فحدد الإمام شروط الصحبة وطبيعتها وفوائدها، فقال عليه السلام: «**وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من إذا صحبته زانك، وإذا أخذت منه صانك، وإذا أردت منه معونة أعانك، وإنْ قلت صدق قولك، وإنْ صِلْت شدَّ صولتك، وإنْ مددت يدك بفضل مدَّها، وإنْ بدت منك ثلمة سدَّها، وإنْ رأى منك حسنة عدَّها، وإنْ سألته أعطاك، وإنْ سكت عنه ابتدأك، وإنْ نزلت بك إحدى الملمات واساك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق وإنْ تنازعتما منقسماً آثرك**»، ففي هذا النص حقائق سيكولوجية واجتماعية وشروط للصحبة الجيدة، ومنها:

أ – أن الصحبة في حياة الناس حاجة نفسية طبيعية، ولا يمكن الاستغناء عنها، فالفرد يحتاجها كما يحتاجها الأفراد الآخرون.

ب– أن النص يوجه الإنسان للاختيار الجيد للصاحب أو الصديق بنحو يزين

صاحبه لا أن يشينه.

ت – أن النص حدد شروط الصحبة الجيدة فقال عليه السلام لجنادة بن أبي أمية: «وإذا أخذت منه ((أي من الصاحب)) صانك، وإذا أردت منه معونة أعانك، وإنْ قلت صدق قولك، وإنْ صِلْت شدَّ صولتك، وإنْ مددت يدك بفضل مدَّها، وإنْ بدت منك ثلمة سدَّها، وإنْ رأى منك حسنة عدَّها، وإنْ سألته أعطاك، وإنْ سكت عنه ابتدأك، وإنْ نزلت بك إحدى الملمات واسّاك، من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق وإنْ تنازعتما منقسماً آثرك».

***

الأثر التعليمي للصحبة الجيدة

بعد تأمل النصوص الثلاثة نجد أنها تشير لـدور الصحبة في تعلم السلوك الاجتماعي التوافقي المرغوب من الناس، ومن المشرع التربوي الإسلامي، فأول ما ينبغي تعلمه أن يعلم المرء الأصالة الطبيعية للصحبة في حياة البشر، وأنها حاجة فطرية مركوزة في تكويننا الداخلي، وأن يتحسس – كتعلم آخر – عدالة توزيع مشاعره، فيتعلم محبة صحبة الآخرين له كما يحب أن يصحب الناس، أما التعلم الثالث للصحبة والمصاحبة فاختيار الصاحب الجيد الذي توافر فيه شروط محددة عيَّنها النص، وبذلك يدرك الفرد أنه لا يكفي اختيار صاحب ما، وإنما التدقيق في اختياره بنحو يكون صاحباً مقبولاً على وفق مواصفات النص وشروطه، وبعد ذلك يقدم النص الشروط اللازمة للصحبة الجيدة، وهذا أبرز أثر لها في تعلم السلوك الاجتماعي كي يبلغ المرء بصحبته هذا أو ذاك نتائج إيجابية تجعل الصحبة مقبولة ومريحة للنفس وذات تأثيرات سوية على سيكولوجية الفرد والجماعة معاً.

إن الدرس التربوي المطلوب تعلمه أن يتمكن الفرد الراغب في صحبة صديق من معرفة شروط اختياره للصاحب الذي يود إقامة علاقات مصاحبة، لهذا كان النص صريحاً لا بتحديد الرغبة في الصحبة وإنما بتحديد قرار صائب في اختيار الصاحب، وهذا في غاية الأهمية لنجاح طريقة الفرد في إشباع حاجته للصحبة، فقال عليه السلام: «**وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من إذا صحبته زانك**»، وهي كلمة تعني أن يكون الصاحب مقبولاً بمواصفات المشرع التربوي الإسلامي، وبمحددات اجتماعية وسيكولوجية مقبولة تجعل الصاحب «**زيناً على صاحبه لا شيناً**»عليه.

أما شروط المصاحبة السليمة، وهي أهم ما يجعل الاختيار تعلماً اجتماعياً جيداً، فحددها الإمام الحسن عليه السلام في النص نفسه بما سبقت الإشارة، ونعيدها مرتبة على النحو الآتي من دون شروحات لها لوضوحها لمن له دراية باللغة العربية، ومن هذه الشروط ما يأتي:

- **وإذا أخذت منه ((أي من الصاحب)) صانك.**
- **وإذا أردت منه معونة أعانك.**
- **وإنْ قلت صدق قولك.**
- **وإنْ صِلْت شدَّ صولتك.**
- **وإنْ مددت يدك بفضل مدَّها.**
- **وإنْ بدت منك ثلمة سدَّها.**
- **وإنْ رأى منك حسنة عدَّها.**
- **وإنْ سألته أعطاك.**

- **وإنْ سكت عنه ابتدأك.**
- **وإنْ نزلت بك إحدى الملمات واسّاك.**
- **من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق.**
- **وإنْ تنازعتما منقسماً آثرك.**

وبذلك يتحقق قوله: «**لا يغش العاقل من استنصحه**[1]»باستشارة شخص من ذوي الخبرة أو بالتأمل والتفكر العقلي وتمكنه من التوفيق في هداية نفسه بأفكار العقل السليمة التي يقدمها لصاحبه دون غش، وبإخلاص تام، فحكم العقل دائماً موضوعي وعادل ومتسامٍ على انحرافات الشهوة وزوائدها الضارة بشخصية الإنسان وحياته.

***

٨- التفكير والتفكر

يُعدّ التفكير من أظهر أساليب التعليم وتنمية القدرات العقلية، وثمة علاقة كبيرة بينهما، وسنبحث هذا الموضوع في مبحث مستقل.

***

(١) الروائع المختارة ص ١٤٢.

٩- الطريقة الإلقائية (المحاضرة[١])

المحاضرة كما يعرفها رجال التربية شكل من أشكال الإلقاء اللفظي المباشر أو غير المباشر وهو أسلوب تعليمي قديم عرفته المجالس التربوية في كل مكان، وظل شائعاً في أزمنة متعاقبة، وبالرغم من اتجاه المربين المحدثين نحو الاستعانة بطرق تجعل «المتعلم» أكثر فعالية، فما يزال الإلقاء، متداولاً حتى عصرنا، وما يزال أسلوبا يستخدمه كل معلم وقت الحاجة، وهذه الطريقة التعليمية المتجذرة في التاريخ التربوي الإنساني لم تستطع الاستغناء عنها أية مؤسسة تعليمية، بل أن طرق التدريس نفسها لا تخلو في قليل أو كثير من الإلقاء، ويقوم على عاتق المعلم أو المحاضر أو الملقي عبء «الجهد» والفعالية التعليمية من إعداد الدرس، وتجميع المعلومات، وتقديمها للسامعين بالشرح والإيضاح وإثارة دافعية التعلم عند التلاميذ وترغيبهم، مع مراعاة سهولة «الإلقاء» وحسن معاملة التلاميذ، فالمحاضرة تبدأ من عقل المعلم وتصب نتائجها في عقل المتعلم، وفي هذا الشأن يقول أحد الباحثين: «وتعتمد طريقة المحاضرات والإلقاء على أسلوب عرض الحقائق والمفاهيم، وتوضيحها وتفسيرها، وتقوم على شرح المعلومات وتبسيطها ليسهل على التلاميذ استيعابها، ويتوسل المعلم بها في درسه للتأثير على شعور

---

(١) استفدنا في غالب حديثنا عن أساليب المحاضرة والخطبة والدعاء والمراسلة أو المكاتبة من كتابنا «التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية» فقد كتبنا بتصرف أفكارنا عن هذه الأساليب من المصدر السابق، وأحدثنا في محتواه تعديلاً يناسب خطاب الإمام الحسن من خطب وأدعية وأقوال وكلمات قصار ومراسلات أو مكاتبات، فالإمام الحسن عليه السلام قد دعا في خطابه المعرفي والتربوي والعقائدي إلى استعمال هذه الأساليب، بل إنَّ تراثه الفكري والروحي يحوي على مجموعة خطب وأدعية ومراسلات تخدم العملية التعليمية – التعلمية لأغراضها الدينية والتربوية والإنسانية، ينظر كتابنا «التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية» ص ٤٩٣ – ٥٠٩.

التلاميذ، وإثارة عواطفهم، وحفزهم على العمل والنشاط [١] ».

ويستعمل المربي هذه الطريقة التعليمية التي يكون فيها التلميذ متلقياً في الأغلب، ويتداولها في مجالس التحديث التي عرفتها التجربة التربوية الكبرى عند المسلمين بدءاً من عصر النبوة كما سنرى وعلى امتداد عصور متتابعة من هذه التجربة، ويبدأ «المتكلم» في هذه المجالس بإلقاء دروسه أو ينتظر أن يسأله تلاميذه والحاضرون، وقد يطلب أن توجه له الأسئلة، لكنه قبل أن يأتي إلى مجلس التحديث يحضر درسه جيداً، ثم يترك لتلاميذه فرصة توجيه الأسئلة، وبعض المناقشات بمقتضى الحاجة، وكذلك الترويح، لقد ذكر ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وآله كان: «يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا[٢]»، وكان الرسول صلى الله عليه وآله يعقد مجلساً «للتحديث» يذكِّر فيه أصحابه بالله عز وجل، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويضرب لهم الأمثال للوعظ، ويعلمهم دقائق الشريعة، وعلى هذا كان الصحابة يسيرون، مهتدين بهدي الرسول في تطيبه وتجمله وطريقة جلسته وتحديثه[٣]».

ولتعليم المسلمين بدأ الأئمة المعصومون ومنهم الإمام الحسن تثقيفهم بالمعرفة الإسلامية، فقد بدأ الإمام عليه السلام « حلقة من البحث والدرس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله يُحدِّث الناس بصنوف المعرفة الإسلامية من تفسير وحديث وفقه، ويفيض عليهم من علوم آبائه الطاهرين، وكان الأسلوب التعليمي المتبع في المحاضرة ما يتخللها بين حين وآخر من إثارة الأسئلة والأجوبة، أو « أسلوب الاستماع» بالتعبير التربوي الإسلامي.

وينقل العلامة الأربلي عن الشيخ كمال الدين بن طلحة قوله أن الإمام الحسن:

(١) د.حسن عبد العال / فن التعليم عند ابن جماعة ص ٢٠٦.
(٢) المكي أقلانيه، النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى ص٦١.
(٣) المرجع السابق ص٥٩.

«كان يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، ويجتمع الناس حوله، فيتكلم بما يشفي غليل السائلين، ويقطع حجج القائلين[١]»، وروى الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ما لفظه:

«دخلت مسجد المدينة فإذا أنا برجل يُحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت له أخبرني عن﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾[٢] فقال: نعم، أمَّا الشاهد فيوم الجمعة، وأمَّا المشهود فيوم عرفة، فجزته إلى آخر يحدِّث فقلت له: أخبرني عن «شاهد ومشهود» فقال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر، فجزتهما إلى غلام كأنَّ وجهه الدينار وهو يحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت له: أخبرني عن «شاهد ومشهود» فقال نعم: **أما الشاهد فمحمد صلى الله عليه وآله، وأما المشهود فيوم القيامة، أمَا سمعته يقول:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدًا ﴾[٣] «، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾[٤].

فسألت عن الأول؟ فقالوا: ابن عباس.

وسألت عن الثاني؟ فقالوا: ابن عمر.

وسألت عن الثالث؟ فقالوا: الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، وكان قول الحسن أحسن[٥].

***

(١) الأربلي / كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٦٩

(٢) سورة البروج: ٣.

(٣) الأحزاب: ٤٥.

(٤) سورة هود: ١٠٣.

(٥) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٦٩.

١٠ - طريقة الدعاء

تتفرد الأديان المنزلة بأسلوب الدعاء على مدار تاريخها، وانعكس هذا الامتداد على عمق الإنسان المتدين، وأصبح الدعاء أحد المصادر الإسلامية للمعرفة لديه، فلا يتعلم بواسطة الدعاء سوى الإنسان المتدين الذي يؤمن بالله ويناجيه - سراً وعلناً - ويطلب منه، وهو حركة صاعدة من الإنسان وهابطة منه سبحانه وتعالى.

إنَّ الدعاء قي حقيقته علاقة روحية بين الإنسان يناجي ربه، ويتجه إليه بنية خالصة في هذه الخلوة ليكاشفه بمعاناته، مع أن الإنسان المتدين الداعي يقر في نفسه بأن ما يخفيه ليس سراً على الله تعالى، فكل ما يطويه من أفكار ومشاعر ونوايا تحت «علم» الله عزَّ وجلَّ، وبالرغم من تفرد «الدعاء» بطابعه الروحي وتعدد مزاياه المرتبطة بهذا الطابع، إلا أن ما يطويه من مفاهيم وحقائق وآراء ومعانٍ سامية جعل «للدعاء» طابعاً تعليمياً مؤثراً في العقل المسلم، وموجهاً لسلوكه في عالمه الدنيوي، فلهذا ارتبطت مكونات النسيج الثقافي للمسلم بالدعاء وبمعانيه، وقيمه، وأصبحت «مادته المعرفية» مصدراً أساسيا في تكوين هذا النسيج والمحافظة عليه.

ويمكننا التعرف - في عجالة - على بعض جوانب الوظيفة التعليمية للدعاء:

أولاً: يوجه الدعاء قلب الإنسان وعقله - بخاصة المسلم - نحو عملية التعلم، ويرغبه في طلب المعرفة حتى إتقانها.

ثانياً – يعد الدعاء أُسلوباً تعليمياً «إلقائياً «لأن الإنسان المسلم يقوم بدور مزدوج يمكننا تصنيفه - في نهاية الأمر - في قائمة الأساليب التعليمية الإلقائية،إن «الإنسان» المسلم يقرأ الدعاء كنص، فيسمعه شخصياً أو يتلقاه مسموعاً من غيره إذا كان «نص الدعاء» مقروءا من الآخرين، وسواء كان النص «مقروءاً من «الداعي» أو من غيره،

فان طبيعة هذا الجهد التعليمي إلقائية، لأن الداعي «يقرأ» والمستمع «يتلقى» ومن ثمَّ لا مجال فيه لمناقشة لحظة ممارسة «الدعاء «ولا تثار فيه أسئلة وإجابة إلا إذا جعل المسلم «الدعاء» درساً يتناوله مع الآخرين بالشرح والتحليل والحوار وتبادل الأفكار، لكنه يتيح للباحثين باستخدام الطريقة التحليلية في فهم مضامين نص الدعاء المدروس كما فعلنا في دراستنا التحليلية عن دعاء الاهتمامات العامة للإمام المهدي[1]»، وحيث يبقى نص الدعاء مقصوراً على القراءة والاستماع، فإن الإنسان الذي يمارسه يكون « قارئاً ومستمعاً ومتلقياً» في آن واحد، وبهذا المعنى قد يكون الدعاء نوعاً أو نمطاً من التعلم الذاتي، فالفرد يقرأ لنفسه نص الدعاء ويستمعه بمفرده بواسطة إحدى الوسائل التقنية الحديثة كالراديو، وأشرطة التسجيل، والفيديو، ويتعلم منه دون معونة أحد سواء بحفظ «نصه» أو تفهم معانية واستيعابها أو بزيادة حصيلته اللغوية.

ثالثاً: يعد الدعاء ـ بطابعه التعليمي ـ أسلوباً واقعياً اعتمده المشرع الإسلامي لتنمية القدرات العقلية عند الأفراد، ويكاد نجد في نص «الدعاء» تعدداً وتنوعاً في القدرات التي ينميها المربي المسلم بواسطة هذا الأسلوب، فالدعاء:

أ- يعد «نصاً» للحفظ وغالباً ما يميل المسلم إلى حفظ نصوص من الأدعية لترديدها في مواقف العبادة أو «التعلم» أو مواقف «تقوية» ذاكرته بالمعاني التربوية التي حواها النص التربوي الحسني أو غيره من أئمتنا الأطهار.

ب- لا يقف العقل المسلم عند حدود الاستظهار أو «الحفظ الأصم» أو التذكر الآلي الذي يخلو من الفهم، بل يحاول فهم محتوى «نصوص الأدعية» والتفاعل مع معانيها، وقد يتعداه إلى ممارسة عملية « تحليل « هذه النصوص وفهم مضامينها

(١) ينظر كتابنا «بناء الشخصية في خطاب الإمام المهدي»

واستثمارها كمعرفة ضابطة للسلوك، وقد يترتب عن عملية « التحليل « نمو قدرات الفرد على «الربط» بين فقرات النص، ونمو قدرة الاستنتاج، والمقارنة، والنقد، والتطبيق، وإصدار الأحكام.

ج- ينمي الدعاء أيضاً أساليب التعبير العربي ويصقل القدرات اللغوية للفرد، ويموِّنه بثروة كبيرة من مفردات اللغة وألفاظها، وذلك لأن الدعاء ـ بخاصة ما صاغه الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) وأئمة أهل البيت عليهم السلام ـ يمتاز بأعلى أساليب البيان العربي، وهذا يؤدي بالتأكيد إلى تنمية هادفة لقدرات الفرد على الفهم اللغوي، وتدريبه على الطلاقة اللفظية، فالعقل المسلم بعد ممارسته للدعاء ـ كتجربة وجدانيَّة حيَّة ـ يتقمص هذه الثروة الهائلة من مفردات اللغة، ويتمثلها في أحاديثه، ومواقفه الحوارية.

رابعاً: يوفر الدعاء للعقل الإنساني فرصة التفكير والتأمل العقلي في مجال العقائد وقضاياها، وبيان أصولها، كالتوحيد، ومعرفة صفات الله [1]، والنبوة، والمعاد، قال الإمام الحسن بن علي في دعاء: «**اللهم سبحانك يا قيُّوم، سبحان الحي الذي لا يموت**[2]»، ودعاؤه في موضع آخر: «**يا من بسلطانه ينتصر المظلوم، وبعونه يعتصم المكلوم سبقت مشيَّتك، وتمت كلمتك، وأنت على كل شيء قدير، وبما تُمْضِه خبير، يا حاضر كل غيب، وعالم كل سر، وملجأ كل مضطر، ضلت فيك الفهوم، وتقطعت دونك العلوم، أنت الله الحي القيُّوم، الدائم الديموم، قد ترى ما أنت به عليم، وفيه حكيم، وعنه حليم**».

خامساً: يقدم الدعاء معرفة تحليلية مستفيضة للنفس الإنسانية ودراسة حالاتها

(١) أنظر على سبيل المثال ما جاء في دعاء يوم عرفة في الصحيفة السجادية.

(٢) كلمة الحسن (دعاء الدخول على ظالم)، ص ٢١٧

المتعددة سواء في حالتها السوية، أوفي حالتها غير السوية، ويحدد طرق تشخيص أمراضها وسبل معالجتها، ويرشد العقل المسلم بالأساليب الصحيحة التي تعينه على مواجهة المشكلات النفسية وأمراض السلوك الأخلاقي، ويمده بمعرفة «القيم» السوية وتهذيب الأخلاق. والتمييز بين سمات السلوك السوي، وسمات السلوك العصابي، وذلك من خلال إمداد المسلم بمفاهيم عبادية في حقل الصحة النفسية، وتأصيل مبادئها المستمدة من الأدعية في عقل الإنسان المسلم[١] «، وهكذا يركز الدعاء على المعرفة الأخلاقيَّة والقيم الإنسانيّة كثقافة سيكولوجية، ومرجعية للسلوك العبادي، فالدعاء منهج إرشادي يستعمل التكرار، ومعالجة السلوك بأضداده، وإثارة العاطفة، والتنفير من الرذيلة، والترغيب في الفضيلة، ويستعمل أسلوب الوقاية والمعالجة في تربية الشخصية العبادية وتعديل سلوكها.

***

١١- أسلوب الخطابة

الخطابة أسلوب تقليدي مألوف في الحياة العربية قبل الإسلام ثم عززه بنصوصه القرآنية والنبوية، وما يزال نمطاً ثقافياً مقبولاً حتى زماننا، وعَدّه المشرع طريقة تعليمية سمعية [٢]، وهي بالنسبة للمربي المسلم ـ آنذاك ـ أشبه بوسيلة إعلامية لأن «العرب» كانوا يملكون آنذاك ناصية اللغة، ومتمكنين من مفرداتها تمكناً متقناً، لهذا تابعوا استخدام هذا الأسلوب من عصر النبوة حتى عصور مختلفة، وكان الرسول (صلى الله عليه وآله) يحث على استعمال جيد لطريقة الخطابة ويأمر بقصر الخطبة، وهدفيتها وتعلم الموعظة منها،

(١) () عز الدين الجزائري / شرح الصحيفة السجادية ص ٢٣.

(٢) أصبحت هذه الطريقة فيما بعد إحدى آليات التعليم والأدب العربي المكتوب في التجربة التربوية الإسلامية التاريخية، وأسهمت في بناء النسيج الثقافي للأمة في حقبة ازدهارها الحضاري.

«وكان النبي صلى الله عليه وآله يخطب كلمات يسيرات، ويركّز على هدفها التعليمي[١]».

وهذا الأسلوب من أساليب الإلقاء الواضحة التي يكون «المستمع « متلقياً في أغلب الأحيان، وقد يسأل ويسمع الرد لكن لا يتحول السؤال إلى حوار – إلا نادراً، ويمكن في ضوء طبيعة فن الخطابة الشائع في ثقافتنا أنْ نصنف هذا الفن التعليمي الجماهيري ضمن مجموعة الأساليب الإلقائية لأن الخطيب عادة يكون متكلماً وملقياً بينما المتعلم مستمعاً ومتلقياً للخطاب اللفظي المنطوق، فـ «المكاتبة» إذا كانت رسائل مكتوبة، تكون الخطبة رسالة شفوية منطوقة يتلقاها المرء من متكلم ثم يبث مضمونها بلفظ شفوي أو يتداولها الناس عن طريق السماع والنقل اللفظي، وقد تكتب فتحفظ وتؤدي وظيفتها التربوية في أجيال تالية، وحققت الخطابة فعالية كبيرة في الحياة العربية الإسلامية، وما تزال مادتها ذات جاذبية تربوية مؤثرة لاسيما إذا التزمت ببعدها العبادي.

ويمكننا الآن تحديد موجز لبعض الوظائف التعليمية للخطبة الموجهة لفرد أو لجماعة:

١ – تنمي الخطابة قدرات عقلية عند الخطيب والمستمع والناقل معاً لأنهم يتعلمون من مضمونها وهم يقرؤونها أو يكتبونها أو يناقشونها أو يحفظونها، وتمثل هذه التنمية جانباً تربوياً مهماً سواء في عمليات التدريب على فن الخطابة أو تطبيقه في موقف تعليمي قائم فعلياً، ومن ذلك أنه المتعلم يتعلم فن «الإنصات»والتدرب على مهارة الاستماع، حيث ينمي المستمع قدرته على «الفهم اللفظي» والتعامل بسرعة مع الكلمات المنطوقة المسموعة، وتنمية قدراته على التذكر من خلال استظهار نص «الخطبة» وحفظه عن ظهر قلب، وربما إعادته على الغير ما أمكن، أو التمرن على مهارة النقل والنشر لمادة

(١) انظر ميزان الحكمة، ج٣ ص ٤٩.

الخطبة أو تحليل محتواها التعليمي، كذلك التدرب على مهارة صياغة الأسئلة وتوجيهها – إن أمكن – للمتكلم، فيتعلم جانباً من الأسلوب الحواري في موقف تطبيقي قائم فعلاً.

٢- وبالنسبة للخطيب «المتكلم «فعادة ما يؤدي هذا الأسلوب التعليمي إلى تنمية قدرات عقلية مهمة كقدرة الخطيب على الطلاقة اللفظية، وسرعة التعبير والتمرن عليها، كذلك إظهار قدرته على تجميع الأفكار وسلامتها وترتيبها، وتذكر الحكم والأمثال النصوص كافة التي تشكل جزءاً من الخطبة، وتنمية منطق الاستدلال عند المتكلم واثبات قوة «الحجة» لديه وهو يقدم للطرف الآخر أدلة الإثبات والبرهنة على صحة ما يؤمن به، وتحديث الناس من غير إملاء أو كتابة، جاء في نص:«البلاغة قلب عقول ولسان قائل[١]».

٣- إن الخطيب يقوم بدور المعلم الذي يرسل أفكاره للآخرين، وكأنه يقرأ عن ظهر قلب نصاً في لغة محكمة بينما يمثل «المستمع» تلميذاً يتلقى المعرفة، وبعبارة أخرى تمثل «الخطبة» خيطاً متصلاً أحد طرفيه هو «قدرات الإرسال» عند المتكلم، والطرف الآخر هو « قدرات الاستقبال « عند المستمع.

٤- ويعتمد الأسلوب الخطابي على الإثارة العاطفية التي تخدم عملية التعلم، لأن فن «الخطابة» ليس في الواقع مجرد قدرات ومهارات لفظية محضة، بل هو من وجه آخر فهم لسيكولوجية المستمع، فيحاول الخطيب المتكلم التأثير عليه من خلال الإثارة العاطفية التي هي جزء من طبيعة الأسلوب الخطابي ذاته، ومقدمة لتكوين اتجاه إيجابي ـ نفسياً و عقلياً ـ لتقبل المعرفة والتفاعل معها بطريقة هادئة، ومن هنا اشترط المشرع

(١) ميزان الحكمة ج ١ ص ٤٦٤.

التربوي الإسلامي على الخطيب قصر «الخطبة» وهدوئه، وهدفية المادة التعليمية التي تتضمنها خطبته، لهذا يقول أحد النصوص التربوية الإسلامية مبيناً أهمية الهدوء النفسي للمتكلم – محاوراً أو خطيباً أو متلقياً – «شدة الغضب تغير المنطق، وتقطع مادة الحجة، وتفرق الفهم[١]».

***

تتضمن الخطبة ـ عادة ـ مادة تعليمية مربيَّة، وتظل هذه «المادة» منقولة، متداولة في التراث التربوي للأمة، وخالدة في المخزون الثقافي للبشرية، فالخطبة تمثل عمقاً ثقافياً وتوجيهاً معرفياً وعقائدياً وسلوكياً للإنسان، ولهذا السبب تلجأ بعض الأقلام المثقفة المسؤولة في حقول المعرفة والتعلم والإعلام والتوجيه الديني إلى الاستفادة من المضمون التعليمي المؤثر لنص الخطبة، واعتماده كمصدر توجيه وتنشئة، إذ تعرض المناهج الدراسية نصوصاً من الخطب الإسلامية لدراستها كمادة تعليمية، وذلك لأن «للخطبة» جاذبية التأثير في عقول الناشئة.

***

ولقد جمع السيد مصطفى الموسوي صاحب كتاب «الروائع المختارة» ستاً وخمسين خطبة من خطب الإمام الحسن التي تنوعت موضوعاتها، وكانت تنطوي على أفكار تعليمية في مجالات عقائدية وروحية والوعظ والتوجيه الأخلاقي، وحكمة تشريع الفرائض، ووصف المتقين، وصلحه مع معاوية، والجهاد بأشكاله وغير ذلك من موضوعات دينية، وما يخص أحداث عصره مع مناوئيه، وقد نقلنا في أثناء هذه الصفحات بعض المقاطع اللغوية من بعض خطبه، حيث نقلنا مقطعاً من نص الخطيتين

(١) ميزان الحكمة ج ٧ ص ٢٣٢.

رقم (٧، ١٢) من كتاب الروائع المختـارة عن موضوع الصحبة والمصاحبة وتأثيراتها التربوية على الفرد، وفي العلاقات الشخصية الاجتماعية للأفراد، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الإمام الحسن اعتمد الخطب كأسلوب تربوي وتعليمي خدمة لدينه ومجتمعه.

***

١٢ - أسلوب المراسلة أو المكاتبة

هذا الأسلوب قديم وشائع في حياة الناس قبل مجيء الدين الإسلامي، وأقره المشرع التربوي الإسلامي كما نجد مثلاً في النص القرآني الذي تحدث عن مراسلة لفظية مكتوبة بين سيدنا سليمان والسيدة بلقيس ملكة سبأ، كما أقره الرسول الكريم واستفاد منه في الدعوة والتبليغ والتوجيه السياسي والتعليم أيضاً، حيث بعث صلوات الله عليه رسائله إلى عدد من الملوك والأمراء يدعوهم للدخول في الدين الجديد، ثم استعمله مع ولاته في نطاق تدبير شُؤون الدولة، وفي توجيه حركتها وضبطها، ومعنى ذلك أن المربي المسلم بدأ باستعمال أسلوب المكاتبة أو المراسلة المكتوبة منذ عصر النبوة وما بعدها من عصور متتالية، وأصبحت المراسلة فيما بعد أسلوبا تعليمياً متداولاً بين علماء الأمة، ومعناه أنَّ طرفاً من الناس يراسل طرفاً آخر بالمكاتبة عن طريق إثارة سؤال حول مشكلة معينة محيرة، فيأتيه الجواب مكتوباً، فالمراسلة أو المكاتبة أنْ يكتب السائل سؤالاً أو نوع المشكلة التي تثير ذهنه، ثم يكتب المجيب جواباً لها، وقد تتطور المراسلة بين أكثر من طرفين، وتكون «المكاتبة» في شكل خطاب وأحياناً «رسالة شفوية» وكلاهما يحمل مضموناً أو معنى واحداً هو السؤال أو المشكلة التي تتطلب حلاً، وهي تحديث من غير إملاء أو كلام مسموع مباشرة.

قال الإمام الصادق (عليه السلام):«**اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا**» وجاء عنه:

«**احتفظوا بكتبكم فأنكم سوف تحتاجون إليها**» وقال للمفضل بن عمر: «**اكتب وبث علمك في إخوانك، فإن مِتَّ فأورث كتبك بينك فانه يأتي على الناس زمان هرج لا يأنسون فيه إلاَّ بكتبهم**[1]»، وهذا التأكيد معناه أنَّ المكاتبة أو «المراسلة» المكتوبة نشر للعلم والمعرفة التي يؤكد عليها المشرع، ولهذا استجاب لها الوسط التربوي المسلم لفعالية هذه الطريقة ونشرها العلماء والمربون المسلمون في بث المعرفة وحل المشكلات.

فالرسالة المكتوبة تحمل في الحقيقة «مادة» تعلم تبدأ من فكرة أو رأي أو سؤال أو لفت نظر إلى مشكلة وتنتهي بجواب، وإذا لم تتكرر المراسلة حول المشكلة ذاتها، وأصبح جواب «المجيب» مقنعاً صنفت المراسلة ضمن أساليب الإلقاء غير المباشر، بيد أنه يحتمل أن تتحول «المراسلة» إلى محاورة غير مباشرة توضح فعالية السائل والمجيب في حل مشكلة علمية وتكشف عن مستوى «المادة التعليمية»التي تضمنتها المكاتبة، ومع ذلك فهي – في الأغلب – أقرب إلى طرق الإلقاء لأن السائل يظل متلقياً يبعث «بسؤاله» وينتظر جواباً عنه.

***

ومما سبق تتضح الوظيفة التعليمية للمراسلة أو المكاتبة فيما يأتي:

١- تعدّ «الرسالة» المكتوبة وثيقة تربوية يطمئن لها الناس بصورة أفضل، ويمكن تناقلها جيلاً بعد جيل، وتقل إمكانية تصحيفها مما لو كانت المراسلة شفوية.

٢- تداول المعرفة وحفظها ونقلها وتخزينها في نص موثق تعد وثيقة تربوية يرجع لها الباحثون متى شاءوا، وتحفظ «آراء» أصحابها على امتداد الزمان اللاحق، وتبقى دليل إثبات على وجهة النظر المعتبرة.

(١) القزويني، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية ص ٢٢٥-٢٢٦.

٣- تسهم المراسلة «المكتوبة» والمكاتبة بين السائل والمجيب على تنمية الفكر التربوي وتقوي الصلة بين علماء الأمة وطلبة العلم، وتظهر مدى التعاون بينهم في حل «المشكلات» التي تواجه الأمة.

٤- ومن إيجابيات «المراسلة» المكتوبة إنها تساعد على تدريب التلاميذ على صياغة التساؤلات والافتراضات حول المسائل، ومعرفة الردود عليها، ولهذا كله أثره الإيجابي على تنمية القدرات العقلية كالقدرة على التعبير اللفظي، وفهم محتوى «النصوص»وتحليلها.

***

وفي الباب الثاني من كتاب «الروائع المختارة» جمع أحد العلماء (١٢) نصاً من مراسلات ومكاتبات الإمام الحسن عليه السلام، وكانت متعددة الموضوعات، منها مراسلة مع بعض أصحابه يعزيه بموت ابنته، ومراسلات أخرى مع معاوية وابن زياد وعمرو بن العاص في قضايا سياسية وردود على افتراءاتهم، وكتابه في الصلح مع معاوية بن أبي سفيان، وأهم ما يعنينا في الجانب التعليمي من رسائله وكتبه رسالته إلى العالم الجليل الحسن البصري رداً على سؤال في موضوع الحرية الإنسانية والقضاء والقدر[١]، التي عرضها الموسوي في كتابه «الروائع المختارة[٢]» تحت رقم (٨).

وسنعرض نص رسالته للبصري كاملة في هذا المبحث بعد قليل، وإشارات مضمونها الإرشادي في ضبط السلوك التعليمي لدى الأفراد.

***

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٦.

(٢) الموسوي، الروائع المختارة ص ١١٨.

إنَّ من المراسلات «المكتوبة» التي تناولت قضاياً وقع فيها الجدل بين العلماء قضية الحرية الإنسانية، إذ كتب الحسن البصري رسالة مكتوبة إلى الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام يسأله عن الرأي الصحيح في هذه القضية الشائكة التي تنازعت فيها فرق العقائد الإسلامية في زمانه، فقد كتب الحسن بن أبي الحسن البصري إلى أبي محمد الحسن ابن علي عليهما السلام:

«أما بعد، فإنكم معشر بني هاشم، الفلك الجارية في اللجج الغامرة والأعلام النيرة الشاهرة أو كسفينة نوح (عليه السلام) التي نزلها المؤمنون، ونجا فيها المسلمون، كتبت إليك يا ابن رسول الله عند اختلافنا في القدر وحيرتنا في الاستطاعة فأخبرنا بالذي عليك رأيك ورأي آبائك عليهم السلام، فإنّ من علم الله علمكم، وأنتم شهداء على الناس، والله الشاهد عليكم ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم».

فأجابه الحسن (عليه السلام) بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

«وصل إليّ كتابك، ولولا ما ذكرته من حيرتك، وحيرة من مضى قبلك إذا ما أخبرتك، أما بعد، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره إن الله يعلمه فقد كفر، ومن أحال المعاصي على الله فقد هجر.

إن الله لم يطع مكرها ولم يعص مغلوباً، ولم يهمل العباد سدى من المملكة، بل هو المالك لما ملّكهم، والقادر على ما عليه أقدرهم، بل أمرهم تخييراً، ونهاهم تحذيراً، فان ائتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صاداً، وان انتهوا إلى معية، فشاء أنْ يمن عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل، وان لم يفعل فليس هو الذي حملهم عليها جبراً، ولا ألزموها كرهاً، بل منَّ عليهم بأن بصرهم وعرفهم وحذرهم، وأمرهم ونهاهم، لا

جبلاً لهم على ما أمرهم به فيكون كالملائكة، ولا جبراً لهم على ما نهاهم عنه، ولا الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين، والسلام على من أتبع الهدى[١]».

(١) تحف العقول ص ١٦٦.

الحلقة الرابعة

التفكير والعملية التعليمية

التفكير والعملية التعليمية

تمتع الإنسان – بنحو متمايز عن كل الكائنات الحية وغيرها من العجماوات – بقدرات فريدة جعلته كائناً حضارياً، فاعلاً في حركة التاريخ، وفي الفعل الحضاري، فالمزايا التي حظاها رب العباد للكائن الآدمي كثيرة، ولكن أبرز ما ميَّزه.. القدرة التفكير، والقدرة على النطق، فكلاهما (العقل واللغة) منحت هذا الكائن مكانته اللائقة في الوجود، ومكنته عبر تاريخ طويل من صنع حضارته، وإظهار إسهاماته وإبداعاته التي تناسب خصائصه.

لقد ارتبطت حياة الإنسان منذ بدء ظهوره في التاريخ بظاهرة التفكير، وبمختلف العمليات العقلية الكامنة في داخل ذاته حتى وإنْ تباينت في مستوياتها من حيث السهولة والتعقيد، وهي عمليات لها علاقة بالعقل الإنساني وقدراته المتميزة وأنشطته المتعددة، وقد حقق الإنسان بدوره انجازات حضارية عديدة هي في الواقع وليدة حركة التفكير الإنساني، فقد واجه الإنسان في عالمه الداخلي وعالمه الخارجي وبيئته مشكلات كثيرة ومتنوعة ومعقدة أحياناً، وواجه هذه المشكلات بالاستعانة بالتفكير وعملياته العقلية وأنشطته لإيجاد حلول لها.

ومع أن التفكير كعمليات عقلية لا تفتر أبداً في كيان الإنسان منذ ولادته حتى وفاته إلاَّ أنها تنشط حينما يواجه الإنسان مشكلة تتحداه، ويحاول الاستجابة لها برد معيَّن، ولا يفتر نشاطه، بل ولا يضعف تأزمه النفسي حتى يتغلب عليها، فالتفكير

الإنساني هو بمثابة دافع لمواجهة المشكلة والبحث عن حل لها، ومن ثم فإنَّ التفكير يقترن دائماً بوجود مشكلة، ومن هنا فالتفكير في نظر العلماء من أرقى العمليات العقلية لدى الإنسان، حيث يدرك فيها الإنسان العلاقات القائمة بين موضوعين أو ظاهرتين أو أكثر من أجل حل مشكلة غامضة أو تحتاج إلى تفسير أو كشف قوانين علاقتهما.

ومن المنطقي أن ينال التفكير – كظاهرة عقلية إنسانية – باهتمامات العلماء والمفكرين وقادة الأديان، ويشجعون في مجهوداتهم الثقافية بتفعيلها من أجل حركة تقدم اجتماعي وعلمي للبشرية ودفع مسيرتها لوضع حضاري أفضل، وقد حظيت هذه الظاهرة باهتمام الإمام الحسن بن علي سبط رسول الله صلوات الله عليه وآله في عدد من نصوصه التعليمية لا للإشادة بها والتنويه فحسب، وإنما ليأخذ الإنسان مكانته في حركة التقدم الحضاري، ولفت نظره بأن مدخل هذا التقدم يمر من بوابة العلم الذي هو نتاج عملية التفكير الإنساني، وأن مكمن وظيفته العبادية ترتكز على احترام العقل، وممارسة التفكير، فالعقل أساس التكليف الشرعي، وقلب إنسانية الإنسان وجوهر حياته.

يقول أحد الباحثين:

«امتاز الإنسان عن سائر الكائنات الحية بالقدرة على التفكير، وما يترتب على ذلك من تقدير دقيق لأمور حياته، وقد مكنته هذه القدرة على التفاعل بذكاء مع عناصر البيئة ومثيراتها المحيطة به، وذلك بغرض فهمها والسيطرة عليها ثم الاستفادة منها، ويكشف تاريخ الإنسان عن استخدامات متنوعة لأنماط من التفكير، ويظهر السجل الثقافي للإنسان أنَّه استخدم التفكير بأسلوب المحاولة والخطأ، ومارس التفكير الخرافي القائم على الوهم والبعد عن الحقيقية، وخضع الإنسان في تفكيره أيضاً لسلطة الآخرين، واستقر به جهده الدؤوب عند نقطة حاسمة بعد تعرفه على قواعد التفكير السليم

العلمي وممارسته في مجالات شتى من حياته،وذلك بسبب موضوعية هذا النمط من التفكير ودقته وضوابطه الصحيحة واعتماده على المنطق والحجة الرشيدة، والاستدلال السليم.

ويدين للتفكير السليم كل إنجاز حضاري حققه الإنسان، وكل تنمية لمهاراته وقدراته الفردية والاجتماعية، فالعقل وما امتاز به من تفكير جعل التحدي الذي واجه الإنسان أكبر قوة دفع له لتحقيق إنجازات حضارية تتطور تدريجياً بتطور القدرات العقلية للإنسان، فالثمار الحضارية الأولى ـ وما تزال حتى الآن ـ ناجمة عن استخدام الإنسان فكره وعقله، وقد تنوعت قدراته وإنجازاته بنمو قدراته وإنجازاته بنمو قدرات الإنسان على استخدام عقله، فعندما لجأ الإنسان في بداية حياته العقلية لاستخدام أسلوب المحاولة والخطأ في فهم ما يحيط به كان التعلم ضعيفاً، والحلول الناجمة عنه أقرب إلى الفسل منها للنجاح، لهذا حاول الإنسان استخدام نمط آخر من التفكير يقوم على الخرافة والوهم والبعد عن الواقع، وتضخيم الأمور، فاخترع لنفسه وسائل السحر والشعوذة، وأوهم نفسه بسيطرته التامة على الطبيعة التي تسبب له الخوف والقلق، واعتقد أنَّه يواجه الواقع بهذا الأسلوب، ثم كشفت له التجارب ضعف التفكير الخرافي في تغيير الواقع وتطويره.

وقد دفعه هذا إلى مزيد من الجهد لمعرفة من التفكير أكثر دقة وتطوراً، فتوصل بعد معاناة تاريخية إلى التفكير العملي المنظم، وإن اضطر في تاريخه الثقافي إلى الخضوع المذل للتفكير بعقل الغير، وتقليد آرائهم، ولا نستطيع بالتأكيد تحديد مراحل تاريخية دقيقة وحاسمة لتطور أنواع التفكير السابقة، فيحتمل أنْ تتداخل في مرحلة تاريخية معينة بعض هذه الأنماط وتجتمع في مدة زمنية، وما يزال هذا التداخل قائماً حتى الآن

بعد الثورة العلمية، فالالتزام بخطوات التفكير العلمي ليس رهناً على عصرنا الحديث وليس مرتبطاً به فحسب، لأنَّ العقل الإنساني مارس التفكير العلمي في عصور سابقة، وتعلم منه في حل ما واجهته من مشكلات، ومع أنَّ هذا الاستخدام كان محدوداً، وعلى مستوى أفراد قلائل إلاّ أنّ الإنسان استخدمه لحل مشكلاته في مرحلة سابقة، ثم ظل ينمو هذا الاستخدام حتى أصبح شائعاً، ومنتشراً في عصرنا، وأضحى القوة الحاسمة في تنوع الإبداعات الإنسانية[1]».

***

ويلحظ من بعض النصوص التعليمية التي تم دوّنت في هذا المبحث، وفي مواضع متفرقة من مباحث أخر أنَ الإمام الحسن عليه السلام قد استخدم في التنويه بظاهرة التفكير لدى الإنسان بعدد من المصطلحات الدالة عليها والمعبرة عن نشاطها ونتائجها ومنها مصطلحات «التفكر، التفكير، الفكر، يفكر، العقل، العاقل، رأس العقل، معقوله، القلب البصير، قلب البصير، الحكمة، التذكير، وفتق ما رتق منه ذهنه، استرعيته» وغيرها من الكلمات الذهنية المعبرة، وقد ربطتها هذه النصوص بالهدف الأكبر للوجود.. وهو تقوى الله وطاعته وعبادته، فقال الإمام الحسن بن علي عليهما السلام في مدخل أحدها ما لفظه: «**أوصيكم بتقوى الله**».

ويجسد التفكير أحد أهم المفاهيم الذي حظيت باهتمام الإمام الحسن في تراثه الثقافي والروحي والأخلاقي، فأغلب المفاهيم التي حددها عليه السلام في نص «تحديد المفاهيم» السابق من خلال مجموعة الأسئلة التي وجهها له والده الإمام علي كانت ذات طبيعة عقلية محضة حتى في المفاهيم الاجتماعية والأخلاقية وغيرها، فالتفكير – كعملية ذهنية

(١) يوسف مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية ٤٥٧ – ٤٥٨.

– هو أحد المصطلحات التي وردت في قائمة المفاهيم باسم العقل، ولفظ السداد، فقال الإمام الحسن الزكي عندما سئل عن العقل: «**حفظ القلب ما استرعيته**[١]».

وإذا كان العلم سخر عملية التفكير لكشف العلاقة بين ظواهرها وكشف غوامضها فإن بعض نصوص الإمام تربط بين ظاهرة وأخرى في المجال السلوكي، فعلى سبيل المثال نجد في النص التربوي والأخلاقي المنسوب للإمام الحسني عليه السلام تطبيقاً لكشف جوانب العلاقة بين ظاهرتين سلوكيتين، قال عليه السلام: «**البخل جامع للمساوئ والعيوب، وقاطع للمودات من القلوب**»، فهذا النص هو في حقيقته مثال للعلاقة بين مشكلتين أو ظاهرتين، بين البخل كسلوك شخصي منَّفر في حياة الإنسان وبين تمزق العلاقات الاجتماعية السائدة في مجتمع ما كمجتمع زمانه، ويحتاج هذا النوع من العلاقة بين ظاهرتين سلوكيتين لتفسير ذهني، وهناك نصوص أخر مماثلة تفسر هذه العلاقة الاجتماعية في مجال السلوك بوجه عام.

***

التفكر والتفكير في معاجم اللغة

التفكر والتفكير من المصطلحات الواضحة في الحياة الإنسانية التي وجدت نفسها في معاجم اللغة، وفي الدراسات والأبحاث، وفي ثقافة الناس، ولكنّ الباحثين يجدون معاجم اللغة ملجأهم لتحديد مفهومها باطمئنان، وتفيد بعض معاجم اللغة أنَّ التفكر في الأمر هو «إعمال العقل في أمر معيَّن أو مشكلة ما بالتأمل والتدبر وطلب المعاني للتوصل إلى حلها، ومعرفة المجهول عن نظر ورويّة، فكل ما يخطر بالقلب أو العقل

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن، ص ٦٠، والموسوي، الروائع المختارة ص١٣٧.

من المعاني يقال له «فكر»، وترى هذه المصادر أن التفكير في الأمر – بوصفه نشاطاً ذهنياً – يسمح للعقل الإنساني بترتيب بعض ما يعلمه ليصل به إلى مجهول، فكل ما يخطر بالقلب أو العقل أو المعان يقال له «فكر[١]».

وهذا يعني أن «التفكير» حركة داخلية لحل مشكلة أو كشف حقيقة أو هداية الإنسـان أو توجيه سلوك أو تنمية قدرات وطاقات[٢].

***

مفهوم التفكير

لا نريد أن ندخل في تعريفات العلماء المعقدة لهذه الظاهرة، ويكفي التحديد العام لمفهومها في معجم لغوي، ونعتقد أنَّ التفكير – كظاهرة بشرية – هو بلغة سهلة: «حركة ذهنية أو نشاط عقلي يبذله الفرد بغرض التغلب على عقبة أو مشكلة تعترض طريقه، وتسبب له توتراً أو تأزماً نفسياً لا يزول إلاَّ بالغلبة على هـذه العقبة أو المشكلة» وتوظيف هذه الحل في خدمة الإنسان والمجتمع.

***

أهداف عملية التفكير

يتوخى الفرد المفكر من «تفكره، وتفكيره» مجموعة أهداف تربوية، وهي كما يلي:

١. إشباع لذة الإنسان في التفكر، وإعمال فكره كحاجة عقلية محضة.

٢. تدريب الإنسان نفسه أو الآخرين على التفكر والتفكير الدائم.

---

(١) المستجد في اللغة والإعلام ص ٥٩١، وكذلك المعجم الوسيط، ج ٢ ص ٧٢٤.

(٢) يوسف مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية ص ٤٥٩.

٣. تنشيط العمليات العقلية المتصلة بظاهرة التفكر ذاتها كالتعلم والإدراك الحسي والتذكر وحل المشكلات وفهمها وغيرها.

٤. التعرف على عوامل نمو القدرات العقلية واكتشاف معوقات نمو عملية التفكير من خلال تجارب عقلية ذاتية.

٥. توظيف عملية التفكر والتفكير في تنمية قدرات الذات، وإحياء «القلب البصير» لدى الشخصية الإنسانية بخاصة المؤمنة.

٦. استثمار عملية التفكر والتفكير في تحقيق رضا الله سبحانه من خلال اكتشاف حقائق الذات والعالم أو الكون الخارجي.

٧. إظهار القيمة التربوية لعملية «التفكر والتفكير».

***

نصوص التفكير:

لدينا في هذا الجزء من مبحثنا مجموعة نصوص تشير للتفكير والفكر وتأثيره في عمليات التعلم والتعليم، وبعض هذه النصوص تذكر ألفاظ «الفكر والتفكر والتفكير» مباشرة، وبعضها لا تذكر الألفاظ السابقة، ولكنها تعني كإشارات غير مباشرة مظاهر للألفاظ الثلاثة كاستخدام كلمات.. أسمع الأسماع، وعي التذكير، أو تشاور قوم، هدوا إلى الرشد، أو رشدهم، تعرف موارده ومصادره، كلمات العقل، استرعيته، وجملة «وفتق ما رتق من ذهنه»وغيرها من الكلمات أو الجمل أو المقاطع اللفظية، وسنكتفي في حديثنا عن موضوع «التفكر» كطريقة للتعلم ببعض النصوص التي ذكرت مباشرة مصطلح «التفكير» أو كلمات مرتبطة به بالرغم من أنه ظاهرة بحث واسعة ومهمة في

حياة الإنسان كما في النصوص:

- وقوله: «**أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكر، فإن التفكر أبو كل خير وأمه**[١]».
- وقوله: «**عليكم بالفكر، فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة**[٢]».
- وقال الإمام الحسن كذلك في نص آخر: «**التفكير حياة القلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور**[٣]».
- وقال كذلك: «**عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه**[٤]».
- وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به، أسلم القلوب ما طهر من الشبهات[٥]».
- وقول الإمام الحسن الزكي بن علي عليه أفضل الصلاة والسلام في مقطع من نص يدعو فيه الناس للارتباط بالعلماء ومجالسهم، وفيه إشارة للآثار الايجابية الناجمة عن الاختلاط بالعلماء في تكوين المهارات اللغوية والعقلية: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه**».
- وفي سؤال حدد فيه بعض المفاهيم العلمية والأخلاقية سُئِلَ عليه السلام فقال: «ما

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٠.
(٢) السيد حسن، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.
(٣) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٩.
(٤) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٥٠.
(٥) الحسن بن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، ص ١٧٠، والشيرازي، كلمة الحسن ص ١٩٩، والموسوي، كتاب الروائع المختارة ص ١٤٠.

العقل؟، فأجاب: «**حفظ القلب كل ما استرعيته**[١]».

- وقال: «**العقل خليل المرء**[٢]».
- وقوله عليه السلام: «**رأس العقل معاشرة الناس بالجميل**[٣]».
- وجاء عنه قوله عليه السلام: «**لا يغش العاقل من استنصحه**[٤]».

***

المعاني العامة للتفكير في النصوص السابقة

١. تأكيد أحد هذه النصوص على «إدامة التفكير»، ويوحي التعبير برغبة الإمام في حث الناس على التفكر المستمر لإظهار قدرات العقل وانجازاته الإبداعية، وتهيؤه في مواجهة المشكلات وإيجاد حلول لها، والتعبير عن مستوى الإمكانيات التي يمتلكها العقل الإنساني كنعمة إلهية، لهذا وصفه عليه السلام بأن التفكير هو أبو الخير وأمه كما في النص الأول، وهو مفاتيح أبواب الحكمة كما أشار النص الثاني، وتتجسد في العلوم العقلية، وعلوم الحكمة التي هي من أهم نواتج التفكير السليم المستمر.

٢. يشير النص الأول إلى العلاقة بين تقوى الله والتفكر المستمر، ويعني هذا أنّ التفكير مجرد أداة إنسانية في خدمة هدف عبادي كبير هو تقوى الله سبحانه وتعالى،

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٠، والموسوي، كتاب الروائع المختارة ص ١٣٨.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٤٠٩، والري شهري، كتاب ميزان الحكمة، ٦ ص ٤٠٤

(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ١١١، والشيرازي، كلمة الحسن ص ٦٣، ٢٠١، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، ص ١٣١، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ٤٣٤.

(٤) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٤٢.

لذلك أمر الإمام الحسن في ربط تربوي هادف بتفعيل القدرات العقلية بعمليات تفكير من أجل فتح أبواب الخير ومنها تحقيق تقوى الله، واستخدام المعرفة الناجمة عن عملية التفكير في خدمة هذا الهدف، وتوظيفهما في خدمة الإنسان، فالتفكير يخدم الإنسان بفتح أبواب الحكمة عليه وتعميم نتائج العلوم العقلية في حياته الخاصة والاجتماعية، أمَّا تقوى الله فهي ضمان انحراف الإنسان في استخدام نتائج العلم ضد الإنسانية، فالعلم لم يستطع ضمان السعادة للإنسان، لهذا يحتاج الإنسان لتقوى الله كيلا تنحرف نواياه في استخدام العلم استخداماً سيئاً، فتقوى الله هي مصدر القيم النبيلة التي تحقق سعادة معززة بنتائج العلم، وبالتالي فإنَّ الربط بين تقوى الله وديمومة التفكير بغرض استثمارهما – كعاملين متآزرين – في توفير سعادة الإنسان لا بمجرد تحقيق عبادي محصور في أعمال تعبدية من قبل الإنسان لله تعالى.

٣. ويشير النص التربوي الثاني إلى معاني النص الأول، ويوجب على الناس ممارسة عملية التفكر بوصفها وظيفة عبادية وتنمية للقدرات العقلية عند الإنسان، وقول الإمام الحسن عليه السلام: «عليكم بالفكر» يتضمن الأمر بوجوب ممارسة الناس للتفكر، ويعلل الإمام ذلك إن التفكير هو «**حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة**[١]»، وهكذا فإنَّ النصين يتحدثان عن عقل وظيفي يتم تنميته بعمليات التفكير المستمرة والديمومة عليه، أما العقل الآخر فهو العقل العبادي الذي يتيح للإنسان تحت وهج تقوى الله سبحانه أن يستفيد من إبداعات العقل الوظيفي وجعلها في خدمة الإنسان وجعلها أبواباً للحكمة، وبذلك يكون التفكير مفتاحاً لحياة قلب البصير، أي يفتح على قلب الإنسان العلم بالحقائق واستبصاره بها، وهذا يعزز العلاقة بين تقوى الله وعملية التفكير السليم في تحقيق أهداف نبيلة.

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.

٤. أمَّا قوله عليه السلام: «**وأسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به**» فيشير إلى استخدام المعرفة ونتائج التفكير السليم في تحقيق الأهداف النبيلة التي يسعى إليها الإنسان، وتحرير نفسه من معوقات التفكير وأصفاد الشهوة ليكون قلبه مستعداً للوعي بالحقائق الصحيحة التي استبصرها وأدركها بتجليها أمام قلبه وعينه نتيجة تأمل عقلي ذاتي أو تقبل نصيحة من شخص أخلص له، ومن ثم هيَّأ قلبه للتطهر من الشبهات التي تشغل القلب عن التفكير السليم، ومن هنا قال الإمام الحسن بأنَّ «**أسلم القلوب ما طهر من الشبهات**[1]» لتشجيع الناس على تحرير قلوبهم من الشبهات حتى تكون عملية التفكير مثمرة، وذات علاقة بتقوى الله سبحانه وتعالى.

٥. وفي قوله: «عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه» إشارة إلى تحرير النفس من أصفاد الشهوة بتغليب ملذات البطن على ملذات التفكير وحاجات العقل، لهذا دعا – كما تقدم قولنا في موضع من مبحث سابق – إلى التوازن في إشباع الإنسان لحاجاته، وأن لا يكون إشباع حاجاتنا الفسيولوجية على حساب تلبية حاجات العقل، فيؤثر سلباً على عملية «التفكير»لدى الإنسان، مما يعوق الوصول للحقائق الصافية، ويحول دون تحرير النفس من أصفادها وأدرانها، وهذا كله يمنع من جعل التفكير «باباً للحكمة، ومفتاحاً للخير، وحياة لكل قلب بصير» كما جاء في النصوص السابقة، لهذا ركزت فكرة النص على تحقيق توازن بين حاجات الإنسان، وإشباع سوي بين لحاجات «المأكول» وحاجات «المعقول».

٦. ويذهب الإمام الحسن عليه السلام في مقطع من نص عن الارتباط بالعلماء ومجالسهم إلى أثر ذلك في تكوين المهارات اللغوية والعقلية: «من أكثر من مجالسة العلماء أطلق

(١) الحسن بن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول، ص ١٧٠، كلمة الحسن ص ١٩٩، وكتاب الروائع المختارة ص ١٤٠.

عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه»، وهنا يحدد الإمام الحسن أهمية هذه المجالس في تنمية القدرات اللغوية والعقلية وعلاقتهما مع بعض، وفي موضع سابق من هذا المبحث أشرنا للعلاقة بين اللغة والتفكير حينما تحدثنا عن آثار مجالسة العلماء في النمو اللغوي وتنمية القدرات العقلية، فقول الإمام الحسن الزكي بن علي عليه السلام في النص التالي إنَّما يربط بين اللغة والفكر وتكوين مهاراتهما لدى المتعلم كناتج لتأثير الارتباط بالعلماء وحضور مجالسهم، ويقول عليه أفضل الصلاة والسلام:«**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه**»، أي تنمو القدرات اللغوية، وتتفتح قدرات العقل الفطري، وتبرز الإمكانيات العقلية للذكاء.

إنَّ الإنسان ينتج أفكاراً، ويلجأ إلى تكوين معانٍ فيحتاج إلى لغة انسجاماً مع قول الإمام علي عليه السلام «**الألفاظ قوالب المعاني**[1]»، وهو بحاجة إلى الاحتفاظ بهذه المعاني بهذه المعاني التي اكتسبها في مصادر أو سجلات ثقافية، كما يحتاج في الوقت نفسه إلى وسيلة تجعل الإنسان قادراً على التعبير عن أفكاره بلغة مخاطبة مفهومة، وينقلها إلى الآخرين، فالتفكير – كما أنَّ اكتشف الإنسان – لا يكفي، وإنَّما اضطر إلى التعبير عنه بوسيلة هي اللغة التي تتمثل في رموز حسية وكلمات وأعداد وعلامات ومعادلات رياضية يستخدمها العقل الإنساني لحفظ المعاني من الضياع ونقلها والتمييز بينها، وبذلك يستطيع بهذه الخطوات الإفادة من خبرات الآخرين والاطلاع على إنتاجهم الفكري والأدبي والثقافي بواسطة اللغة في الحاضر وفي الماضي لأنَّ اللغة تجعل التفكير يحتفظ بالمعاني التي اكتسبها الإنسان عبر تاريخ طويل ليستفيد منها في حاضره ومستقبله وليست اللغة بالضرورة كلاماً ينطق به بحروف وألفاظ، فقد يدرك الصغار معاني من بيئتهم بالحركات والانفعالات والإشارات واللمس دون أن يتكلم أو يستخدم ألفاظاً

(١) محمدي ري شهري، ميزان الحكمة، ج ٨، ص ٤٥٢.

كأن يضع طفل يده في غفلة منه على إناء «ساخن»، فيدرك معنى السخونة، ويفهم ضررها أحياناً، ويتجنب لمسها من جديد لارتباط «اللمس»بألم الحرارة ووهج سخونتها.

٧. إنَّ نصوص الإمام الحسن وكلماته القصار في موضوع التفكير وفي قضايا أخرى كالإلهيات والمواعظ الأخلاقية والأدعية وموضوع الاعتذار وغيرها تحتضن وسائل عقلية لتنشيط عملية التفكير في حياة الإنسان، ومن وسائل التفكير ما يأتي:

أ. العلاقات بين الأشياء والمفاهيم والأفكار: كإشارته للعلاقة بين الأحداث، وبين البخل كسلوك منفر وبين قطع مشاعر المودة بين البخيل والآخرين من أفراد المجتمع سواء كانوا من الفقراء المحتاجين أوغيرهم.

ب. المفاهيم: ونعني بالمفهوم الصورة الذهنية عن شيء معين أو فكرة ما، ظاهرة، سلوك محدد، أو هو مجموعة الصفات التي تنطبق على شيء ما فتحدده بدقة، بحيث يكون المفهوم مجالاً لتفكيرنا، وللمفاهيم ذات أهمية بالغة في التعبير عن الشيء لتكوين صورة ذهنية عنه وتجسيده باللغة والتفاعل الاجتماعي، كما وجدنا في الأسئلة التي وجهها الإمام علي لابنه الحسن عليه السلام قدرته على تحديد دقيق للمفاهيم، وقد نشرنا النص كاملاً عند حديثنا عن النص الثالث من طريقة (السؤال والجواب) السابقة الذكر أو كما يسميها علماء التربية بالطريقة الاستجوابية، وقوله على سبيل المثال وهو يحدد مفهوم «البخل» فقال عليه السلام: «**هو أن يرى الرجل ما أنفقه تلفاً، وما أمسكه شرفاً**[1]»، وهناك حوالي (٢٨) مفهوماً متنوعاً في قائمة المفاهيم التي حددها الإمام الحسن عليه السلام بناءً

(١) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٢٨ تحف العقول عن آل الرسول، لابن شعبة الحراني قال الإمام الحسن في رده على تحديد مفهوم الشح: « أن ترى ما في يديك شرفاً، وما أنفقته تلفاً «انظر ص ١٦٢، وكذلك كتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة للأربلي، ج٢ ص ٢٠١.، وكتاب الروائع المختارة للسيد مصطفى الموسوي، ص ١٢٨

على أسئلة والده أمير المؤمنين الإمام علي عليه أفضل الصلاة والسلام.

ت. الرموز: الرمز هو كل ما ينوب عن الشيء أو ما يشير إليه مثل الحروف، والألفاظ والكلمات، والأرقام والعلامات، ويلحظ أن الإنسان يعزز صلته بالواقع الخارجي باستخدام الرموز، وتعدّ الحروف والكلمات التي تتكون منها خطب الإمام الحسن وأدعيته ورسائله وكلماته القصار ونصوصه الأخلاقية والروحية والعقائدية والتعليمية رموزاً لغوية قوية تنقل المعنى لشيء ما، فنتصور معنى البخل أو اللؤم أو الاعتذار أو الإساءة، ومن هنا يمكن وصف هذه الرموز أدوات لغوية مهمة لعملية التفكير الإنساني.

ث. الصور الذهنية: وهي عبارة عن صور معبرة عن أحداث، مشاهد من الواقع فنستعيدها بعد غيابها كاستحضار لمسة الطفل لأبيه وهو يحنو عليه أو يربت على كتفه، أو استحضار صورة صديق وهو يسدي نصيحة، ونحن هنا نستحضر بواسطة هذه النصوص حركة الأحداث في زمان الإمام الحسن الزكي عليه السلام حتى لو لم تشهدها بعينك مباشرة.

ج. الإشارات: وهي من أوضح وسائل التفكير، وتدل على أحداث ملحوظة في حركة الواقع الإنساني، فجرس «المدرسة «يدل زمنياً على بدء الدوام، الحصة، انتهاء الدوام، ونحن نتصور أن بعض نصوص الإمام الحسن تعبر عن إشارات لأحداث معينة، فطرح الأسئلة في هذه النصوص، وإبداء المواعظ وإثارة التعجب، والترغيب والتحذير والتشبيه وذكر بعض الكلمات المعبرة كلفظ «ما تشاور قوم» إنما هي إشارات عقلية لنوعية التفكير وطبيعته، وتدل على حركة يفهمها الفرد ويتفاعل معها فيستجيب بما يناسب حركة الإشارة ونوعيتها، فالتفكير كما يقول الإمام في أحد نصوصه التعليمية

هو: حياة القلب البصير ثم قال: «**كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور**[١]».

٨. عندما سُئِلَ عليه السلام فقال: ما العقل؟، فأجاب: «**حفظ القلب كل ما استرعيته**[٢]»، وهنا يؤكد هذا النص على علاقة إيجابية بين التفكير وعملياته الداخلية وبين الذكاء وأنشطته الداخلية كقدرة عقلية فطرية، فالتفكير مرتبط بالذكاء أو العقل الموهوب على حد تعبير الإمام الحسن عليه السلام، ولا يأخذ مداه أو فعاليته القصوى بقدر معين بتفاوت فيه البشر إلا بوجود نسبة «ذكاء فطري»، والواقع أن التفكير حركة إيجابية في تركيز الذهن وتفعيل القدرة العقلية الفطرية أو الذكاء لاستخلاص أفكار كامنة فتجد طريقها إلى البروز بتركيز الذهن في قضايا تكون مجالاً للتفكير، والوصول إلى قوانين استرشادية تضبط حركة التفكير وتوجه سلوك الإنسان مستلهماً نتائج تفكيره السليم، ومن هنا قال الإمام الحسن الزكي بن علي عليه السلام: «**لا يغش العاقل من استنصحه**[٣]».

٩. ولا يكفي أن يكون الداخل الإنساني مجالاً للتفكير وحركته، فثمة حاجة لإبراز تأثير التفكير ونتائجه الإيجابية كنشاط عقلي في حركة الواقع الإنساني وانعكاس بصماته على توجيه الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان، والسمو بها كتوجيه سلوك الذات، وتحسين إدارة العلاقة مع الناس في المجتمع إدارة صحيحة وإيجابية، فمدارة الناس نصف العقل، وقوله عليه السلام الله وبركاته في نص آخر: «**رأس العقل معاشرة الناس بالجميل**[٤]».

(١) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢، ص ١٩٩، وكتاب كلمة الإمام الحسن للعلامة الشيرازي، ص ٢٣

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٦٠، والموسوي، كتاب الروائع المختارة ص ١٣٨.

(٣) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٤٢.

(٤) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٨ ص ١١١، السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٦٣،

العوامل المؤثرة في التفكير

يتأثر التفكير كـ «نشاط عقلي» في حياة الإنسان بعدد من العوامل المباشرة، ويأتي بعضها من داخل الفرد نفسه وطبيعته، وبعضها الآخر تأتي من بيئته الخارجية، ومن المقبول أن يهتم الخطاب التربوي الحسني بإشارات لهذه في باطن نصوصه كما تبين من بعضها، ومن العوامل المؤثرة في ظاهرة التفكير ما يأتي:

أولاً: عوامل من طبيعة المتعلم (الفرد)، وهي مثل ذكائه أو ما سماه الإمام الحسن بـ «العقل الموهوب»، وكذلك عمر المتعلم، وجنسه.

ثانياً: عوامل من خارج ذاته، ونقصد بيئته الخارجية كالتدريب، ونوع التدريب، والظروف الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

***

عوامل من طبيعة المتعلم أو الفرد

١. الذكاء «العقل الموهوب»:

وهو ما ذكرنا أنه قدرة الفرد العقلية الفطرية التي ورثها عن أسلافه، وبخاصة والديه، فهذا العامل له علاقة كبيرة بظاهرة التفكير الإنساني وعملياته الذهنية، ونتائجها، وقد تتفاوت قدرات الفرد في القيام بهذه المهمة بناء على تفاوت نسبة الذكاء الموروثة، لهذا أشار الإمام الحسن بن علي إلى هذا التفاوت في تفاوت الجزاء الأخروي، فجزاء الأفراد على قدر ما وهبهم من عقل موهوب.

٢. الفروق الذاتية العقلية

ويظهر الفروق الفردية أو ما يسميه علماء النفس التربوي المعاصرين بالتمايز في

٢٠١، والموسوي، كتاب الروائع المختارة للموسوي، ص ١٣١، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ٤٣٤.

الذكاء الطبيعي، وفي أنشطة التدريب نفسها، وفي تلقي الخبرات التعليمية من مجالس العلماء ومن غيرها، فالأفراد لا يتساوون في نسب ذكائهم، ولا في فرص تعلمهم، ولا تنطبق تجاربهم في تنمية التفكير بجهد متساوٍ، كما أن بيآت التعلم ومجالسة ليست واحدة في ظروفها، ولا في الجهد، ومن ثم فالمنطقي حدوث تفاوت في تنمية التفكير واختلاف مستويات التعليم، وعدم تساوي خبرات الأفراد في تعلمهم.

٣. دافعية التعلم:

لها كبير في التعلم، وفي مواقف التفكير، فالقلب البصير كما عبر الإمام الحسن يستقبل المعرفة، ويفكر فيها الشخص بطريقة تختلف عن صاحب قلب منغلق، وغير بصير، فكلاهما لديه دافعية بالتأكيد، لكن دافعية أحدهما بصيرة، واعية، وناضجة، وقادرة على الاستيعاب والانفتاح، أما صاحب الدافعية الأقل فقلبه منصرف عن التفكير بعمق، فالمؤمن لا يلهو كما قال ﷺ ولا يغفل، ولهذا إذا تفكر حزن لأنه بعملية تفكره تنكشف له الحقائق المغيبة لدى غيره، ويطلع عليها فيحزنه مستواه وموقعه المتواضع بالقرب من الله أو البعد عن طاعته، وهذا لا يدرك صاحب القلب غير البصير.

عوامل من طبيعة المتعلم أو الفرد

١. مرحلة المتعلم:

يرتبط التفكير بعملية تعلم الفرد منذ سنين باكرة، فإذا ابتدأ التعلم في مرحلة مبكرة كانت فرص التعلم والتفكير أيسر وأقوى فاعلية، وتتناقص هذه الفرصة، ولا نقول بنهايتها أبداً، كلما تأخرت بيئة تعلمه، وانعكس هذا على فرص التفكير التي يعيش فيها، مما يسرع بنمو قدرات الأول ويبطئ بقدرات الآخر، وهذا يترك بصماته على تفكيره ومستوياته وأدواره في مواجهة مشكلات الفرد وحلها.

٢. التدريب الموجه الهادف:

لا يكفى أن يوهب الفرد نسبة عالية من الذكاء الطبيعي، وإنما يحتاج إلى تدريب موجه وهادف يؤدي إلى تنشيط القدرة على التفكير وعملياته، فيؤدي إلى مزيد من تنمية القدرات التعليمية، ولهذا أشارت نصوص الإمام الحسن الزكي بن علي إلى التعلم من الصغر، ومواصلته حتى إتقان الخبرات، وتعلم ما هو جديد، وإدامة التفكير، والاختلاط بالعلماء وحضور مجالسهم، والاهتمام بتنمية القدرات اللفظية والعقلية الناس للارتباط بالعلماء ومجالسهم، وتكوين المهارات اللغوية والعقلية كما جاء في قوله عليه السلام: « **من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه**»، ويظهر التدريب أيضاً في نص « تحديد المفاهيم» الثمانية والعشرين.، وكذلك يتم تدريب عملية التفكير بالتشاور الجماعي، وحفظ القلب البصير كل ما استرعاه من خبرات تجارب.

٣. طرق التعلم وأساليب التدريب:

لا يتاح للمتدرب دائماً طرق تفكير واحدة، فهناك معلمون متفاوتون في إمكانياتهم الذاتية واتجاهاتهم النفسية، واختلاف أهدافهم من العمل في المجال التربوي، لهذا ليس بالضرورة أن تكون طرائق تدريب طلابهم متساوية أو متشابهة، وليس هناك من نتيجة لهذا التباين سوى تباين أيضاً في نوعية التفكير ومساراته وحدوده، فبعض المعلمين لهم اتجاهات دينية محضة، وربما منحرفة في عقائدها، فلا يتوقع في بيئة تفكير كهذه أن يكون مسار التفكير ومنتجاته من الآراء في وضع صحيح يطمئن المفكر العابد لله سبحانه وتعالى على مسار تفكره وتأمله العقلي.

***

خصائص التفكير في خطاب الإمام:

كما للتركيبة الآدمية في كثير من ظواهرها المتعددة خصائص أساسية، فثمة خصائص للتفكير الإنساني استنتجناها من نصوصه التعليمية والمعرفية، وفي مجال التفكير، ومن تلك الخصائص التي تعرفنا عليها في مجال التفكير الإنساني ما يأتي:

١. ربانية التفكير وعلاقته (بتقوى الله وطاعته)، فتأكيد الصلة بين التقوى وعملية التفكير ذاتها هو تحديد لهدفية التفكير وصبغه بطابع عبادي روحاني، لذلك قال: « أوصيكم تقوى الله « سبحانه وتعالى.

٢. استمرارية التفكير وديمومته، يظل الإنسان في تفكير مستمر سواء واجه مشكلة أو أنه يتفكر خارج عالمه الدنيوي استعداداً لمعرفة مصيره في الآخرة.

٣. هدفية التفكير(هناك تفكير لحل مشكلة آنية ثم يجمد تفكير المرء عند رتابة الحياة وبساطتها ولا يتمنى استخدام هذه الطاقة أبعد من أرنبة أنفه، فيقضي على طموحاته المستقبلية، وهناك من يكبر عن رتابة الحياة ويفكر في كل الظواهر المحيطة به لينتج شيئاً جديداً.

٤. توازن التفكير وتوزعه على كل المجالات الإنسانية (يتحرك التفكير السليم ليتوزع على مجالات حياة الإنسان وعالمه المادي لا ليحقق أحلامه بحياة قصيرة، وإنما ليمد أعناقه لما بعد دنياه بأجلها القصير.

٥. واقعية التفكير، فكل مجالات التفكير لديه هي حقيقية واقعية، ويمكن للفرد أن يتخذ منها موضوعاً للتأمل والتدبر وإعمال عقله للوصول إلى حقيقة جديدة أو تثبيت حقيقة قائمة أو حل مشكلة معينة.

أدوات التفكير

إذا كان الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام قد دعا في نصوصه – كما تقدم الحديث – للتفكر والتفكير والتدبر في الأمور وإعمال العقل فيها فإن أدوات الإنسان في ذلك:

١. الحواس ولاسيما حاستي النظر أو البصر، وحاسة السمع، وفي ذلك يشير النص الآتي وهو يتحدث عن القرآن الكريم: «**واعقلوه إذا سمعتموه عقل رعايته ولا تعقلوه عقل روايته، فإن رواة الكتاب كثير، ورعاته قليل**[١]»، ويدعوهم في نص آخر إلى قراءته وحفظه والعمل بأحكامه، فيقول الإمام الحسن عليه السلام: «**إن هذا القرآن فيه مصابيح النور، وشفاء الصدور، فلْجُلٍ جالٍ بضوئه، وليُلجم الصفة قلبه، فإنَّ التفكير حياة القلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، وما بقي في الدنيا غير هذا القرآن، فاتخذوه إماماً يدلكم على هداكم، وإنَّ أحق الناس من عمل به وإنْ لم يحفظه، وأبعدهم من لم يعمل به وإنْ كان يقرؤه**[٢]».

٢. العقل أو القلب، وهذه الأداة ضرورية في التدبر والتفكير وتكوين المعرفة، فمن الصعب أن تنتج التجربة الحسية علماً ومعرفة إذا لم يكن هناك عقل يدرك أو يتفهم ويفسر ويستخدم مهاراته الإدراكية الأخرى، لهذا يعد العقل أو القلب مصدراً للمعرفة.

٣. الوحي: وهذا المصدر خارج عن الذات الإنسانية، لكنه في نصوص المشرع مصدر رئيس للمعرفة والتعلم[٣]، والدعوة للتفكر من نصوص لها علاقة بالوحي واضحة في مجمل النصوص المتقدمة للإمام الحسن عليه السلام، وإشارته لقراءة القرآن الكريم

(١) الحسن بن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٤.
(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣.
(٣) يوسف مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية ص ٤٦٤

وحفظه والعمل به تعبير عن الارتباط بالوحي الإلهي.

***

مجالات التفكير

يمكن استعادة النصوص الثلاثة التي ذكرت مصطلحات الفكر والتفكر والتفكير، للتعرف مباشرة على مجال التفكير في تركيبتها اللفظية.

- فقوله: «**أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكر، فإن التفكر أبو كل خير وأمه**[١]».
- وقوله: «**عليكم بالفكر، فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة**[٢]».
- وقال الإمام الحسن كذلك في نص آخر: «**التفكير حياة القلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور**[٣]».

إذا أمعن الكائن الآدمي بعقله الفطري والمكتسب النظر والتأمل في النصوص الثلاثة يصعب عليه الجزم بتحديد مجال معين لتفكيره حتى وإن ظهرت بعض الدلائل على ذلك، فكلمات «الفكر، التفكر، التفكير» تتوسع قرآنياً في مجالات ثلاثة هي الذات وعالمها الداخلي، والكون أو العالم الخارجي، والتاريخ أو المجتمع البشري، ولكن ما نلحظه مباشرة في النصوص الثلاثة أن مجال «التفكير»هو الذات فعلياً وتأمل عالمها الداخلي.

وتوحي بعض كلمات النصوص الثلاثة السالفة الذكر بتركيزها على هذا المجال، فعبارات «**حياة القلب البصير، وحياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة، وكما**

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٠.
(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.
(٣) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٩.

يمشي المستنير في الظلمات بالنور، وأوصيكم بتقوى» تدل على خطاب موجه للذات الإنسانية، بيد أن «إحياء القلب»وجعله بصيراً لا يتم بالتأمل في عالم الذات الإنسانية وحدها، وإنَّما بتأمل أوسع يمتد إلى التأمل في الآفاق لا يقل أثراً عن التأمل في النفوس.

فالعالم المادي أو الكون الخارجي أحد أهم مجالات التفكير لدى الإنسان وأوضحها، وهو بوابة الوصول إلى بعض أهداف عملية التفكير، بل أن كلمة «الأنفس»القرآنية كما نفهمها لا تتوقف عند حدود حياة فرد أو نمط معيشة لجماعة، وإنَّما تشمل مجال التفكير في حركة المجتمعات وسبرها في التاريخ لقول الإمام الحسن عليه السلام:

«**اتقوا الله عباد الله، وجدوا في الطلب، وتجاه الهرب، وبادروا العمل قبل مقطعات النقمات، وهاد اللذات، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجيعها، ولا تتوقى في مساويها، غرور حائل، وسناد[1] مائل،فاتعظوا عباد الله بالعبر، واعتبروا بالأثر، وازدجروا بالنعيم، وانتفعوا بالمواعظ، فكفى بالله معتصماً ونصيراً، وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً، وكفى بالجنة ثواباً، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً[2]**».

ومع ذلك فإنَّ ما يعنينا وفاقاً لمعاني النصوص الثلاثة هو التركيز على مجال «عالم الذات والتأمل في عالمها الداخلي»، ولكن يمكن النظر للنص الرابع على أنه تحديد لمجال ثانٍ للتفكير هو «دراسة التاريخ وقوانين حركة المجتمع» الإنساني، مع إشارات الفكر والتفكر والتفكير توحي بطريق غير مباشر للتفكر في:

١. مجال الآفاق.. أي التأمل في ظواهر الكون والعالم الخارجي المادي.

---

(١) السناد: ككتاب الناقة الشديدة القوية، ومن الشيء عماده « انظر تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ١٧٠.

(٢) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٧٠.

٢. وعندما نطق الإمام بالأقوال الثلاثة قصد المجالات الثلاثة إلاَّ أن المعاني الظاهرية تتجه نحو دراسة «عالم الذات وتأمل خصائصها» في النصوص الثلاثة الأُول.

٣. وأما في النص الرابع فيتجه للأمر في دراسة حركة المجتمعات وسيرتها في التاريخ.

ولا نجد ذكراً مباشراً للآفاق بالتعبير القرآني في النصوص الأربعة، كما لم نعثر مباشرة على إشارة تذكر الآفاق في نص تربوي حسني، لهذا نرى أن الدعوة للتفكر شاملة تمتد للمجالات الثلاثة.. الذات والكون والمجتمع أو التاريخ مع ذكر مباشر للأول في الأحاديث الثلاثة الأول وذكر مباشر لدراسة التاريخ أو المجتمع في النص الرابع.

وفي النص الخامس تأكيد على التفكر في الذات وعالمها، فقد جاء رجل للإمام الحسن مستصعباً القدرة على «عدم صدور فعل الذنب» منه، فرد عليه الإمام الحسن بقوله وهو دعوة للتفكر: « **افعل خمسة أشياء واذنب ما شئت:**

لا تأكل رزق الله واذنب ما شئت.

واطلب موضعاً لا يراك الله واذنب ما شئت.

واخرج من ولاية الله واذنب ما شئت.

وإذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فادفعه عن نفسك واذنب ما شئت.

وإذا دخلك مالك النار، فلا تدخل النار، واذنب ما شئت[1]».

***

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٤١.

أنواع التفكير

حصرنا عملية التفكير أكثر من نوع، فهناك خمسة أنواع:

أولاً: أنواع التفكير من المنظور العبادي – السيكولوجي وهما:

نوع سوي مأمور به، ويركز على التأمل العميق في آلاء الله وصنعته في الكون، وفي أحوال الأمم الماضية، وفي السلوك العام للأفراد (عالم الذات وأفعالها) كما في نصوص التفكر والتفكير التي مررنا عليها، فقد أوصى في مدخل أحد نصوصه التربوية بقوله: «**أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكير**».

ونوع آخر من التفكير غير السوي يسميه المعالج النفسي الوضعي بالتفكير العصابي، وقد نهى المشرع التربوي الإسلامي عنه لأنه موجه لأهداف لا تتفق مع الإطار العام للفلسفة، وتتمثل المعاصي واللذات المحرمة، والإكثار من التفكير في ذات الله لا في مخلوقاته مظاهر سلبية للتفكير العصابي[1] كما في نص حديث«**اذنب ما شئت**» المتقدم ذكره.

***

ثانياً: أنواع التفكير من الناحية الوظيفية وهما:

١. التفكير الاستنتاجي كما في النصوص، هناك مقدمات في باطن كل النصوص التي أشرنا إليها، وهي مدخل منطقي تمكن الفرد من التفكر في معاني هذه المقدمات، واستخراج نتيجة منها يتم التوصل لها بفعل إعمال العقل فيها والتدبر في مضامينها.

٢. ونوع ثانٍ من التفكير هو التفكير الناقد أو النقدي كما أوضحه الإمام الحسن عليه السلام

(١) يوسف مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية ص ٤٦٥

في حديثه عن « المأكول والمعقول « الذي انتقد فيه مبالغة الناس في إشباع حاجاتهم الجسدية وإهمال حاجات عقولهم، وطالب عليه السلام في هذا النص بالدعوة إلى تحقيق التوازن في اشباع حاجات الجسد وحاجات العقل على حد سواء.

٣. تفكير تأملي في أفعال الذات، وظواهر الكون وسير المجتمعات.

٤. تفكير مادي حسي يعتمد على إثارات الحواس الخمس وفعاليتها، فالحواس نافذة التعلم والمعرفة والتفكير.

٥. التفكير الواقعي، كالذي يهدف إلى حل مشكلة قائمة فعلياً.

***

القيمة التربوية للتفكير

العلاقة بين التفكر والتعلم جدلية وتبادلية، فالتفكير يوجه عملية التعلم في مساراتها الصحيحة، وعملية التعلم ترفع من فعالية التفكير باستخدام طرائق متجددة تناسب كل ظرف يعيشه الإنسان، وتجعله علامة على تأثره بمستوى المفكر إن كان عالماً من العلماء أو كان من الناس العاديين أو بحسب الموقف المثير.

ومن هذه الجوانب التي تمثل مظاهر للتعلم الناجم عن عملية التفكير:

١. التفكير أساس التخطيط، فالفرد عن طريق هذه العملية يدرس الواقع ويبدأ في التخطيط لحاضره ومستقبله بنحو أفضل.

٢. استخدام مبْدأ التغذية الراجعة على أساس عملية التفكير، فهذه العملية تطلع الفرد على نتيجة عمله، وتحيطه بأدائه، فيدرسه بدقه، مما يتيح له أن يتعلم جيداً ويتقن أداءه بصورة أفضل.

٣. كشف الحقائق واستجلاء الأمور واستبصارها.

٤. توجيه السلوك (خاصة في جانبه العبادي) والدنيوي أو الوظيفي كما ذكرنا ذلك في حديثنا عن أنواع التفكير بقسميه العبادي والوظيفي.

٥. ربط السابقة و اللاحقة، فتتراكم خبراتنا بعمليات التفكير وتفعيله في مواجهة التحديات والمثيرات، فتتوالد حينذاك هذه الخبرات، فالتفكر في خبرة سابقة يجعل الإنسان يتقن علمه ويفهم ما لم يكن يفهم، أي أنَّ فهم الخبرة السابقة ورغبة الإنسان في تطويرها يؤدي إلى نمو خبرة جديدة، وهذه النمو مظهر لقدرة الفرد على التعلم، وهكذا فالتفكير طريقة رشيدة لربط الخبرات وتثبيتها وتطويرها، وهو أفضل من تكرار أعمى أو حفظ أصم جامد، وتشهد عبارات الإمام الحسن بن علي في حديثي (إتقان التعلم ومجالسة العلماء) ونصوص أخر ربط الخبرات مع بعضها وتعلم الخبرة القائمة والسعي لتعلم خبرة جديدة.

٦. اكتساب خبرة نافعة كما في نص حديثي «الإتقان، ومجالسة العلماء»

٧. تنشيط الحواس وتفعيلها، فإن الحواس أدوات أساسية لإنتاج تفكير مفيد وفعال.

٨. ومن الفوائد التربوية المترتبة عن عملية التفكير ومجالاته التي تؤدي في نهاية الأمر إلى تعلم ناجح في تنمية الاتجاه العلمي لدى الأفراد وإكسابهم عادات التفكير الصحيح، وأساليب كيفية استخدام الطريقة العلمية في التفكير وحل المشكلات،إذ لا يكفي في نظر المشرع الإسلامي مجرد التفكير، بل لا بد أنْ يتعلَّمَ الإنسان كيف يفكر؟ أي أنَّ الإنسان بحاجة إلى تعلم طرق التفكير والتدريب على مهاراته.

فكما أنَّ الكائن الآدمي يتعلم لمدة طويلة في سنوات طفولته ـ وما بعدها ـ كيف يشرب ويأكل ويتعامل مع الآخرين، فإنَّه أيضاً بحاجة لكثير من التوجيه لتعلم طرق التفكير وأساليبه، ليتجنب أخطاء التفكير غير المنطقي، وينمي عادات التفكير السوي، فيتعلم بالتفكير النظر إلى الأمور بعقلانية مستنيرة، والاعتماد على الدليل العلمي في إثبات الحقائق، ويتعلم المرونة العقلية، والموضوعية مع القضايا والأحداث والمشكلات، ويتعلم أساليب وطرق إنماء قدرات عقلية كالنقد، والتحليل، وإصدار الأحكام، والاستدلال، واستخدام أسلوب الشك المنهجي، وربط الخبرات مع بعضها، والتخطيط والتعبير الكمي عما يستخدمه الإنسان من ألفاظ ومصطلحات، وكذلك القدرة على إدراك العلاقات بين الأشياء، فهذه القدرات وغيرها لا تنمو إلاَّ في بيئة التفكر السليم، وهكذا نجد أنَّ التفكير المنظم أسلوب تعلم جديد وطريقة لاكتساب معرفة علميَّة صحيحة[١].

(١) يوسف مدن، التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية (بتصرف) ص ٤٧٠ – ٤٧١.

الحلقة الخامسة

القدرات العقلية في خطاب الإمام الحسن عليه السلام

القدرات العقلية في خطاب الإمام الحسن عليه السلام

ذكرنا من قبل مراراً في أكثر من موقع من مباحث هذا الكتاب التي بين يديك أن الإنسان يولد «بعقل موهوب فطري»يسميه علماء النفس المحدثون بالذكاء أو يطلقون عليه أحياناً «القدرة العقلية العامة»، وله التسمية نفسها في التراث العربي بلفظ الذكاء، وتلك حقيقة علمية أجمع على تأكيدها علماء النفس والتربية الحديثة وعلماء الأخلاق والدين والثقافات الإنسانية، وهو قوة عقلية فطرية خام تحتاج إلى جهد منظم لتنميتها، وتقوية أدائها.

كما أن للعقل الموهوب أو «الذكاء»مسميات في مصادر الفكر التربوي الإسلامي ونصوصه، ومنها «عقل ولادة»و«عقل الطبع» و«العقل المطبوع»، ويقابل الذكاء، وهذا العقل الفطري الموهوب عقل آخر يتم تكوينه من خلال تجارب المربي على امتداد عمر الفرد منذ طفولته حتى مراحل متقدمة من عمره، ويعرف في أدبيات علم النفس المعاصر بالتجارب أو العقل المكتسب أو العقل المسموع أو البيئة الخارجية، أما بعض الروايات التربوية الإسلامية فتسميه بـ «عقل التجربة»و«عقل إفادة»و«العقل المستفاد» و «العقل المسموع»و «عقل الخبرة».

ومهما تعددت أسماء «العقل»ومفرداته اللفظية بنوعيه «الفطري والمكتسب» فإنَّ ذكاء الإنسان يتفاعل منذ اللحظات الأولى لوجوده مع تجارب المربين وتدخلاتهم في كل زمان ومكان، فينتج هذا التفاعل «علماً» أو نمواً «للقدرات العقلية الذاتية» أو

«عقلاً مكتسباً»، وهو في أصلها مجموعة قدرات كامنة فطرية مركوزة في داخل التركيبة الآدمية تحمل قابلية التطوير، وتنتظر التدخل الإيجابي لتنميتها، ثم تتحول بعد تدخل المربي ورعايته المستمرة إلى قدرات عقلية حقيقية تؤهل الفرد لممارسة دوره في حركة الحياة، وقد ينعكس الأمر إذا ما اتجه المربي بتدخل سلبي إلى نتائج غير محمودة العواقب كاستخدام الذكاء وقدراته في تحقيق أهداف شريرة كما فعل الأشرار في تاريخنا البشري.

ومما لا شك فيه أن المشرع التربوي الإسلامي سواء في القرآن أو أحاديث النبوة أو أقوال المعصومين قد أدرك أهمية التوجيه الإيجابي للعقل وتنمية قدراته، فحشد في مصادره المتعددة عدداً ضخماً من النصوص التربوية في مجال التربية العقلية وبخاصة اهتمامه بتنمية القدرات العقلية لدى الإنسان، وشكلت هذه النصوص مرجعية في الثقافة التربوية الإسلامية، وتم تأسيس هذه المرجعية التربوية لهذا الموضوع في المرحلة الأولى من قيام الإسلام كدين وكدعوة إنماء إنساني لقدراته في إطار تفعيل الأحكام الإسلامية التي تربط بين طاعة الله وعبادته وبين القدرات الذاتية للإنسان، وتكرَّس هذا التأصيل للثقافة المرجعية التربوية عند المشرع التربوي الإسلامي منذ لحظة قيام الإسلام بدعوته، واستمر في عصر النبوة الكريمة، ثم امتد في حياة الأئمة المعصومين خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

وكان الإمام الحسن الزكي من الأئمة الاثني عشر المعصومين عليهم السلام الذين تعهدوا هذه المرجعية بالتأصيل لرعاية القدرات الذاتية لدى الإنسان في مجالات متعددة، وفي صدارتها القدرات العقلية، وأبرز هذه المرجعية عناية الإمام الحسن عليه السلام من خلال عنايته بالتعلم والتعليم والتوجيه الوعظي والتربية الروحية، وهي عناية تدل على اهتمامه عليه السلام بتنمية قدرات العقل الإنساني وتربيتها وإذكائها وتفعيل إمكانياتها الفطرية، ومما لحظناه

في مباحثنا أنه عليه السلام ركز على إثارة اهتمامنا بعملية التعلم والتعليم كمسئولية شرعية وكواجب ديني واجتماعي وذاتي، ولهذا فإنَّ نصوصه في موضوع التعليم قد حظيت بنصيبها الأكبر في هذا الكتاب لدورها في التنمية العقلية وإثراء الذكاء وتطوير قدراته بطرائق إيجابية.

لقد ذكرنا أن نصوص الإمام الحسن السبط بن علي عليهما السلام أشارت لعدد من القدرات العقلية لدى الإنسان ولكن دون تركيز ملفت، لهذا لم تأخذ حظها كما ينبغي في المباحث المتقدمة، وأننا لم نستطع فيها تفصيل الحديث عنها بنحو يجعلها أفكاراً ملحوظة تستحق الاهتمام، ومع ذلك مررنا على بعضها في أثناء حديثنا عن المبحث الأساسي لهذا الكتاب وهو موضوع «التعلم والتعليم» الذي هو قلب الفكر التربوي عند الإمام الحسن، ونعتقد أن لهذه القدرات العقلية أهميتها في التكوين التربوي لشخصية الإنسان، وفي تحديد قيمته كصانع للفعل الحضاري وانجازاته وإبداعاته، ولهذا فإنه من الضرورة إعادة جمع نصوص الإمام الحسن وحصرها في هذا الموضوع وصياغته كوجهة نظر موضوعية موحدة صياغة معاصرة أو مناسبة لاهتمامات القارئ في هذا الزمان.

***

مفهوم القدرة العقلية

ليس مطلوباً من الخطاب التربوي للإمام الحسن أن يبين عليه السلام كل شيء من معانٍ ومصطلحات ومفاهيم، وإن كان قد فعل في بعض المواقف، ومسوغات ذلك أن لغة العرب بالنسبة لمن خاطبهم الإمام كانت واضحة، وأن العرب اعتادوا على فهم حتى الكلمات التي نجدها اليوم كلمات صعبة، وغير مألوفة لدى الأجيال الجديدة من العرب، لهذا كان منطقياً أن لا يحدد الإمام عليه السلام مفهوم القدرة العقلية بمسماها الجديد

في كتابات علماء النفس المحدثين ولاسيما علماء النفس التعليمي، وبنفس ألفاظهم وتعبيراتهم، وإن كانت كلماته توحي للقارئ الكريم بدلالة محتواها المعرفي.

والقدرة العقلية لدى الإنسان هي بلغة سهلة «تمكُّن الفرد من إتقان مهارة في المجال العقلي أو أداء سلوك إدراكي بنحو يجعل الأداء سهلاً، وحركته تلقائية، وانجازه سريعاً مألوفاً لا يحتاج إلى طول تفكر وتأمل، ويكون مستعداً لتوظيفها في مجالات تطبيقية بحياته الذاتية وحياة الآخرين"، فأصحاب القدرات العقلية هم «أولو العقول[1] «كما في أحد أحاديث النبي صلى الله عليه وآله.

***

أهداف الاهتمام بالقدرات العقلية

تنمية الذكاء الفطري كقدرة عقلية عامة وكقدرات فرعية متمايزة.

تنمية المهارات العقلية المتمايزة كالحفظ والفهم والقراءة والكتابة والإتقان والنقد والتطبيق والاستنتاج وغيرها من قدرات العقل بالمران والتدريب الموجه.

معرفة شروط نمو القدرات العقلية لدى الفرد وتحديد عوامل تطورها.

التعرف على النصوص التعليمية في تراث الإمام الحسن التي اشتملت على إشارات إيجابية عن القدرات العقلية.

تدريب وتأهيل العقل وتأهيله فالصقل «الموهوب» لتنميته وظيفياً من جهة، وليؤدّي من جهة أخرى وظيفته العبادية.

***

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٦.

شروط نمو القدرات العقلية

القدرة العقلية في أصلها ذكاءً فطرياً ولدنا كبشر مزودين به أو هي في أصلها «عقلاً موهوباً» فطرياً يحتاج إلى تنمية وتفعيل، وبين كمونه وتحققه مسافة كبيرة تختصرها خطوات تدريبية تتفاعل فيها شروط محددة، وينتج عنها حركة نمو تصاعدية في «قدرات الذات العقلية»، ويراد لها أن تكون في خطة المربي أو تخطيط المدرب أيًّا تكون صفته ومسماه، ويلحظ من هذه الشروط أن بعضها تأتي من طبيعة المتعلم كمستوى ذكائه ودافعية التعلم لديه، ومدى توافر الأمن والحرية بالنسبة إليه، وبعضها الآخر يأتي من خارج ذاته ككفاءة المدرب أو نشاطه، واستخدام المعززات التربوية أو نوع التدريب ومدى جديته.

ومن هذه الشروط:

- الذكاء الفطري.
- دافعية التعلم.
- وجود مدرب كفء.
- نوع مادة التدريب لتنمية المهارات العقلية.
- الإحساس بالأمن والحرية.
- تعزيز التعلم بالإثابة.

***

١. توافر الذكاء الفطري

هذا من أهم شروط نمو القدرة العقلية وأهم عواملها تطويرها، فلا بد أن تتوافر

كهبة إلهية في الكائن الآدمي نسبة طبيعية من القدرة العقلية، ويسميه علماء النفس المحدثين بالقدرة العقلية العامة، ويطلق عليه الإمام الحسن بـ «العقل الموهوب» كما جاء في أحد نصوصه، وهو طاقة عقلية فطرية نرثها بقدرة الله، فالله سبحانه يزودنا بها، وتنمو فيما بعد بالتدريب، ولكن البشر ليسوا متساوين في ذكائهم كما أبلغنا الإمام عليه السلام لا بسبب توزيع غير عادل من الله سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً، وإنما بسبب معوقات وراثية أو نوع الأغذية التي تتناولها الأم أثناء الحمل أو بتأثير عوامل وراثية لا دخل فيها للفرد، والملحوظ أنه كلما كانت نسبة الذكاء أعلى لدى الفرد كانت فرصة نمو قدراته العقلية وترقيتها أفضل، بحيث يكون تعلمه أسرع وأثبت في مجالات عديدة، وفرصة نمو القدرات العقلية الفرعية وتمايزها كالحفظ والقراءة والكتابة والاستنتاج والنقد وغيرها تكون أحسن، وبهذا الشرط، وقد هيأه الله تعالى لكل الأفراد بنسب عادلة، يتمكن كل فرد بحسب طاقته العقلية الفطرية من تنمية قدراته العقلية ومهاراته الذهنية وتحقيقها.

***

٢. دافعية تعلم نشطة

الذكاء ذو طبيعة عقلية محضة، أما «دافعية التعلم» فذات طبيعة وجدانية وسيكولوجية،وتعني مدى انتباه الفرد وتركيزه بعملية التعلم ومدى قناعه بعملية التعلم بأسرها من جهة، وتعني حماسه ومستوى حالته النفسية، وظروف التشوق إليه أو عدم الإقبال عليه بدافع من داخله أو من مؤثرات عالمه الخارجي، وبلغة سهلة تعني دافعية التعلم في جانبها الوجداني بمدى حب الفرد للتعلم أو نفوره منها فكثير من الأذكياء – لسوء الحظ – لم يتمكنوا من استثمار طاقتهم العقلية بسبب فتور طاقتهم

الدافعية وفتور دافعيتهم في التعلم ونظرتهم السيئة إليه وقلة اهتمامهم بالعلم وقيمته الحضارية في مستقبل الأفراد وتطور المجتمع الذي يعيشون في أحضانه، ولهذا فإن خطاب الإمام الحسن في بعض نصوصه قد أكثر عليه السلام من التوجيه لأبنائه وأبناء أخيه لتنشيط دافعية التعلم لديهم وتكوين موقف إيجابي، محب للتعلم، ولعل القارئ يتذكر كلماته عليه السلام في أكثر من نص كلماته التي تستثير دافعية التعلم لديهم وتقويها وتعزز إيمانهم بقيمة العلم كقوله لهم: «**تعلموا العلم**»، وقوله: «**وتعلم علم غيرك**»، وقوله: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه وفتق ما رتق له من ذهنه**».

إن الوظيفة التربوية والسيكولوجية لمثل هذه الكلمات هو شحذ همة الأفراد وتحريك دافع التعلم في داخلهم بالإثارة والتنشيط والتشويق حتى تكون الدافعية مؤثرة، ومفيدة وقادرة على النشاط، ولهذا ابتدأ الإمام الحسن عليه السلام بإثارة حماس أطفاله وأبناء أخيه وتشجيعهم وهم صغار في مرحلة مبكرة من أعمارهم على التعلم ومحبته وتشويق نفوسهم إليه، وبتساند الذكاء ودافعية التعلم لدى الفرد وعوامل أخرى تتهيأ شخصيته للتعلم وتتيح لقدرات العقل أن تنمو منذ المراحل الأولى من العمر.

***

٣. وجود مدرب كفء

قد يكون المدرب أباً أو معلماً، وهذا من ظروف التعلم ولوازمه، ولكن يشترط أن يكون على دراية وكفاءة في مجال لتعلم «الخبرات» التعليمية المطلوبة لانجاز مهمته في مساعدة الفرد على إنماء قدراته العقلية، ولا ينحصر دور المدرب في كفاءته المهنية فحسب، وإنما في استخدامه الطرائق التدريبية التي يستخدمها، وفي قدرة هذا المعلم على تنشيط دافعية التعلم ومقاومة كل ميل طبيعي مضاد للتعلم، وفي حل مشكلات

المتعلم الشخصية أو التي لها صلة بالتدريب، فالمدرب قوة تأثير لتوجيه الفرد نحو مسار يضمن منه التعلم الجيد الذي يسهل على المتعلم تنمية قدراته، وحديث الإمام عليه السلام عن الإتقان لا يخص المتعلم وحده، فالنص التربوي الحسني إنما لتوجه المعلم والمتعلم نحو قيادة العمل التعليمي بكفاءة تحقق لهما إتقان عملهما، وإحداث «تعليم» اتقاني بنفس القدر الذي يحقق «إتقان الخبرة «التعليمية لدى المتعلم.

***

٤. نوع مادة التدريب

هذا الشرط في غاية الأهمية لنجاح تعلم الفرد، فهناك «برنامج تدريب» ينبغي تجهيزه من قبل المدرب والمعلم، أو مادة تعليمية «يجب اختيارها من قبل المتعلم لتنمية هذه القدرة العقلية المراد الاهتمام بها، وعلى المدرب توجيه المتعلم أو المتدرب إليها ومساعدته في اختيارها بدقة، فالبرنامج التدريبي الجيد يسهم بإيجابية في عملية التنمية، أما إذا كان البرنامج ضعيفاً فيعوق نموها، فإذا كانت المادة التدريبية وطرائقها فعالة ومحبوبة من المتعلم، وتراعي بعملية الكيفية الصحيحة التي تحقق النمو السليم كانت نمو القدرة العقلية بطاقتها الكاملة أو أدنى فرصة أفضل، وحينما تكون المادة متخلفة، ولا تحمل ثقافة جديدة، فإن القدرة ستنمو بمستوى اقل لا يتيح للفرد استخدامها في تطوير إمكانيات ذاته.

وهكذا فنوع مادة التدريب يؤثر على نوع الخبرات التي يرعاها برنامج التربية للقدرة، فإمَّا تدريب مفيد يأخذ القدرة العقلية إلى مداها الأفضل، وتدريب عقيم قد يحركها لمستوى لا يبلغ بها الحد الأدنى من النمو الفعال.

***

٥. الأمن والحرية

الأمن والحرية شرطان للتعلم، ولإشباع حاجات الفرد العقلية، فمن الصعوبة بمكان أن يتعلم في أجواء الخوف والضغط واغتصاب حرية الفرد المتعلم، فالأمن حالة نفسية إيجابية، بل هو حاجة مهمة وحيوية لتحريك نشاط سيكولوجية المتعلم، وتتهيأ ذهنية لاستقبال المعرفة وتلقي العلم حتى لحظة تكوين الخبرة واكتمال نموها التدريجي، ثم ظهورها في حركة الحياة باستخدامات من الفرد، أما الحرية فهي رديف لمشاعر الأمن، فإذا ما فقد المتعلم حريته في اختيار مادة الدراسة، واختيار معلمه، وأنواع الأنشطة التعليمية التي يرغب في أدائها لتقوية المهارات المطلوبة فإن نفسه تشعر بالضيق، ويداهمه الفتور ونقص الهمة، وقلة الحماس، مما يؤدي إلى متاعب في عملية التعلم والشعور بخطر يتهدده، ويتهدد مستقبله التعليمي، وهذا يصرف طاقته النفسية والعقلية عن الاهتمام بالتعلم، مما يؤثر سلباً على اشباع حاجاته العقلية والنفسية، وتنمية مهاراته الذهنية التي يسعى المدرب (معلم أو أب أو قائد ورشة أو غيره) إلى تكوينها وإظهارها.

ولعل القارئ الكريم يستعيد كلمات الإمام الحسن في مقطع من حديث «مجالسة العلماء»، وعندما قال أحد نصوص: «وسره ما وجد من الزيادة في نفسه»، فإن هذه الجملة تعبير عن حالة نفسية يستشعر فيها الفرد المتعلم الأجواء الطبيعية للتعلم من أمن وحرية وسرور وشعور بالثقة بالنفس، وبنتائج عملية التعلم، ومعرفة أدائه مباشرة وبخاصة بعد أن اكتشف بنفسه زيادة مستوى التقدم لديه في الأداء التعليمي وفي المشاعر النفسية، وفي ذلك إحساس بالحرية والطمأنينة تترك بصماتها على بيئة التعلم، وسيكولوجية المتعلم.

٦. التعزيز والإثابة

يؤثر في أداء المتعلم أكثر من عامل، وبتساندها تتهيأ الفرصة لنمو قدرات عقلية تترك أثرها الإيجابي على مستقبل الفرد، ومن ذلك تعزيز الأداء التعليمي وإثابته، فكلما تقدم في أدائه ونجحت استجابته بالانتقال من مستوى أقل إلى مستوى أعلى تعزّز هذا التقدم بالثناء أو بالمدح أو بالتوجيه وبالشكر أو بجائزة أو بأية إثابة مادية ومعنوية، وبتتابع الأداء التعليمي وتقدمه المستمر تبدأ بعض القدرات في التكوُّن والتأصل والرسوخ حتى تصل لمستوى الإتقان التام، وباختصار فإنَّ إتقان التعلم، وتعلم جديد مظهران للإثابة.

فإذا أتقن الفرد بالتدريج خبرته التعليمية التي يمارسها، وينتقل فيها من مرحلة سابقة إلى مرحلة لاحقة أعلى منها بنحو أفضل تعلم مزيداً من الخبرة العقلية، وتهيأت نفسيته وذهنيته لتعلم خبرة جديدة تزيد من مستواه التعليمي، ولو لم يكن للمتعلم إلاَّ هذا التقدم في خبراته التعليمية، والاستزادة من الخبرات الجديدة لكفى ذلك إثابة وتعزيزاً يشعر بقيمتها المتعلم، يقول الإمام الحسن عليه أفضل الصلاة والسلام:

«**علم الناس، وتعلم علم غيرك، فتكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم**».

وقال كذلك: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**[1]».

فالنص الأخير يبشر المتعلم بنمو قدراته اللغوية والعقلية بالتدريب المعزز، وتكون للفرد المتعلم ما أسماه الإمام بـ «ولاية لما لا يعلم»، أي تعزيز مستوى ما يعلمه من خبرات

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٥، ص ١٣٤.

يمارسها، وتكون له «إفادة لما تعلم» بتعلم جديد، ومن ثم فإن تعزيز الخبرة المتقنة وتعلم أي خبرة جديدة يفتحان الثقة في النفس ويساعدان على تعزيزها، ويعكسان مساحة لظهور القدرات العقلية، لأن نجاح الفرد في التعلم الجديد وتعزيز التعلم السابق هو في حد ذاته إثابة ينالها المتعلم على تقدمه في الأداء التعليمي، وهناك أنواع أُخر من الإثابة يمكن استخدامها لتعزيز التعلم ومساعدة الفرد على إحداث تعلم جديد كأنواع الإثابة المادية والشكر والثناء وغيرها، كما أنه يمكن التبشير للمتعلم بإثابة أخروية على تعلمه بلحاظ أن التعلم فضيلة يثاب المرء عليها بالجنة.

***

أنواع القدرات العقلية

لم نجد في تراث الإمام الحسن تصنيفاً للقدرات العقلية، فليست مهمة الإمام الحسن فهرسة خطابه التربوي بثقافتنا المعاصرة، وإنما ذكر في أثنا نصوصه المتناثرة في عدد من المصادر عدداً من القدرات، بل أنه عليه السلام لم يحدد أسماءها، فكل ما فعله أنه عليه السلام وضع بين أيدينا مجموعة نصوص تحمل إشارات لبعض القدرات العقلية عند الإنسان، وترك لنا اكتشاف هذه القدرات وتصنيفها باجتهادنا، فمهمة العقل التربوي مقاربة التراث وتفهمه والإفادة منه في اكتشاف معانٍ جديدة، أو وضع تقسيم يتماشى مع الثقافة التربوية المعاصرة.

ويمكننا باجتهاد شخصي تصنيف القدرات العقلية في الخطاب التربوي عند الإمام الحسن بن علي عليهما السلام إلى قسمين يدخل في إطار كل منهما مجموعة قدرات عقلية، ويتفرع عن كليهما قدرات متمايزة عن بعضها وإنْ كانت مترابطة.

والقسمان هما كما يأتي:

القدرات العقلية الأساسية الدنيا.

القدرات الإنمائية العليا.

***

ونقصد من كلمتي «دنيا وعليا» أن المتعلم يمر أولاً بتكوين مسبق لمهارات عقلية أولية هي بالنسبة للفرد خطوة ضرورية في مرحلة لاحقة لنمو مهارات عقلية قد تكون أكثر تعقيداً، فالمهارات الدنيا لا تعني أنها قدرات دنيا في مستواها العقلي أو الذهني وإن كانت درجة تعقيدها قد تبدو أقل، ولكن بحسب النمو النفسي والعقلي للفرد فإنّ مستواها الذهني لا يبدو سهلاً على الفرد لأن نموه ما يزال في بداياته، وخبرته أقل لم تنضج بعد وإنما المقصود أنها تأتي في المرتبة الأولى لتكوينها.

أما المهارات العقلية العليا فنحتاج أولاً إلى تمكن الفرد من المهارات الدنيا التي تكوّنت في المرحلة السابقة بمستوى إتقاني، ثم تحتاج المهارات العليا إلى عمليات تدريب أكثر رقياً وأكثر تطوراً، وهي لذلك تبدو لنا أشد تعقيداً في نموها الذهني، ولكنها في النهاية مهارات يستكمل فيها الفرد نمواً أفضل لقدراته ومهاراته العقلية المنبثقة عن نسبة ذكائه، وعن تدخل المربي بتدريب جيد.

إنَّ العقل كما يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «العقل عقلان، عقل ولادة، وعقل إفادة[1]»، وفي هذا النص، وفي نصوص مماثلة محاولة أولية أساسية تصنيف للقدرات العقلية إلى نوعين من الذكاء.. فطري، ومكتسب، ويشير التصنيف إلى نمو

(١) محمدي ري شهري، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ٤٦٦

قدرات عقلية هي نتاج تفاعل العقل الفطري، والعقل المكتسب، منهما تتفرع عنهما مجموعة قدرات عقلية يتمايز فيها الأداء التعليمي للأفراد.

***

أولاً: القدرات الأساسية

وتمثل هذه القدرات «البنية التحتية» للمتعلم، وتأتي في صدر اهتمامات المربين، وفي مقدمة وظيفته لتكوينها لدى المتعلمين، ومن دونها يصعب الإفادة – في حدها الأدنى – من سائر القدرات ولاسيما قدرات القسم الثاني، ويتكون هذا القسم من قدرات عقلية متفاوتة في مستوى تركيزها الذهني، لكنها في نهاية الأمر متطلبات عقلية أولية لتحقيق تنمية عقلية شاملة تبدأ من تنمية المهارات أو القدرات الأساسية، ومن هذه القدرات:

- القدرة على التعلم.
- القدرة على القراءة.
- القدرة على الكتابة.
- القدرة على الحفظ والرواية.
- القدرة على الاستماع الجيد (الانتباه).
- القدرة على تعليم الآخر (تعليم الناس).
- القدرة على تطبيق مادة التعلم.
- القدرة على تعلم اللغة.
- القدرة على طرح الأسئلة وإثارتها.

- القدرة على إتقان الخبرة التعليمية.
- القدرة على تعلم الخبرة الجديدة.

***

ثانياً: القدرات الإنمائية العليا

وهي قدرات إنمائية للذات، وفي الوقت نفسه (قدرات عقلية عليا) لأنها تبنى على أساس القدرات الأساسية بعد أن نجح المربي في تنمية القدرات الأساسية السابقة، وهي لذلك تمثل بنية فوقية، ولكنها ضرورية لأنه من دونها لا تتحقق القدرات الحقيقية، ولا تظهر الإمكانيات الفطرية العقلية للإنسان، فهي على أرضية القدرات تنمو هذه القدرات وتتشعب جذورها، ويستكمل العقل نموه الجزئي أو الكامل، ونظراً لصعوبة ترتيبها الذهني من حيث مستوى صعوبتها أو سهولتها فقد تم رتّبت دون مراعاة المستوى الذهني القائم على التسلسل، والانتقال من مستوى السهولة إلى مستوى الصعوبة الأكثر تعقيداً.

ومن هذه القدرات التي استنبطناها من باطن بعض النصوص التراث الثقافي والتربوي لدى الإمام الحسن ما يأتي:

- القدرة على التفكر والتفكير.
- القدرة على صياغة المفاهيم.
- القدرة على الاستنتاج من مواقف التفكير.
- القدرة على النقد.
- القدرة على التمييز والفرز وفحص المعرفة.

- القدرة على التفسير.
- القدرة على التسويف.
- القدرة على الخطابة.
- القدرة على الحوار.
- القدرة على المشورة.
- القدرة على حل المشكلات.
- القدرة على العظة والاعتبار.
- القدرة على الربط بين الخبرات السابقة والخبرات اللاحقة.

***

أولاً: قدرات العقل الأساسية:

١. القدرة على التعلم

تُعدّ هذه القدرة بداية الفرد في التعلم للخبرات من حوله أو ما يريد المربي تعليمه لها، فالقدرة على التعلم هي القدرة العقلية الأم ورأس كل القدرات، وعلى مساحتها تتفرع كل القدرات العقلية الأخرى سواء ما اندرج تحت القدرات الأساسية أو القدرات الإنمائية، فجميع القدرات العقلية التي ينجح المربي في تدريب الفرد عليها وتنميتها تعد مظاهر لهذه القدرات، وقد حث الإمام الحسن عليه السلام على البدء بعملية «التعلم» منذ الصغر، وأبرزت بعض نصوصه التعليمية تأكيده على التعلم في المرحلة المبكرة من عمر الفرد تعليماً منظماً ومقصوداً، فكلما تعلموا العلم، وتعلم علم غيرك وغيرها من الجمل القصيرة هي أمر بالتعلم وتنمية هذه القدرات كلما تأخذ القدرات الأُخر حظها من

النمو كالقدرة على الكتابة والقراءة والحفظ والقدرة على إتقان الخبرة المتعلمة أو تعلم خبرة جديدة وغيرها كما أوضحت نصوص الإمام الحسن عليه السلام التالية، وهي قوله عليه السلام في أكثر من نص تعليمي:

قال لبنيه وبني أخيه:

«**تعلموا العلم، فإنكم صغار القوم وكبارهم غداً، ومن لم يحفظ.. فليكتب**[١]».

وقال في نص مماثل: «**يا بنَّي وبَني أخي، إنَّكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبارَ قومٍ آخرين، فتعلموا العلم، فمن لن يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه، فليكتبه في بيته**[٢]».

وقال عليه السلام: «**علِّم الناس، وتعلَّم علم غيرك، فتكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم**[٣]»، وفي قول له: «**علِّم الناس علمك**».

وبتأمل النصوص الثلاثة نجد أنها انطوت صراحة على قدرات خمس هي (القدرة على التعلم، وهي قدرة عامة تفرعت عنها قدرات مرتبطة بها كمصاديق واقعية تشهد على حدوث التعلم قدرات الحفظ أو الرواية، والقدرة على القراءة، والقدرة على الكتابة، والقدرة على تطوير التعلم تدريجياً حتى إتقانه، والقدرة على تعلم خبرة جديدة)، فالتوجيه الحسني بـ «التعلم العام» هي نقطة البداية لتكوين مهارات عقلية متصلة بها، وهي توجيه لتنمية العقل الموهوب بجهود المربي وبعلوم العلماء أنفسهم كما قال في نص مجالسة العلماء ومخالطتهم، حيث جاء في نص المجالسة ارتباط حضور

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٢٧، ص ١٣١.

(٢) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن، باب الأخلاق، ص ٦٨.

(٣) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٢٨، ص ١٣١، وكلمة الإمام الحسن ص ٦٨.

مجالس العلماء بنمو قدرات عقلية ولغوية.

وفي هذا الشأن يقول النص التعليمي للإمام الحسن عليه السلام والصلاة: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**[1]».

فكلمات هذا النص تؤكد على تنمية قدرة الفرد على التعلم من حيث تنمية قدراته اللفظية، وتنمية قدراته العقلية، وتمكنه من تعلم المزيد من خبراته التي يعلمها، وأيضاً يستفيد أكثر بتعلم جديد عبر عنه المقطع الأخير من النص بقوله: «**وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**»، وهذا يؤدي إلى تحسن في النمو العقلي، وإحداث حالة من السرور النفسي والرضا عن تقدم أداء الذات التعليمي، وعبر عن هذا الحالة المقطع ما قبل الأخير من النص حيث قال عليه السلام: «**وسره ما وجد من الزيادة في نفسه**».

***

٢. القدرة على الحفظ

طريقة تقليدية في البيئات التعليمية، وهي شائعة في التاريخ التربوي الإنساني سواء في مجتمع المسلمين أو بيئات التعليم الأخرى خارج بلادهم قبل وجودهم أو بعدهم، ولهذا لا يختلف المرّبون من مختلف الجماعات والأجناس في الاهتمام بهذه الطريقة التاريخية، فلا تخلو بيئة تربوية من الاستفادة منها بقدر معين في التعلم وتنمية قدرات العقل، فالناس في هذه البيآت وفي خارجها يلجؤُون لحفظ تراثهم الثقافي، ونصوصهم الدينية وأبيات الشعر ومعادلات علمية عن ظهر قلب، وبعضهم يفعل ذلك دون فهم لمعناها، وآخرون يجمعون بين الحفظ عن ظهر قلب وبين فهم معاني ما يحفظونه.

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٥، ص ١٣٤.

وقد عثرنا على أكثر من نص واضح الدلالة للإمام الحسن في تراثه الفكري والتعليمي يدعو فيها عليه السلام إلى حفظ العلم وروايته كما تقدم الحديث في حلقة سابقة، وتداوله بهذه الطريقة كإحدى الطرق الشائعة في عصره والإفادة منها في تمكين طلبة العلم من حفظه وروايته شفهياً ونقله من جيل إلى آخر، وبخاصة إذا كان بعضهم يصعب عليه استخدام طريقة سواها، ففي المقطع الأخير من نص تربوي سابق طالب الإمام الحسن عليه السلام أبناءه وأبناء أخيه بتعلم العلم وحفظه وروايته، ومن لم يستطع ذلك فعليه أن يستخدم طريقة تدوينه وكتابته كما أوضح نصان سبق لنا الإشارة لهما في مباحث من هذا الكتاب.

ولم يكن الدعوة إلى استخدام الحفظ كطريقة تعليمية مجرد غاية في حد ذاتها، بل كانت وسيلة المربي لتحقيق الغرض التعليمي وهو حفظ المادة المتعلمة عن طريق الاستظهار وتداولها خوفاً عليها من الضياع، ولتثبيتها وترسيخها في مجتمع يفتقر لطرائق تعليم أكثر فاعلية.

وعادة ما تتركز عملية حفظ المادة المتعلمة في زمن الإمام الحسن عليه السلام في حفظ الآيات القرآنية وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأقوال الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وعلماء الحديث وأئمة التفسير وتجارب العلماء والمحدثين سواء في شكل خطب أو مراسلات أو مكاتبات أو نصوص أدعية أو أحاديث قصيرة، وقد وصلنا كثير من هذه المعرفة عن طريق حفظها من فرد لآخر حتى بلغنا بعض العلم، ولولا تحمل مشقة الحفظ لنصوص طويلة وقصيرة على حد سواء لضاع من علم القدماء الكثير منه وبخاصة ما يخص المعرفة الدينية، ولهذا نبه الإمام الحسن عليه السلام على صغاره باستخدامها آنذاك، ومن يستطع فليكتب العلم، فالمهم بقاء العلم وحفظه وتداوله بين الأجيال البشرية كما حدده النصان

السابقان اللذان ذكرناهما في مناقشة القدرة الأم.. القدرة على التعلم.

***

٣. القدرة على الكتابة

من النصين المتقدمين يستوقفنا إشارة إلى قدرة ثالثة هي القدرة على الكتابة، فالأمر الحسني للأبناء الصغار باستخدام كتابة العلم وتدوينه بخط اليد لحفظه وروايته إذا لم يستطيعوا حفظه عن ظهر، فالتوجيه يحسب أن المتعلمين ليسوا متساوين في قدراتهم العقلية، ولهذا انتبه الإمام الحسن عليه السلام لكون بعض الناس، وقد يكون بعض صغاره منهم، لا يستطيعون الحفظ عن ظهر قلب وبخاصة النصوص المطولة المعروفة في ثقافة العرب وبيئة المسلمين، ولم يغلق النص عليهم باب التعلم والمحافظة عليه إذا لم يكونوا على مقدرة من الإفادة من طريقة الحفظ لظروف ذاتية أو لأسباب خارجية، فدعاهم إلى حفظه بطريقة ثانية كانت مألوفة في مجتمعه وهي كتابته بأيديهم، وقد حدد أحد النصين مكان الكتابة في البيت بعد أن يتفرغ الصغار من دروسهم للكتابة في البيت وتدوين المعرفة.

فالكتابة ليس مخرجاً للعاجزين عن الحفظ والرواية عن ظهر قلب فحسب، بل كانت أكثر أمناً لنقل المعرفة لتكون الإفادة منها أكثر سعة في مجتمعه، وليبين الإمام الحسن عليه السلام بأن العلم يمكن تداوله بأكثر من طريقة، ولا عذر لأحد بأن لا يمكنه الحفظ، ولهذا حدد الإمام مسئولية العلماء والمتعلمين في رعاية العلم رعاية عقل لا رعاية حفظ ورواية فقال: «**واعقلوه إذا سمعتموه عقل رعايته، ولا تعقلوه عقل روايته**[1]».

لم تكن الكتابة في عصر الإمام الحسن عليه السلام أمراً هيِّناً لعدم توافر الأدوات اللازمة

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٤.

للكتابة من دون مشقة كما هو حالها في زماننا، ولكن تحمل مشقتها بحفظ العلم بطريقة أكثر أمناً من الرواية الشفهية اللفظية أو حفظها عن ظهر قلب، فالكتابة أثر مادي على الحضور المادي للعلم ومادته المرئية، وبواسطتها يتاح للعلماء وطلبة العلم الاطلاع على آثاره ومعاينته بأدوات مكتوبة لدهور متعاقبة، وتمكن العلماء من كشف التغيير والتزوير غير الأمين إنْ حدث، وبذلك فإن الإمام الحسن عليه السلام لم يأمر بالكتابة لمجرد عدم قدرة بعضهم على الحفظ أو النقل الشفهي اللفظي للعلم وروايته فحسب، وإنما لإيمانه عليه السلام بالأثر الإيجابي للعلم المكتوب واطمئنانه للمعرفة المدونة أو المخطوطة باليد، فالكتابة إذن ليست تنوعاً في حفظ العلم بأكثر من آلية، بل لإتاحة الفرصة للناس بأن يؤدوا واجبهم تجاه العلم بأكثر من أداة.

كما أن توجيه الصغار في غاية الأهمية لهم، فقد أراد عليه السلام تعويد هؤلاء الصغار على تعلم العلم وحفظه بأدوات متاحة آنذاك، فلا يكسل أحدهم عن القيام بواجبه لأنه يستثقل الحفظ عن ظهر قلب امرئ يجد صعوبة في الحفظ أو أن الذاكرة تواجه بعد مرور فترة من الزمن تشويهاً أو تشويشاً قد يؤدي إلى ضمور المعرفة لدى الإنسان ضموراً جزئياً أو تاماً.

***

٤. القدرة على القراءة

من مستلزمات قدرتنا الأولى أننا نتمكن بالتدريب من أداء مهارات عقلية أساسية كالقراءة والكتابة بوصفهما مهارتين أساسيتين، بل إن هذه القدرة تبدأ كما يشدد الإمام الحسن في تكونها منذ الصغر وقبل تعلم مهارة الكتابة لديه، لهذا يستحيل عليه أن يكتب شيئاً ما يكن قادراً على معرفة الحروف والكلمات ويكون قادراً على معرفتها وقراءتها،

ولفت الإمام الحسن في أحد نصوصه إلى هذه القدرة بطريقة مباشرة حينما استخدم عليه السلام مفردة «يقرؤه» في حديثه للناس يدعوهم للاهتمام بالقرآن قراءة وعملاً به، والاستفادة من محتواه المعرفي والروحي والأخلاقي والعقائدي فقال الإمام الحسن الزكي عليه السلام في وصف القرآن الحكيم: «ما بقي في هذه الدنيا بقية غير هذا القرآن، فاتخذوه إماماً يدلكم على هداكم، وإنَّ أحق الناس بالقرآن.. من عمل به وإنْ لم يحفظه، وأبعدهم منه من لم يعمل به، وإنْ كان يقرؤه[1]».

وتعني مفردة «يقرؤه» القدرة على القراءة لدى الإنسان، وهي إمكانية النطق بمفردات اللغة المكتوبة سواء كانت قرآنية أو مكتوبة في مصادر أخر عن موضوع آخر كأحاديث النبوة وأقوال المعصومين وشعر البيت وكتاباتهم، فالقراءة عملية ذهنية ومعرفية لفظية وسمعية وجهرية تجعل الفرد يربط حروف الأبجدية العربية وكلماتها لينطقها بلسان عربي مبين على مسمع من الناس أو بقراءة صامتة، وهي إحدى القدرات التي تطلق «عقال اللسان»على حد تعبير الإمام الحسن في حديث مجالسة العلماء، فـ «من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه».

***

٥. القدرة على تعليم الناس

في مدخل حديث الإتقان أمر مباشر من الإمام الحسن عليه السلام بأن يعلِّم «الإنسان» الناس علمه، وكلمته في هذا الشأن لا تحتاج إلى قول كثير أو تفسير، فهي مباشرة «علِّم الناس»، وفي نص «مجالسة العلماء» تمييز بين علماء ومتعلمين، وكلاهما يقوم بوظيفة، فالمتعلمون يطالبهم الإمام عليه السلام بأن يكثروا من حضور مجالس العلماء، والعلماء مأمورون

(١) الموسوي، الروائع المختارة رقم الحديث ٩٣ ص ١٤١، وكلمة الحسن ص ٢٣.

بتعليم الناس ونقل خبراتهم للآخرين في المجال الذي حذقوا فيه وبرعوا، وهكذا كما يمكن الفرد «التعلم «من غيره، ويتلقى المعرفة عن طريقه كذلك يمتلك القدرة على تعليم الناس، فالتعلم والتعليم صنوان في حياة الإنسان، ولذلك يوصف بأنه معلم ومتعلم في آن واحد، فإذا تصدى لهذه المهمة أدى إحدى فرائضه الشرعية، وأظهر واجباته الدينية نال في حياته مكاسبه المباشرة بإتقان خبرة يمارسها، وبتعلم خبرة جديدة ونمو قدراته اللغوية والعقلية وتحقيق حالة من الرضا النفسي، أمَّا في آخرته فأجره عند ربه، كما للمتعلم أجره أيضاً، فالمتعلم والمعلم في الأجر سواء وخيرهما من يبتدئ.

***

٦. القدرة على الاستماع الجيد

يحتاج التعلم في كل خطواته إلى عملية إصغاء جيد وانتباه شديد من طرف المتعلم كمستقبل للمادة التعليمية ومتلقي لها، ثم بعد يصدر استجابته التعليمية بمقدار مستوى انتباهه، وكلما كانت درجة انتباهه أو استماعه أو إصغائه عالية وجيدة كان مستوى استجابته ناجحاً بدرجة متساوية معها، بل أن أحد نصوص الإمام الحسن عليه السلام حدد بدقة العلاقة بين مستوى الإصغاء ونوع الاستماع وبين ما أسماه بـ«التذكير» والوعي به، فمتى كانت العلاقة إيجابية بين الإصغاء ووعي التذكير بالمادة التعليمية تحققت المنفعة والانتفاع بالتذكير أو مادة التعلم، فيقول الإمام الحسن عليه السلام: «**أسمع الأسماع ما وعى التذكير وانتفع به**[1]».

وبتأمل مركز في المحتوى الداخلي للنص نجد أنَّ الإمام الحسن ذكر بطريقة غير

(١) تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ١٧٠، وكتاب كلمة الإمام الحسن للشيرازي، ص ٥٧، ١٩٩، والروائع المختارة للموسوي، الحديث رقم ٨٤ ص ١٤٠

مباشرة مجموعة عناصر للتعلم الجيد نذكر منها ما يأتي:

أ. مستوى الانتباه وطالب أن يكون الاستماع عالياً وجيداً.

ب. وجود مادة للتعلم يتم الوعي بها واستيعابها.

ت. وجود علاقة إيجابية – كما في النص – بين درجة الانتباه والوعي بمادة التعلم.

ث. تطبيق مادة التعلم.

ج. تحقق المنفعة المعرفية عندما يتفاعل المتعلم مع مادة التعلم والوعي بها وتطبيقها.

ح. يستفاد من نص الحديث وجود مبدأ تربوي مهم هو ضرورة تكوين اتجاه إيجابي لدى المتعلم قبل أن تبدأ عملية فهم «مادة التعلم ومحتواها المعرفي واللفظي[1]».

***

٧. القدرة على تعلم اللغة

يتحدث علماء النفس التربوي عن قدرات لغوية ضمن تصنيفاتهم «للقدرات العقلية» لدى الإنسان، وتتنوع هذه القدرات ومنها قدرات الفهم اللفظي والطلاقة، والخطابة ومعرفة قواعد اللغة وغيرها، وتدرج هذه القدرات ضمن هذا التصنيف لوجود علاقة بين اللغة والفكر، وقد مررنا على هذه العلاقة في موقع سابق من أحد مباحث كتابنا، وأشار الإمام الحسن عليه السلام كأحد كبار قادة وعلماء الإسلام وعلمائها إلى القدرة على الفهم اللفظي وتعني قدرة الفرد على فهم واستيعاب معاني المفردات اللفظية للنص واستيعابها، للجملة للعبارة اللغوية، للرواية، للآية القرآنية والعمل على تطبيقها، وهكذا فالفرد يمتلك قابلية داخلية «لتعلم اللغة ومهاراتها» للتخاطب مع الآخر.

(١) انظر كتابنا « التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية « / المؤلف.

وفي نص «مجالسة العلماء» قال عليه السلام:

«من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه».

ففي هذا المقطع من النص نستخلص مجموعة حقائق:

١. أن هناك أطرافاً مشاركة في العملية التعليمية وهم المتعلم الفرد، الأفراد، العلماء.

٢. يوجد بالنص إشارة لبيئة التعلم ومكانها كمجالس العلماء التي قد تكون بلغة عصرنا صفوف مدرسية، معاهد، حلقات تعليم مسجدية، وغيرها الخ.

٣. هناك دور للمتعلمين وهو حضور مجالس العلم، وآخر للمعلمين أو العلماء كما أسماهم النص.

٤. ثمة علاقة بين مكونات النص، ويسمها بالعلاقة الإيجابية، فهناك علاقة بين حضور مجالس العلماء وتنمية القدرات العقلية.

٥. تنطوي عملية تنمية القدرات العقلية إلى نوعين هما:

أ- إطلاق (عقال لسان الفرد)، وهذه إشارة إلى لغته وقدراتها كالقدرة على الفهم والطلاقة والخطابة وتعلم العلوم اللغوية كالنحو والصرف والعروض وغيرها، ونعتقد بأن الإمام تجاوز في إشارته بالنص لمجرد قدرات ذكرها علماء النفس، وإنما امتدت عبارته للعلوم اللغوية السائدة في البيئة العربية.

ب- والنوع الثاني تنمية القدرات العقلية بالممكن المتاح.

٦. يؤدي تنمية القدرات اللغوية والعقلية إلى تحقيق حالة من الرضا النفسي في

داخل المتعلم، وما أشار إليه النص بقول الإمام الحسن عليه أفضل الصلاة والسلام: «وسره ما وجد من الزيادة في نفسه».

***

٨- القدرة على طرح الأسئلة وإثارتها

ولد الإنسان كائناً سؤولاً، فكل ما حوله يبدو له غامضاً حتى يتعرف على سره ويكشف غموضه، فإذا ما انكشف سر الشيء تابع تساؤلاته عن أشياء أخر، وهو كثير الأسئلة منذ طفولته حتى ليصفه البعض من الفلاسفة بأنه فيلسوف، فالسؤال طريقة الإنسان في توليد المعرفة وتحصيل الإجابة، وهذا سر جمال هذه الطريقة انها تكشف ما غمض.

ومما لاشك فيه أنه في المجال التربوي والتعليمي لا يستغني عن هذه الطريقة بوصفها قدرة عقلية تولد في داخله قابلية لها، وبالمران والتدريب عليها يستطيع تحويلها إلى قدرة فعالة، وفي تراث الإمام الحسن إجابة على تساؤلات من آخرين، وتساؤلات من الإمام نفسه حول مسائل أو ظواهر سلوكية خاطئة، ويدل ذلك على كون طرح الأسئلة قدرة علمية إن توافرت فيها شروط السؤال الجيد، وقد قال الإمام الحسن بن علي عليهما السلام بأن «السؤال الحسن هو نصف العلم» كما تقدم في حلقة ثانية، وهذا لا يعني أنه يحسن طرح الأسئلة بلا تدريب جيد لتكون فعالة في توليد المعرفة، حيث قاتل الإمام كما أشرنا من قبل: «حسن السؤال نصف الإجابة[1]».

***

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٨.

٩- القدرة على إتقان التعلم

يبدأ الفرد التعلم اعتماداً على طاقة عقلية يتم تفعيلها، وعلى مشروع تدريبي يقوم به مدرب، وبمرور بعض الوقت من تتابع الأداء يحدث تعلم أو تغير شبه دائم في الأداء التعليمي، بيد أن هذا التغير لم يصل إلى منتهاه، ولم يبلغ مداه، فيظل المتعلم بحاجة لجهد جديد لاستكمال الخبرة لديه وإتقان ما لم يتقنه بعد، فإذا ما تواصل الجهد اكتمل نمو الخبرة، وبلغت حالة من النضج، بحيث تمكن الفرد من إتقانها بنحو يكون أداؤه سهلاً في موقف تعليمي جديد، ولن يتمكن الفرد المتعلم من الإتقان إلاَّ بحركة مزدوجة تجمع بين عملية تعليم الآخر وتعلمه منه لكسب الخبرة وإتقانها كما أوضح نص الإتقان الذي ذكرناه مراراً في مباحث دراستنا.

***

١٠- القدرة على تعلم خبرة جديدة

القدرة على التعلم لدى الإنسان لا تتوقف عند مرحلة معينة، فالكائن الآدمي ينتقل من مستواه الأدنى أو من نقطة الصفر، ويظل التعلم كأداء في «تغير صاعد شبه دائم «حتى يقف عند حد معيَّن يشعر فيها المتعلم بإتقان السلوك كما أشار إليه نص سابق، ولكن في مرحلة التغير التصاعدي شبه المستمر واستكمال الخبرة التي يمارسها بغرض إتقانها يواجه المرء مواقف تعلم جديدة ربما لم يقصد الوصول إلى نتائج محددة فيها، فإذا كان المرء يحاول من خلال عملية التعلم والتعليم أن يستكمل ما لم يتقنه فإنه بواسطة استمراره في أدائها يصل إلى إتقان خبرته، وفي الوقت نفسه يتعلم شيئاً جديداً كأن يحفظ قصيدة لكثرة تكراره لها في أثناء عملية التعلم والتعليم أو يهديه تفكيره إلى تفسير نص برؤية جديدة أو إدراك حقيقة تخالف ما يعتقده فكرياً أو دينياً.

وأتذكر شخصياً محاولتي كتابة نظرية تربوية للمشرع الإسلامي في موضوع التعلم والتعليم، وبتتابع جهدي في البحث عن نصوص تؤصل هذه النظرية وجدت نفسي أمام نظرية سلوكية مثيرة لمعالجة أمراض السلوك بطريقة الأضداد وتعديل أداء الأفراد بهذه الطريقة العلاجية، فتحول جزء من اهتمامي بالنظرية التربوية الإسلامية في التعلم والتعليم إلى دراسة الطريقة الإسلامية العلاجية لأمراض السلوك بالأضداد، ثم أثمر هذا الجهد بحمده تعالى إلى استكمال كتابنا عن التعلم في النظرية التربوية الإسلامية، والبدء في فهم نظرية علاجية وتأصيلها وصياغتها للمشرع الإسلامي في المجال السلوكي بطريقة الأضداد، وقد قمت بجمع مادة هذه النظرية من نصوصها التي كنت استخدمها في صياغة نظرية إسلامية في موضوع التعلم، وفي صياغة نظرية علاجية مستمدة من قيم القرآن وتعاليم السنة، وتوجيهات أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهكذا فإنَّ استكمال الخبرة التعليمية عملية تعبر عن تعلم مستمر يؤدي إلى إتقان تعلم خبرة، ويستثير الذهن أيضاً في تعلم خبرة جديدة.

يقول الإمام الحسن عليه السلام في نصين أشرنا لهما:

- **«علم الناس، وتعلم علم غيرك، تكون قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم»**.

- **«من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم»**

***

١١- القدرة على تطبيق مادة التعلم

والمراد من هذه القدرة ما أسماه علماء التربية «التعلم بالعمل أو التعلم بالمشاركة الفعالة» أو ما سماه علماء القدرات العقلية أمثال بلوم بالقدرة على التطبيق، ومضمونها

أن يقوم المتعلم بتطبيق ما تعلمه من آراء وأفكار، ونقل المعرفة النظرية لحركة الواقع وميادينه، فلا يكفي تعلم العلم النظري وإنما لا بد من تنفيذ مادة التعلم في حركة الحياة التي يعيشها الفرد، وقدم الإمام الحسن عليه السلام أكثر من موقف يدعو فيه لتطبق ما تعلناه في الحياة، ومن ذلك قوله في وصف القرآن الحكيم:

«ما بقي في هذه الدنيا بقية غير هذا القرآن، فاتخذوه إماماً يدلكم على هداكم، وإنَّ أحق الناس بالقرآن.. من عمل به وإنْ لم يحفظه، وأبعدهم منه من لم يعمل به، وإنْ كان يقرؤه[1]».

وقد شدد الإمام على ربط المعرفة النظرية بالعمل في موقف حياتي كقوله:

«أما حقوق الله فأداء ما طلب والاجتناب عمَّا نهى، وأما حقوق الأحياء فهي أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر عن خدمة أمتك، وأن تخلص لولي الأمر ما أخلص لأمته، وأن ترفع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوي[2]».

***

ثانياً: قدرات العقل الإنمائية العليا:

كما ذكرنا فإن ثمة قدرات عقلية تأتي بمستوى أعلى من القدرات السابقة، وهي معززة للقدرات السابقة وعاكسة لقدرة الفرد على التعلم وللقدرات المتفرعة عنها بعد تطور النمو العقلي له، واستخلصنا بعضها من سياق مفردات أحاديث الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، وهي في نظرنا مجرد اجتهاد شخصي منَّا، ونذكر منها ما يأتي:

***

(١) الموسوي، الروائع المختارة رقم الحديث ٩٣ ص ١٤١، وكلمة الحسن ص ٢٣.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة رقم الحديث ٤٧، ص ١٣٤.

١- القدرة على حل المشكلات

قدرة عليا في سلم القدرات العقلية، وهي تتطلب خطوات متقدمة من التفكير، وتعدّ مثالاً تطبيقياً لحركة العقل الصحيحة وتفعيله والتزام قواعد المنطق العلمي في التعامل مع مشكلات الإنسان وقضاياه كمشكلة سيدنا إبراهيم مع «الإله الآفل «كما بينت ذلك سورة الأنعام في الآيات القرآنية من (رقم ٧٥ إلى ٨٠)، وقد واجه الإمام الحسن نفسه مشكلات تحتاج إلى مستوى راقٍ من التفكير كما في مشكلة القضاء والقدر والحرية الإنسانية التي أثارت مستوىً عالياً من التفكير المعقد،وأسئلة ملك الروم للإمام الحسن بن علي[١]، وأسئلة الأعرابي[٢]، ومشكلة مساحقة امرأة متزوجة لجارية بكر فحملت الأخيرة، وقد أشرنا لهذه المشكلة في مكان من كتابنا[٣]».

فقد كتب له الحسن البصري يسأله عن القضاء والقدر فكتب له رسالة تضمنت جوابه على إشكاليات البصري وهي كما يأتي.

«أما بعد، فإنكم معشر بني هاشم، الفلك الجارية في اللجج الغامرة والأعلام النيرة الشاهرة أو كسفينة نوح (عليه السلام) التي نزلها المؤمنون، ونجا فيها المسلمون، كتبت إليك يا ابن رسول الله عند اختلافنا في القدر وحيرتنا في الاستطاعة فأخبرنا بالذي عليك رأيك ورأي آبائك عليهم السلام، فإنّ من علم الله علمكم، وأنتم شهداء على الناس، والله الشاهد عليكم ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم».

---

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٢٦ – ٢٢٨.

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٣٠.

(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٢٩

فأجابه الحسن (عليه السلام) بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

«وصل إليّ كتابك، ولولا ما ذكرته من حيرتك، وحيرة من مضى قبلك إذا ما أخبرتك، أما بعد، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره إن الله يعلمه فقد كفر، ومن أحال المعاصي على الله فقد هجر.

إن الله لم يطع مكرها ولم يعص مغلوباً، ولم يهمل العباد سدى من المملكة، بل هو المالك لما ملّكهم، والقادر على ما عليه أقدرهم، بل أمرهم تخييراً، ونهاهم تحذيراً، فان ائتمروا بالطاعة لم يجدوا عنها صاداً، وان انتهوا إلى معية، فشاء أنْ يمن عليهم بأن يحول بينهم وبينها فعل، وان لم يفعل فليس هو الذي حملهم عليها جبراً، ولا ألزموها كرهاً، بل منَّ عليهم بأن بصرهم وعرفهم وحذرهم، وأمرهم ونهاهم، لا جبلاً لهم على ما أمرهم به فيكون كالملائكة، ولا جبراً لهم على ما نهاهم عنه، ولا الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين، والسلام على من أتبع الهدى[1]».

***

ونقل أحد العلماء من مصادر روائية أسئلة «ملك الروم» وكتابه لمعاوية يسأله فيه عن مسائل لم يعرف معاوية أجوبتها، فأرسل معاوية رجلاً الى الحسن يسأله عنها، وهي:

أين هو وسط السماء في الأرض؟.

وما هي أول قطرة دم وقعت على الأرض؟.

وما هو المكان الذي طلعت عليه الشمس مرَّة؟.

---

(١) بن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٦.

وما هو المكان الذي لا قبلة له؟.

ومن هو الذي لا قرابة له؟.

فقال له الحسن عليه السلام:

أكتب: وسط السماء الكعبة، وأول قطرة دم وقعت على الأرض دم حوَّاء، والمكان الذي طلعت عليه الشمس مرة أرض البحر حين ضربه موسى، وما لا قبلة له فهي الكعبة، وما لا قرابة له فهو الرب تعالى[1]».

***

٢- القدرة على الربط بين خبرة سابقة وخبرة جديدة

في حديث الإتقان المشار في مواضع متفرقة هناك إشارة غير مباشرة يستنبطها الباحث من باطن النص وهي إشارته للربط بين خبرة سابقة وخبرة لاحقة ، إذ يقوم عقل الفرد بعملية ربط بين خبرته السابقة بخبرة جديدة لاحقة، وقد أوضحنا التلازم بين التعلم السابق والتعلم اللاحق حتى في نطاق الخبرة الواحدة، فإذا كان التعلم السابق ناقصاً وغير مستكمل بنسبة (٧٠ ٪) فإنه بتعلم جديد متتابع يتمكن من بلوغ نسبة أعلى كأن تصل لدرجة (٨٠ ٪)، وبتتابع الأداء والتدريب عليه تكتمل الخبرة لمستوى الإتقان، إلاَّ ذلك يكون عن طريق الربط بين أداء سابق وأداء جديد لاحق، ومعنى ذلك أنه ما استكمل المرء خبرة معينة بإتقان تام فإنه قد يتولد عن تعلمه السابق علم جديد بمهارة جديدة، وفي كلا الحالين ثمة ربط بين خبرة قبلية وخبرة بعدية يؤدي الربط بينهما إلى مزيد من التعلم تضاف للخبرة السابقة وتمهد لخبرة لاحقة، ونذكر القارئ بمضمون حديث الإتقان عندما قال الإمام الحسن عليه السلام: «**علم الناس، وتعلم علم غيرك، فتكون**

(١) السيد حسن الشيرازي، كتاب (كلمة الحسن) ص ٢٢٧ – ٢٢٨.

قد أتقنت علمك، وعلمت ما لم تعلم».

وحديث مجالسة العلماء قال الإمام الحسن أنَّ: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**»، وهذا بالتأكيد يجسد خبرة تعليمية لدى الفرد بمجرد حضوره، ولكن تردده على مجالسهم وبيآتهم تحقق أمرين كلاهما يمثل خبرة تعلم جديدة، فالأمر الأول ينطلق «لسانه»، وتتفتح قدراته اللفظية، أمَّا الآخر فينمو لديه لديه مزيد من قدرات العقل وتتمايز بحسب الظروف المتاحة لها، وفي هذا وذاك تترابط الخبرات.. سابقها ولاحقها، فالمقطع الأخير من النص الثاني يؤكد الترابط بين خبرتين سابقة ولاحقة بقوله عليه السلام: «**وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**»، وهذا يؤدي إلى تحسن في النمو العقلي، وإحداث حالة إيجابية من السرور النفسي والرضا عن تقدم الأداء التعليمي للذات البشرية بمزيد من التعلم على ما سبقه، وتعلم ما لا يعلمه.

٣- القدرة على التحليل

تعاملنا في مباحث هذا الكتاب مع مجموعة من النصوص التربوية والفكرية والروحية نسبها العلماء إلى الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، وكانت المادة العلمية لهذا الكتاب مستخرجة من مضامين نصوصه عليه السلام، ومن قدرتنا على التفاعل مع مادتها العلمية، لقد كانت هذه النصوص ومفرداتها اللفظية في أصلها «مادة لغوية وعلمية خام»، وما تزال محتفظة بمفرداتها اللفظية وبمادتها الثقافية طالما بقيت في تراثنا الثقافي والفكري، ولهذا فإنَّ هذه النصوص من خطب ومراسلات وأدعية وكلمات قصار هي مصدرنا الأول في صياغة أفكار الإمام الحسن وآرائه التربوية بنحو تتناغم مع النفسية الجديدة والذهنية المعاصرة.

بيد أن التعاون مع هذه النصوص لا يتوقف عند عملية جمعها من مصادر متفرقة في كتب المسلمين وتراثهم، وهي بحاجة إلى دراسات تحليلية ليستفاد منها في معرفة نظرياته مكتوبة بلغة معاصرة تناسب ثقافة الأجيال الجديدة وبنائها المعرفي، ويستفاد منها أيضاً في تربية الأفراد من هذه الأجيال، وكتابنا الذي بين يديك أحد هذه الدراسات التحليلية التي ما تزال في بداياتها، وستنمو مع تزايد الاهتمام بها في الأيام القادمة.

لقد استبطنت نصوص الإمام الحسن بن علي عليه السلام مادة معرفية قابلة لعملية التحليل والتفكيك والربط بين عناصر معها، وقد قمنا بعملية تحليل لبعض النصوص اعتماداً على قدرتنا الذاتية واجتهادنا الشخصي، وساعدتنا الثروة اللفظية المتوافرة في هذه النصوص على تحليلها، وهذا ما يؤكد لنا بصورة غير مباشرة بأن الإمام الحسن في بعض نصوصه وبخاصة النصوص المطولة أو النصوص القصيرة ضمَّنها مكونات أساسية، فعملية التحليل التي قصدناها محاولتنا تفكيك المحتوى اللفظي والمعرفي إلى أجزائه الأولية ومكوناته الأساسية، ثم تفسير ترابط هذه الأجزاء بعملية تركيب جديدة لأفكاره بطريقة معاصرة تناسب ثقافة الأجيال في عصرنا كما فعلنا في حديث الإتقان، وحديث «أسمع الإسماع ما وعى التذكير وانتفع به».

***

٤- القدرة على العظة والاعتبار

يشير الإمام الحسن بن علي عليهما السلام على قدرة عقلية يستفيد منها عقلاء الناس في تجنب المخاطر وأخذ العبرة مما جرى في حياة الآخرين، حيث تمر على الناس مواقف معقدة تنطوي على عظة أخلاقية وإرشادية، وتستوجب من الفرد أخذ الاعتبار مما جرى على غيره، فالطاغية الذي يكثر إيذاءه للناس قد يكون مصيره الثورة عليه وتصفيته

بطريقة مأساوية، بيد أنَّ كثيراً من الناس لا يتأمل فيما جرى له وعليه، ولا يستثير تفكيره مصائر الآخرين، ويظل تحت وهج القوة معطلاً لقدرته على معالجة الأمور بحكمة، وغير مستفيد من مضامين العظة التي مرت بآخرين والاعتبار منها، فهناك قال الإمام الحسن عائق هو «العزة الآثمة»أو ما يعبر عنها بالعزة بالإثم.

يقول أحد نصوص الإمام الحسن بن علي عليهما السلام: «**بينكم وبين الموعظة حجاب العزة**[1]»، فالقدرة المذكورة متوافرة في التركيبة البشرية، وتؤكد – كقدرة عقلية – على إمكانية استفادة الإنسان من موعظة التجارب والمآسي التي تمر على الناس وأخذ العظة كخبرة مربية، ولكن عائقها الوحيد أن الآثم قد تأخذه مشاعر العزة بالإثم، فلا يستفيد مما جرى.

وفي نص آخر يدعو فيه للعظة والعبرة فقال: «**فاتعظوا عباد الله بالعبر، واعتبروا بالأثر وازدجروا بالنعيم، وانتفعوا بالمواعظ، فكفى بالله معتصماً ونصيراً، وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً، وكفى بالجنة ثواباً، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً**[2]».

***

٥- القدرة على نقد السلوك

لم نجد نصاً من أقوال الإمام الحسن يتحدث محتواه المعرفي مباشرة عن ظاهرة نقد السلوك، وإنما وجدنا أكثر من نص وموقف ينتقد فيه حال الناس وسلوكهم سواء كان اجتماعياً كما في حديث المأكول والمعقول، أو انتقاده لمناوئيه من زمرة الظالمين، وردّ على

(١) تحف العقول لا بن شعبة الحراني ص ١٧٠، وكتاب كلمة الحسن للسيد حسن الشيرازي ص ٢٠٠.

(٢) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٧٠.

أقوالهم وتخرصاتهم، وما يهمنا من مواقفه الناقدة سوى إشارته للنقد كقدرة عقلية في حياة الناس، وأنه بإمكانهم توظيف هذه القدرة في تعديل سلوكهم وتحسين وجهات نظرهم المعرفية، فعملية نقد الأفكار والسلوك لدى الإمام هادفة، وليست موجهة لأغراض انتقامية كما يفعل بعض الناس، والملحوظ في خطابه للناس أنه يركز تفكيره النقدي على ظواهر سلوكية كنقده لسلوكهم في اشباع الحاجات الجسدية وإهمال إشباع الحاجات العقلية، لهذا كان حديثه يركز تعجبه على هذا الخلل السلوكي.

***

٦- القدرة على التفكر والتفكير

قدمنا في مبحث سابق كلاماً عن التفكر والتفكير كطريقة في التعليم، فهو في نظر الإمام الحسن حياة كل قلب بصير، وهو أبو الخير وأمه[1]، فالتفكير نشاط عقلي يمنح مختلف قدرات العقل على النمو الطبيعي، ويتيح على سبيل المثال القدرة على حل المشكلات، وهي قدرة فرعية، أن تنجح في هذه المهمة، وأن تتمكن القدرة على تمييز الحق من الباطل، وأن يتمكن العقل من الاستنتاج السليم لظواهر يراها في عالمه الذاتي والعالم الخارجي، وأن يتغلب العقل بتفكير سليم سوي وإتباع قواعد صحيحة على حجاب «العزة بالإثم» حتى يفيد الإنسان من العظة ويأخذ منها الاعتبار المناسب المربي.

وهكذا فإن ظاهرة التفكير في حياة الإنسان ليس مجرد تأمل في داخل الدماغ، وإنَّما تظهر آثاره في نشاطنا الخارجي بنحو ينعكس على علاقاتنا بأنفسنا وبالآخرين، وبالأشياء من حولنا، وبذلك فإنَّ التفكير ليس مجرد عملية عقلية محضة، بل هو أحد

(١) يمكن مراجعة كتاب الروائع المختارة للموسوي، رقم الحديث ١٩، س ١٢٩، السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٠٠، ٢٣٨.

الوسائل العملية لتحقيق «تقوى الله» في بنية التكوين التربوي والروحي والعلمي للشخصية الإيمانية، ومن هنا تقدمت جملة «أوصيكم بتقوى الله» في حديث الإمام الحسن عن التفكير ليربطه بهذا الهدف التربوي الكبير، ونفهم منه قول الإمام الحسن ابن علي عليه السلام عن المؤمن: «إذا تفكر حزن[١]»، خاصة حينما ينتهي تفكره إلى نتيجة سلبية بمنظوره الخاص، وغالباً ما تكون في حياة المؤمن فإنه يحزن على مصيره لأنه يشعر دائماً بالتقصير في مسؤُولياته العبادية تجاه الله سبحانه وتعالى، ولذلك فالمؤمن كما قال الإمام السبط عليه السلام: «لا يلهو حتى يغفل[٢]» عن مصيره خارج عالمه الدنيوي، أي في عالمه بعد الدنيا.. الآخرة.

***

٧ - القدرة على التمييز بين الحق والباطل

للعقل وظائف متعددة إدارة سلوك الذات البشرية، بيد أن ذلك يرتكز على قدرات هي الأخرى متعددة، ومنها قدرة العقل على الفرز المعرفة وفحصها والتمييز بين الحق والباطل، وتمتد فعالية هذه القدرة إلى مجالات من حياة الإنسان الاجتماعية والروحية وغيرهما، فالحديث المنسوب للإمام الحسن بأنه: «**إذا أضرت النوافل بالفريضة فاتركوها**[٣]»، وفي رواية «**فارفضوها**[٤]»، يعني أن قدرة عقلية لدى الفرد تمكنه من إدراك ضرر النوافل بالفريضة، وأنه كانسان يستطيع بقدرته على التمييز بين مأكول زائد عن الحاجة يضر بالبدن، وبين معقول لم يأخذ حظه من الإشباع الطبيعي السوي فيختار

(١) الموسوي المختارة، الحديث ١٩، ص ١٢٩.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، ١٨، ص ١٢٩
(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٩٩
(٤) ابن شعبة الحراني، تحف العقول لابن شعبة الحراني ص ١٧٠.

بعد إدراك الخلل القيام بمهمة الإشباع المتوازن للحاجات المتعددة عنده، وأنه أيضاً قادر على التمييز بين رأي صائب وبين رأي خاطئ حتى وإنْ كان في موقف انفعالي غاضب، فـ «لا يُعرف الرأي إلاَّ عند الغضب[١]».

وفي موقف اجتماعي وإرشادي يوجه الإمام الحسن بن علي أحد أولاده فقال عليه السلام: «**يا بنَيَّ لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استنبطت الخبرة، ورضيت العشرة فآخه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة**[٢]».

وفي قول الإمام الحسن عليه السلام: «**كفاك لسانك ما أوضح لك سبيل رشدك من غيِّك**[٣]» إنما عنى قدرة العقل الإنساني بفطرته السوية أو بتنميته على التمييز بين الرشاد والغي في قول اللسان، فيحرص الإنسان في مواقف حياتية جديدة على النطق بقول منطقي لا يؤذي أحداً، ويتجنب قول الكلام الذي يسبب للناس أذىً، فالعقل الإنساني من خلال قدرته على التمييز يبسط سيطرته على الانفعالات والعواطف الذاتية والشهوات الزائدة، وعلى فحص المعرفة بدقة، وعلى معرفة الخلل في إشباع الحاجات، وإضرار النافلة بالفريضة، فيعيد الأمور إلى نصابها أو حتى يتجنبها قبل أن تحدث لأن مهمة العقل وقائية وعلاجية وإنمائية في آن احد.

***

٨ ـ القدرة على تقديم المشورة للآخرين

تواجه الأفراد مشكلات محيِّرة تهدد حياتهم أو تعوق نمو شخصياتهم أو تسبب لهم

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٢٣

(٢) تحف العقول لابن شعبة الحراني ص ١٦٨، الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ١، ص ١٢٦

(٣) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ١٩٩.

صراعاً داخلياً وتأزماً، فيضطرون إلى استشارة بعض من يرونه قادراً على مساعدتهم وتقديم الدعم النفسي لإخراجهم من المأزق الذي هم متورطون فيه، أو البحث عن حل لمشكلتهم ممن يستطيع خدمتهم، والمشورة في حد ذاتها نشاط ذهني لمواجهة مشكلة فعلية يستشعرها بعضٌ من الناس، وقد تكون المشورة بنمط فردي موجهة لشخص بعينه له اعتبار عند طالب الاستشارة، وينجح المستشار في تقديم المشورة اللازمة التي تتضمن فكرة صائبة، وقد تتشعب المشورة إلى معالجة «جماعية» كما في قوله عليه السلام: «**ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم**[1]»، وقد ناقشنا المعرفي والسيكولوجي لهذا النص في مبحث سابق[2] من كتابنا هذا.

ومما يلحظ أن المشورة نشاط ذهني للتغلب على مشكلة أو تدبير فكري وقائي لتجنب حدوث مشكلة أو معالجة موقف بحل مقبول، فيذهب طالبو الاستشارة إلى ذوي العقول بغرض الوصول إلى نتيجة مُرْضِية، ونحن نعتقد بأن هؤلاء ممن نسميهم بذوي العقول أو ما اسماهم النبي محمد بن عبدالله بأولي العقول هم من يتمتعون بقدرة عقلية تملك فكراً تقدمياً، وقادرة على إنتاج أفكار منتجة وراقية تعين طالبي الاستشارة على حل بعض مشكلاتهم.

***

٩ ـ القدرة على التفسير

ثمة أمور في حياتنا تبدو «غامضة» بالنسبة لبعض الناس ويعجزون عن فهمها، فيحتاجون إلى معونة أولي العقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لتفسير غوامض «الأشياء»،

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول ص ١٦٨

(٢) انظر المبحث الثالث الخاص بمعالجة الأساليب والطرائق التعليمية.

مما يضطرون إلى البحث عن معونة تقدم لهم في هذا السبيل، وفك ما يرونه غير واضح لهم، وتختزن الحياة مواقف كثيرة في هذا الشأن، وقد جاء إلى الإمام الحسن عليه السلام رجل من أثرياء زمانه يسأله عن أمر يحيره لغموضه بالنسبة إليه فقال له: يا ابن رسول الله:«إني أخاف الموت، فقال عليه السلام له: **ذاك لأنَّك أخرت مالك، ولو قدمته لسرَّك أن تلحق به** [1]».

والمضمون العام للنص، وهو موقف حواري قصير، أن الرجل الثري بخل بماله فجعله خلفه محافظاً عليه أكثر من نفسه فاستشعر القلق في داخله، فالعمر يطوي نفسه، وهو يشعر أنه لم يقدم لآخرته ما يكفي، فاستشعر الرجل الثري بفطنته الفطرية قدوم الموت فجأة أو بمرض أو بحالة أخرى، وشعوره ببقاء نفسه تحت رهن المال وقيوده وأصفاده، وجثم هذا الشعور على قلبه فجاء ابن رسول الله الإمام الحسن يشكو همه وخوفه من الموت الذي هو سنة الله على جميع خلقه، فأجابه الإمام بما أزاح «الألم» و «الغشاوة» عن قلبه حينما دعاه إلى مواجهة الأمر وتعديل نظرته وسلوكه ببذل المال وتسخيره لخدمه مستقبله بين يدي الله سبحانه، وخدمة وظيفته العبادية ليشعر بالسرور والسعادة، ويلحق به سعيداً مسروراً، وفي موقف آخر عن الشاهد والمشهود ينقل العلامة الأربلي عن الشيخ كمال الدين بن طلحة قوله أن الإمام الحسن: «كان يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، ويجتمع الناس حوله، فيتكلم بما يشفي غليل السائلين، ويقطع حجج القائلين[2]».

وروى الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ما لفظه: «دخلت مسجد المدينة فإذا أنا برجل يُحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت له أخبرني عن﴿ **وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** ﴾[3]

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٢٠ ص ١٢٩.
(٢) الأربلي / كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٦٩
(٣) سورة البروج: ٣.

فقال: نعم، أمَّا الشاهد فيوم الجمعة، وأمَّا المشهود فيوم عرفة، فجزته إلى آخر يحدِّث فقلت له: «أخبرني عن ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ فقال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر، فجزتهما إلى غلام كأنَّ وجهه الدينار وهو يحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت له: أخبرني عن ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ فقال **نعم: أما الشاهد فمحمد صلى الله عليه وآله، وأما المشهود فيوم القيامة، أمَا سمعته يقول:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا ﴾[1]، **وقال تعالى:** ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾[2].

فسألت عن الأول؟ فقالوا: ابن عباس.

وسألت عن الثاني؟ فقالوا: ابن عمر.

وسألت عن الثالث؟ فقالوا: الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، وكان قول الحسن أحسن[3]».

وهكذا فسر الإمام الحسن عليه السلام ما غمض على السائل في كلمتي «شاهد ومشهود»، ونال ثقة السائل بعد أن قارن تفسيره بأقوال غيره كما في النص المتقدم.

ومع أن كلمة «حسنة» واضحة في لغة العرب إلاَّ أن الإمام الحسن بن علي عليهما السلام قام بتفسير هذه الكلمة لتحديد معناها، وكشف الغموض عنها، ففي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾، فقال: «**هي العلم والعبادة في الدنيا، والجنة في الآخرة**[4]».

---

(١) الأحزاب: ٤٥.

(٢) سورة هود: ١٠٣.

(٣) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٦٩.

(٤) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٨.

وفي موقف تفسيري آخر كان الإمام الحسن بن علي عليه السلام «يطوف في بيت الله الحرام فسأله رجل عن معنى الجواد فقال له: «**إنَّ لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق فإنَّ الجواد الذي يؤدي ما افترض عليه، والبخيل الذي يبخل بما افترض عليه، وإن كنت تسأل عن الخالق، فهو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع، لأنه إن أعطى عبداً أعطاه ما ليس له، وإنْ منعَ منعَ ما ليس له**[1]».

تلك مجرد أمثلة ومشاهد على تفسير الإمام الحسن بن علي عليه السلام ما غمض للناس، وهي قدرة اختزنها العقل البشري، وتحتاج فقط إلى تنميتها لتفعيل دورها في التفسير والبحث عن اللغز غير المكشوف.

***

١٠ـ القدرة على التسويف

وهي في ظاهرها تعني المماطلة الذي لا يريد أن تصل الأمور إلى خواتيمها بدوافع غير نبيلة، فيميل للتسويف وإبطاء الفعل لمنع وقوعه أو تأخيره على الأقل، وهذه العادة يمارسها كثير من الناس حتى لو كانت في سبيل هدف باطل لا يرضاه الله سبحانه.

وللتسويف كعادة سلوكية جانبها السلبي كما تقدم، ولكن تقترن كعادة سلوكية مَرَضِية بأعذار يختلقها «المسوِّف» تظهر قدرته على استخدام تفكيره من أجل أهداف غير نبيلة أحياناً أو لترتيب أموره الشخصية لموعد يحدده بنفسه دون أن يمنح الآخرين فرصة استسلامه لهم، ونحن نعدّ «التسويف» ذكاءً، لكنه – لسوء الحظ – لأهداف غير سوية، وهذا ما يسميه علماء الأخلاق بـ «الجربزة»، فالتسويف وإن كان تسويغاً إلاَّ أنه يمثل مقدرة على إنتاج أفكار تبريرية يماطل فيها، وتحميه مؤقتاً، وتساعده على

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٢ – ٢٣.

انجاز خطته كما يريد، ويتيح له التلاعب على الآخرين بمسوغاته التي تعكس قدرته على التفكير لصالح نفسه لا للآخرين، وفي سياق فهمنا للتسويف من هذا المنظور نقرأ قول الإمام الحسن عليه السلام: «**كل مؤجل يتعلل بالتسويف**[1]».

***

١١- القدرة على الخطابة

الخطابة ملكة نفسية عقلية في آن واحد، وقد عرف العرب بحذقهم فيها وبراعتهم في تطبيقاتها، وأوضحنا في أحد مباحث كتابنا قيمتها التربوية، وقد ذكرنا فيما تقدم قدرتنا – كما أشارت هذه النصوص – على تعلم اللغة، وهي مهمة تربوية – تعليمية تشتمل على مهارات لغوية كالقدرة على الفهم اللفظي، والطلاقة اللفظية، فضلا عن مهارة الالتزام بقواعد النحو العربي والنطق السليم، ونقل المفردات العربية الأصيلة.

لقد جمع السيد الموسوي (٥٦) خطبة في موضوعات متعددة، ومتفاوتة في طولها وقصرها، واشتملت على وصف مفاهيم، ومواعظ، وبيان مواقف سياسية، والتوجيه الاجتماعي، والنصح والإرشاد، وبعض المناظرات، والحث على الجهاد، ووصف للمنافقين والمتقين، وغير ذلك من الموضوعات، ونعود إلى الإشارة من جديد للقدرة على الخطابة باعتبارها في نظرنا قدرة عقلية إنمائية عليا لأنها تشتمل على القدرات اللفظية أو اللغوية السابقة الذكر، ولأنها تمد الشخصية بخصائص إيجابية مكتسبة مثل:

١. تقوم الخطبة بتزويدنا بثروة لفظية هائلة كالمفردات اللغوية، والكلمات، والنصوص اللغوية الكاملة، وتدفعنا على البحث عن معاني بعض المفردات والكلمات

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول لابن شعبة الحراني ص ١٧٠، و السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٠١.

ومضامين عامة للجمل والعبارات.

٢. تجعلنا الخطبة في تراثنا الثقافي على إحاطة جيدة بالمحتوى المعرفي للخطبة، والتركيز على مضمونه، والإفادة منه في حركة حياتنا.

٣. تتساند الثروة اللفظية والمحتوى المعرفي للخطبة في إنماء شخصياتنا، وصقل قدراتها في المجالين المذكورين على حد سواء.

٤. تنطوي الخطبة على أجواء روحية نشعر بأهميتها في التربية الذاتية للشخصية العربية – الإسلامية.

٥. تتيح لنا خطب الإمام الحسن عليه السلام واستخدامها فرصة تحقيق مكاسب إيجابية تساعدنا على توظيفها في تنمية القدرات العقلية للأفراد الذين يتم تعهدهم بالرعاية والتربية العقلية.

***

١٢ ـ القدرة على الحوار

هذه القدرة شديدة الوضوح في تاريخه السياسي، ومساحتها أقل في الجانب التعليمي بحسب النصوص المتوافرة لدينا، فأعداء الإمام الحسن وخصومه والمناوئين أكثروا من أكاذيبهم، فاضطر إلى مناظراتهم مراراً كما فعل مع معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وكان غالب هذه المناظرات ذات طابع ثنائي، وأحياناً تتجاوز المناظرات هذا الطابع لتكون بين الإمام الحسن نفسه وجماعة من مناوئيه السياسيين ممن أشرنا إليهم.

وبالنظر في بعض النصوص التربوية نلحظ بعض أنماط الحوار اللفظي والثنائي

القصير سواء بين الإمام الحسن وأبنائه أو بينه والآخرين، وقصة تحديد المفاهيم المذكورة مثال على هذا الحوار العلمي الباهر كما وصف عليه السلام صديقاً صالحاً له فقال: «**كان إذا جامع العلماء على أن يستمع أحرص منه على أن يقول**[١]»، وفي ذلك إشارة الى مشاركة الصديق في الاستماع لمعلميه بدرجة أشد من القول لهم، إلاَّ أن الحرص على الحوار لم يهمل تماماً، فهو بمقدار حاجته يشارك في موقف تعليمي حواري متى تطلب الأمر ذلك، وغرضنا من هذه الإشارات إثبات تشجيعه للحوار التعليمي كقدرة فعالة في المجال التربوي، كما أن «المشورة» التي دعانا إلى ممارستها نموذج تطبيقي على الحوار الجماعي لحل مشكلة ما بصرف النظر عن نوعها، ومدى قربها أو بعدها من هذا المجال أو ذاك.

***

١٣ ـ القدرة على الاستنتاج

تتطلب المعرفة في حركتها المنهجية مقدمة واحدة أو مقدمتين أو أكثر للوصول إلى استنتاج محدد يطابق مقدمات المعرفة، بحيث تكون حركة البحث ملتزمة بقواعد علمية منتظمة تنتهي بخاتمة واضحة يتم التعرف على النتيجة، ويكشف عن حقيقة معينة إما بالإثبات أو بالنفي، ومثال ذلك حركة التفكير التي مارسها نبي الله سيدنا إبراهيم عليه السلام مع «الإله الآفل»، حيث لاحظ كمشكلة عبودية الناس لغير الله، وتتبع حركة «الإله الآفل «من كوكب آفل إلى قمر آفل إلى شمس آفلة حتى انتهى إلى نتيجة بأن هذا الأفول مخالف لمفهومه عن الإله الحقيقي ومواصفاته فرفض «الإله الآفل» وتبرأ منه، ودله هذا الاستنتاج إلى الإله الحقيقي الذي لا يأفل ولا يغيب[٢].

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ١٦٩.

(٢) انظر سورة الأنعام، آيات ٧٦ – ٨٠.

وهذه القدرة لها مصاديقها الواقعية في التراث الثقافي والروحي للإمام الحسن، فكل ما كتبناه في هذه المباحث هو عملية استنتاج من مقدمات مثبتة في باطن نصوصه الكريمة، وتقود إلى استنتاجات مطابقة لهذه المقدمات، فمن أقواله عن الموعظة والمشورة وطرح الأسئلة والتعلم بالمشاركة العملية وطريقة الأضداد وغيرها قادنا إلى استنتاج ظاهر وهو أن في المنهج التربوي للإمام الحسن عليه السلام أساليب وطرائق تنظيمية لعمليتي التعلم والتعليم، فالإشارات عن هذه الطرائق مقدمات في منهجه وتراثه، وقد دلتنا على تجميعها في استنتاج مهم هو اليقين بوجود أساليب وطرائق تنظم سلوكنا في العملية التعليمية – التعلمية، وقد عقدنا حلقة خاصة للحديث عنها.

كما أنَّا في أثناء عملية تحليل نصوص الإمام الحسن بن علي عليهما السلام كنَّا ننطلق من محتواها المعرفي كمقدمات منهجية في حركة تفكيرنا لتنتهي على استنتاجات تفسر هذه المقدمات في حقائق مرتبطة بها، وهكذا فإنَّ كل نصوصه قائمة في محتواها المعرفي والروحي على علاقة بين المقدمات والنتائج قد تكون إيجابية أو سلبية.

***

١٤ ـ القدرة على تحديد المفاهيم

المفهوم في لغة علماء المنطق مجموعة صفات تنطبق على شيء معين فتحدده بدقة وتمايزه عن غيره من الأشياء (والأجناس والأنواع) كقولنا (الإنسان: كائن عاقل) ويقابله عندهم المصداق، وهو ما انطبقت عليه صفات المفهوم، فالإنسان مصداقه.. الإنسان العربي، والإنسان الأعجمي، فكلاهما مصداق لمفهوم واحد هو أن الإنسان كائن عاقل.

وفي الخطاب الأخلاقي والروحي والمعرفي عند الإمام الحسن عليه السلام أمثلة على

صياغاته للمفاهيم أظهرها ما ذكرناه من مجموعة الأسئلة التي وجهها الإمام علي لابنه الحسن، وهي ما سميناها بالطريقة الاستجوابية على حد تعبير علماء التربية، وكانت طريقة حوارية تعليمية أشبه بموقف تعليمي تقويمي ليختبر فيها الإمام علي ابنه الحسن ومعرفة نوع إجاباته عن الأسئلة المطروحة، فقد نجح الإمام الحسن في تحديد المفاهيم المعروضة عليه بدقة تامة أعجبت الإمام علي وأثنى على ابنه عليهما السلام، وقد نقلنا النص بأكمله في موقع من أحد مباحث كتابنا، وبقيت هذه الأسئلة وإجاباتها وثيقة تربوية خالدة تظهر قدرة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام على صياغة دقيقة للمفاهيم بمحددات علماء اللغة والأخلاق الشرعية، وتوحي المحاولة لنا بضرورة الاقتداء بها، وتنمية قدرتنا على صياغة المفاهيم وتحديدها وتنميتها في ثقافتنا اليومية الحياتية.

***

الحلقة السادسة

الحاجات الإنسانية في تراث الإمام الحسن عليه السلام

الحاجات الإنسانية في تراث الإمام الحسن عليه السلام

اقتضت حكمة الخلق الإلهي أن يكون الإنسان مخلوقاً ناقصاً في قبال الكائن الأعلى الكامل وهو الله سبحانه تعالى، ولا ينفرد الإنسان بطبيعته الناقصة دون سائر المخلوقات والكائنات التي تحتضنه ويحتضنها في علاقات تفاعلية هي الأخرى من مقتضيات الخلق الإلهي وحكمته، وإنما يمتد ذلك إلى نظام المخلوقات بأسرها دون استثناء، فكل مخلوقات الله سبحانه وتعالى في كونه الواسع ذات طبيعة ناقصة، ويعتريها الضعف وعدم الاكتمال، ولم يميِّز الله سبحانه مخلوقاً في هذا الشأن دون غيره وإنْ ميَّز - بحكمته أيضاً - عباده البشر بخصائص لا تتوافر في سائر المخلوقات كقدرتهم على التفكير والتعقل، وقدرتهم كذلك على النطق أو استخدام اللغة الناطقة، والخلق النبيل الكريم.

وإذا كانت طبيعة الإنسان - كمخلوق متميِّز - النقص والضعف كما صرحت نصوص قرآنية كثيرة فإنَّه يولد كائناً ناقصاً محتاجاً لربه، بل ومحتاجاً لأخيه الإنسان، ويعيش على وفق وفق هذا النظام البشري محتاجاً في عالمه الخاص، وفي علاقته بالكون والمجتمع وأخيه الإنسان، ثم يطوي حياته وهو بحاجة لعون كل من يحيط به أسوة بجميع المخلوقات التي هي الأخرى تحتاج إلى بعضها ولدعم الإنسان نفسه، ويشهد على هذا النقص شواهد كثيرة كمرضه وفقره وحزنه وتشاؤمه وسوء تفكيره و ضعف قدرته على تدبير أمره، وعدم قدرته على الإنجاب أحياناً، وموته، بل وتعفن جسده ما لم يُوَارَ بالتراب كما حكى ذلك القرآن الكريم في آيات قرآنية خمس من (٢٧ - ٣١) من سورة المائدة المباركة.

ولهذه الحاجة حكمة ربانية بأن يشعر بأنه مخلوق إلهي يحتاج لربه سبحانه وتعالى، والرغبة في التواصل مع الأشياء المحيطة به سواء كانت من طبيعة جنسه كالكيان الإنساني أو من أصناف النباتات أو من الأشياء وسائر الكائنات الجامدة العجماوات، فالله تبارك وتعالى كنز مخفي أراد من خلقه أن يعرفه مخلوقاته، وأن يدركوا أنهم مخلوقون ناقصو في طبائعهم وتركيبتهم، وأنه في نظره الكائن الكامل الأعلى.

إنَّ الحاجة – بمقتضى الخلق الإلهي – جزء من التركيبة الفطرية للكائن الآدمي وتكوينه الداخلي منذ بدايات التاريخ الإنساني، وما تزال حاجته مركوزة وقائمة في كيانه الذاتي، فأول مشهد للحاجة والعجز وطلب الدعم والمعونة من خارج ذاته أن الله سبحانه وتعالى أمده بكل مقومات حياته في مدة ما قبل وجوده بعالمنا الدنيوي، أي في مرحلة الحمل نفسها التي تستمر لأشهر تسعة، وكذلك في أثناء حياته بعد ولادته، وفي أثناء موته، وما بعد موته، وفي يوم الحساب الأكبر، فالعجز «سمة الإنسان»في مراحل حياته ومماته كلّها، ومظهر كامن في كينونته بإرادة الله الخالق سبحانه، ولهذا وضع سبحانه تشريعات تنتظم عليها حياة الإنسان وتضبط مسيرته وتحميه من غوائل نواقصه، فأنزل عليه وفرة وافرة من النعم وسخر له مخلوقات متعددة في الكون، وأمده بأسباب الحياة حتى موعد محدد ثم ينقله لعالم آخر مع بقاء طبيعته الناقصة جزءًا من كيانه، وقد أثرى الله حياة الإنسان بمرشدين وقادة وأنبياء يلهمونه القدرة على الاكتمال أو السعي إليه.

من هؤلاء القادة العظام سيدنا الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام، وهو من رجال الله وعباده الذين بحاجة لربهم تعالى، فقد سخر عليه السلام كثيراً من أقواله ونصوصه في مسألة الحاجات الإنسانية وعلاقتها بإشباع ما يريده الإنسان في جوانب كثيرة من شخصيته للبقاء ولحفظ نوعه، وبالتأكيد لا أحد من الباحثين يتوقع أن يتحدث عنها في

نصوصه بطريقتنا المنهجية والتنظيمية، وإنَّما تتفرق كلماته، ونصوصه في عدد من خطبه وأدعيته ومراسلاته ومكاتباته، وللباحثين حرية قراءتها واستخلاص ما يريدونه حينما يريدون كتابة موضوع محدد تبين رؤية الإمام الحسن عليه السلام سواء كانت عقائدية أو روحية أو أخلاقية أو تعليمية أو سياسية أو غير ذلك، فمصادر تراثه الفكري متنوعة، ومن حق الباحثين استثمار هذه المصادر وما تختزنه من رؤى في إعداد مادة تعليمية، ثقافية، نظرة سياسية وغيرها للتعرف على إسهاماته الإبداعية في هذا المجال أو ذاك من مجالات المعرفة الإنسانية.

***

نصوص في حاجات الإنسان

قدمت المصادر الروائية التي نقلت لنا في هذا الزمان قسماً من التراث الفكري والروحي والقيمي عند الإمام الحسن عليه السلام في ضوء عددٍ من النصوص التربوية، والأقوال المأخوذة من خطبه ومراسلاته وكتبه وكلماته القصار في مجال «الحاجات الإنسانية وكيفية ضبط إشباعها «سواء في مجال الإشباع البيولوجي للحاجات التي ترتبط بجسد الإنسان أو في مجال الاشباع النفسي – الاجتماعي للحاجات التي تتصل بالجانب السيكولوجي للإنسان.

***

أولاً: في مجال الإشباع البيولوجي:

استطعنا جمع وحصر عدد من النصوص والأقوال وحصرها من تراث الإمام الحسن عليه السلام، وهي ترتبط بدوافع ذات علاقة بالجسد الآدمي، وتشمل دوافع الجوع والعطش، والجنس، والأمومة والبنوة، والحاجة إلى إخراج الفضلات، وسنقوم بتوزيع

النصوص على أساس توزعها بيولوجياً بحسب ورودها السابق الذكر على النحو التالي:

- اشباع دافع الجوع.
- دافع العطش.
- الدافع الجنسي.
- دافع الأمومة.
- دافع الإخراج.

***

أ- اشباع حاجتي الطعام والشراب

لا يحتاج القارئ لمزيد من القول بأهمية الحاجة إلى إشباع هاتين الحاجتين في حياة كل كائن حي بخاصة الإنسان وسائر الحيوانات، وقد وردت نصوص في هذا المجال عن حاجتي الطعام والشراب لدى الإنسان لتلازمهما بيولوجياً، بل إن بعض نصوصه تجاوزت الإشارة لإشباع حاجتي الطعام والشراب لتشير لحاجات مادية ملحة في حياة الكائن الآدمي كالحاجة إلى المال واللباس والمأوى أو السكن، وهي نصوص واضحة في معانيها ودلالاتها اللفظية.

ومن هذه النصوص ما يأتي:

١- قال الإمام الحسن الزكي: «**فرض** (ويقصد هنا الله سبحانه وتعالى) **عليكم لأوليائه حقوقاً، فأمركم بأدائها إليهم، ليحل لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم، ومأكلكم ومشربكم، ويعرفّكم بذلك البركة والنماء والثروة، وليعلم من**

يطيعه منكم بالغيب[١]».

٢- وشتمه رجل شامي وهو راكب فلم يرد عليه الحسن، فلما فرغ من سبابه جاءه ضاحكاً وأقبل عليه بقوله: «**أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عُرياناً كسوناك، وإنْ كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رجلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأنَّ لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً[٢]».**

٣- وجاء عنه قوله عليه السلام: «**إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك[٣]».**

٤- وفي قوله عليه السلام: «**غسل اليدين قبل الطعام ينفي الفقر، وبعده ينفي الهم[٤]».**

٥- وقال عليه السلام: «**في المائدة اثنتي عشر خصلة يجب على كل مسلم أن يعرفها، أربع فيها فرض، وأربع سنة، وأربع تأديب.**

الفرض: المعرفة، الرضا، التسمية، الشكر.

السنة: الوضوء قبل الطعام، الجلوس على الجانب الأيسر، الأكل بثلاثة أصابع، ولعق الأصابع.

التأديب: الأكل مما يليك، تصغير اللقمة، تجويد المضغ، قلة النظر في وجوه

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٧.
(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٩٢
(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٩٩
(٤) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٢٩

الناس[١]».

٦- وقال ناقداً سلوك الناس في الإخلال بتوازن إشباعهم للحاجات الجسدية والمعنوية: «**عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه**[٢]».

٧- وقال سلام الله عليه عن صديقه: «**كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يتشهى ما لا يحل، ولا يكنز إذا وجد**[٣]».

***

ب- الاشباع الجنسي

وفي مجال إشباع الحاجة إلى الجنس لتحقيق التناسل وحفظ النوع الإنساني كحال جميع المخلوقات الحيَّة المماثلة جاء عن الإمام الحسن عليه السلام عدد من النصوص التي تشير مباشرة لأنماط الفعل الجنسي الحلال والمحرم، وبيان الحكم الشرعي إزاءها، ومن اقواله عليه السلام:

١- إنَّ ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قال: «أنه جلس الحسن بن علي، ويزيد بن معاوية بن أبي سفيان يأكلان الرطب، فقال يزيد: يا حسن! إني مذ كنت أبغضك، قال الحسن: **اعلم يا يزيد! أن إبليس شارك أباك في جماعه، فاختلط الماءان فأورثك عدائي، لأن الله تعالى يقول:** ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ

(١) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٥٠.

(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن، ص ٦٧، والموسوي، كتاب الروائع المختارة ص ١٣٢.

وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾، وشارك الشيطان حرباً عند جماعه، فولد له صخر، فلذلك كان يبغض جدي رسول الله[١]».

٢- ورداً على سؤال عن الشبه بين الرجل وأبناء عمه وأخواله فقال عليه السلام: «**وأما ما ذكرت من أمر الرجل يشبه ولد أعمامه، وأخواله فإنَّ الرجل إذا أتى أهله بقلب ساكن وعروق هادئة، وبدن غير مضطرب، استكنت تلك النطفة في تلك الرحم، فخرج الولد يشبه أباه وأمه، وإن هو أتاها بقلب غير ساكن، وعروق غير هادئة، وبدن مضطرب اضطربت تلك النطفة في جوف تلك الرحم، فوقعت على عرق من العروق،فإن وقعت على عرق من عروق الأعمام أشْبه الولد أعمامه، وإنْ وقعت على عرق من عروق الأخوال أشبه الولد أخواله[٢]**».

٣- ورد الإمام الحسن بن علي عليه السلام على سؤال عن المؤنث فقال: «وأمَّا المؤنث فإنسان لا يدري امرأة هو أو **رجل، فينتظر به الحلم، فإنْ كانت امرأة بانت ثدياها، وإن كان رجلاً خرجت لحيته** [٣]» إشارة إلى التمايز الجنسي بين الذكور والإناث، والتغيرات البيولوجية المصاحبة لهذا التمايز.

٤- وقال الإمام الحسن في إحدى وصاياه الأخلاقية: «**ترك الزنا، وكنس الفناء، وغسل الإناء مجلبة للغنى[٤]**» وهنا يشير نص الإمام إلى السلوك الجنسي المحرم وهو «فعل الزنا»، لهذا دعا إلى تركه.

٥- وسئل الإمام الحسن الزكي بن علي عليه أفضل الصلاة وأزكى سلام عن

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٦٩.
(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٨٧.
(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٩٠
(٤) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٠.

امرأة جامعها زوجها فقامت بحرارة جماعه فساحقت جارية «بكراً» وألقت النطفة إليها فحملت، فقال عليه السلام: **أما في العاجل فتؤخذ المرأة بصداق هذه البكر، لأن الولد لا يخرج منها حتى تذهب عذريتها، ثم ينتظر بها حتى تلد فيقام عليها الحد،ويؤخذ الولد فيرد إلى صاحب النطفة،وتؤخذ المرأة ذات الزوج فترجم**[1]»، وفي هذا النص إشارة الى الفعل الجنسي الحلال بين زوجين شرعيين، وإشارة الى أنماط من الفعل الجنسي الشاذ والمحرم وهو مساحقة النساء لبعضهن، وبيان حكمه برجم المرأة ذات الزوج، وكذلك إقامة الحد على المرأة البكر بعد أن تلد.

***

ت- اشباع الحاجة للأمومة

في النصوص السابقة للإمام إشارة إلى المرأة البكر التي ساحقت امرأة ذات زوج، وإشارة إلى انتظار المرأة البكر حتى تلد فيقام عليها الحد، ثم يؤخذ الولد فيرد إلى صاحب النطفة، وفي هذا المقطع من النص السابق تأكيد لولادة المرأة البكر كإشارة لولادة كل امرأة، وأنها تلد ولداً.. ذكراً أو انثى، وما يترتب عن ذلك من مشاعر الأمومة منبثقة من داخل المرأة وتركيبتها الفطرية الداخلية، ففي هذا النص إشارة الى الحاجة إلى الأمومة وإشباعها بطريق مشروع كما يطالب النص، ووأد كل إشباع لهذه الحاجة بطريق محرم.

وجاء في بعض المصادر نصوص ما يشير لهذا الدافع الفطري وضرورة إشباعه بطريقة حلال، وتجنب أي اشباع محرم، قال الإمام الحسن.

١- وقال الإمام الحسن عليه السلام: «**ابن آدم ! إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فخذ مما في يديك لما بين يديك فإنَّ المؤمن يتزود، وإنَّ الكافر يتمتع،**

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٢٩.

وتزودوا فإنَّ خير الزاد التقوى[١]».

٢- «إن الله تعالى أوحى إلى آدم: أنْ زَكِّ نفسك يا آدم ! قال: يا ربِّ وما الزكاة؟ قال: صلِّ عشر ركعات فصلَّى، ثم قال: ربِّ هذه الزكاة عليَّ وعلى الخلق؟ قال الله: هذه الزكاة عليك، وعلى وِلْدِكّ بالمال منْ جمعّ من وُلدكَ مالاً[٢]».

٣ - وتقول هذه المصادر: إن الإمام الحسن عليه أفضل الصلاة والسلام كان: «يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله فيسمع الوحي ويحفظه، فيأتي أمه فيلقي إليها ما حفظه، فلما دخل علي عليه السلام وجد عندها علماً فسألها عن ذلك فقالت: **من ولدك الحسن**، فتخفى علي عليه السلام يوماً في الدار، وقد دخل الحسن عليه السلام، وقد سمع فأراد أن يلقي إليها فارتج عليه، فعجبت أمه من ذلك، فقال عليه السلام: **لا تعجبي يا أماه فإنَّ كبيراً يسمعني، واستماعه قد أوقفني**، وفي رواية أخرى: **يا أماه قلَّ بياني، وكلَّ لساني، لعل سيداً يرعاني**، فخرج على عليه السلام فقبله[٣]».

***

ث- اشباع الحاجة للإخراج

ذكرنا أن الإنسان بفطرته يقوم بإشباع حاجاته الفطرية اليومية كالحاجة للطعام والشراب ليستفيد جسم الكائن الحي من الغذاء، ثم يطرد فضلات الطعام عن طريق الإخراج ليحمي نفسه من سمومها، وهذا ينسحب كما يعلم القارئ على الإنسان في المقام الأول، ويمكن القول: بأنه كما الطعام والشراب حاجات فطرية فإنه كذلك

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٩٩

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٤١.

(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٣٠ - ٢٣١.

بحاجة للإخراج ليتخلص من فضلات الطعام وزوائده التي يمكن تسميم جسمه مع بقائه في داخله، وكما أشار الإمام لحاجتي الطعام والشراب فكذلك أشار لحاجة الإنسان فخراج فضلات الطعام والتخلص منه حماية للجسم من سمومه.

وفي النص الحسني التالي: سأل أحد الناس الإمام الحسن فقال: ما الغائط؟ فقال: «**لا تستقبل القبلة ولا تستدبرها، ولا تستقبل الريح ولا تستدبرها**[1]»، ففي هذا النص إشارة للتغوط كأحد أنماط الإخراج، وبيان كيفية قيام الفرد بالتغوط بعدم استقبال القبلة ولا استدبارها كأحد آداب الإخراج لدى المشرع التربوي الإسلامي.

***

ثانياً: مجال الإشباع النفسي ـ الاجتماعي

الحاجات الاجتماعية عديدة ومتنوعة، وتمتد خيوطها لكل زوايا الحياة البشرية وجوانبها، وأن لكل نمط منها أساليب عديدة في الإشباع، وسنورد نماذج هنا، ونماذج أخر في مواضعها، وبخاصة في الفصل القادم حينما نناقش الحاجات المعنوية وأساليب إشباعها.

١ - «**فرض عليكم لأوليائه حقوقاً، فأمركم بأدائها إليهم، ليحل لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم، ومأكلكم ومشربكم، ويعرفِّكم بذلك البركة والنماء والثروة، وليعلم من يطيعه منكم بالغيب**[2]».

٢ - «**يا بن آدم: من مثلك وقد خلَّى ربك بينه وبينك؟ متى أن تدخل إليه، توضأت وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا بوَّاباً، تشكو إليه همومك وفاقتك،**

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٣١.

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٧.

وتطلب منه حوائجك، وتستعينه على أمورك[١]».

٣- ضمن ما عدده من مكارم الأخلاق قال عليه السلام: «**والمكافأة بالصنائع**[٢]».. أي إثابة العمل ومكافأته.

٤- «**فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها**»، وقال الإمام الحسن محدداً «من هم أهل الحاجة : «إذا طلبتم الحوائج، فاطلبوها من أهلها، قيل يا بن رسول الله ! ومن أهلها؟ قال: الذي خصَّ الله في كتابه، وذكرهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ **هم أولو العقول**[٣]».

***

الإشباع كمفهوم سيكولوجي:

مصطلح سيكولوجي يراد بع إعطاء الفرد في الموقف التعليمي أو في موقف آخر «قدراً منسباً من المعزز» ليسد النقص في حاجته من الطعام أو الشراب أو النوم أو الإشباع الجنسي أو في مجال آخر من الحاجات المعنوية سواء كانت نفسية أو اجتماعية، فإذا كان المطلوب من عملية توفير قدر معيَّن من «الطعام» لإشباع حاجة الكائن الآدمي والتغلب على جوعه فإنَّ تقديم الطعام والأكل للفرد يعني لدى علماء النفس وغيرهم من علماء السلوك إشباع حاجته من الطعام بقدر مناسب يعرض عليه، وقد يزداد المعزز بتوفير قدر أكبر من الطعام لا يحتاجه في تلك اللحظة فيتحول إلى إشباع زائد عن الحد يسمى في لغة العرب، وفي النصوص الإسلامية «بالتخمة».

(١) ارشاد القلوب للديلمي ص ٧٩ - ٨٠، والسيد حسن الشيرازي، في كتابه كلمة الحسن ص ٤١.

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٦١.

(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٦٦.

وما انطبق على الإشباع الفسيولوجي للحاجات الجسمية كالحاجة إلى الغذاء ينسحب كذلك على الحاجة في مجالات دافعية أخرى كالحاجة إلى الشراب والإشباع الجنسي وغيرهما من الحاجات، فإمَّا إشباع معتدل يعرفه الناس بالإشباع السوي بشروط أُخر ككونه حلالاً على سبيل المثال أو إشباع زائد عن الحد فيدخل في دائرة الاشباع المحرم وغير السوي، أو يكون ناقصاً عن ضروراته الفسيولوجية وفي حفظ التوازن الحشوي للبدن فيوصف الإشباع بالجوع، وقد يزيد سوءاً لحد المجاعة كما يعاني الإنسان أحياناً في مناطق من أرض الله الواسعة.

إنَّ الاشباع بالتأكيد مثير «معزز» لسلوك الذات البشرية، ويترتب عليه آثار سيكولوجية إيجابية، إذ يزيح «الإشباع ألم النقص في الكيان الداخلي» كرفع الجوع أو العطش أو الجوع الجنسي أو التخفيف من الحرمان منه، كما يتيح الإشباع السوي والحلال فرصة تحقق الراحة الجسدية مصحوبة بتحقق حالة من الرضا النفسي، وحالة من الصحة النفسية المقبولة، وهو يسهل على الفرد – كما نعتقد – الإحساس الطبيعي بالرضا عن الذات وعن الآخر، فكمية «الإشباع» المعزز للسلوك تنعكس إيجابياً على حركة النفس وانضباطها في الحياة الاجتماعية، ولهذا فإن النصوص التربوية في خطاب الإمام الحسن يؤكد على الإشباع «الحلال» والسوي والمتوازن كي لا يترك آثاره الإيجابية على الصحة النفسية والجسدية، ومن هنا نفهم تعجب الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما أفضل الصلاة والسلام في أحد نصوصه السيكولوجية والأخلاقية عندما قال عليه السلام متعجباً من إفراط الناس في تحقيق الإشباع المادي بخاصة فيما أسماه بـ «المأكول».. أي الحاجات المادية والغذائية مقابل حالة حرمان جزئي أو تام أو شبه تام لإشباع الحاجات العقلية ومن صنع الفرد الإنسان نفسه كما جاء في كلامه الكريم: «**عجبت لمن تفكر في**

مأكوله، كيف لا يتفكر في معقوله[١]».

وهنا يتقابل في هذا المقطع من النص حالتان.. حالة حرمان من الإشباع، وحالة إشباع زائد عن الحد، وكلتاهما في نظر الإمام الحسن عليه السلام سلوك غير سوي، ولعل هذا ما يفسر قوله عن الحرمان عندما طلب منه والده الإمام علي بن ابي طالب تعريف الحرمان فقال الإمام الحسن عليه السلام: «**الحرمان.. تركك حظك، وقد عُرِضَ عليك[٢]**»، فبعض الناس يتركون حظوظهم الطبيعية المتاحة والمطلوبة في إشباع حاجاتهم عقولهم، وحاجاتهم المادية والاجتماعية والنفسية، وقد عرض الله عليهم فرصة الإشباع الكامل لهذه الحاجات، مع ضياع إثابتهم، فالعقل هبة إلهية وإشباع حاجاته نعمة يثاب المرء عليها، وترك إشباعها حرمان معيب، فقد ترك الإنسان حظه من الإشباع الطبيعي، وقد عرض عليه من هذا أو ذاك.

***

الحرمان من الاشباع

نعود لمقطع سابق من نص مطوَّل إلى حد ما نقلناه في إحدى حلقات كتابنا[٣]، ويقول فيه الإمام الحسن حينما سأله والده.. ما الحرمان؟.

فقال عليه السلام: «**الحرمان.. تركك حظك، وقد عُرِضَ عليك[٤]**».

---

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٥٠.

(٢) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول ص ١٦٣، وكتاب «الروائع المختارة» للسيد مصطفى الموسوي، ص ١٣٩.

(٣) نظر الحلقة الثالثة (طرق وأساليب العملمية التعليمية – التعلمية عند الإمام الحسن).

(٤) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول ص ١٦٣، وكتاب « كشف الغمة في معرفة الأئمة للأربلي، ج ٢، ص ١٩٥، وكتاب «الروائع المختارة» للسيد مصطفى الموسوي، ص ١٣٩.

والحرمان هنا في مقابل الإشباع، فالمفهوم الأخير إعطاء «النفس» ما تحتاجه من المعززات الفسيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو المادية، ويكون الاشباع بقدر معيَّن تحتاجه النفس أو العقل أو الجسم، أو بقدر زائد عن حد الإشباع، وبذلك يتميَّز الإشباع السوي عن الإشباع غير السوي، فيكون الأول توفير معزز يحقق الإشباع الحلال المقبول بمعايير الصحة النفسية، ويكون الثاني حالة نقص في توفير المعزز بنحو يصل للجوع.. جوع الطعام وجوع الرغبة الجنسية وجوع الحاجة إلى تأكيد الذات، ونقصان المعرفة وغير ذلك.

أمَّا الحرمان فهو «منع النفس من الحصول الطبيعي على إشباع مناسب بقدر ما تحتاجه النفس في ظروف طبيعية قادرة على توفير الإشباع أو في ظروف عاجزة عنه»، أو هو بلغة الإمام الحسن عليه السلام: «**تركك حظك، وقد عُرِضَ عليك**».

فيكون الحرمان حالة نقص في توفير المعزز (المادي أو المعنوي أو معاً) بنحو يصل على سبيل المثال.. للجوع الجسدي.. جوع الطعام وجوع الرغبة الجنسية وجوع الحاجة إلى تأكيد الذات، ونقصان المعرفة وغير ذلك من الحاجات الإنسانية، وهذا المنع يأخذ أكثر من شكل، فإما أنَّ المتسلطين قد فرضوا على الناس بتسلطهم، وأنانيتهم، وعدوانيتهم، وعدم إحساسهم بمعاناة الآخر، ومن ثمّ يكون هذا النوع من الحرمان إفقاراً متعمداً أو تجويعاً مقصوداً أو إيذاءً موجهاً ضد الذات من طرف خارجي يترك أثره السلبي على النفس وعلى حياتها الفرد وعلى علاقتها بالمجتمع، لكن هناك نوعاً آخر من الحرمان يثيره النص التربوي الحسني السابق الذكر القائل في تحديد مفهوم الحرمان ومضمونه اللفظي والمعرفي، يقول هذا النص: (الحرمان تركك حظك، وقد عرض عليك).

وهو كما ترى عزيزي القارئ أقسى وأشد وأصعب لأنه يتم باختيار الفرد نفسه وبإرادتها صائباً في قراره أو مخطئاً، فقد يعرض على المرء شيء من الطعام أو الماء أو المال الحلال لإشباع حاجة الإنسان منه، لكنه تحت ظروف تكون مجهولة أو معلومة – بالنسبة بالفرد – يترك حظه من الاستفادة من المتاع المتاح والمباح أو يتنازل عن حاجته بنظرة خاطئة فيحرم نفسه مما تحتاج إليه من نعم الله سبحانه، ومن ثم يضع الفرد نفسه في حرمان حقيقي باختياره الذاتي.

ونتصور أن الإمام الحسن الزكي بن علي عليه السلام قد عنى في إجابته عن سؤال أبيه أمير المؤمنين علي هذا النوع الأشد والأصعب من حرمان «الذات» من إشباع سوي لحاجاتها، فهو لسبب يترك حظه عاثراً مما تحتاجه نفسه وقد عرض عليه قدر من الإشباع، فيكون قد أضاع بنفسه «الفرصة «للحصول عليه وتوفيره حتى وإن اختار الزهد وتنظيم الإشباع وضبطه بما يتفق ومحددات المشرع التربوي الإسلامي ومعايير الصحة النفسية التي تجعل لسلوكه معنىً.

***

الثابت والمتغير في الحاجات

جميع حاجاتنا البشرية هي مزيج من التكوين الفطري والممارسة أو الإشباع الاجتماعي، فالمؤكد أن الحياة البشرية لها ثوابت محددة تتمثل في القابليات الوراثية التي نولد مزودين بها، ولها في الجانب الآخر صور تعبيرية متغيرة من مدة إلى أخرى، ومختلفة من مكان إلى أخرى، فعلى سبيل المثال يمكن لحاظ الرغبة في «المسكن «حاجة فطرية لدى الإنسان في كل زمان ومكان، لكن يتم التعبير عنها بصور مختلفة من زمن لآخر ومن بيئة مكانية لأخرى، فبعض البشر يبنون مساكنهم من الخيام، ويعيش آخرون في

كهوف، ويبني قسم ثالث من الناس بيوتهم في أزمنة مختلفة ومتتالية من الخوص وسعف النخيل، بينما يبني آخرون مساكنهم بأدوات البناء الحديثة، فالصور المعبرة عن الشكل الخارجي للبناء متغيرة، ومتحركة، ولكنها في النهاية معبرة عن رغبة فطرية ثابتة، وما ينطبق على سائر الحاجات الفطرية والفسيولوجية والاجتماعية أو النفسية كالحاجة إلى التعلم ينطبق على حاجات عديدة.

فالرغبة في التعلم تمثل حاجة فطرية في التركيبة الآدمية، وهي ثابتة في التكوين الفطري الإنساني، ولكن فعل «التعلم» كسلوك اجتماعي وأداء تربوي يتم اكتسابه بفعل التفاعل بين القابليات الفطرية وبين عناصر البيئة الاجتماعية التي يعيش في كنفها الأفراد، ويتم التعبير عنه بصور مختلفة، كالتعليم الديني أو المهني أو تعلم الصناعات أو تعلم العلوم الحديثة، فالقابلية للتعلم فطرية وثابتة في كياننا الإنساني يتم التعبير عنها بصور مختلفة، أي أن صور الإشباع متبدلة من زمن لآخر ومختلفة من مكان لآخر مع ثبات الرغبة ككيان أصيل في داخلنا البشري.

فالتعلم حاجة، ورغبة داخلية مركوزة في التكوين الفطري، وهي إحدى القابليات والاستعدادات الداخلية التي نرثها دونما تدخل من أحد سوى خالق النفس، ولهذا فإن التعلم وطلب العلم – كرغبة داخلية – تجسد بالنسبة للإنسان حاجة رئيسة فطرية في كيانه، لكنها لن تكتمل في حركها إلاَّ بالتحقق في عالم الوجود الاجتماعي، أي أن التعلم كحاجة إنسانية هو في النهاية مزيج من الاستعداد الفطري الداخلي والممارسة التعليمية المستمدة من البيئة الاجتماعية التي تكسبه في النهاية إشباعاً معيناً بقدر محدد وفقاً لظروف تكوينها التدريجي.

ونظراً لأهمية حاجة الإنسان للتعلم ركز خطابه التربوي على إشباعها، وطالب

الإمام الحسن عليه السلام أن تأخذ حظها من الإشباع بتوازن تام لا حيف فيه كما يفعل الناس، حيث يميلون – كما شاهد الإمام الحسن بنفسه – إلى سلوك غير متوازن في الإشباع، وهو سلوك يتجاوز الإشباع السوي لبعض الحاجات الجسدية على حساب الإشباع للحاجات المعنوية، والحاجة للتعلم في صدارة الحاجات المعنوية التي لا تأخذ حظها من الاهتمام، لذلك كان هذا السلوك موضع انتقاد الإمام الحسن عليه أفضل الصلاة والسلام، وطالب في نص له تحقيق توازن في إشباع الحاجات الجسدية والتعليمية وتجنب مخاطر الإشباع غير المتوازن.

***

مصدر الإشباع

يولد الإنسان مزوداً بقابليات فطرية للحاجات بمختلف أنواعها، وبعد تفاعله مع عناصر البيئة الداخلية ومثيراتها الخارجية تبدأ حاجاته في نشاطها حتى يتم الإشباع أو يتحقق الشبع على حد تعبير بعض الروايات الإسلامية، وإذا تأملنا في طبيعة الإشباع نجده من مصادر متعددة ترتد جميعها إلى مصدر أساسي أصيل هو الله سبحانه واهب «النعم» المختلفة وصانعها وخالقها، فالإشباع يأت من نعم داخل الإنسان ومحيطة كالعقل وأعضاء الجسم، ومن مصادر في عالمه الخارجي كالنباتات والأشياء، والأسماك والمعادن وغيرها، لكن جميع هذه النعم بما فيها الإنسان نفسه من خلق الله سبحانه، بل حتى مصادر الشبع التي وفرها الإنسان بجهده الذاتي هي نعم إلهية لأن الله سبحانه مخلوق إلهي، والأدوات التي استخدمها الإنسان في توفير هذه النعم هي من نعم الله سبحانه، ومن ثم فالإنسان والأشياء والنباتات وما يصدرها عنها هي في حقيقتها

نعم مخلوقة من رب العباد، فـ «**بإحكام قدرته خلق جميع ما خلق**[١]» كما يقول الإمام الحسن عليه السلام، فالأطعمة بأشكالها وأنواع الأشربة والعقول والأرزاق، والإنسان نفسه، والأشياء من حوله في عالمه المادي هي جميعاً «نعم إلهية» مخلوقة تظل مجهولة ما دامت في أيدينا، فإذا ما زالت وذهب أثرها عرف الناس قيمتها، وهي عين ما قاله الإمام الحسن في نص قصير هو: «**تجهل النعم ما أقامت، فإذا ولَّت عُرِفَت**[٢]» وهو خالقها.

وهكذا يدرك الناس بأن الطعام بألوانه الكثيرة ومختلف طيباته، وكذلك النباتات بتدخل الإنسان أو من دونه، وأيضاً الأشربة ومختلف الأشياء هي جميعاً (نَعَمٌ) من صنع إلهي، وأن الإنسان وما يصنعه من مواد خام أو من مواد تحويلية هي صناعة إلهية، وبذلك نعدّ المصدر الذي يموِّل الإنسان بحاجاته وبقابلياتها وبأدوات ومواد إشباعها هو الله سبحانه وتعالى، وقد قال الإمام الحسن الزكي بن علي في دعائه للاستسقاء: «**أرِنا الرزق موجوداً**[٣]».. أي اجعله مائدة بين أيدينا، وحاضرة في متناول الخلق وعباد الله سبحانه.

***

خصائص إشباع الحاجات:

ثمة خصائص تطبع عملية «الإشباع» للحاجات الإنسانية لتكون عملاً عبادياً سوياً كما أراده المشرع الإسلامي، وكما يرغب فيه علماء الصحة النفسية بمعاييرها العلمية، وهي بالضرورة لا تلتقي مع بعض القيم الدينية الإسلامية، بل تفارقها أحياناً، ولكن مع ذلك ثمة مشتركات في الرؤيا، فالعقل الإنساني الفطري يمكنه أن يوحد

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٢، ص ١٣.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، الحديث رقم ٣٧، ص ١٣٣.
(٣) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٢٤، ص ٤٩.

النظرة الصحيحة من هذه القضية أو تلك.

وقد تتبعنا بعض النصوص التربوية في خطاب الإمام الحسن عليه السلام فتعرفنا على بعض الخصائص من باطنها، ومن هذه الخصائص نذكر ما يأتي:

١. الإشباع الحلال بطابع عبادي عفيف

يبحث الإنسان بفطرته السليمة عن إشباع لحاجاته المختلفة، وبخاصة حاجاته الفسيولوجية الملحة حتى لو تفاوتت مستوياته من حيث كميته وزمنه ومدى توافقه مع معايير الحلال والحرام، فالمرء منذ لحظة ولادته يود الحصول على إشباع مستمر لحاجاته لا سيما المادية شديدة الإلحاح، وليست المشكلة في الإشباع ذاته، وإنما في نوع الاشباع ومدى انضباط صاحبه، والتزامه بمعايير الحلال والحرام، بل إنه إذا لم يبحث المرء عن إشباع حلال وسوي فإنَّ «آثم «بالمعايير الإيمانية وبمحددات المشرع التربوي الإسلامي، فالإشباع التوافقي عمل عبادي تؤيده صراحة النصوص الشرعية في القرآن الكريم وأحاديث النبوة وأقوال المعصومين عليهم السلام، إذ تشجع هذه النصوص على طلب الرزق الحلال، وتدفع الناس لإشباع حاجاتهم بعفاف وضبط واستقامة في الأكل والشراب والجنس، والبحث عن المعرفة والتقدير والنجاح والأمن وغيرها بأساليب توافقية مطابقة للمحددات الإيمانية وضبطه بمعايير الصحة النفسية التوافقية مع هذه المحددات.

وكان موقف الإمام الحسن عليه السلام خارجاً عن هذه النظرة لموضوعية الإشباع وذاتيته، وضرورة تلبسه بمعايير الحلال والحرام، ودفع الالتزام به، فمصادر تراثه الروحي والثقافي والأخلاقي تنقل لنا بعض أقواله التي تشدد على عفاف الإشباع وطابعه الأخلاقي كما في الحديث التالي، حيث يقول عليه الصلاة والسلام:

- «**لا تجاهد الطلب (ويقصد طلب الرزق) جهاد الغالب، ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم، فإنَّ ابتغاء الفضل من السُّنَّة، والإجمال في الطلب من العفة، وليست العفة بدافعة رزقاً، ولا الحرص بجالب فضلاً، فإنَّ الرزق مقسوم، واستعمال الحرص استعمال المأثم**[١]».

وقوله عليه السلام: «**إنْ لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه مما تكره، فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى**[٢]».

وقال عليه السلام: «**يا بن آدم عف عن محارم الله**[٣] **تكن عابداً، وأرضّ بما قسم الله تكن غنيّاً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك بمثله تكن عدلاً**[٤]».

وقوله في نصيحة لجنادة بن أبي أمية: «**استعد لسفرك، وحصل زادك قبل حلول أجلك، وأعلم أنك تطلب الدنيا، والموت يطلبك، ولا تحمل همَّ يومك الذي لم يأْتِ على يومك الذي أنت فيه، وأعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق رأسك إلاَّ كنت فيه خازناً لغيرك، وأعلم أنَّ في حلالها حساباً، وفي حرامها عقاباً، وفي الشبهات عتاباً، فانزل الدنيا بمنزلة الميتة، وخذ منها ما يكفيك فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيها، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر، فأخذت كما أخذت من الميتة، وإن كان العتاب فإنَّ**

---

(١) الموسوي، الروائع المختارة، الحديث رقم ٤، ص ١٢٦.

(٢) الموسوي، مصدر السابق، الحديث رقم ٥٠، ص ١٣٥.

(٣) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٤) الموسوي، الروائع المختارة، الخطبة رقم ٧، ص ١٩، وكتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٩.

العتاب يسير[١]».

وهكذا تضفي هذه النصوص التربوية عند الإمام الحسن بن علي عليهما السلام على الاشباع طابعاً عبادياً عفيفاً لا مجال فيه للأكل الحرام، ولا اللباس الحرام، ولا تناول الملذات الشهوية الآثمة، ولا انغماس في شهوات محرمة ليتم إشباع الحاجات بلا قيم صحيحة، ولا صلة لها برضا الله تعالى، فدعوته صريحة في تحقيق الإشباع السوي بمعاييره السليمة التي تعانق رضا الله سبحانه.

٢. القصد والاعتدال في الاشباع

ينصرف مفهوم القصد – هنا – إلى معنيين أحدهما بمعني ضبط نية الاشباع وربطها بنية القربى لله عز وجل لا بنوايا أُخر، فإذا قصد من الاشباع الحصول على معزز يسد النقص في حاجة ما لديه بنية القربى لله عز وجل والاستجابة لأوامره ونواهيه كما تقدم في حديث سابق (رقم ٥٠) فإنَّ الاشباع يكون بصيغة روحية وعفيفة، وهذا يتناغم تماماً مع ما أسميناه في الخاصية السابقة الأولى بـ «الإشباع الأول».

أمَّا إذا كان القصد من الاشباع الضبط والاعتدال بلا إفراط ولا تفريط، وتجنب الإشباع الزائد عن الحد، والإفراط في الشهوات فإن المشرع التربوي الإسلامي يؤكد على هذا المعنى، وينسحب أكثر من نص للإمام الحسن عليه السلام على هذا المعنى، حيث ذكرنا قوله لجنادة: «**وخذ منها ما يكفيك (أي بمقدار الحاجة)، فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيها، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر**»، **ولا تحمل همَّ يومك الذي لم يأْتِ على يومك الذي أنت فيه، وأعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق رأسك إلاَّ كنت فيه خازناً لغيرك**»، وفي توجيه آخر لضبط الإشباع على روح الاعتدال الذي لا إفراط

(١) الموسوي، الروائع المختارة، الخطبة رقم ١٢، ص ٢٧ – ٢٨.

فيه ولا تفريط قال عليه السلام: «**القصد في المعيشة نصف المؤونة**[1]».

ويتسق مفهوم «القصد في المعيشة» مع مفهوم القصد في الإشباع، فكلاهما يعني توفير الإشباع وضبطه من دون إفراط أو تفريط، فإذا اقتصد المرء في معيشته، في تناول الطعام والشراب واستخدام الملذات الأخرى يكون قد وفّر على نفسه «نصف المؤونة» واحتفظ بنصفها الآخر ليوم يحتاج فيه إلى «مخزونه الاحتياطي» بمعناه المادي المحض ليسد حالة العجز، ويساوي بين إشباع اليوم الذي هو فيه، وبين إشباع اليوم الذي لم يأتِ بعد.

وهكذا فإن القصد في المعيشة ليس في الطعام وحده، بل في مختلف حاجات المرء وملذاته بخاصة المادية التي تكثر في إلحاحها وضغطها على الفرد، ومن ثم تعني القصد في المعيشة توفير نصف المؤونة ليوم قادم لم يأْتِ بعد قد يكون صعباً وقاسياً أو حتى لتكاليف طارئة غير محسوبة في اليوم الذي يعيشه المرء.

***

ثالثاً: خاصية توازن الاشباع للحاجات.

لاحظ الإمام الحسن – كما يوحي نص منسوب إليه أن الناس في مجتمعه يَفْرِطُوْنَ في إشباع حاجات البطن (الطعام والشراب وغيرهما)، وأنهم في الوقت نفسه يفرطون كذلك في إهمال إشباع حاجات عقولهم، ويبدو أن هذه مشكلة الناس في عصور مختلفة، وما تزال لسوء الحظ تبسط هيمنتها على سلوك الناس في هذا الزمان، فجلُّ اهتماماتهم وتفكيرهم البحث عن الطعام والشراب والشره في تناولهما، وهذا ما أثار تعجب الإمام الحسن عليه السلام من إخلالهم بمبدأ إشباع الحاجات.

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ١٠٠، ص ١٤٢.

إنَّ مهمة الإمام الحسن ليس نقد السلوك الاجتماعي فحسب، بل وتعليله وتفسيره وتحديد خطئه، ثم دعوتهم للتفكير في السلوك البديل وهو التوازن في الاشباع، وتجاوز الإمام الحسن في حديثه (نقد سلوك الناس) في الإخلال بإشباع حاجاتهم المادية والعقلية، فبدأ في تحديد آثار هذا الخلل على الحياة الشخصية للفرد، وبيَّن مخاطره عليه، يقول الإمام الحسن عليه السلام في إشارته للمبدأ الإشباع المتوازن بين حاجات الكائن الآدمي المادية والمعنوية، الجسمية والنفسية والعقلية، وعبر عليه السلام عن الأولى بتعبير «المأكول».

وعبر الإمام الحسن عن النوع الآخر من الحاجات بـ «المعقول»:

«عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه[1]».

وبمقتضى النص السابق:

١. نقد إفراط الناس في إشباع حاجتهم «لمأكولهم «إلى مداه الأقصى دون الالتفات إلى إشباع «المعقول»، وهذا جانب مهم من الشخصية الإنسانية.

٢. أن من مقتضيات نقد السلوك الاجتماعي في الإخلال بمبدأ إشباع الحاجات الدعوة إلى تغيير هذا السلوك وتعديله بنحو يحقق التوازن في الإشباع.

٣. التعجب الذي أثاره الإمام الحسن بن علي عند طرح مشكلة الخلل في إشباع الحاجات كان هادئاً يصل للناس بلا استفزاز وتبليغهم خطأ ما يفعلون، وهذا ديدن النفسية التي يكون عليها أئمة أهل البيت عليهم السلام.

٤. لم يتوقف النص عند مستوى نقد السلوك الاجتماعي، وإنَّما تخطاه إلى تحديد

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٥٠.

نتائج التعديل المطلوب (تجنب البطن الأذى، وإيداع الصدر الردى).

٥. أنه بالتفكير في إشباع «المعقول «وتقليل الإشباع الشره للمأكول يتجنب المرء «ما يؤذي بطنه «وأن يودع صدره المعرفة والعلم والروحانيات ما يردي شره «المأكول «لديه، ويحدث توازناً سوياً بين إشباع حاجات الجسد والعقل معاً.

٦. أن شهوات البطن هي من الحاجات الملحة، بل شديدة الإلحاح، وهي بالطبع لا تترك من دون ضبط، لذلك فإن إشباع «الحاجات» العقلية يخفف من اهتمام الفرد بهذه الشهوات، وفي الوقت نفسه يتيح للحاجات العقلية أن تشبع كما ينبغي، ومن ثمّ يسهل على العقل السيطرة على شهوات البطن وبخاصة الأكل من خلال الاشباع المتوازن لمختلف الحاجات.

٧. أن الإمام الحسن الزكي بن علي عبر عن حاجتين أساسيتين لدى الإنسان بوجه عام، وهما حاجتنا للأكل والطعام، وحاجتنا للعلم والمعرفة بكلمتين هما «ماكوله، ومعقوله»، فاللفظ الأول (مأكوله) يعني الحاجة إلى الطعام، وما يأكله الإنسان، وهذه الحاجة من حاجات بقاء الذات كما يذهب إلى ذلك علماء النفس والنصوص الدينية الإسلامية، بينما اللفظ الثاني المقابل له (معقوله) يشير للعلم والمعرفة، وكلاهما يحتاج إلى إشباع، إلاَّ أن الإنسان أخل بمبدأ الإشباع المتوازن للحاجتين الأساسيتين المذكورتين.

٨. أثار عليه السلام تعجباً من سلوك الناس في الإخلال بإشباع الحاجات بنحو تجدهم يفكرون في إشباع حاجتهم للأكل، وما يرتبط به من إشباع حاجتهم للشراب.

٩. أن الإخلال في الإشباع كان لصالح حاجات مادية تعد شديدة الإلحاح على سيكولوجية الإنسان، وهو الإخلال في إشباع حاجة الناس إلى الأكل، وتفكير الناس في تحقيقها دون مبالاة بالتفكير في إشباع حاجة الإنسان إلى طلب العلم.

١٠. أنه عليه السلام يدعو إلى التفكير في إشباع الحاجات المعرفية أسوة بإشباع الحاجة إلى الطعام والأكل والشراب والجنس وغيرها من الحاجات البيولوجية.

١١. يعلل الإمام الحسن الزكي تعجبه من إخلالهم بإشباع الحاجات الرئيسية بتحذيره من سوء النتائج فيقول لماذا لا يفكر المرء في التفكير بتعادل الإشباع حتى يجنب بطنه ما يؤذيه من جهة، وحتى يودع صدره ما يرديه، وهنا تشير كلماته إلى نتائج وخيمة من أضرار التخمة في تناول الطعام وخواء العقل من العلم والمعرفة وتعطيل نشاطه كما ينبغي.

١٢. أن الإمام الحسن السبط يقدم نصاً توجيهياً لإصلاح ما أخطأه الناس بدعوته إلى التفكير في التفكر والحاجات العقلية أسوة بتفكير الناس في إشباع حاجاتهم للحاجات الفسيولوجية وبخاصة الأكل وما يرتبط بها، وفي ذلت خطوة توجيهية لتحقيق التوازن في الإشباع بين الجانب المادي من كيان الإنسان والجانب المعنوي في شخصيته.

١٣. توازن الإشباع وعدم الشره في جانب دون جانب (رقم الحديث ٥٠، وحديث المأكول والمعقول، وحديث رقم ٧٤، وكذلك حديث «القصد في المعيشة نصف المؤونة «رقم الحديث ١٠٠، وأقرب ما نفهمه من هذا المقطع من نص الإمام الحسن الزكي بن علي وحديثه أن يكون في المجال المعيشي أو الاشباع في الجوانب المادية الأخرى لا المجال المعرفي فحسب).

١٤. ظاهر النص التربوي الحسني في المقطع الثاني منه أنه يدعو إلى إشباع حاجات «المعقول» المهمل، وهو تعبير لا نراه خاصاً بحاجات العقل وحده، وإنَّما يتجاوزه إلى إشباع الحاجات النفسية كالأمن والنجاح والانتماء والتقدير، وإنْ كان المعنى الظاهري يتمركز حول إشباع الحاجات العقلية.

رابعاً: أخلاقية الاشباع وسموه

كل سلوك – سيئاً كان أو حميداً – هو في نهايته موصول بأخلاقيات، ومما لا شك فيه أنَّ الإشباع بمختلف صوره وأساليبه يعد سلوكاً له علاقة بهذه الأخلاقيات، وإذا كان نمطها مادياً اصطبغ الإشباع بنزعة مادية، وحينما نمطها الأخلاقي ربانياً وعبادياً يكون شكل الإشباع سوياً موسوماً بأخلاقيات دينية، ولهذا فإننا قصدنا من أخلاقية الاشباع مطابقتها الكاملة بالأخلاق التي يقرها الدين المستمدة من رؤى المشرع التربوي الإسلامي، أو على الأقل تأثرها في كثير أو قليل بهذه الأخلاق.

إنَّ أخلاقية الإشباع بالنسبة للإمام الحسن عمل عبادي، وثمة صلة بين عملية الاشباع للحاجات وعملية التوجيه القيمي الأخلاقي الموزع في تراث الإمام الحسن عليه السلام في خطب ورسائل وأدعية وكلمات قصار، وهي مصادر تفيض بالمعاني الأخلاقية، فالرزق على سبيل المثال حاجة مادية يحتاج فيها الإنسان إلى إشباع تحقيق الرضا الداخلي لدى الفرد، لكنه في نظر الإمام يجبا أن يكون عفيفاً، فالإجمال – كما يقول: «**الإجمال في الطلب من العفة، وليست العفة بدافعة رزقاً، ولا الحرص بجالب فضلاً، فإنَّ الرزق مقسوم، واستعمال الحرص استعمال المأثم**[1]»، والطلب هنا هو طلب الرزق أو الحاجة إليه، ولا بد من بضبطه بالعفاف، وتحدث الإمام الحسن عن صديق كان يصفه فقال عنه: «**كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يتشهى ما لا يحل، ولا يكنز إذا وجد**[2]»، فالإمام الحسن يدعو للتحرر من سلطان البطن وزوائد شهواته غير الطبيعية.

ومتى اصطبغت عملية البحث عن الرزق وطلبه بالعفة الداخلية والخارجية معاً

(١) الموسوي، الروائع المختارة، الحديث رقم ٤، ص ١٢٦.

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن، ص ٦٧، وكتاب الروائع المختارة للسيد مصطفى الموسوي، الحديث رقم ٣٢، ص ١٣٢.

كانت عملية إشباعه سلوكاً أخلاقياً مؤسساً على قيم ربانية إلهية، وحين يطلب المرء إشباعاً لحاجته في العلم والمعرفة من أجل رضا الله سبحانه، وتجنب نواهيه والعمل بأوامره يكون هذا الإشباع ربانياً يتجلى في قيم وأخلاقيات تسود حياة الجماعة، وتحكم التزامها وانضباطها، ومن تداهمه غائلة الانحراف من الناس يشعر يوماً بالحاجة إلى الله، فيحاول التقرب إليه بالتوبة، لكن التوبة ليست مجرد علاقة مع الله، بل هي حركة أخلاقية في خدمة المجتمع، فكف النفس عن النميمة والغيبة وسوء الظن بالناس هو عمل أخلاقي يحقق للإنسان إشباعاً لحاجته إلى التوبة والعودة لله سبحانه وتعالى، وحاجته لترميم العلاقة من جديد مع الناس، والبدء بتقوية مشاعره في الانتماء للجماعة ورغبته في الحصول على تقدير اجتماعي جديد.

وهذه قيم تجعل الاشباع عملاً أخلاقياً يحظى برضا الله والرضا الاجتماعي، ومن هنا فإننا نجد في التراث الثقافي والأخلاقي والروحي عند الإمام الحسن حديثاً صريحاً عن قيم أخلاقية ربانية المصدر تحقق للفرد صحة نفسية من بوابة الاشباع السوي لحاجاته التي تنظمه القيم الأخلاقية بتوجيهاته، فكما قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«**من احتجت إليه هنت عليه**[1]».

***

نماذج العلاقة بين القيم الأخلاقية وعملية الإشباع.

وسنضع أمام القارئ الكريم ثلاثة نماذج من النصوص التي تكشف عن علاقة القيم الأخلاقية التي وردت في خطاب الإمام الحسن وبين عملية الاشباع السوي بمعايير عبادية لبيان أخلاقية «إشباع الحاجات الإنسانية «بمحددات إيمانية، والنماذج

(١) الآمدي التميمي، كتاب ((غرر الكلم ودرر الحكم))، رقم الحديث ٩٥٥، ج٢ ص ٢٠٢.

الثلاثة هي:

١. نموذج النص الأول

يقول الإمام الحسن: «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به**[١]».

وفي نص مماثل للحديث السابق زاد عليه «تكن عدلاً أو تكن عادلاً «فقال عليه الصلاة والسلام: «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عدلاً**[٢]»، وفي رواية: «**تكن عادلاً**[٣]».

الحاجة هنا في النصين ذات طبيعة اجتماعية وهي البحث عن انتماء للجماعة ومحاولة الحصول على تقديرها، وتدل عملية البحث على رغبة المرء في البحث عن إشباع عملي سوي لهذه الحاجة، وتدل كذلك على رغبة الناس جميعاً في إشباعها، فالتوجيه الحسني في النصين مرتبط بسمة أخلاقية واضحة فيهما هي العدالة، فالنص الثاني ينادي بالعدالة في قسمة مشاعرنا الاجتماعية – السيكولوجية في البحث عن انتماء اجتماعي لوجودنا الفردي، فهذا النص يربط بين العدالة كقيمة أخلاقية وعملية الإشباع كحاجة سيكولوجية، فإذن.. أحدهما أخلاقي والآخر نفسي.

إنَّ النصين – بصورة مباشرة وغير مباشرة – يجعلان من العدالة كقيمة أخلاقية قوة مؤثرة في سلوك الأفراد الباحثين عن إشباع لحاجتهم في الانتماء الاجتماعي والحصول على تقدير الجماعة أو المجتمع، والمضمون الأخلاقي للعدالة المطلوبة في النصين أن يشعر الفرد بأنه كالآخرين يود – كما يودون – في مصاحبة الناس بنفس المعاملة التي

(١) الموسوي، الروائع المختارة، الحديث رقم ٨٢، ص ١٣٩.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٩.
(٣) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٤٥، ٤٩.

يود المرء أن يصاحبوه بها، فالقسمة عدل، فعلى الفرد أن يصاحبهم بمثل ما يحب أن يصاحبوه، فالإحساس الموحد بالآخرين والاتحاد بوجدانهم في صحبتهم بنفس ما يرغب هو عدالة في توزيع الشعور الاجتماعي، وفي تحقيق الاشباع لهذه الحاجة لديه ولدى الآخرين.

٢. نموذج النص الثاني

ويقول الإمام الحسن عليه السلام في نص أخلاقي آخر:

«أمَّا الكرم فالتبرع بالمعروف، والإعطـاء قبل السؤال[١]»

إن الكرم – كما في ثقافتنا الاجتماعية اليومية – سمة أخلاقية لها علاقة بإشباع حاجة الفرد للمال، لكن عملية الاشباع لم تترك بدون ضبط، وهنا يتجلى السمو الأخلاقي في عملية إشباع حاجتنا إلى المال، ومضمون الحديث أن الشخص الكريم يتبرع بماله لشخص أو يعطي المحتاج وغير المحتاج دون منٍّ أو معايرة أو إهانة، وهذا ما عناه النص التربوي الحسني «بالتبرع بالمعروف» وهو يصف سلوك الكرم كقيمة أخلاقية، حيث يوصف سلوكه بالتبرع بالمعروف، والإعطاء قبل السؤال لأنَّ العطاء قد تم بالمعروف على يد المعطي للمحتاج أو للشخص الذي خصه الكريم بعطائه، وبنبل أخلاقي يخلو من استكبار في النفس أو من أو تعيير وإهانة، ودون اضطرار المرء المحتاج أو المهدي له بهدية أو الضيف دون إراقة ماء الوجه، ويفسر نص آخر المعروف هنا بهذا المعنى الأخلاقي فقال الإمام الحسن بن علي عليه السلام بما لفظه:

«المعروف ما لم يتقدمه مطل ولا يتبعه منٌّ، والإعطاء قبل السؤال من أكبر

---

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٩٢، ص ١٤١.

السؤدد[١]».

وتقول بعض المصادر الروائية أنه أتى الإمام الحسن: رجل في حاجة، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام له: **اذهب فاكتب حاجتك في رقعة، وارفعها إلينا نقْضِها لك،** فرفع إليه حاجته فأضعفها له، فقال بعض جلسائه: ما أعظم بركة الرقعة عليه يا ابن رسول الله؟ فقال عليه السلام: **بركتها علينا أعظم، حين جُعِلْنا للمعروف أهلاً، أما علمت أن المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة، فأما أعطيته بعد مسألة فإنما أعطيته بما بذل لك من ماء وجهه، وعسى أن يكون بات ليله متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته، أبِكآبة الرد أم بسرور النُّجح؟ فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق، فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**[٢]».

لهذا كان عطاء الكريم وتبرعه موصوفاً بالمعروف بمعناه المتقدم، فيعطي من يعطي من المحتاجين وغيرهم ممن يستحق التقدير قبل أن يطلب منه وقبل أن يسألوه الإعطاء، ويلحظ من النصين تحقق الإشباع بدرجة عالية من السمو الأخلاقي بدرجة عالية لا يداخل قلبه من أو تعيير أو استكبار وعلو في النفس على الغير، ولم يصاحب إحساسه مشاعر عدائية كالمن والتعيير التي تسيء للمعطى وتريق ماء وجهه، كل ذلك في أمر يخص المال، وهو كما يعلم الناس صعب في النفوس، لذلك وصف موقف الكريم بالمعروف كمظهر عملي على عفاف النفس واستقامتها الأخلاقية في إشباع حاجة الناس للعطاء المادي وغير المادي.

---

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٣

(٢) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣١ – ٢٣٢.

***

٣. نموذج النص الثالث

وفي هذا النص يقول المجتبى الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام: «**فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها**[١]»، سواء كانت الحاجة هنا «مادية «أو «غير مادية «فإنَّ النص أعلاه ينطوي على احتمالين أساسيين وهما:

أولاً: طلب الحاجة من أهلها

في هذا الخيار ينجح الفرد في تحديد الجهة التي يطلب منها حاجته، فيكون طلبه لحاجته من أهلها، لكن يواجه المرء هنا بأكثر من موقف يتباين فيه حجم تحقق «الاشباع» لدى الفرد، وترتفع بالكلية مشاعر الإساءة:

الموقف الأول: هو لموقف طرف من أهل الحاجة، لكنه لا يملك ساعة الطلب القدرة على الاستجابة لتحقيقه، وهنا يضمن طالب الحاجة تحقق أمرين أحدهما أن لا يعاير أو يمن عليه، والآخر وعد لطالب الحاجة بتحقيق طلبه أو مساعدته.

الموقف الثاني: وموقف ثانٍ لطرف هو فعلاً موقف موفق بنسبة محددة لأن طلب تم من «أهل الحاجة»، ويملك تحقيق الطلب بقدر أقل من مستواه، وفي هذا الموقف يضمن طالب الحاجة تحقيق بعض الطلب دون مستوى الاشباع المطلوب، ولكن في الوقت نفسه يخلو التحقق الجزئي للطلب من المن ومن المعايرة بنحو يريق ماء الوجه.

الموقف الثالث: وهذا الطرف الثالث قادر على قضاء الحاجة كاملة مع ضمان عدم المعايرة، وفي هذا يحدث تحقق كامل للإشباع، وهو أفضل من المستويين السابقين بمقاييسنا الدنيوية، لكن مسألة الإثابة بيد الله وحده.. سبحانه وتعالى.

(١) الموسوي، الروائع المختارة من الحديث ٩٠، ص ١٤٠ – ١٤١

الموقف الرابع: وهذا الطرف يملك القدرة على قضاء حاجة الفرد دون من أو تعيير مع زيادة في حجم العطاء، وبنحو يتجاوز الطلب ومقدار الحاجة كأن يضاعف حجم الحاجة ضعفين، فيعطي بدل المائة دينار مائتين.

***

ثانياً: طلب الحاجة من غير أهلها

وهنا يرى الإمام الحسن المجتبى في غير محله على الإطلاق لما ينطوي عليه الطلب من إحباط متوقع أو فشل ذريع أو شعور بالإهانة كالمن والتعيير، فهذا الخيار مرفوض أخلاقياً لدى الإمام لأنَّ الاشباع قد يتحقق، لكنه مصحوب بالمن والتعيير والإساءة للكرامة الإنسانية، ونعتقد أن الإمام الحسن عليه السلام طالب جموع الناس على مختلف مشاربهم بـ «تفويت الحاجة»، وعدم طلبها من أشخاص ليسوا أهلاً لها، وخيار التفويت المصرح به في باطن النص هو خيار صحيح وموقف أخلاقي نبيل لأنه لا يوجد إنسان يرضى بجرح كرامته إلاَّ لئيماً في داخله، فالمألوف في التركيبة الإنسانية السوية أن يتحسس الفرد مشاعر العزة ويأبى الإهانة لنفسه أو سلب كرامته، ومن ثمّ لا فرار من الاستجابة الكاملة لكلام الحسن وتنفيذه بلا تردد «**فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها**[1]»، وبمقتضى هذا الموقف يفضل الإمام الحسن عليه السلام في توجيهه للناس التنازل عن إشباع لحاجته بطريقة مذلة كأن يسمع كلاماً مشيناً أو ينظر إليه بنظرة احتقار أو يدفع إليه بطريقة مسيئة، فترك طلب الحاجة من غير أهلها يفسره قول الإمام علي عليه السلام: «**من احتجت إليه هنْت عليه**[2]».

---

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠١.

(٢) التميمي الآمدي، كتاب غرر الحكم ودرر الكلم، ج٢، رقم الحديث ٩٥٥، ص ٢٠٢.

وفي نص حدد الإمام الحسن «**أهلها.. أي أهل الحاجة**» المعنيين في النص السابق، فقال: إذا طلبتم الحوائج، فاطلبوها من أهلها، قيل يا بن رسول الله ! ومن أهلها؟ قال: الذي خصَّ الله في كتابه، وذكرهم فقال: «**إنَّما يتذكر أولو الألباب**» هم أولو العقول[1]».

***

وبعد السرد المتقدم يلحظ أن - كلا الاحتمالين- يرتبط الإشباع فيهما بأحد موقفين أخلاقيين متنافرين لا يلتقيان، أحدهما هابط النزعة، ومصحوب بالمن والتعيير وإراقة ماء الوجه من طالب الحاجة، أمَّا الموقف الثاني فموقف إنساني نبيل يعبر عن سمو أخلاقي وأريحية، فالإشباع في الموقف الثاني غير أخلاقي حتى لو تحقق في أحسن حالاته، أما الاشباع في الموقف الأول موقف نبيل حتى لو لم يتحقق في أسوأ حالاته.

***

خامساً: هدفية الإشباع

من المعالجة التفسيرية للخصائص الأربع السابقة يتجلى لنا الهدف النبيل لإشباع «الحاجات «في الخطاب المعرفي والأخلاقي للإمام الحسن عليه السلام، وينتشر هذا الهدف على مستويين.. الفرد والمجتمع.

١. على مستوى الفرد

وعلى هذا المستوى يتجلى هذا الهدف فيما يأتي:

أ- تحقيق الفرد قدراً طبيعياً من الاشباع النفسي والمادي بطريقة سوية.

ب- تحقق قدر مقبول من الصحة النفسية بعد تحقق مستوى مقبول من الإشباع.

---

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٦.

ت- شعور الفرد بانتمائه للمجتمع وبتقديره.

الإحساس بالرضا الإلهي في أعماق النفس.

***

على مستوى المجتمع

ويتضح تحقق الهدفية النبيلة من عملية الاشباع للحاجات في النقاط التالية.

أ. إسهامات الأفراد في تحقيق خدمات حيوية للمجتمع.

ب. ظهور رعاية اجتماعية للأفراد وتنمية مطالبهم النمائية.

ج. كما تحقق قدر من الاشباع لحاجات الفرد فإنه يتاح لكثير من الأفراد إشباع حاجاتهم.

***

الحلقة السابعة

أنواع الحاجات الإنسانية وتنظيم إشباعها

أنواع الحاجات الإنسانية وتنظيم إشباعها

بعد استجلاء جانب من نظرة الإمام الحسن بن علي عليه السلام لموضوع الحاجات الإنسانية في حلقة سابقة نحاول في هذه الحلقة، وهي حلقة متصلة بها، التوقف قليلاً عند نماذج من إشاراته لها في طوايا خطابه المعرفي والثقافي والروحي والأخلاقي، وسنذكر نماذج من أنواع الحاجات بشقيها الجسدي والسيكولوجي - الاجتماعي، وقد لا نوفق في تحديد كل الحاجات، فهذا أمر لا يخلو من صعوبة بالتأكيد، لكننا بحمد الله سبحانه وتعالى تعرفنا على بعض نصوص خطاب الإمام الحسن، وأدركنا إشاراته لبعض الحاجات بقسميها المادي و ((المعنوي أو النفسي أو الاجتماعي)).

***

تصنيف الحاجات وأنواعها:

يمكن تجاوزاً تصنيف الحاجات الإنسانية في الخطاب المعرفي والتربوي عند الإمام الحسن على أساس بعض المعايير، منها جوانب الشخصية ومكوناتها (أي تكاملها)، ومطالب النمو، والتوجيه الإرشادي الديني في عملية ضبط الإشباع، واستجابة الفرد لإشباع مناسب.

١. جوانب الشخصية وتكاملها:

اتفق علماء النفس على تحديد بعض عناصر الشخصية والتكامل بين جوانبها ومكوناتها، فهناك الجانب الجسمي، والعقلي، والوجداني أو الانفعالي، والجانب

الاجتماعي والدافعي، والأخلاقي، والروحي أو العبادي، وقد أغفلوا لسوء الجانب الأخير ولم يعترفوا بوجوده في الحياة البشرية كما فعل سيجمند فرويد وحواريوه، ومن الملفت للنظر أن هذه الجوانب لا تعمل منفردة، ولا تتحرك مستقلة، ونرى أن علماء النفس صنفوا حاجات الإنسان على أساس جوانبها وتعدد عناصرها فوقعوا مرة أخرى في خطئهم التاريخي، خطأ إنكار الجانب الديني.

وهذه الجوانب هي كما يأتي:

- الجانب الجسمي بطبيعته البيولوجية.
- الجانب العبادي أو الروحي أو الديني.
- الجانب المعرفي أو العقلي.
- الجانب الاجتماعي.
- الجانب الانفعالي أو الوجداني.
- الحانب الأخلاقي.

٢. مطالب النمو:

تتطلب عملية النمو النفسي للإنسان في دورته الطويلة مجموعة مطالب يسميها علماء النفس التطوري بـ «مطالب النمو»، وهي مطالب حيوية وأساسية مرتبطة بالتكوين الفطري للإنسان وتفاعله الاجتماعي وبنموه النفسي في مراحل مختلفة متقادمة، فكل مرحلة من دورة العمر لها مطالبها النمائية سواء الجسمية أو المعنوية أو العقلية وغيرها، وأن كل مطلب من هذه المطالب هو تلبية فعلية لحاجة من حاجات الإنسان.

٣. الضبط الإسلامي للإشباع

قدم الإسلام رؤيته لضمان ضبط اشباع الحاجات في حياة البشر، وشارك أئمة أهل البيت عليهم السلام في تقديم توجيهات المشرع التربوي الإسلامي للسيطرة على الاشباع غير السوي، وكانت نصوص الإمام الحسن بن علي عليهما السلام في جوانب مختلفة من السلوك الإنساني، وفي موضوعات التعلم والتعليم، والحاجات الإنسانية والصحة النفسية تسهم في صياغة هذه الرؤية، وعرضنا هنا وهناك جوانب منها.

***

ملحوظتان:

وقبل مناقشة بعض أقوال الإمام الحسن عليه السلام ومناقشتها في الإشارات للحاجات الإنسانية وكيفية تنظيم إشباعها نود بيان الملحوظتين التاليتين وهما:

١. أنَّ ما سنعرضه من أقوال للإمام الحسن هي نماذج مختارة، وليس كل ما عثرنا عليه من نصوص وأحاديثه في هذا المجال، فالقصد هو بيان الأفكار ذات الصلة بموضوع الحاجات وليس مناقشتها بطريقة شاملة.

٢. أن المحتويات المعرفية لهذه النصوص والأقوال متداخلة مع بعضها في بعض الأحيان، وأنَّ بعضها الآخر استقل بالإشارة إلى عملية إشباع هذه الحاجة أو تلك وتنظيمها من الحاجات الإنسانية التي سنتناولها بإيجاز.

***

أولا: الحاجات البيولوجية والمادية

يندرج تحت هذا الصنف حاجات عديدة شديدة الإلحاح في التكوين النفسي

للفرد، وقد وردت في بعض كلمات الإمام الحسن سواء ما دوناه في هذا المبحث أو لم ندونه بعد، فهذه الحاجات واضحة في كلماته، ولا يحتاج القارئ الكريم إلى قول كثير لإدراكها، حيث تدل هذه الحاجات على نفسها من الكلمات العربية السائدة في ثقافتنا اليومية وحياتنا الاجتماعية،وسوف نذكر ما أمكننا من هذه الإجابات بكلام موجز لأن الناس على علم بها، كما تكررت إشاراتنا لها في أثناء حديثنا المتقدم، وفضلاً عن ذلك نشعر بنقص ما جمعناه من روايات في هذا الشأن، فترك هذا النقص أثره على البنية المعرفية التي تكونت لدينا، ومع ذلك لا يترك الميسور بالمعسور كما يقال، وتدخل جميع هذه الحاجات فيما سماه أحد نصوص الإمام بـ «المعيشة» عندما وصفها بأنها نصف المؤونة، ومن هذه الحاجات.

١- الحاجة إلى الطعام

هذه الحاجة في صدارة الحاجات البيولوجية أو الفسيولوجية، وتمثل القاعدة الأساس «للحاجات» البشرية في نظر فريق من علماء النفس، ويعبر عنها في نصوص الإمام الحسن عليه أفضل الصلاة والسلام بألفاظ وكلمات مثل كلمات «الأكل» أو «آداب الطعام» و «الوضوء قبل الطعام» و «غسل اليدين قبل الطعام»و«سلطان البطن» و«بطنه» و «مأكوله» و«الأكل مما يليك» و«تصغير اللقمة» و«تجويد المضغ» و«لعق الأصابع» و«الأكل بثلاث أصابع» و«الإطعام في المحل[1]»، و«مأكلكم ومشربكم» تعبيرات لفظية تشير إلى الطعام وكل ما يرتبط به كطريقة تناوله وآدابه وتنظيم إشباع حاجة الإنسان منه.

قال الإمام الحسن الزكي: «**فرض** (ويقصد هنا الله سبحانه وتعالى) **عليكم لأوليائه**

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٦٣

حقوقاً، فأمركم بأدائها إليهم، ليحل لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم، ومأكلكم ومشربكم، ويعرفّكم بذلك البركة والنماء والثروة، وليعلم من يطيعه منكم بالغيب[١]».

«وشتمه رجل شامي وهو راكب فلم يرد عليه الحسن، فلما فرغ من سبابه جاءه ضاحكاً وقال: «**أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عُرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رجلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأنَّ لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً[٢]».**

وفي قوله عليه السلام: «**غسل اليدين قبل الطعام ينفي الفقر، وبعده ينفي الهم[٣]**».

وقال عليه السلام الله: «**في المائدة اثنتي عشر خصلة يجب على كل مسلم أن يعرفها، أربع فيها فرض، وأربع سنة، وأربع تأديب.**

الفرض: المعرفة، الرضا، التسمية، الشكر.

السنة: الوضوء قبل الطعام، الجلوس على الجانب الأيسر، الأكل بثلاثة أصابع، ولعق الأصابع.

التأديب: الأكل مما يليك، تصغير اللقمة، تجويد المضغ، قلة النظر في وجوه

---

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٧.

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ١٩٢.

(٣) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٢٩

الناس[١]».

وقال الإمام عليه السلام ناقداً سلوك الناس في الإخلال بتوازن إشباعهم للحاجات الجسدية والمعنوية: «**عجبت لمن يفكر في مأكوله، كيف لا يفكر في معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يرديه**[٢]».

وقال سلام الله عليه عن صديقه: «**كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يتشهى ما لا يحـل، ولا يكنز إذا وجـد**[٣]».

***

المعاني التربوية العامة للنصوص في تنظيم الاشباع:

وانطوت النصوص السابقة على معاني عقلية ونفسية عامة ضرورية في عملية تنظيم اشباع هذه الحاجة، فبعد تأكيد الإمام الحسن على وجود دافع الجوع وضرورة البحث عن إشباعه بصورة مشروعة تراعي المحددات الإيمانية نلحظ بوضوح حرصه عليه السلام ودعوته لتنظيم الاشباع لهذا الدافع الحيوي في الكيان الآدمي.

فقد طالبت نصوصه بإشباع متوازن لحاجات البطن والجسد وعدم إهمال الإشباع لحاجات العقل والروح، كما شدد أحد النصوص علل ضرورة خروج الإنسان من سلطان بطنه وعدم الاستسلام لشهوات البطن ورغبات الجسد، وأن لا يتشهى ما لا يحل، ولا يكنز في بطنه ما يعرضه للتخمة أو ما يؤذي بطنه على حد تعبير أحد النصوص

---

(١) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٢٩ – ١٣٠.

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٥٠.

(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن، ص ٦٧، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، ص ١٣٢.

السابقة الذكر، واتجهت نصوص أخرى على تأكيد انضباط الاشباع على قواعد صحية كغسل اليدين والوضوء قبل الأكل وتصغير اللقمة، وتجويد المضغ، والأكل مما يلي الفرد، أي تناول الطعام المعروض بالقرب منه لا أن يمد يده إلى ما هو أمام الآخرين بعيداً عنه،وقد أحد النصوص اثنتي عشرة خصلة لتناول الطعام، وهي عملية تنظيمية للإشباع.

قال عليه السلام الله في تدريب الناس على ضوابط الاشباع السوي الحلال:

«في المائدة اثنتي عشر خصلة يجب على كل مسلم أن يعرفها.

أربع فيها فرض، وأربع سنة، وأربع تأديب.

الفرض: المعرفة، الرضا، التسمية، الشكر.

السنة: الوضوء قبل الطعام، الجلوس على الجانب الأيسر، الأكل بثلاثة أصابع، ولعق الأصابع.

التأديب: الأكل مما يليك، تصغير اللقمة، تجويد المضغ، قلة النظر في وجوه الناس[1]».

تلك توجيهات ونصائح إرشادية أخلاقية ذات طابع عبادي، ولكنها قواعد سلوكية عملية لتنظيم الإشباع لدافع الجوع، ومن المؤكد أن هذه التوجيهات لن تكون مفيدة، ولن ينتفع منها سوى من يسترشد بها في حياته.

***

(١) الموسوي، الروائع المختارة ص ١٢٩ – ١٣٠.

٢- الحاجة إلى الشراب

هذه الحاجة حيوية ومرتبطة بالتوازن الحشوي للجسم الإنساني، فالفرد يسعى إلى التغلب على ما يعانيه من عطش ونقص في الماء والسوائل، وكلما زادت حالة العطش لديه نشطت عملية بحثه عن إشباع لهذا الدافع الفطري، وربما لم نجد في النصوص التي عرضناها إشارات مباشرة إلى إشباع العطش وكل ما يرتبط به بقدر كاف من النصوص، لكنَّ النص المتقدم يشير بكلمتي «مأكلكم ومشربكم» اللتين تعنيان الحاجة إلى الطعام في كلمة «مأكلكم»، والحاجة للشاب في كلمة «مشربكم».

قال الإمام الحسن الزكي: «**فرض** [ويقصد هنا الله سبحانه وتعالى] **عليكم لأوليائه حقوقاً، فأمركم بأدائها إليهم، ليحل لكم ما وراء ظهوركم من أزواجكم وأموالكم، ومأكلكم ومشربكم، ويعرفّكم بذلك البركة والنماء والثروة، وليعلم من يطيعه منكم بالغيب**[1]».

إنه قد ورد كما تقدم في النص المذكور آنفاً مفردتان لفظيتان هما «**مأكلكم ومشربكم**» كإشارة من الإمام الحسن لدافعين أساسيين في التركيبة الآدمية هما دافع الجوع ودافع العطش اللذان يفرضان على الفرد متى أحس بهما البحث عن الطعام والشراب، ولا يوحي تقدم إحدى الكلمتين على الأخرى بضرورة اشباع دافع الجوع قبل اشباع دافع العطش، فأسبقية الإشباع للدافعين لا تحددها أسبقية لفظ على آخر، وإنما يتوقف على الحالة البيولوجية والنفسية التي يكون عليها الفرد لحظة الحاجة، فإذا كانت حالته جوعاً بنحو أشد من عطشه كان من الطبيعي أن يرغب الفرد في اشباع حاجته للطعام قبل أي دافع، وينقلب الحال تماماً حينما تكون شدة العطش أقوى من جوع الفرد، فحينها

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٧.

تكون درجة عطشه أشد وجوعه أقل، وعملية بحثه عن الماء أو أي سائل لإشباع حاجته للمشرب، ويستفاد من النص المعني تأكيد الإمام الحسن على الإقرار الواضح بوجود دافعي الجوع والعطش، وحثه على ضرورة اشباع حاجة الفرد للطعام والشراب.

ويتضح من النص إشارته السابقة للدافعين منطقية لتلازمهما مع بعضهما في حياة الإنسان، أما تفصيلات الإشباع وضوابطه، فقد شددت عليها النصوص أثناء معالجتنا لهذه المسألة عند حديثنا عن خصائص الإشباع ومحدداته الإيمانية المقيدة بضوابط الحلال والحرام وتوازنه.

ويلحظ أن الطعام في زمن الإمام الحسن أكثر تنوعاً من الشراب، حيث تضيق دائرة هذا التنوع بالنسبة لمشرب الإنسان في عصره عن زماننا، فالماء هو النوع السائد الذي يحقق الفرد إشباعه التام والسوي لحاجته من الشراب، وقد تكون هناك سوائل من المعصرات الطبيعية كالفواكه وغيرها، ولكن الإنسان في عصرنا أضاف معصرات كثيرة.. طبيعية وصناعية على حد سواء، بينما تكثر آنذاك.. أي في زمانه.. أنواع الأطعمة عن المشروبات، ومن ثم تكون فرص الإشباع المتنوع لحاجة الإنسان من الطعام أكثر تنوعاً، بينما تقل فرص الإشباع السوي للحاجة إلى الشراب عدا الماء، وما سواه كالخمر فصورة محرمة للإشباع، وقد يكون إشباع هذا الدافع مرتبط بحاجة الفرد إلى الطعام لأن بعض الأطعمة تحوي على كميات كبيرة من الماء كالفواكه والخضروات.

***

٣- الحاجة إلى الإشباع الجنسي

ذكرت كلمات في عدد من نصوصه الرجل والمرأة، وتعبيرات ذكورية وأنثوية ، وأسماء المؤنث، والثدي، والزواج، وبعض ما يشير إلى علاقات الجنسين الشرعية من

ألفاظ كريمة، وعلى وفق للنصوص المتوافرة لدينا لم نجد تفصيلات لهذا النوع من الاشباع البيولوجي – النفسي، ولكن ثمة إشارات لفظية تدخل في سياق الحديث عن الدافع الجنسي وإشباعه بعضها محرم وبعضها الآخر حلال وسوي، وتبين هذه الإشارات حيوية هذا الدافع كحاجة داخلية في التركيبة الآدمية حتى وإنْ برزت أحياناً في صورة منحرفة أو في شكل إشباع محرَّم يلزم عنه عقوبة في الدنيا والدين، وترافقها حالة استياء ناجمة عنه كفعل محرم من الناحية العبادية، وقد جاء في بعض أقوال الإمام الحسن كإشارات منه لهذا الدافع وضرورة إشباعه بالصورة الشرعية السليمة، ومن هذه الأقوال:

• قال عليه السلام: «**إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك**[1]» كإشارة إلى حفظ العرض بالزواج وغيره من صور المحافظة على شرف العفاف الداخلي، واستخدام المال لحماية «العرض».

• وسئل الإمام الحسن عليه السلام عن امرأة جامعها زوجها فقامت بحرارة جماعه فساحقت جارية «بكراً» وألقت النطفة إليها فحملت، فقال عليه السلام: «**أما في العاجل فتؤخذ المرأة بصداق هذه البكر، لأن الولد لا يخرج منها حتى تذهب عذريتها، ثم ينتظر بها حتى تلد فيقام عليها الحد، ويؤخذ الولد فيرد إلى صاحب النطفة،وتؤخذ المرأة ذات الزوج فترجم**[2]».

• ورد الإمام الحسن السبط عليه السلام على سؤال عن المؤنث فقال: «**وأمَّا المؤنث فإنسان لا يدري امرأة هو أو رجل، فينتظر به الحلم، فإنْ كانت امرأة بانت ثدياها، وإن**

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٩٩.
(٢) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٢٩

كان رجلاً خرجت لحيته[١]».

• ورداً على سؤال عن الشبه بين الرجل وأبناء عمه وأخواله فقال عليه السلام: «**وأما ما ذكرت من أمر الرجل يشبه ولد أعمامه، وأخواله فإنَّ الرجل إذا أتى أهله بقلب ساكن وعروق هادئة، وبدن غير مضطرب، استكنت تلك النطفة في تلك الرحم، فخرج الولد يشبه أباه وأمه، وإن هو أتاها بقلب غير ساكن، وعروق غير هادئة، وبدن مضطرب اضطربت تلك النطفة في جوف تلك الرحم، فوقعت على عرق من العروق،فإن وقعت على عرق من عروق الأعمام أشْبه الولد أعمامه، وإنْ وقعت على عرق من عروق الأخوال أشبه الولد أخواله[٢]».**

• وقال الإمام الحسن بن علي عليهما السلام في إحدى توصياته الأخلاقية والإرشادية: «**ترك الزنا، وكنس الفناء، وغسل الإنـاء مجلبة للغنى[٣]».**

• وعن ابن عباس في قوله تعالى: «﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أنه جلس الحسن بن علي، ويزيد بن معاوية بن أبي سفيان يأكلان الرطب، فقال يزيد: يا حسن! إني مذ كنت أبغضك، قال الحسن: **أعلم يا يزيد ! أن إبليس شارك أباك في جماعة، فاختلط الماءان فأورثك عدائي، لأن الله تعالى يقول:** ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾، **وشارك الشيطان حرباً عند جماعة، فولد له صخر، فلذلك كان يبغض جدي رسول الله[٤]».**

***

(١) السيد حسن الشيرازي، مصدر السابق ص ١٩٠.
(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ١٨٧.
(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٠.
(٤) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٦٩.

استخلاصات النصوص السابقة:

ومن المعاني المستخلصة من النصوص الخمسة ما يأتي:

أ. أن الإمام الحسن عليه السلام أشار مباشرة إلى مسألة الجماع، وهي العملية الجنسية المشروعة بين الزوجين على وفق التعاليم الإسلامية والأديان الأخرى، وذلك في رده على يزيد بن معاوية حينما ذكر أنه يبغضه فقال عليه السلام: «**إنَّ إبليس شارك أباك في جماعه**» وقوله كذلك في النص نفسه: «**وشارك الشيطان حرباً عند جماعه فوَلَدَ له صخر**».

ب. وعاد الإمام الحسن بن علي (عليه السلام) مرة أخرى فذكر في نص آخر العملية الجنسية من خلال تأكيده على استقرار النطف في الرحم، وإشارته في هذه التوصية الأخلاقية لحالة «الشبه الوراثي للولد».. شبه الولد لأخواله وأعمامه من الناحية الوراثية، فحالة الشبه الوراثي مرتبطة بالعملية الجنسية بتعبير علماء الجنس المعاصرين أو الجماع بالتعبير الفقهي الإسلامي.

ت. وفي بعض النصوص التربوية المذكورة والمتقدمة آنفاً ذكر الإمام الحسن الزكي عليه السلام حالة «الزنا» كعملية جنسية محرمة، ودعا إلى ترك هذا الفعل الآثم في إحدى وصاياه الأخلاقية القصيرة فقال عليه السلام: «**ترك الزنا، وكنس الفناء، وغسل الإناء مجلبة للغنى**[1]».

ث. ورد الإمام الحسن عليه السلام في أحد الأسئلة فذكر الجماع «الحلال» بين الزوجين، بين رجل وامرأته بالطرائق المشروعة دينياً واجتماعياً، ثم ذكر في النص ذاته حالة فعل محرم بين زوجة هذا الرجل وجارية بكر، حيث ساحقت امرأة الرجل هذه الجارية فنقلت ماءه المنوي إلى فرجها والتقت مع بويضتها فحملت، وبيَّن النص الحكم الشرعي لهذه

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٠.

الحالة الجنسية المحرمة.

ج. أنَّ النصوص التربوية السابقة تضمنت تمييزاً واضحاً بين الفعل الجنسي الحلال المحدد بضوابط إيمانية، والأفعال الجنسية الآثمة كـ «الزنا والمساحقة، وحضور إبليس لحظة الجماع بأفكاره الشيطانية»، وفي ذلك التمييز إشارة مؤكدة لعملية ضبط الإشباع الجنسي وتنظيمه بين الناس رجالاً ونساءً.

ح. يؤكد الإمام الحسن عليه السلام على أهمية حفظ «العفاف الأخلاقي» للفرد، وضرورة استخدام المال لتحقيق العفة الداخلية للرجل والمرأة على حد سواء، لهذا قال الإمام عليه السلام: «**إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك**» كإشارة إلى الاستثمار الوقائي للمال في جعل المرأة تميل بقلبها إلى زوجها الرجل من خلال الإنفاق عليها، أو تحسين علاقته بزوجته، أو عدم استخدام هذا المال من قبل الرجل في حالات الفعل الجنسي المحرم كالزنا بأخريات فيعرض شرفه للانتهاك الأخلاقي.

***

٣- الحاجة إلى الأبوة والأمومة

الأمومة حاجة مركوزة في التكويني الفطري لدى الإنسان، فأنثى الإنسان، ونقصد المرأة، تحمل في بطنها جنينها بعد جماع زوجها لها واستقرار نطفته في رحمها، ثم يظل في بطنها عمره المقدر، فتلده بعد ذلك وتمارس فيما بعد مشاعر أمومتها لأبنائها حتى الممات، وهذا لا يحتاج إلى حديث أحد ليفهمه الغير، فالناس يدركون أنهم أناس ولدتهم أمهاتهم، وسقطوا من بطون أمهاتهم بعد دورة نمائية استغرقت ما بين ستة وتسعة أشهر، وأنهم تربوا تحت دفء مشاعر الأمومة وفي أحضانها، وقد وردت كلمات غير مباشرة عن العلاقة بين الأم ومن ولدته، حيث قال عليه السلام: ابن آدم ! إنك لم تزل في هدم عمرك

منذ سقطت من بطن أمك، فخذ مما في يديك لما بين يديك فإنَّ المؤمن يتزود، وإنَّ الكافر يتمتع، وتزودوا فإنَّ خير الزاد التقوى[1]».

والنص يشير لأكثر من مسألة:

١. يشير إلى وجود أم للإنسان.

٢. ويشير إلى خروجه من بطنها.

٣. ويؤكد على أن الإنسان يظل في حالة عبث بمصيره الأخروي وهدم عمره وفنائه بعيداً عن الله سبحانه وتعالى في دورة العمر لما بعد خروجه من بطن أمه.

٤. ويتضمن النص توجيهاً للإنسان بالتزود بالتقوى والاستعداد للسفر فيما بعد دنياه.

ويشير نص آخر إلى ارتباط الطفل الصغير بأمه وتأثره بها عاطفياً وفكرياً وسلوكياً، وتنقل بعض المصادر الروائية هذا الموقف لبيان العلاقة الإيجابية بين الصغار وأمهاتهم وآبائهم، تقول هذه المصادر أن الحسن عليه السلام كان:

«يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله فيسمع الوحي ويحفظه، فيأتي أمه فيلقي إليها ما حفظه، فلما دخل علي عليه السلام وجد عندها علماً فسألها عن ذلك فقالت: **من ولدك الحسن**، فتخفى علي عليه السلام يوماً في الدار، وقد دخل الحسن عليه السلام، وقد سمع فأراد أن يلقي إليها فارتج عليه، فعجبت أمه من ذلك، فقال عليه السلام: **لا تعجبي يا أماه فإنَّ كبيراً يسمعني، واستماعه قد أوقفني**، وفي رواية أخرى: يا أماه **قلَّ بياني، وكلَّ لساني، لعل سيداً**

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ١٩٩

يرعاني، فخرج على عليه السلام فقبله[١]».

وفي نص آخر عن الأبوة قالت بعض الروايات عن الإمام الحسن: «**إن الله تعالى أوحى إلى آدم: أنْ زَكِّ نفسك يا آدم ! قال: يا ربِّ وما الزكاة؟ قال: صلِّ عشر ركعات فصلَّى، ثم قال: ربِّ هذه الزكاة عليَّ وعلى الخلق؟ قال الله: هذه الزكاة عليك، وعلى وِلْدِكّ بالمال منْ جمعّ من وُلدكَ مالاً**[٢]».

***

٤- تنظيم الحاجة للإخراج

وفي هذا الصدد عثرنا هذا النص، وهو رد على سؤال من رجل، حيث سأل الإمام الحسن عليه السلام أحد الناس: «ما الغائط؟.

فقال: لا تستقبل القبلة ولا تستدبرها، ولا تستقبل الريح ولا تستدبرها[٣]».

كان السؤال يكشف بصورة غير مباشرة أن بعض الناس يعرف الغائط كإخراج يصدر عنه يومياً من كل إنسان، وهو ناتج فضلات الطعام بعد هضمه، وكانت صيغة السؤال تنطوي على هذه المعرفة من خلال مشاهدات السائل اليومية لأنه يمارس فطرياً عملية إخراج فضلات الطعام، إلاَّ أن بساطة السائل جعلته يطالب الإمام الحسن عليه السلام بالإجابة على شيء يشاهده يومياً، فسال ببساطة.. ما الغائط؟.

ولا يبدو أن الإمام عليه السلام وجد في هذا الطلب بذي بال أو بذي قيمة، فأجابه عليه السلام بأمر أهم، وهو بيان أهمية الانضباط السلوكي أثناء عملية «إخراج فضلات» الطعام

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٣٠ - ٢٣١.
(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٤١.
(٣) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٣١.

بضوابط إيمانية، وتدريب السائل على هذا الانضباط برؤية شرعية كي يسمو السائل بسلوكه وهو يقوم بعملية الإخراج، فيميِّز نفسه عمن لا يمارس الإخراج دون قواعد انضباط سلوكي شرعية.

وفي السؤال المتقدم والإجابة عليه إشارة إلى حاجة الإنسان إلى إخراج فضلات الطعام المعروف في لغة العرب بـ «الغائط» وأنه عليه السلام أجاب على السؤال في النص المتقدم إجابة تضمنت مباشرة إشارة إلى حاجة المرء للإخراج، وبكيفية التخلص منها، فالكلمات التي طالب فيها بطرد فائض الطعام وفضلاته من جسم الإنسان إنّما قصد الاعتراف بوجود حاجة لدى الفرد للتخلص من فضلات طعامه، ولكن ليس بأية كيفية تكون، بل بتوجيهات تجعل عملية التخلص مطابقة للتوجيهات الدينية بنحو تعبر عن سمو الطريقة التي يتم بها الإخراج، ثمَّ يعقب عملية إخراج فضلات الطعام إحساس داخلي بالراحة لدى الشخص، فأمر الإمام الحسن السبط أن لا يتم استقبال القبلة ولا استدبارها أثناء عملية الإخراج، وكذلك لا يتم استقبال الريح ولا استدبارها، ففي التوجيه الأول تشديد على احترام قبلة المسلمين بيت الله الحرام بمكة المشرفة، وفي التوجيه الثاني وجوب ستر العورة عن الناس، وممارسة إخراج فضلات الطعام في مكان ساتر ما أمكن، فالريح لا تشتد إلاَّ في خلاء، ولذلك أمر عليه السلام بستر العودة وعدم الجلوس في مكان خلاء لممارسة إخراج فضلات الطعام من جسد الإنسان.

***

٥- النوم والخلود للراحة

لسوء الحظ لم نجد في مجال هذه الحاجة أية إشارة في نصوص الإمام الحسن التي اطلعنا عليها، وقد تكون مبثوثة في نصوص أخرى لم تتح لنا الاطلاع عليها، وبصرف

النظر عن العثور على نصوص في مجال الاعتراف بهذه الحاجة وإشباعها فإن المنطقي أن هذه الحاجة يدركها القاصي والداني، ولا تحتاج إلى عقل كبير لإدراكها.

***

٦- الحاجة إلى الرزق

يصف الله نفسه برزاق العباد لأنه سبحانه يفيض عليهم بسابغ نعمه، فالرزق عطاء الله ونواله المفتوح والمتنوع غير المحدود لعباده من لحظة بدء التخلق في الرحم حتى لحظة الممات وما بعد الممات، والرزق هو ما يهبه الله تعالى للعباد من سوابغ النعم المادية والمعنوية التي تسهم في إمدادهم بالطاقات والخيرات وإشباع حاجاتهم خلال دورة النمو التي تستغرق عمر الفرد الواحد منهم حتى آخر مراحل هذه الدورة النمائية، فالرزق الذي يسعى إليه العبد بأمر من ربه سبحانه وتعالى هو محاولة طلب النعم الحلال وتحصيلها بطرق مشروعة، وهو مؤونة الاكتساب والرغبة في المعيشة لكسب ما يسد رمق الإنسان وتأمين قوته، ومما يلحظ أن بالحصول على الرزق يتم إشباع الحاجات وبخاصة الأساسية شديدة الإلحاح على الفرد وهي حاجات الغذاء والشراب والسكن وكذلك الحاجة للمال غيرها[1].

وقد أفاضت نصوص الإمام الحسن الزكي بن علي بن أبي طالب بعبارات ومقاطع موجودة في بعض أدعيته وكلماته القصار تؤكد على حاجة العباد إلى طلب الرزق من ربهم، وتفيد بشكر الإمام عليه السلام لله تعالى على ما أنعم وأسبغ وأفاض، وسوف نكتفي بتسجيل جمل ومقاطع لفظية محددة معبرة عن حاجة الإنسان للرزق الإلهي.

يقول الإمام الحسن عليه السلام:

(١) يوسف مدن، مدخل لنظرية تربوية في فكر الإمام الحسين، الفصل الرابع.

ومن دعاء الاستسقاء قال في نهايته مقطعاً موجزاً يختتم به دعاءه فقال طالباً نزول المطر على الأرض: «**واسق سهلنا وجبلنا وبدْونا وحضرنا حتى تُرخص به أسعارنا، وتبارك به في ضياعنا ومدُننا، أرنا الرزق موجوداً، والغلاء مفقوداً، آمين يا رب العالمين**[١]».

وقال عليه السلام: «**وأعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلاَّ كنت فيه خازناً لغيرك، وأعلم في حلالها حساباً"، وفي حرامها عقاباً، وفي الشبهات عتاباً، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة، وخذ منها ما يكفيك، فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيها،وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر، فأخذت كما أخذت من الميتة. وإن كان العتاب فإنَّ العتاب يسير**[٢]».

وقال: «**لا تجاهد الطلب جهاد الغالب، ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم، فإن ابتغاء الفضل من السنة، والإجمال في الطلب من العفة، وليست العفة بدافعة رزقاً، ولا الحرص بجالب فضلاً، فإنَّ الرزق مقسوم، واستعمال الحرص استعمال المأثم**[٣]».

وقال عليه السلام: «**تجهل النعم ما أقامت، فإذا ولَّت عرفت**[٤]».

***

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢١٧.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ١٢، ص ٢٨.
(٣) الموسوي، مصدر السابق، رقم الحديث ٤، ص ١٢٦
(٤) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٣٧، ص ١٢٣.

ثانياً: الحاجات المعنوية

تقدم الحديث والقول بأنَّ هناك حاجات ترتبط بالجسد، وإشباعها بيولوجي محض مع تدخل من المشرع التربوي الإسلامي لضبطه كما تقدم الإمام الحسن في مجموعة إرشاداته الأخلاقية والتربوية، وقد عرضنا نماذج من الحاجات البيولوجية الجسدية مع إشارات من ضوابط اشباعها معززة بنصوص من أقوال الإمام الحسن عليه السلام.

أما في موضوع الحاجات المعنوية فهي تدخل في (مجال الاشباع النفسي – الاجتماعي) لكيان الإنسان وتركيبته الفطرية، ويتوزع هذا النوع من الحاجات على اتساعه في حياتنا على جوانب عديدة من الشخصية الإنسانية ومساحة الحياة التي تعيشها، وتعد في نظرنا حاجات لا تقل أهمية عن حاجات الاشباع البيولوجي، فهي في الكيان البشري «قابليات» فطرية مركوزة في التركيبة الآدمية لكنها غير نشطة لحظة الولادة، وتظل كامنة حتى تنزع النفس بمحاولات سلوكية تستغرق العمر كله إلى تنميتها اجتماعياً، وغالباً ما تنجح محاولات الإنسان في إشباعها بقدر يتفاوت من فرد لآخر.

إنَّ هذه الحاجات يتم إشباعها في عالم الذات وفي محيطها الاجتماعي بتأثيراته المختلفة، فتساند الحاجات البيولوجية المرتبطة بالجسد الإنساني من جهة، وتتيح لنفسها النمو الظاهري والتحقق الاجتماعي الواسع، ومن ثمّ تمكن عملية الاشباع من تنمية الشخصية وتحقيق كيانها الذاتي، ومن هذه الحاجات.

أ- الحاجات العبادية أو الروحية (الدينية)

وهي الحاجة إلى الله وعبادته وطاعته وما يتفرع عنه، وهذه الحاجة في نظرنا وفي أنظار عقلاء الناس هي «رأس الحاجات وأمها» التي تفرعت عنها حاجاتنا البشرية، ولكنها لم تأخذ حظها من الاهتمام في كتابات بعض علماء النفس الوضعيين، بل أن

بعضهم كالمحلل النفساني (سيجمند فرويد) عمل بكامل جهده على إقصاء الدين من حياة الناس، بل وتشويه القيم الدينية والأخلاقية، وعَدَّ التدين «عصاباً» أصاب البشرية في طفولتها، وبقي كمرض مؤثر في حياتها ومسيرتها كما جاء في بعض دراساته مثل «مستقبل وهم، قلق في الحضارة، موسى والتوحيد، الذات والغرائز».

أمَّا بالنسبة للبشر الأسوياء وعقلاء الناس فهي حاجة فطرية في تكوينهم النفسي، وقد شهد بفطرتها أكثر من نص قرآني، وأكثر من موقف سوي في حياة الإنسان، فنحن «البشر» نولد مزودين بقابلية التدين وعبادة الله التي تنشط بذاتيتها حتى لو حاول معارضو التدين وأعداؤه إطفاء جذوتها الإيمانية في النفوس، ولذلك فإن هذه الحاجة بالنسبة لكل مخلوق طبيعي في مشاعره هي «رأس كل حاجة «في كيانه، وتنبثق عنها حاجات متصلة مع بعضها كحاجتنا لله الكائن الأعلى والاستغاثة به في الخوف وطلب الأمن وطلب الرزق منه والبقاء، والتوبة النصوح، والعفو، وكل صور الإشباع الكامل لحاجاتنا البيولوجية والنفسية ذات الطابع الاجتماعي.

فالله سبحانه وتعالى هو في نظرنا الممول الحقيقي لنا في الوجود ولحاجاتنا المتفرعة عن كياننا البشري المحتاج، وذاته الإلهية هي الكائن الأعلى الدائم البقاء، الكامل، والإنسان كائن ناقص ومخلوق محتاج لله في بقائه ورزقه وتزويده بالنعم، ومحتاج إليه في العفو والتوبة والأمن وكل حالة إشباع – جزئي أو كامل – في كل شيء من حياتنا، ومن ثم تؤسس حاجتنا لله سبحانه لعلاقة بيننا وبينه عز وجل تقوم على حركة صاعدة منَّا كبشر في الأرض إلى حركة نازلة من الله إلينا.

ومن هنا شدد الإمام الحسن عليه السلام في نصوص كثيرة على تحقيق إشباع كامل أو «معتبر «على أقل تقدير لهذه الحاجة الأم، ونرى تأكيداته على طاعة الله وعبادته وتقواه

واللجوء إليه والارتباط به والتوبة إليه من ذنوبنا، وعَدّه ملاذنا الأول والأخير في كل خطبه ومراسلاته وكتبه وكلماته القصار، وسنأخذ بعض النصوص القصار للدلالة على تأكيداته في تنمية هذه الحاجة وتوثيق علاقتنا بالكائن الأعلى الكامل رب العباد مولنا الحقيقي لكل حاجاتنا.

ومن أقواله في هذا الشأن وجلُّها تدل على حاجتنا لله سبحانه:

- «**خلق الخلق فكان بديئاً بديعاً، ابتدع ما ابتدع، وفعل ما أراد، وأراد ما استزاد، ذلكم الله ربي رب العالمين**[١]».

- «**فاحترسوا من الله بكثرة الذكر، واخشوا الله بالتقوى، وتقربوا إلى الله بالطاعة فإنه قريب مجيب**[٢]».

- «**اعملوا.. إنَّ الله لم يخلقكم عبثاً، وليس بتاركم سدىً، كتب آجالكم، وقسَّم بينكم معائشكم، ليعرف كل ذي لب منزلته، وإنه ما قدر له أصابه، وما صرف عنه فلن يصيبه، وقد كفاكم مؤونة الدنيا، وفرغكم لعبادته، وحثكم على الشكر، وافترض عليكم الذكر، وأوصيكم بالتقوى، وجعل التقوى منتهى رضاه، والتقوى باب كل توبة، ورأس كل حكمة، وشرف كل عمل بالتقوى، فاز من فاز من المتقين**»[٣] ثم قال «**اتقوا الله**[٤]».

- «**اتقوا الله عباد الله، وجدُّوا في الطلب وتجاه الهرب، وبادروا العمل قبل**

---

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٥ ص ١٧.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ١٣ ص ٢٩
(٣) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ١٤ ص ٣١
(٤) الموسوي، مصدر السابق رقم الخطبة ١٤، ص ٣١

مقطعات النغمات، وهادم اللذات، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا يؤمن فجيعتها، ولا تتوقى مساويها، غرور حائل، وسناد مائل، فاتعظوا عباد الله بالعبر، واعتبروا بالأثر، وازدجروا بالنعيم، وانتفعوا بالمواعظ، فكفى بالله معتصماً ونصيراً، وكفى بالله جحيماً وخصيماً، وكفى بالجنة ثواباً، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً[١]».

- «الحمد لله الذي من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم ما في نفسه، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فعليه معاده[٢]».

- «قال في نص دعاء الاستسقاء: «اللهم.. أرنا الرزق موجوداً والغلاء مفقوداً[٣]».

- «إن الله عز وجل بمنه ورحمته لمَّا فرض عليكم الفرائض لم يفرض ذلك عليكم لحاجة منه إليه، بل رحمة منه، لا إله إلاَّ هو ليميِّز الخبيث من الطيِّب، وليبتلي ما في صدوركم، وليمحص ما في قلوبكم، ولتتسابقوا إلى رحمته، ولتتفاضل منازلكم في جنته، ففرض عليكم الحج والعمرة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم، والولاية لنا أهل البيت، وجعلها لكم باباً لتفتحوا به أبواب الفرائض ومفتاحاً إلى سبيله [ثم قالوا في الخطبة ذاتها]: **«واعلموا أن من يبخل المودة فإنما يبخل عن نفسه، إنَّ الله هو الغني وانتم الفقراء إليه، فاعملوا من بعد ما شئتم، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون، والعاقبة للمتقين[٤]».**

لقد تضمنت هذه النصوص أكثر من حاجة في تركيبتنا الإنسانية تجاه الله والحياة

(١) الموسوي، الروائع المختارة رقم الخطبة ١٥ ص ٣٣
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم ٩ ص ٢٢.
(٣) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٢٤ ص ٤٩.
(٤) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ١٩ ص ٤١ - ٤٢

وأنفسنا كالحاجة إلى معرفته سبحانه وعبادته وطاعته وتقواه والتقرب إليه، والحاجة إلى تشريعاته، والحاجة رحمته، والحاجة إلى التوبة إليه، وحاجتنا لحكمته، والحاجة للاعتبار، وثواب الجنة وتجنب عقاب الآخرة، والحاجة إلى نعم الله في عالمنا الدنيوي كالحاجة على الرزق المادي والمعنوي على حد سواء، فالرزق لا يعني كسب المال وحده، وإنما يعني طلب الأمن والطمأنينة والرحمة والعلم والعفو وغير ذلك من النعم الإلهية التي تلبي حاجاتنا البيولوجية والنفسية معاً.

***

ب ـ الحاجات المعرفية

وهي في عرف علماء النفس التربوي تعرف بالحاجات العقلية، وهي التي سمّاها الإمام الحسن الزكي عليه السلام بـ «المعقول» في أحد نصوصه، وقد أفضنا في الحديث عنها على امتداد خمسة مباحث من هذا الكتاب بدءً من مبحث الحلقة الأولى حتى مبحث الحلقة الخامسة، فالتعلم والتعليم ومبادؤه وأساليبه، والتفكير والقدرات العقلية وعلاقتهما بالعملية التعليمية – التعلمية تجسد كموضوعات أساسية لهذه الحاجات الأصيلة في الكيان البشري، ويمكن للقارئ الكريم متابعة حديث الإمام الحسن عن هذه الحاجات من المباحث الخمسة السابقة الذكر.

***

ج ـ الحاجات الوجدانية أو (الانفعالية)

الانفعالات بمختلف أشكالها حاجات طبيعية في التركيبة الداخلية للكائن الآدمي، وتظهر في عالم الشخصية، وفي علاقتها بالأفراد، والأشياء المحيطة بها من مثيرات متعددة، وهي طبيعية في كياننا لأنها تؤدي وظائفها في عملية النمو النفسي في

ضوء دورة العمر كلها حتى وإنْ داخلها في بعض الأحيان قليل أو كثير من الانحراف عن معايير الصحة النفسية ومحددات المشرع التربوي الإسلامي، فكل من الناس في كل عصور حياتهم، وأماكن عيشهم يفرح ويحزن ويغضب ويحب ويحنو على غيره أو يحقد، ويشارك الآخرين وجدانياً في هذه الانفعالات، وهي حاجات طبيعية في حدود أداء وظائفها النمائية، بل إنها هي المنطق الطبيعي في ظروف الحق والباطل، ومواقف السواء والانحراف.

وإذا ما استثار الإنسان موقف أو مثير – كتصرف سيء من إنسان آخر أو ظهور حيوان متوحش أمام عينيه أو بروز شيء مخيف – وحدوث استجابة غير سوية فإنَّ انفعالاً لكائن آدمي آخر كغضبه في ذات الله لنوع الاستجابة السابقة، وحزن فيما فعله الناس في الموقف الانفعالي المتقدم.

وإذا ما تفكر المرء بمصيره بالدنيا والآخرة وحزن خوفاً على مدى قربه أو بعده من الله سبحانه فإن غضبه وحزنه وثورته الانفعالية هي استجابات عقلية تتسَّم بالسَّواء والمصداقية، بل إنه لا يعرف الرأي – الغث منه والثمين – كما في بعض أقوال الإمام الحسن – إلاَّ عند الغضب، وهو انفعال ثائر يمحق الحكمة، ويؤدي إلى ضعف القدرة على التفكير والاستجابة لنزعة شهوية بعيدة عن التعقل والتصرف الرشيد المطابق لوجهة نظر المشرع التربوي الإسلامي، وقد يتفكر المؤمن ويكتشف «خللاً «غير مقبول في نتيجة عمله حزن كأن أدرك تقصيره في عمله العبادي فالمنطقي أن يحزن المرء وإلاَّ وصف «بالبلادة الانفعالية»، وهنا تكون الانفعالات حاجة أصيلة في كياننا لأنها تقوم بدور وظيفي في حركة الذات ونموها وتقدمها.

تقول الروايات:

«**لا يعرف الرأي إلاَّ عند الغضب**[١]».

وعن تفكر قال عليه السلام: «**وإذا تفكر حزن**[٢]».

وقال عليه السلام: «**من عرف الله أحبَّه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا تفكر حزن**[٣]».

وفي نص يربط بين التعلم والحالة الانفعالية قال الإمام الحسن سلام الله عليه وصلواته: «**من أكثر من مجالسة العلماء، أطلق لسان عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسرَّه ما وجد من الزيادة في نفسه**[٤]».

فالملحوظ – في النص الأخير – يكشف لنا بوضوح تام العلاقة بين نتائج «التعلم الجيد» الصحيح وبين الصحة النفسية، إذ يوحي النص الحسني السابق في مقطعه الأخير بترابط هذه العلاقة وقوتها، فكلما تقدم أداء الفرد أو المتعلم في زيادة خبراته التعليمية انعكس ذلك على صحته النفسية وارتفاع معنوياته بزيادة مستوى الثقة بنفسه والإحساس بقيمة الذات وبانجازها، وهذا ينعكس دون شك على دافعيته في التعلم من حيث تنشيطها وزيادة مستوى الحماس للتعلم من قبل المتعلم، ومن ثمَّ فإن الزيادة المقصودة – كما نفهمها هنا – ليست تقدماً في الأداء التعليمي وحده، وإنَّما يعني أيضاً زيادة تصاعدية في عنصر «الروح المعنوية» للفرد التي يحتاجها الفرد في إشباع حاجاته

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٤٣.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ١٨ ن ص ١٢٩.
(٣) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ١٨، ص ١٢٩.
(٤) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٥، ص ١٣٤.

ومنها حاجته المعرفية، وهكذا يكون «للسرور» كانفعال نفسي قيمته التربوية والتعليمية، ويؤكد على الاستفادة من وجوده في داخلنا كحاجة في نمونا النفسي سواء كنَّا أفراداً أو جماعات.

***

د ـ الحاجة إلى القيم الأخلاقية

جعل الله نفوسنا بحاجة لقيم وفضائل تكون قادرة على إدارتها من داخلها، ومع الناس، وتكون مؤسسة على قيم الاعتراف بوجود الله وقيمومته علينا كخالق لنا ومتفضل علينا بسابغ نعمه وآلائه، فزودنا سبحانه تعالى بقابلية «القيم والفضائل» في داخلنا، وقوة تأثيرها في صناعة أنفسنا وتربيتها من أجل مساعدتنا على تشكيل «الجهاز القيمي» الفاعل الذي يتولى مهمة العمل التربوي، ويقوم بدوره في ضبط السلوك الإنساني وتوجيهه في مواقف الحياة المختلفة بحيث يتناغم دوره في تحقيق الأهداف الإلهية التي تحقق سعادة الإنسان.

إن الأخلاق والقيم جزء أصيل من كياننا، ومن الدين نفسه وتشريعاته وفرائضه، فالأخلاق والدين صنوان لا ينفصلان عن بعضهما، وكلاهما يؤدي حركته التربوية من أجل تشكيل شخصية «الإنسان العابد» لله سبحانه وبناء قواها المتعددة بغرض تحقيق الهدف العبادي المرجو والمحدد لها في عالمنا الدنيوي، وكما اهتم الإمام الحسن في نصوصه وخطبه وكتبه بالفرائض الدينية وتشريعاتها في تربية الذات فقد أفاض عليه السلام في خطابه عن القيم الإنسانية ومكارم الأخلاق، وقد مررنا على بعض إشاراته الأخلاقية في تفعيل حركة الذات الإنسانية وضبط اشباع حاجاتها، وهذه إحدى أهم وأبرز وظائف القيم والأخلاق في الحياة البشرية.

وإذا ما تفحصنا تراثه الثقافي والروحي سنجد خطاباً مركزاً القيم والأخلاق وضرورة تفعيلها في التربية الإسلامية للذات الإنسانية، فحديثه عن القيم ومكارم الأخلاق يأخذ في خطابه مساحة واسعة وبخاصة بعض القيم لديه كالكرم حتى أنه يسمى بكريم أهل البيت عليهم السلام، ويمكن أن نتذكر مثلاً موقفه مع الشامي الذي شتم فرد عليه بكلام في غاية اللطف والاحترام والحنو العاطفي والرعاية الأبوية بنحو أخجل الرجل الشامي فاعتذر إليه فوراً، وبذلك أعاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام تشكيل موقفه المعادي بموقف «المحب «وبنفس جديدة تحترم أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام بدلاً من كراهيتهم تأثراً بأقوال أعدائهم، وهذا الموقف في حد ذاته هو موقف عملي يعبر عن نفس سوية ومتألقة في أخلاقياتها، ويجسد نبل مشاعرها الإنسانية الأصيلة، ويتيح مثل هذا الموقف وغيره للنفس السوية المستقيمة – وبكل إيجابية – استثمار القيم ومحتواها المعرفي والروحي والأخلاقي في تصميم وإدارة العلاقات مع الآخر، ومع اتساع الخطاب القيمي في تراث الإمام الفكري وحياته الشريفة إلاَّ سنجد أنفسنا مضطرين إلى ذكر بعض الأمثلة من القيم الأخلاقية التي دعا إليها الخطاب الحسني، فالغرض من ذلك بيان اهتمام الإمام الحسن بالأخلاق والقيم الإنسانية كحاجات أصيلة في كياننا البشري، وكقوة توجيه لنا في حركة الحياة، فالمرء يستقوي بالأخلاق والقيم في عبادة الله سبحانه وتعالى، ومن هذه البوابة يتمكن الفرد من عبادة ربه وطاعته وتقواه، ومن ثم فالقيم الأخلاقية هي حاجات أصيلة مركوزة في كياننا البشري تحتاج لإشباع طبيعي وسوي ومنطقي لتقوم بوظيفتها ودورها العبادي في صناعة الذات وتشكيل جهازها القيمي والوجداني ورعاية وعيها المعرفي وترشيد سلوكها بما يرضي الله سبحانه.

وقد اخترنا نماذج من وصاياه في مجال القيم الأخلاقية مجموعة قيم أخلاقية تبلغ في

عددها اثنتي عشرة، ومن إشاراته وصاياه لنا وللناس في زمانه قوله عليه السلام:

١- ففي الزهد كإحدى القيم الأخلاقية البارزة، والبعد عن الاهتمام الزائد بملذات الدنيا قال عليه السلام: «**من عرف الله أحبَّه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا تفكر حزن**[١]»، فهذا النص يشير للزهد كسمة أخلاقية – روحية لها دور كبير في تنظيم الاشباع للحاجات وضبطه، ويعني الزهد أخذ ما يحتاجه الفرد من ملذات الدنيا بمقدار ما يكفيه بطريقة حلال، والاستغناء عن الاشباع فوق الزائد للحاجة بخاصة إذا نوع الاشباع محرماً، وغير سوي، وعزز هذا الاتجاه الأخلاقي للزهد نص آخر يقوله فيه الإمام الحسن عليه السلام: «**وأعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلاَّ كنت فيه خازناً لغيرك، وأعلم في حلالها حساباً، وفي حرامها عقاباً، وفي الشبهات عتاباً، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة، وخذ منها ما يكفيك، فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيها، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر، فأخذت كما أخذت من الميتة. وإن كان العتاب فإنَّ العتاب يسير**[٢]»، وقال أيضاً: «**يا بن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً، وارض بما قسم الله تكن غنياً**[٣]»، وقوله في توجيه للناس: «**فازهدوا فيما يفنى، وارغبوا فيما يبقى، وخافوا الله في السر والعلن**[٤]»، وفي نص سئل عن الغنيمة، وفي رواية أخرى سئل عن الزهد فقال عليه السلام: «**الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا**[٥]».

---

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ١٨، ص ١٢٩.

(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ١٢، ص ٢٨.

(٣) كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ للأربلي، ص ١٩٨ – ١٩٩، وكتاب الروائع المختارة، رقم الخطبة ٧، ص ١٩

(٤) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٣، ص ١٥

(٥) تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ١٦٤، والأربلي، في كتابه كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٤.

٢- وفي صفة الصبر كإحدى القيم والسمات الوجدانية التي تنمي الثبات العاطفي وتقويه قال عليه السلام حينما تحدث عن مكارم الأخلاق: «**الصبر عند المكاره**[١]»، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام في حديث ثانٍ وهو يحث المؤمنين على الجهاد: «**اصبروا.. فإن الله مع الصابرين، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلاَّ بالصبر على ما تكرهون**[٢]».

٣- وعن العفة والقناعة قال عليه السلام: «**الإجمال في الطلب.. أي طلب الرزق.. من العفة، وليست العفة بدافعة رزقاً** [٣]»، ونصح الناس بقوله لهم: «يا بن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً، وأرض بما قسم الله تكن غنياً [٤] «وقال كذلك: «**اعلم أن مروءة القناعة والرضا أكبر من مروءة الإعطاء، وتمام الصنيعة خير من ابتدائها**[٥]».

٤- وقال عليه السلام في مجال الأمانة والنصيحة: «**ولا يغش العاقل من استنصحه**[٦]»، وقال عليه السلام: «**رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة، فأدُّوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً**[٧]».

٥- وقال عليه السلام عن بعض مكارم الأخلاق: «**أما الكرم فالتبرع بالمعروف، والإعطاء قبل السؤال، وأما النجدة فالذب عن المحارم، والصبر عند المكاره، وأما المروءة**

---

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٩٢ ص ١٤١.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٢ ص ٧٩
(٣) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحدث ٤، ص ١٢٦.
(٤) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٨ - ١٩٩، وكتاب «الروائع المختارة»، رقم الخطبة ٧ ص ١٩
(٥) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٩٥، ص ١٤١ - ١٤٢.
(٦) تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ١٧٠.
(٧) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٧٩ ص ١٣٩

فحفظ الرجل دينه وإحراز نفسه من الدنس، وقيامه بأداء الحقوق وإفشاء السلام [١]»، وقال عن الجود: «**الوعد مرض في الجود، والانجاز دواؤه**[٢]».

٦- وعن الكرامة قال: «**فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها**[٣]».

٧- وعن صفة الحلم قال عليه أفضل صلوات الله وسلامه وهو يجيب على تساؤلات أبيه: «**ما الحلم**»، فقال: «**كظم الغيظ وملك النفس**[٤]».

٨- وفي تحديد مفهوم السماحة قال الإمام الحسن رداً على سؤال موجه إليه من أبيه أمير المؤمنين: «**البذل في العسر واليسر**[٥]».

***

وكما يلحظ القارئ الكريم فإنَّ عدداً كبيراً من القيم ومكارم الأخلاق قد تضمنتها النصوص المتقدمة كالزهد والقناعة والعفة والوفاء والكرم والصبر ومعاشرة الناس بالجميل وصحبتهم، كما الإنسان أن يصاحبوه، والأمانة، والرضا، والشكر، والصمت، وحفظ اللسان، والمروءة، والشرف والسماحة والإخاء، والحلم والغنى، والنجدة، والذب عن المحارم، والصبر عند المكاره، وإفشاء السلام، ومداراة الناس، ونحن بالتأكيد لا يسعنا الحديث التفصيلي عن هذه القيم، ويكفي الإشارة الى بعضها مأخوذة من بعض نصوص ينسبها علماء الحديث للإمام الحسن عليه السلام، فالقارئ ليس بحاجة في هذا الشأن لمزيد من الكلام ليفهمها.

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٩٢، ص ١٤١
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٣٨، ١٣٣.
(٣) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٩٠، ص ١٤٢.
(٤) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٤، وكلمة الحسن ص ٥٩.
(٥) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٥٩.

هـ. الحاجات الاجتماعية

اقتضت مشيئة الله تعالى أن يعيش الفرد – ككائن عاقل – وسط جماعة تنقل إليه تجاربها ومعتقداتها وقيمها الثقافية والأخلاقية وعاداتها السلوكية، ويكتسب من حياتها سمات اجتماعية تحقق التكيف الاجتماعي لشخصيته بمحددات تتفق مع معايير الصحة النفسية أو تبتعد عنها بحسب نوع التربية الاجتماعية التي تلَّقاها، فالإنسان مخلوق اجتماعي، ويولد مزوداً بهذه القابلية منذ اللحظة لوجوده بعالمه الدنيوي القصير.

ويحتاج الإنسان خلال تفاعله الاجتماعي مع أفراد وجماعات مجتمعه، والمحيط الذي ينشأ فيه إلى مطالب واسعة وواقعية تؤثر على تفاعل الحياة الاجتماعية مع شخصية الفرد وسيرة نموه خلال دورة عمره النمائي منذ لحظة ولادته إلى مماته، فالفرد يحتاج إلى تلبية مطالبه الاجتماعية – النفسية كي تنمو شخصيته نمواً طبيعياً، ويتسع تأثير هذه المطالب على الفرد كلَّما اتسعت دوائر الحياة الاجتماعية له، وكلَّما كبر في السن، فهو يحتاج إلى الانتماء والتقدير الاجتماعي وصحبة الأصحاب والأقران وتكوين صداقات، وتوفير جو ديمقراطي في حياته، ومقابلة الآخرين والاختلاط بالناس، وتحسس مودتهم القلبية والعاطفية، والإحساس بوجودهم والتآلف الاجتماعي معهم.

ونظراً لاتساع دوائر الحياة الاجتماعية للفرد فإنَّ حاجاته في هذا الجانب من حياته تتعدد هي الأخرى حتى يصعب حصرها، فالحاجات الاجتماعية بطبيعتها السيكولوجية ليست محدودة كالحاجات الجسمية البيولوجية، وإنما تغطي خيوط الحياة الاجتماعية للفرد، ونذكر منها حاجة للميل إلى الجماعة، والحاجة للانتماء، والتقدير، والنجاح والحرية والاستقلال، والحاجة للعمل، والحاجة لتأكيد الذات وقيمتها الاعتبارية، والحاجة إلى إثبات الهوية، والحاجة للسلطة، وتحقق الانجاز، والحاجة للاعتراف

والقبول الاجتماعي، والحاجة للأمن الاجتماعية والطمأنينة وعدم الخوف.

***

ومن النصوص الاجتماعية التي تحقق إشباعاً تاماً أو جزئياً لهذه الحاجة ما جاء في بعض المصادر الروائية كقول الإمام الحسن عليه السلام:

- «**صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به**[١]».

- «**رأس العقل معاشرة الناس بالجميل**[٢]».

- «**لا تأتِ رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله أو تخاف يده، أو تستفيد من علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه**[٣]».

- «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم**[٤]».

- «**ما تشاور قوم إلاَّ هدوا إلى رشدهم**[٥]».

- قال عليه السلام لبعض ولده: «**يا بنيَّ لا تؤاخ أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استنبطت الخبرة ورضيت العشرة فآخ على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة**[٦]».

(١) الموسوي، الروائع المختارة، حديث رقم ٨٢ ص ١٣٩.

(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٢٦، ص ١٣١.

(٣) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٨، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، رقم الحديث ٣١، ص ١٣٣.

(٤) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٥، ص ١٣٤.

(٥) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٨، الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٢، ص ١٢٦

(٦) تحف العقول لابن شعبة الحراني ص١٦٨، الموسوي، الروائع المختارة، قم الحديث ١، ص١٢٦.

- وقال:«**القريب من قربته المودة وإنْ بَعُد نسبه، والبعيد من باعدته المودة وإنْ قَرُبَ نسبه** [١]».

- ومن فوائد التردد على المسجد قال: «**من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب إحدى ثمان: آية محكمة، وأخاً مستفاداً، وعلماً مستطرفاً، ورحمة منتظرة، وكلمة تدله على هدى، أو ترده عن ردى، وترك الذنوب حيَّاً أو خشية**[٢]».

***

ويلحظ أن كلمات الإمام الحسن وكلماته في مجال الاشباع إشارة لحاجة إلى الاجتماع الإنساني تحقق مجموعة أهداف في حياة الناس، فأحد النصوص يؤكد على الصحبة والمصاحبة والصداقة ومؤاخاة الإنسان، ولكن على أن تكون مؤسسة على معرفة موارده ومصادره، وأن تكون مؤاخاة على إقالة العثرة والمواساة في العسرة أو مشاركة وجدانية بلغة علماء النفس المعاصرين، وأحياناً يستهدف اشباع هذه الحاجة لتحقيق التشاور والوصول إلى أفكار راشدة منتجة، أو يستفاد من اشباع هذه الحاجة في كسب علم أو كلمة هدى، وتجنب باطل أو ترك ذنوبه أو تنمية قدرات لغوية، وغير ذلك.

وسؤالنا.. كيف تكون عملية الاشباع الحاجة إلى الاجتماع بالآخر؟

من بعض نصوص الإمام يمكن القول بأن اشباع الحاجة للاجتماع لن يكون سوياً إلاَّ إذا حقق بعض الأهداف، ومنها كما تقدمت الإشارة:

---

(١) تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ١٦٨، وكتاب الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٥، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ١٦٩، الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ١٢، ص ١٢٧ - ١٢٨.

١. الإفادة العلمية.

٢. معاشرة الناس بالجميل والتكيف معهم بمحددات سليمة.

٣. مصاحبة الناس بمثل رغبة المرء في مصاحبة الآخرين له.

٤. التناصح والمشاركة الوجدانية.

٥. التشاور الجماعي لتحقيق الرشد الفكري والعاطفي.

٦. تحقيق الهداية الإيمانية للفرد وضبط السلوك.

***

و- الحاجات الأمنية:

الشعور بالأمن - وبغيره من المشاعر - نشاط حركي وديناميي، ولا يمكن أن يصدر إلاَّ إذا كان هناك كائن حي يشعر بنشاط محدد تترتب عليه استجابة مناسبة، فالأمن بالنسبة للأمن ضرورة إنسانية لا للحفاظ على وجوده الذات فحسب، بل لتقدمه الاجتماعي.

وقد أشرنا في موقع سابق إلى الأمن والحرية كشرط للتعلم ونمو القدرات العقلية وممارسة التفكير وتنميته، وكذلك تبدو الحاجة إليه شديدة، وفي غاية الأهمية بالنسبة لاستقامة العلاقات الاجتماعية وإبعادها عن التأزم النفسي الذي يهدد حركة التقدم في المجتمع الإنساني، ويعبر الأفراد والجماعات البشرية عن حاجتهم للأمن والطمأنينة وقبر الخوف بأشكال من السلوك الحضاري كإفشاء السلام والتقبيل والعلاقات الاجتماعية السليمة والأمن الداخلي بحل حالات الصراع النفسي، والزهد وصور العبادة والبحث عن اشباع للحاجات الفسيولوجية والبيولوجية وقضاء حاجات المؤمنين وتجنب القلق

وتقبل الإحباط بغرض تحقيق أمن الذات الداخلي والاجتماعي والمصاحبة والمؤاخاة ومعاشرة الناس بالجميل والبحث عن أشكال السلوك العبادي بحثاً عن أمن الذات في عالمها الأخروي بعد الممات.

وقد وجدنا في بعض نصوص الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام إشارات مباشرة وغير مباشرة لحاجات الإنسان الأمنية وتأثيراتها في الحياة الشخصية والاجتماعية، وهي نصوص – كما سترى عزيزي القارئ – مستمدة في أفكارها ومعانيها وأهدافها من رؤية المشرع التربوي الإسلامي وأخلاقياته في تحقيق حاجة الفرد للأمن والسلام الاجتماعي.

وسنضع أمامه مجموعة من النصوص على وفق تقسيماتنا لنظرته عليه السلام:

١. للحاجات الأمنية إلى أمن الذات في دنياها.

٢. وأمنها في عالم الآخرة.

***

أولاً: حاجات الفرد للأمن في عالم الدنيا

وفي مقدمتها:

١. الحاجة إلى المحافظة على الذات وبقائها الجسدي بتوفير متطلباته من خلال عملية بحث عن إشباع مناسب لحاجاتها الفسيولوجية الجسدية كالحاجة للطعام والشراب أو حاجة المحافظة على النوع الإنساني واستمراره كالبحث عن الاشباع الجنسي، وقد أشرنا إليها في مدخل هذا المبحث من خلال معالجتنا للإشباع في مجال الحاجات الجسدية ذات الطابع البيولوجي والفسيولوجي.

٢. تأكيد نصوص الإمام الحسن على وجود دوائر وعلاقات اجتماعية سليمة كتوافر

الأنظمة والقوانين، ومعاشرة الناس بالجميل الذي وصفه أحد نصوص الإمام الحسن بـ «رأس العقل[١]»، والمصاحبة بالمثل لحفظ أمن الذات، حيث يدعو الإمام الحسن إلى تحقيق هذا السلوك بقوله الكريم: «صاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به[٢]»، وكمفهومه عن المروءة التي هي في نظر الإمام الحسن عليه السلام: «**حفظ الرجل دينه، وإحراز نفسه من الدنس، وقيامه بأداء الحقوق، وإفشاء السلام**[٣]»، فمثل هذه النصوص بمثابة أنظمة وقوانين لضبط السلوك والعلاقات الاجتماعية والتعامل الشخصي مع الآخرين.

٣. تحقيق الأمن بصور العلاقات الاجتماعية المقبولة ومظاهرها كالسلام والتقبيل وقضاء حاجات المؤمنين بدافع عبادي، وكف أذى اللسان عن الناس بالصمت، والمؤاخاة كما تقدم، فالإمام الحسن بن علي يقول عليه السلام: «**من بدأ الكلام قبل السلام فلا تجيبوه**[٤]»، وكقوله عليه الصلاة والسلام في دعوته للمؤمن بتقبيل أخيه عندما يلقاه فقال: «**إذا لقي أحدكم أخاه فليقبِّل موضع النور من جبهته**[٥]»، وقوله: «**لقضاء حاجة أخ لي في الله أحب إليَّ من اعتكاف شهر**[٦]»، وقوله وقد سئل عن الصمت: «**هو ستر**

---

(١) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٧، الروائع المختارة للموسوي، رقم الحديث ٢٦، ص ١٣١

(٢) الأربلي ن كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٨ – ١٩٩، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، رقم الحديث ٨٢، ص ١٢٩.

(٣) الموسوي، روائع المختارة، رقم الحديث ٩٢، ص ١٤١.

(٤) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢، ص ٢٠١، السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٦، والموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٦ ص ١٣٥.

(٥) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٧٠، وكتاب كلمة الإمام الحسن، للشيرازي، ص ٦٦.

(٦) الروائع، رقم الحديث ٨١، ص ١٣٩

العي، وزين العرض، وفاعله في راحة، وجليسه في أمن[١]».

٤. تحقيق الأمن الداخلي يرفع حالات الصراع النفسي أو تقليلها، وتجنب القلق ما أمكن ومواجهة الإحباط بنظرة إيجابية، والسيطرة على الشهوات الضارة، وفي هذا الصدد يقول: «**إنْ لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه ممَّا تكره، فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى[٢]**»، وقوله لمواجهة إحباطات الحياة المستمرة: «**اجعل ما طلبت من الدنيا فلم تظفر به.. بمنزلة ما لم يخطر ببالك[٣]**».

***

ثانياً: حاجات الفرد للأمن في عالم الآخرة

يشغل تحقق هذا الأمن أو عدم تحققه بال كل مؤمن ما يزال بعيش في دنياه القصيرة، ويبذل سعيه لضمان الوصول إلى هذا الهدف العبادي، فالأمن الأخروي حاجة إيمانية ينفرد بها المؤمنون دون غيرهم، وهم من أجل مستقبلهم الإيماني الآمن بيوم المعاد لا يسهون حتى يغفلوا، وإذا تفكروا في مصيرهم حزنوا، وهم في الدنيا بأبدانهم - كما قال الإمام الحسن -، وفي الآخرة بقلوبهم، وذلك لضمان تحقق أمنهم في اليوم الآخر، حيث قال:

- «**كن في الدنيا ببدنك، وفي الآخرة بقلبك[٤]**».

---

(١) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢ ص ١٩٧، وكتاب الروائع المختارة، للموسوي، رقم الحديث ٢٩، ص ١٣٢

(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٥٠، ص ١٣٥

(٣) الروائع المختارة للموسوي، رقم الحديث ٣٤، ص ١٣٣.

(٤) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٣٣، ص ١٣٣.

- وفي نص آخر: «**من تذكر بُعْد السفر اعتد**[١]».. بمعنى استعد.

- وقال الإمام الحسن عليه السلام لجنادة بن أمية في توجيه له: «**استعد لسفرك، وحصل زادك قبل حلول أجلك**[٢]».

ويعزز إحساس المؤمنين بأمنهم الأخروي كل ما جاء في توجيهاته على امتداد مباحث هذا الكتاب بأسره سواء بطلب العبادة وأدائها أو بالتقوى، وبالزهادة في الدنيا أو بمعاشرة الناس بالجميل أو بالعظة والاعتبار أو بالتفكر والحزن على واقعهم من تقصير بحق الله أو بمحبته والتفاني في حبه، فمن «**طلب العبادة تزكّى لها**[٣]»، وعندما سئل الإمام الحسن عن معنى الغنيمة، وفي رواية.. سُئِل ما الزهد، قال: «**الرغبة في التقوى، والزهادة في الدنيا** [٤]».

إنَّ «الدنيا» والعمل فيها هي - بالنسبة للمؤمن - بوابة الأمن النفسي للناس في عالم الآخرة، ولهذا قال الإمام الحسن في توجيه دقيق: «**اعملوا.. إن الله لم يخلقكم عبثاً، وليس بتاركم سدىً، كتب آجالكم، وقسَّم بينكم معائشكم، ليعرف كل ذي لب منزلته، وإنه ما قدر له أصابه، وما صرف عنه فلن يصيبه، وقد كفاكم مؤونة الدنيا، وفرَّغكم لعبادته، وحثكم على الشكر، وافترض عليكم الذكر، وأوصيكم بالتقوى، وجعل التقوى منتهى رضاه، والتقوى باب كل توبة، ورأس كل عمل بالتقوى، فاز من**

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٧٠

(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ١٢، ص ٢٧.

(٣) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٧٠، وكتاب الروائع المختارة، للموسوي، الحديث ٣٥، ص ١٣٣.

(٤) ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص ١٦٢، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، رقم الحديث ٧١، ص ١٣٨

فاز من المتقين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾».

وقال: «﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، **فالتقوا عباد الله !، وأعلموا من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن، ويسدده في أمره، ويهيئ له رشده، ويفلجه بحجته، ويبيض وجهه، ويعطيه رغبته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً[1]».**

وفي نص قال الإمام الحسن: «**فاتعظوا عباد الله بالعبر، واعتبروا بالأثر، وازدجروا بالنعيم، وانتفعوا بالمواعظ، فكفى بالله معتصماً ونصيراً، وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً، وكفى بالجنة ثواباً، وكفى بالنار عقاباً ووبالاً[2]».**

***

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ١٤، ص ٣١

(٢) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٧٠.

الحلقة الثامنة

فن الاعتذار مبدأ في العلاقات الإنسانية

قراءة تحليلية لخطاب الإمام الحسن السبط عليه السلام

فن الإعتذار مبدأ في العلاقات الإنسانية

تتنوع في حياتنا البشرية أنماط متقابلة من السلوك، ويتسم بعضها بالسواء، أمَّا بعضها الآخر فيظهر بصبغة غير سوية، فهناك التفاؤل في مواجهة حالة التشاؤم، والشعور بالحرية تقابله الرغبة في استعباد الذات، والأمل في قبال اليأس، والكرم والشجاعة ضد البخل، والجبن أو الخوف المرضي، والمروءة في مقابلة اللؤم، والمثوبة في مواجهة العقوبة، والاعتذار في مواجهة العناد والعصبية، وهكذا يتقابل هذا النمط السوي من السلوك مع نمط آخر عصابي وغير سوي.

وتجسد حركة الحياة والمخزون الثقافي للعقل البشري ومحفوظاته الثقافية في مراحل متعاقبة ومتصلة من التاريخ الإنساني أشكال مختلفة من أنماط السلوك المتقابلة، ويعبر عن هذا التنوع مجموعة نصوص وسجلات ثقافية وكتب ورسائل تجسد أقوال عظام الرجال وتراثهم الفكري والروحي، ويمتد بواسطتها عبر التاريخ إلى حياتنا المعاصرة في توجيه مستنير يضيء طريقنا نحو الخير والاستقامة وشعلة الأمل.

إن حياتنا الاجتماعية تتسع لكثير من الظواهر المتنوعة المتفاوتة في شدتها، المتباينة في استقامتها وانحرافها، والمختلفة في فوائدها وأضرارها للناس، ومن هذه الظواهر السائدة في الحياة البشرية ما يرتكبه الناس ضد بعضهم من إساءات متفاوتة في نواياهم، ومع أن منطق الحياة يقتضي أن يعالج الناس أخطاءهم بأساليب عديدة متاحة إلاَّ أن «الاعتذار» أحد هذا الأساليب المكنة، ومما هو ملحوظ في تاريخنا البشري أن الإساءة

كحالة سيكولوجية متجذرة فيه، وتمتد لحياة العائلة الأولى.. عائلة سيدنا آدم عندما أساء الظن أحد الأخوين بالآخر فلم يعتذر لما بدر منه، ولم يصحح علاقته معه، فتطور الموقف إلى جريمة قتل حينما أقدم «قابيل على قتل أخيه هابيل»، وهذه أول حالة قتل في التاريخ البشري كما صرحت بذلك آيات من القرآن الكريم في سورة المائدة، قال الله تعالى في كتابه المجيد:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾[1].

وقد ترك لنا أئمة أهل البيت عليهم السلام تراثاً ضخماً في موضوع الاعتذار والصفح والعفو عن المسيئين أفراداً أو جماعات، وكان غرضهم من ذلك تنقية العلاقات الاجتماعية بين الناس وتحرير أنفسهم من ضغوط أخطاء السلوك، ومن آثار النتائج السيئة المترتبة عن أفعال المسيئين وما تتركه من تداعيات غير محمودة العواقب في حياتهم، ويغري هذا القدر الكبير من النصوص بدراستها وتفسيرها وتكوين نظرة معرفية موحدة وموسعة ومتساندة في موضوع معين يستحق البحث والدراسة، ويمثل كلام السبط الإمام الحسن بن علي عليهما السلام جانباً حيوياً من المخزون الحيوي لتراثه الفكري والمعرفي والأخلاقي والقيمي الذي تركه لنا أئمة أهل البيت عليهم السلام، وقد حفظت لنا بعض

(١) انظر سورة المائدة، آيات ٢٧ – ٣١.

مصادر دراسة التراث الإسلامي على امتداد تاريخ طويل جزءً من هذا المخزون الذي نحن بحاجة شديدة إليه في عالم صعب يتغير بسرعة، ويتجه نحو الالتحام غير السوي بالماديات وبقيم الانحطاط والنفعية الشخصية التي تلوث حياة الإنسان المعاصر باللؤم والخسة والاستغلال النفعي والانحراف الشخصي والاجتماعي.

وتجد في تراث الإمام الحسن عليه السلام مخزوناً كبيراً من الخطب، والرسائل، والأدعية، والعبارات القصار، ويستوعب حديثاً عن القضايا الإلهية، والقيم والأخلاق، فضائلها ورذائلها، والمفاهيم الأخلاقية، ويدخل في إطار هذا التراث قضايا الحرية والتنمية الروحية، والحاجات الإنسانية، والآداب الاجتماعية والوعظ والإرشاد، والتوجيه التربوي، والعملية التعليمية – التعلمية، والعلاقات الاجتماعية والجهاد بمختلف أشكاله، ومواقفه السياسية مع مؤيديه وخصومه.

ولم يتوقف المشرع الإسلامي عن معالجة حالات الإساءة البشرية، وتنوعت جهوده للتغلب عليها بأساليب عديدة، وتجسدت هذه المعالجات في نصوصه القرآنية والنبوية وأقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام، وكانت معالجاته بالاعتذار وتأجيل العقوبة وصبر الناس على أذى بعضهم أبرز ما دعا إليه المشرع الإسلامي وتبناه رجالات الدين وعلماء الأخلاق المسلمين وقادتهم، ومنهم كريم أهل البيت أبو محمد الإمام الحسن ابن علي عليهما السلام، وهذا يتطلب دراسة تفصيلية، بيد أننا في هذا المبحث الصغير سنكتفي بتفسير أحد نصوص الاعتذار المنسوبة للإمام الحسن السبط واستخراج بعض معانيه التفصيلية والمجملة عسى أن نتوصل لنظرية معرفية ورؤية تربوية وسيكولوجية في هذا المبحث.

والمبحث الذي بين يديك – عزيزي القارئ – هو دراسة تفصيلية لموقف الإمام

الحسن السبط بن علي بن أبي طالب من مشكلة الإساءة ورؤيته العلاجية القائمة على اعتماد طريقة «الاعتذار» قبل لجوء المعتدى عليه لتطبيق العقوبة العاجلة ضد المسيء، وسيركز هذا المبحث على دراسة نص للإمام الحسن وتفسيره واستخراج معانيه وبيان حاجتنا في هذا الزمان لمنافعه الأخلاقية والتربوية والسيكولوجية والاجتماعية.

وسنتناول في هذا المبحث مضمون « النص الحسني « كمفهوم تربوي إنساني تقدمي، وبيان معانيه الداخلية في الحياة البشرية فردية كانت أو جماعية، وتحديد منهجيتنا في التعامل مع مفردات النص اللغوية أو اللفظية، ومعرفة مكوناته الأساسية، وتوضيح بعض الأهداف المشتقة من باطنه، ومسوغات العمل بمبدأ الاعتذار كفن تطبيقي في بناء العلاقات الإنسانية وإصلاحها، وشروط تحققه في حركة الناس، كما سنمر على بعض الخصائص العامة لدعوة الإمام الحسن إلى الاعتذار، ثم معالجة الاعتذار بين المحفزات إليه وتحذيرات المشرع من عدم استخدامه، والإشارةالى الاعتذارات غير السوية وغير الشرعية، وتأجيل العقوبة، وختام هذا المبحث دراسة معانيه الأخلاقية والتربوية والسيكولوجية والاجتماعية.

***

النص كمفهوم إنساني:

النص الذي نقصده « مجموعة المفردات اللفظية التي تستبطن معاني عقلية» يلتقي فيها المفهوم المعرفي بالهدف والوسيلة أو الأداة، وهو هنا ما قاله كريم أهل البيت الإمام الحسن الزكي بن علي تحديداً من ألفاظ لم تتجاوز ثمان كلمات قصار واضحة المعنى والدلالة التربوية الهادفة، وهذا ما نسميه في هذا المبحث بالنص الحسني، حيث جاء في بعض مصادر التراث الثقافي الإسلامي نص قصير منسوب للإمام أبو محمد الحسن بن

علي بن أبي طالب قال فيه عليه أفضل الصلاة والسلام:

«**لا تعاجل الذنب بالعقوبة، وأجعل بينهما طريقاً للاعتذار**[١]».

إنَّ النص التربوي الحسني المتقدم ذكره يمثل بالنسبة إلينا كلمات ثمان تختزن «توجيهاً معرفياً وأخلاقياً وقيمياً واجتماعياً» فاعلاً في حياة الإنسان وتوجيه حركة سلوكه في عالمه الخاص وفي دوائر علاقاته الاجتماعية العامة، وسنقوم في هذا المبحث بدراسته وتحليل مفرداته ومعانيه الداخلية في سياق وحدته الموضوعية وتحليلها سواء كانت معرفية أو لفظية، فالنص – بمعناه العام – هو في مجموعه تركيبة لفظية ذات فهم لغوي بمعاني عقلية، ومجموعة أهداف، وطريقة عمل، وآلية تقويم، وترك النص للعقل البشري اكتشاف هذه العناصر وتنظيمها، فلا ينتظر أن يحددها النص الحسني بكلمات مباشرة، وبذلك كان من مهمة العقل البشري على امتداد زمني لاحق معرفة هذه العناصر كتحديد الأهداف واشتقاقها من النص، ومعرفة طريقة العمل، وكيفية تقويم عملية «الاعتذار».

والاعتذار والعفو والصفح الجميـل عن المسيئين – كما جاء في عدد من نصوص المشرع التربوي الإسلامي – هي مفاهيم سلوكية بمعاني واحدة حتى وإِنْ اختلفت الألفاظ والكلمات، فالنص الحسني الذي نحن بصدد دراسته «**لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واجعل بينهما طريقاً للاعتذار**» هو على سبيل المثال لا الحصر مساوٍ تماماً لمعنى الحديث الوارد عن أبيه الإمام علي عليه السلام، إذ قال ابن أبي طالب الكلام نفسه مع اختلاف

(١) المجلسي، موسوعة ((بحار الأنوار، ج٧٨)) ص ١١٥، وكتاب الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن وكتبه ورسائله وكلماته القصار، للسيد مصطفى الموسوي، ص ١٣٣، وكلمة الإمام الحسن للسيد حسن الشيرازي ص ٢٠٢، وموسوعة ميزان الحكمة، ج٦، ص ١١٦، وكذلك ص ٣٩٢.

يسير في اللفظ:

«لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واترك بينهما للعفو موضعاً تحرز به الأجر والمثوبة[١]».

وفي نص آخر مماثل مع اختلاف يسير في اللفظ والمعنى قال الإمام علي:

«لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واترك بينهما للعفو موضعاً تحرز به الآخرة والمثوبة[٢]».

***

منهجنا[٣] في التعامل مع النص:

على الرغم من قصر هذا النص في مفرداته اللفظية، وقلة كلماته التي لا تتجاوز في مجموعها كلمات ثمان، إلاَّ انه احتاج منَّا – كمادة ثقافية – لتعامل منهجي جعلنا نسير

(١) محمدي ري شهري، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ٣٩٢.

(٢) الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٢، ص ٣٣١، ورقم الحديث ١٩١.

(٣) يحتاج الباحث في دراسة التراث الفكري للإمام الحسن بن علي إلى استخدام بعض مناهج البحث لدراسة هذا التراث ومخزونه المعرفي والروحي والقيمي، وتتعدد هذه المناهج التي لها علاقة بتعدد اتجاهات الباحثين أنفسهم، وبطبيعة المادة الثقافية لهذا التراث الثري، فهناك مادة محددة من هذا التراث كخطب الإمام الحسن ورسائله وبعض أدعيته وجمله القصار التي تعرف في مصادر هذا التراث بالكلمات القصار، وهذه متناثرة في مصادر الحديث وكتب التاريخ الإسلامي، وتحتاج إلى الجمع والحصر في مصادر موحدة يسهل الوصول إليها والإفادة منها، ويمكن تسمية هذا المنهج بالنقلي القائم على جمع هذه الخطب وحصر الرسائل وتناقلها، ولكن هناك منهجاً آخر يمكن توظيفه في خدمة تراث الإمام الحسن بن علي وفكره المعرفي والروحي والأخلاقي، وهو المنهج التحليلي الذي يتيح للباحث الذي له خبرة بالخطب والمراسلات والأدعية بتحليل نصوص الإمام الحسن وخطبه ورسائله بطريقة معاصرة تمكن القارئ الجديد من الاستفادة من هذا التراث ومخزونه المعرفي والروحي والقيمي، وثمة أنواع أخرى من مناهج البحث يمكن توظيفها في خدمة فكر الإمام الحسن وتراثه.

من خطوة سابقة إلى خطوة لاحقة، وتطلبت عملية التعامل مع مفردات النص ومحتواه المعرفي أو مادته الثقافية ثلاث خطوات أساسية تأتي إحداها في التسلسل قبل الأخرى وكأنها بناء واحد، وهذه كما يأتي:

١. القيام بعملية «تأمل ذهني مركز» ويتكرر من قبلنا على دفعات زمنية متعاقبة في مدة محددة لا تتجاوز يومين أو ثلاثة على الأكثر، وفي كل دفعة يتم التعرف على أفكار مجملة وتفصيلية في النص أحياناً بطريقة استبصار عقلي يركز على الأفكار المجملة للنص ثم النظر للأفكار الجزئية الداخلة في نطاقها العام.

٢. عملية تحليل لمفردات النص للأفكار المجملة المكتشفة التي تم التعرف عليها في الخطوة السابقة، ثم تفكيك هذه الأفكار للوصول إلى أفكار تفصيلية تدخل جميعها في سياق موضوع موحد كموضوع مبحثنا هذا.

وتطلبت عملية التحليل:

- تحديد مشكلة البحث وهي مشكلة وقوع الناس في أخطاء السلوك المتفاوتة بنحو يقارب الإساءة لهم أو إهانتهم، مم يتطلب اعتذاراً أو لجوءً للعقوبة.

- وضع افتراضات المعالجة، وتتمثل في مراجعة احتمالات دراسة المشكلة وتفسيرها كتأجيل إنزال العقوبة، وفسح المجال للاعتذار، والاستماع لتفسيرات المسيء، والحكم التقويمي لأقوال المسيء ومسوغاته.

- استخدام أدوات الحكم التقويمي على تفسيرات المسيء كالاستماع لرأيه، المقابلة، وتحكيم أطراف محايدين موضع ثقة الطرفين، كتابة اتفاق أو تعهدات إذا كان في مؤسسة، القسم، التعهد الشفهي.

• وضع المعالجة التحليلية للنص في إطارها العام، وهذا ما أسميناه بتدوين نهائي للأفكار التحليلية للدراسة مجملة أو تفصيلية.

٣. كتابة الأفكار المجملة والتفصيلية وتدوينها وصياغتها نهائية بطريقة تدريجية، وربطها في سياق نظرة معرفية موحدة بحيث نتمكن في نهاية الأمر من تكوين موضوع بنظرة متكاملة وموحدة ومعززة بنصوص مماثلة وإثرائية.

***

الأهداف التربوية للنص:

ليس النص الحسني مجرد كلمات ذات شكل محدد، بل هو في حقيقته حركة فكر متجددة تنطوي على عناصر تسهل قدرتها على تحقيق الفعل الإيجابي في حياة الفرد ودوائر العلاقات السائدة بين الجماعة، ففي هذا النص – مع حجمه الصغير – شبكة متساندة من المرتكزات وأركان النظرة المعرفية والمنهجية التي تحدد قيمة النص كمحتواه المعرفي وأهدافه التربوية، وتكشف عن فاعليته في التنمية الثقافية والروحية والاجتماعية للشخصية الإنسانية.

وكما تضمن النص الحسني عناصر محددة ستتناولها عملية تحليل هذا النص فإنَّ الإمام الحسن بن علي عليهما السلام استهدف في نصه المذكور تحقيق أهادف محددة في حياة الأفراد والجماعات سواء في مجتمع مسلم كمجتمعنا العربي – المسلم أو في دوائر مجتمع عالمي آخر يخالفه في الهوية العقائدية، وقد ترك لنا النص حركة إيجابية في هذه الأهداف واكتشافها وتحديدها، ونلفت النظر إلى قدراتنا كباحثين تتفاوت بالتأكيد في معرفة هذه الأهداف واشتقاقها من باطن النص الحسني الذي نحاول دراسته مادته الثقافية وتحليلها وإجمالاً يمكننا تحديد بعض هذه الأهداف من التركيبة اللفظية للنص الحسني،

ومنها ما استطعنا تحديده بما يأتي:

١. تدريب النفس الإنسانية وترويضها في مواقف متعددة على الاعتراف بالخطأ وإقراره بجرأة على تصحيحه في ظروف مختلفة سواء في نطاق علاقات فردية أو في نطاق علاقات جماعية موسعة، وضمان نجاحه على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الجماعة على حد سواء.

٢. حث النفس الإنسانية على «مبدأ تقبل الاعتذار وتفعيله «من طرفين أحدهما.. «المخطئ «بأن يكون بادئاً في الاعتذار أو من طرف «من وقع الخطأ عليه «فيكون متفهماً أخطاء الآخرين بقبول اعتذارهم، والعفو عنهم بلا عتب ولا تقريع ولا أدنى تشهير.

٣. تعليم الفرد المعتذر مبدأ «كف السلوك الخاطئ «بوعي فاعل وتشجيعهم على تقدير الآخرين واحترامهم بلا إهانتهم أو تحقيرهم.

٤. أن يقوم الطرفان ((مخطئ ومخطئ عليه)) بتفعيل قدراتهما العقلية والروحية لمعالجة الموقف السلوكي بطريقة إما وقائية أو علاجية.

٥. تدريب النفس البشرية على معالجة مواقف التحدي والاستجابة لها وتذليل الصعاب وحلولها الجريئة بثقة تامة.

٦. تحقيق قدر معقول من الصحة النفسية وحالة الرضا النفسي والاجتماعي للفرد المخطئ والمعتذر وتفاعلهما لتصحيح علاقاتهما بالاعتذار.

٧. تصحيح العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وإعادتها إلى مجراها الطبيعي السائد قبل وقوع الخطأ وتوجيه الإساءة من طرف لآخر.

٨. تحقيق معنى سوي لعبادة الله سبحانه وطاعته بنية إيمانية من خلال تقبله لهذا المبدأ، والعمل بروح عبادية، وبنية القربى لله سبحانه على تصحيح العلاقة مع الناس وأفراد المجتمع البشري في ميدان الحركة الاجتماعية.

٩. تحقيق الأجر والمثوبة الإلهيين في عالم الآخرة للطرفين.. المعتذر في إقراره بالخطأ والندم عليه بصدق وإخلاص، والمعتدى عليه العافي عن الناس.

***

مكونات النص:

يُعدّ النص – بمحدودية كلماته وقلة ألفاظه – وحدة لفظية ومعرفية، فأما وحدته اللفظية فمكونة من مقطعين أو جملتين لا تتجاوز ثمان كلمات، وتقول الجملة الأولى «لا يعاجل الذنب بالعقوبة» وتقول العبارة الثانية «واجعل بينهما طريقاً للاعتذار»، أما وحدته المعرفية فتضطلع بموضوع واحد هو «الاعتذار» كسلوك ناضج وراشد، وعلاقته بعنصرين أساسيين هما الذنب والعقوبة، وبتفسير المفاهيم الثلاثة المترابطة سنجد أنفسنا أمام موضوع موحد للنص.

وهذا النص الكريم ينطوي على مكونات أربعة:

١. تركيبة لفظية:

يلحظ القارئ أن هذا النص يتكون من ثمان كلمات متسقة نعتقد أنها تعبر عن نظرة معرفية وحركة عمل في الحياة الإنسانية قد تكون عائقاً للنمو الشخصي أو سبباً في تقدمه، وقد تجسدت – كما أراد الإمام الحسن – أن يكون «الاعتذار» مبدأً تقدمياً في حركة الحياة الاجتماعية البشرية، ونهجاً تنظيمياً في الدين وقواعد السلوك والعلاقات البشرية، وبتأمل ذهني هادف نرى أنَّ التركيبة اللفظية للنص تنقسم جزأين تتساوى كلماتهما،

كلمات أربع متصلة مع بعضها تطلب من الفرد أن «**لا يعاجل الذنب بالعقوبة**»، بينما تطلب الكلمات الأربع المتأخرة في الجزء الثاني من التركيبة اللفظية للنص من الفرد أن يقابل تأجيل العقوبة إلى «تقبل الاعتذار» كقيمة أخلاقية اعتبارية، فقول الإمام الحسن السبط : «**واجعل بينهما طريقاً للاعتذار**»، وهو في نظر علماء الأخلاق والمعالجين النفسانيين طريق سوي هادف للتكفير عن الذنب أو لتعديل السلوك أو فتح المجال إعادة العلاقة لوضعها الطبيعي، وفي ذلك دلالات إيجابية للنتائج الإيجابية المرغوبة وبخاصة في حقلي الصحة النفسية والسلوك الديني القويم، وعلى مستوى العلاقات الشخصية والاجتماعية كذلك.

***

٢. معرفة الفعل المراد تعديله بسلوك عبادي هادف

وهو كما يتجلى من باطن النص المتقدم معرفة فعل ظاهر في البنية المعرفية والسلوكية، ويتجسد هذا الفعل فيما هو واضح في «أمر.. ونهي»، ففي هذا النص القصير كما نلحظ «نهياً عن فعل» وفي الوقت نفسه نلحظ كذلك «أمراً بفعل عبادي مضاد ويقابله»، فأما الأول فهو نهي عن معاجلة كل ذنب يصدر عن الأفراد بعقوبة دون إتاحة فرصة لتعديل السلوك وتحسينه أو تفسيره على الأقل من قبل المسيئين، وفي ذلك تعميق للسلوك الخاطئ واستمرار للعلاقات غير السوية، وغير التوافقية بمعايير الصحة النفسية ومحدداتها المهنية، كما أنَّ المعاجلة في نظر الإمام كعالم أخلاق ومعالج للسلوك خطأ ديني يؤجج الأحقاد ويأخذ بالخطأ إلى طريق الإثارة الغرائزية المليئة بمشاعر الغضب والرغبة في الانتقام، أما الفعل الآخر في النص وهو «انتظار الاعتذار من المخطئ» فيهتم بتوجيه الفعل نحو «الأفضل» في تعاملنا السلوكي مع

بعضنا، ويتأسس هذا الأمر على نجاحنا في القيام بفعل «النهي»، فإذا ما تمكن الفرد من ترك العقوبة وتوقيعها على الآخرين بعد صدور الذنب مباشرة فإنه تلقائياً يتجه نحو اختيار الفعل الآخر وهو «الأخذ بالأمر» الذي ارتضاه الإمام الحسن عليه السلام وهو «أن يتيح للاعتذار فرصته الكافية» في إدانة السلوك الخاطئ وتقويمه، وفتح الطريق لكلمة «آسف»أو «اعتذر»أو «أنا مخطئ»أو «أرجو الصفح عمَّا بدر من سلوك غير مقبول»لا في دائرة مفاهيم الدين فحسب، ولا في نطاق القيم الأخلاقية والاجتماعية ومنظورها الواسع كذلك، بل في عالم المعالجين ومباحث علم الأخلاق التي عادة ما تكون نظريات عمل تطبيقية توجه حركة الواقع البشري لا مجرد نظريات مثالية تحلق في خيالاتهم وأدمغتهم.

***

٣. القدرات العقلية:

ينطوي النص الحسني - بصغر حجمه اللفظي - على بعض القدرات العقلية الأساسية عند الإنسان، وهي قدرات تفسح المجال للتفاعل الجيد معه كالقدرة اللفظية أو اللغوية وتعني هنا ما يتكون منه النص من «كلمات وألفاظ ذات معاني هادفة» ومعبرة، أما القدرة على الفهم اللغوي فهي عملية فهم ما تدل عليه كلمات النص واستيعابها وإدراكها، وكذلك «القدرة على الربط الإيجابي «بين كلمات النص ومعانيه في آن واحد والسير بها من خطوة سابقة إلى خطوة إيجابية لاحقة، وأيضاً توافر «القدرة العلاجية» في التركيبة اللفظية للنص لتعديل السلوك أو كفه، وتحتاج هذه القدرات منَّا إلى وعي عقلي من الفرد لمعرفتها وفهمها واستيعابها والتجاوب معها لضمان التعامل الحسن مع المضمون المعرفي للنص والتحرك الطبيعي في سياقاته التربوية اللازمة، وحينذاك تتجلى

في حركة تعامل الفرد مع النص الحسني مهاراته الخاصة لا سيَّما مع «من وقع عليه الخطأ»في السير بإجراءات المعالجة أو تعديل السلوك لتصحيح العلاقات بينه وبين المخطئ أو استبقاء منها ما يسهل الأمور في خطوة مصالحة وتوافقية قادمة ومستقبلية.

***

٤. نتيجة مرجوة:

وهي محصلة تعامل الفرد مع مفردات النص اللغوية ومعانيه العقلية لتربط في حركته السلوكية والوجدانية والمعرفية بين فعلي..الأمر والنهي، فيتولد عنهما علاقة جديدة في الحيـاة البشرية، فالنتيجة التي يتوخاها النص الحسني هي النهاية التي تؤدي إلى تصحيح العلاقات وتعديل السلوك، وضبط حركة حياتنا على قواعد الدين ومبادئ فن الصحة النفسية ومعاييرها السوية ومحدداتها المقبولة، وهذه النتيجة ليست محددة في النص مباشرة، وإنما وجدت في تعبير الإمام الحسن في القسم الثاني من النص حينما قال «**واجعل بينهما طريقاً للاعتذار**»، فدعوته الكريمة لقبول الفرد الذي «وقع عليه الخطأ» عذر المخطئ بحقه تنطوي على النتيجة المأمولة التي يتوخاها عقلاء الناس من أية عملية «اعتذار» إيجابية تتم بين الأفراد، ويساند هذا الاستنتاج الواقع الإنساني وآراء المعالجين وعلماء الأخلاق ونصوص دينية، وهنا يلتقي العقل البشري في استنتاجاته مع دعوات الدين من خلال مجموعة نصوص[1] متشابكة ومتآزرة، ونذكر من هذه النصوص ما جاء في مصادر دراسة التراث السيكولوجي والأخلاقي والمعرفي لأئمة أهل البيت عليهم السلام كقول الإمام علي بن أبي طالب في كلمات معبِّرة ومؤثرة، وتستبطن المعنى ذاته:

---

(١) محمدي ري شهري، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ١٠٩ – ١١٦.

- «**اقبل أعذار الناس تستمتع بإخائهم**[١]».

- وقوله: «**اقبل عذر أخيك، وإن لم يكن له عذر فالتمس له العذر**[٢]».

***

القابليات الثلاث:

الخطأ والاعتذار والعفو قابليات ثلاث مركوزة في تركيبتنا الآدمية الداخلية وتكويننا الفطري، فـ «**كل بني آدم خطّاؤُون، وخير الخطّائِين التوابون**» كما أفاضت في الإشارة إلى ذلك أحاديث جمة، ونحن نرث القابليات الثلاث بإرادة الله سبحانه وتعالى، فهو الخالق الصانع بإبداعه كل إمكانياتنا، وقد ركز هذه القابليات الثلاث وغيرها في داخلنا الفطري اختباراً لإرادتنا في فعل الخير والشر، فقد أرادت مشيئته أن يجعل فعلنا حراً، ومستقلاً، فأمدنا سبحانه بالقدرات التي نتصرف فيها بوحي هذه الإرادة وبمقتضى حركة نوايانا الداخلية، فالقابليات من صنع الله تعالى، أما إدارة دفة حركتها صوب هذا الاتجاه أو ذاك فمن صنع أيدينا وتعبيراً عن إرادتنا انسجاماً مع منطق الآية القرآنية الكريمة: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾[٣].

القابلية للخطأ مركوزة في داخلنا، وطبيعتنا ناقصة، لذلك نخطئ، وتبقى هذه القابلية كامنة في كياننا حتى نبدأ خلال معاملاتنا الاجتماعية حركة أو أكثر تقتضي لأسباب عديدة الوقوع في الخطأ أو تتسبب فيه، وإذا ما حدث خطأ ما تبدأ قابليتنا الثانية

(١) ميزان الحكمة، ج٦ ص ١١٢.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي، ج ٧٤، ص ١٦٤، وكتاب ميزان الحكمة للعلامة محمدي ري شهري، ج ٦ ص ١١١.

(٣) سورة الشمس / آيات ٧ - ١٠

«الرغبة في الاعتذار» في العمل بدوافع محفزة ممن وجهنا إليه الإساءة باي مستوى، وفي أي مجال، وتتوقف حركة هذه القابلية على محددات معينة في موقف المسيء كقوة دافعه الديني في احترام الناس أو نتيجة وعيه ومراجعة سلوك الذات، وإحساسه بالندم، وتحسسه لكرامة الناس بنحو مساوٍ تماماً لشعوره الشخصي بالكرامة لنفسه.

ولدى جميع الناس كذلك بلا استثناء قابلية ثالثة، وهي واحدة من قائمة القابليات الكثيرة في الكيان الإنساني، وتعبر عن نفسها في مواقف مختلفة، وأراد المشرع التربوي الإسلامي إضعاف نشاط القابلية للخطأ، وإنماء القابليتين الثانية والثالثة ((للاعتذار والعفو)) في سلوكنا اليومي، فهذه القابليات نزود بها منذ لحظة الولاة، وتظل كامنة، وغير نشطة في داخلنا حتى يظهر شيء ما يحركها في الحياة الاجتماعية للأفراد، فإذا ما أخطأ أحدنا، وهذا أمر واقعي في حياة الناس، فإن القابليتين تعملان بمحفزات ذاتية وخارجية كالحوافز والتحذيرات الإلهية والاجتماعية، وحينما تستجيب قابليتنا للاعتذار على إثر وقوع خطأ فإنه من المنطقي أن تستجيب قابليتنا للعفو، وتكون فعلاً واضحاً في حركة ذواتنا الاجتماعية حتى وإنْ ظهرت بعض العوائق، فهي لا تموت أبداً.

ومما ينبغي لفت النظر إليه أن ضمور هذه القابليات ونشاطها موصول بقابليتنا الكبرى على الخير والشر كما أكدت ذلك نصوص المشرع الإسلامي في الكتاب والسنة وأقوال الأئمة المعصومين عليهم السلام، وقد تنبَّه الإمام علي عليه السلام – كنموذج فحسب – على وجود هذه الثنائية في الطبيعة البشرية وتدافعها في داخل النفس وحركة الحياة فقال:

–«إن الله ركب في الملائكة عقلا بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت

شهوته عقله فهو شر من البهائم[١]».

-ويقول عليه السلام في نص آخر:

«الشر كامن في طبيعة كل أحد، فإنْ غلبه صاحبُه بَطَن،وإنْ لم يغلبه ظهر[٢]».

وقد اعتمد الإمام علي سيد الأتقياء في تأكيده على وجود هذا التكوين الثنائي في طبيعتنا البشرية ووجود قابلية ثنائية داخلية للخير والشر في كياننا الإنساني على رؤية قرآنية واستلهام نصوصه الكريمة ذاتها، وقد استمد هذه الرؤية الواقعية من أقوال الله عزَّ وجل في بعض النصوص والآيات القرآنية المجيدة كما في قوله سبحانه:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[٣].

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[٤].. يعني إما نجد وطريق الخير أو نجد وطريق الشر.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[٥].

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[٦].

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

---

(١) الوسائل / باب ٩ ج ٢ / جهاد النفس، وكذلك ميزان الحكمة ج١ ص ٣٦٢
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم / ج ١ ص ١٢١
(٣) سورة الشمس / آيات ٧ - ١٠
(٤) سورة البلد / ١٠
(٥) سورة الإنسان / ٣
(٦) سورة الليل / ٥ -١٠

يَـرَهُۥ﴾[١].

***

توجيه الخطاب للإنسان لانجاز نمطين من السلوك العبادي:

يستبطن النص التربوي الحسني بلغته التربوية والإسلامية الواضحة مفهوماً سيكولوجياً وأخلاقياً هادفاً، وتوجيهاً عاماً لضبط حركة سلوك الأفراد والجماعات في مختلف الظروف للقيـام بأداء أربع مهام عبادية أساسية ومحددة، وهما:

١. عدم التعجل في تطبيق مبدأ العقوبة على الفاعل.

٢. يتاح له من قبل الشخص الذي تعرض للإساءة فرصة «الاعتذار»، وتفسير ما صدر عنه لإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي السابق على الفعل الخطأ.

٣. إتاحة الفرصة للمخطئ في العودة عن خطئه، وإتاحة الفرصة له في التفكير بإيجابية مع الفرد التي أخطأ بحقه أو مع الجماعة التي أخطأ بحقها.

٤. قيام الشخص المعتدى عليه بالعفو عن المسيء المعتذر بصفاء نفس، ولا تقريع ولا عتب ولا أدنى تشهير.

***

مفهوم الاعتذار في لسان العرب[٢]:

للاعتذار معانٍ مختلفة[٣] تفهم في ضوء المعاجم اللغوية، وما يعنينا – من كل هذه

(١) سورة الزلزال / ٧

(٢) لسان العرب لابن منظور، باب كلمة «عذر» بتصرف.

(٣) أورد ابن منظور في لسان العرب معانٍ عدة للفظ «العذر» و«الاعتذار»، منها العذر بمعنى الحجة التي يعتذر بها، والاعتذار بمعنى الدروس، ومحو أثر الموجدة، والإعْذَار، أي أتى بعذر، واعتذر

المعاني – مفهومه القريب من موضوع مبحثنا هذا، فالعذر في مفهومه العام هو «الحجة التي يعتذر بها المرء «وجمعها أعذار، ويقال أحياناً معاذير بمعنى الحجج، أي جادل المرء عن حجته ولو بأدنى حجة يعتذر بها أمام الطرف الآخر، والاعتذار محو أثر «المّوْجدة»، وهو بمعنى الإعّـذَار، ويوصف الشخص الذي إذا أتى بعذر بالمعتذر، ويكون محقاً أحياناً، وقد يكون في بعض الأحيان غير محق،أي عذره غير مقبول أو لا عذر منطقي له، ومن معانيه كذلك (اعتذر من ذنبه).. تَنَصَّل منه.. أي بَرِأَ من فعله.

***

مسوغات العمل بمبدأ الاعتذار:

١. أننا بشر جبلت طبيعتنا الفطرية الكامنة في عالمنا الداخلي على النقص والخطأ.

٢. أننا – كذلك – مجبولون على طباع أصيلة في تركيبتنا كطباع الخير فينا، وأنَّ اعتذار الفرد «المسيء المخطئ» و «تقبله ممن وقع الخطأ عليه».. طبعان فطريان أصيلان في تركيبتنا الآدمية، فكما نخطئ ونرجو الصفح من الآخرين فكذلك علينا أن نعتذر ونقبل الاعتذار ونتفهم دوافع الناس فيما وقعوا فيه من خطأ وسوء تصرف، فإذن تنمية الطباع الشخصية بالاعتذار مسوغ للأخذ به كعادة سلوكية وجدانية في حركة الذات الإنسانية.

٣. أن الأشخاص المعتدى عليهم أو الذين وقع عليهم الخطأ أو وجهت لهم

من ذنبه تنصل منه كما أكده حديث شريف سنذكره في باطن هذا المبحث وهو قوله صلى الله عليه وآله: «**من أتـاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك منه، محقاً كان أو مبطلاً، فإنْ لم يفعل لم يرد عليَّ الحوض**»، وقوله كذلك: «**من لم يقبل العذر من متنصل صادقاً كان أو كاذباً لم ينـل شفاعتي**»، ميزان الحكمة، ج٦ ص ١١٢.

الإساءة هم أنفسهم يقعون في أخطاء بمواقف أُخر بل ويُسيْؤون لبعض الناس أحياناً، وقد يحتاجون إلى الاعتذار للآخرين بقدر حاجتهم لاعتذار الآخرين لهم، وهذا يعني أن عملية «الاعتذار» حاجة إنسانية للجميع، وضرورة لتطوير العلاقات بينهم وإزالة كل معوقات نموها نحو الأفضل.

٤. أن لمبدأ «الاعتذار وقبول الصفح» نتائج إيجابية فاعلة للطرفين.. المخطئ، والفرد الذي وقع السلوك الخاطئ، وأول هذه النتائج الشعور بالعزة والكرامة والتقدير الإيجابي للذات، وترميم العلاقات مع الآخر وإعادتها إلى مجراها الطبيعي السابق.

٥. يحقق الاعتذار وقبوله إشباعاً لحاجات سيكولوجية كتحقيق الأمن الاجتماعي والنفسي والشعور بالمودة والتآخي مع الناس، والانتماء والإحساس بتقدير اجتماعي، وإزالة شحنات انفعالية عالقة في النفس.

***

شروط تحقق الاعتذار:

حينما تتحقق بعض الظروف المحددة في أجواء صدور سلوك خاطئ وظهور حالة وجدانية مليئة بشحنات انفعالية يكون الاعتذار ضرورة نفسية وشرعية، ويمكن أن نسمي هذه الظروف بـ «شروط الاعتذار» وهي كما يأتي:

١. وقوع «فعل خاطئ» يستوجب اعتذاراً من الشخص الفاعل كالسباب والشتيمة والنظرة القبيحة التحقيرية وغير ذلك.

٢. وجود «قناعة داخلية بالاعتذار بدافعية أخلاقية[١] وعبادية» محضة من طرفي

(١) من المألوف في الحياة اليومية للناس أن يكون الاعتذار في بداياته عملًا أخلاقياً يتم عادة بنحو ودي بين طرفين كان أحدهما مخطئاً والآخر ممن وقع عليه الفعل الخاطئ أو صدرت تجاهه الإساءة،

المواجهة.. بين المسيء والشخص المعتدى عليه بإساءة.

ويتجلى في تحقق أمرين هما:

أ- قبول طوعي للاعتذار من جهة الطرف الذي وقع عليه الفعل الخاطئ فألحق به المسيء ضرراً معيناً قد يكون مادياً أو معنوياً.

ب- توافر نية القربى لله تعالى، وهي نزوع داخلي للإقدام على فعل الاعتذار عن قناعة داخلية وبنوازع عبادية تبتغي تحقيق رضا الله سبحانه وتعالى، وإظهار نية صالحة في التفاعل مع أجواء الاعتذار بما يرضي الله تعالى.

٣. وتمثل «التصفية الأخلاقية لآثار الفعل الخاطئ وتداعياته»، والعمل على تحقيق ذلك بطريقة ودية شرطاً.

***

خصائص الدعوة للاعتذار:

يمكن - بصورة مباشرة حيناً وغير مباشرة حيناً آخر - استنباط بعض الخصائص الواضحة في دعوة الإمام الحسن لممارسة الاعتذار عن أخطاء السلوك وتقبلها من المخطئين، وحددناها في الخصائص التالية:

الخاصية الأولى: طابعها الإنساني

ليست دعوة الإمام الحسن - كما نلحظ - موجهة للمؤمنين وحدهم، فالمعنى

ويفترض من سياقات النص التربوي الحسني المشار إليه في هذا المبحث أن تتم مبادرة الصلح من الفاعل المخطئ بالاعتذار لتصحيح سلوكه الخاطئ، وأنْ ينتظر الطرف الآخر المعتدى عليه الذي تعرض للإهانة تلك المبادرة الأولية لحل المشكلة قبل أن يتحول الموقف إلى إجراءات قانونية ألمحت إليها كلمات الإمام الحسن ولم تسقطها نهائياً.

البارز في المفردات اللفظية للنص دعواه عليه السلام إلى تأجيل العقوبة على ذنب صدر من آخرين، وإلى تقبل الاعتذار منهم، وهي في السياق العام للنص موجهة لكل إنسان بغض النظر عن اعتبارات المعتقد الديني واللون والانتماء الاجتماعي والسياسي، فكلنا كبشر خطّاؤون، ونحمل طبيعة ناقصة، حيث لم يحدد النص الحسني دعوة للاعتذار خاصة بجماعة أو قوم، فالإمام الحسن عليه السلام يدرك أن الأخطاء التي تصدر عادة عن الأفراد ليست محصورة في نطاق محدد ولا علاقة لها بمعتقد أو اتجاه، وإنما يمكن أن تكون شاملة لمجالات عديدة من حياتنا، وبذلك فإن لكل إنسان قابلية لكي يخطئ فيعتذر بصرف النظر عن اعتبارات اللون والجنس والدين والمعتقد السياسي، ونوع المهنة ومجال العمل، والتوقيت الزمني، لذلك اختفت من النص مفردة «المؤمن» الدالة على توجيه الدعوة للمؤمن وحصرها في عالمه، وإنما ترك الإمام الحسن عليه السلام دعوته مفتوحة لتتسع لكل إنسان ولتلبس طابعاً إنسانياً.

***

الخاصية الثانية: ربانية الدعوة

مع تأكيد الإمام الحسن في نص المذكور على الطابع الإنساني في ممارسة الاعتذار لدى الناس فإن دعوته عليه السلام لا تعني بالنسبة للإنسان المؤمن أن لا تعنيه، وأن لا يوظفها في نطاق الدعوة الربانية والاستجابة لممارستها بهدفية القربى لله سبحانه وتعالى ونيل رضاه، فالاعتذار وتقبله عملية عبادية، ولن ينظر لها كذلك بمعيار جيد إلاَّ بربطها بالنظرة العبادية الربانية التي تستحق الأجر والمثوبة الإلهية، وهنا تكمن هدفيتها التي تبتغي تحقيق الرضا الإلهي كمدخل طبيعي لتحقيق أهداف المؤمن بوجه خاص والإنسان بوجه عام تحقيق الإخاء الاجتماعي واستعادة قدر معين مطلوب من التوازن

النفسي للفرد، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الأهداف التي تجعل عملية الاعتذار وسيلة لأهداف ربانية واجتماعية ونفسية، وبذلك فإن طبيعة دعوته للاعتذار ربانية محضة حتى وإن كانت موجهة لجميع البشر، فالمؤمن جزء منهم ومكلف بممارسة «الاعتذار وتقبله» بمعيار ديني يتقرب فيه لله سبحانه.

***

الخاصية الثالثة: الوسطية

هذه الخاصية – كما يعلم القارئ الكريم – من أبرز سمات المنهج الإسلامي في خطوطه العامة، وهو منهج يتبناه صاحب النص، وليست الوسطية ميزة ينفرد بها هذا النص وحده، بل هي خاصية عامة في كل دعوة ربانية، وقد ارتكز منهج الله سبحانه على الوسطية بنحو يؤدي إلى إشباع متوازن للحاجات عند الإنسان دون إفراط أو تفريط، وكذلك فإن من الخصائص التي لحظناها في المضمون المعرفي العام لهذا دعوة الإمام الحسن السبط بن علي عليهما السلام إلى الوسطية المتوازنة بين فعلي «الذنب والعقوبة»، وكلمة «بينهما» إشارة لهذه الوسطية، فالنص الذي نحن بصدد دراسته وتحليله لم يطالب بترك العقوبة نهائياً، ولا توحي كلماته بذلك، ولم يطالب في الوقت نفسه بنزع قابليتنا نحو الذنب وارتكابه، وإنّما اعترف بوجود الاثنين «الذنب والعقوبة معاً» وجعل الاعتذار طريقاً بينهما تهذيباً لسلوك المسيء وإعلاءً لنفسية الشخص المعتدى عليه.

فالنفس البشرية بسبب ما جبلت عليه طبيعتها الداخلية من نقائص تميل إلى مقارفة الذنوب، وأن «العقوبة «هي إحدى وسائل المشرع التربوي الإسلامي وأساليبه وإجراءاته العلاجية لها، بيد أن النص الحسني لم يجنح إلى إهمال العقوبة أو المبالغة في استخدامها، ولم يدعو في الوقت نفسه إلى إهمال الذنوب أو التغافل عنها، لهذا نجد

النص الحسني قد وجد في «الاعتذار» إجراءً عملياً لحركة وسط معتدلة قائمة على مبدأ التوازن بين فعلي «الذنب والعقوبة»، وجعله خطوة وسط بين ذنب لا يهمل وعقوبة مؤجلة لا يبالغ فيها، حيث يبسط الشخص المعتدى عليه جهوده لحل المسألة ودياً عن طريق الاعتذار كحل وسط يمحق العجلة في توقيع العقوبة، ويتيح للمسيء أن يعتذر فيعيد الاعتبار للشخص الذي وقعت عليه الإساءة الذي بدوره مكلف بالصفح الجميل والعفو عن المسيء.

***

الخاصية الرابعة: طابعها الاكتسابي

لا يولد المرء «مخطئاً»، ولا يولد الإنسان في الوقت نفيه معتذراً، ولا يولد كذلك طرف يتقبل الاعتذار دونما اكتساب من البيئة التي يعيشها المرء، فالوقوع في الخطأ، والإقبال على الاعتذار من الآخرين عن أخطاء السلوك، وتقبلهم من المخطئين علامات على وجود قابلية فطرية محايدة، فنحن نرث كبشر هذه القابلية فطرياً، ولكن الوقوع في الخطأ والاعتذار، وقبوله من هذا الفرد أو ذاك لاعتذارات الناس هي أنماط سلوكية مكتسبة من واقع بيئاتنا الاجتماعية ومأخوذة من عالمنا الاجتماعي الذي قدر الله تعالى لنا العيش فيه منذ لحظة الولادة أو في مراحل لاحقة، فالإنسان يتعلم الخطأ من بيئته الاجتماعية، كما أن هذه البيئة تمده الفرد بالقدرة والشجاعة على ممارسة الاعتذار حينما يسيء لأحد عامداً أو عن سهو وغفلة، أو تزيده عناداً وإصراراً وتمسكاً بمشاعر العزة بالإثم، ولا يختلف هنا مجتمع عن آخر إلاَّ بوعيه العقلي ونوع التربية الاجتماعية ومدى تفاعله مع قيم الدين المحفزة على العفو والصفح والاعتذار، والمستوى الحضاري للمجتمع.

الخاصية الخامسة: الحركة المتجددة للأخطاء وأساليب الاعتذار

لا تسير الحياة على نمط محدد أو وثيرة رتيبة، فهي بطبيعتها متجددة في حركتها، ومتبدلة في أخطائها وأساليب معالجتها، وهذا ينسحب على أساليب الاعتذار، فطالما أن الأخطاء تتجدد – بنفس مظاهرها السابقة أو مختلفة في شيء ما – فإن أساليب الاعتذار تعاود ظهورها إما بعودتها برتابة أو بقدر من التجديد، وربما يدخل هذا التجديد بصيغ غير مباشرة تدل على روح إبداعية، فالعبارات الدالة على الاعتذار قد يستعملها المخطئ برتابة سابقة، وقد يدخل «المسيء للآخرين» من أبواب مشوقة ليقدم اعتذاره بلا اهانات وخالية من مشاعر المذلة التي تخالج عادة مواقف الاعتذار.

***

الخاصية السادسة: تنوع الأخطاء وأساليب الاعتذار

تتسع الحياة كما نعلم لكثير من أخطاء السلوك سواء صدرت عن عمد أم عن سهو وضعف في إمكانيات الذات أم جهلاً بنتائج الفعل، لكنها في الوقت نفسه تتسع لأساليب متعددة من الاعتذار، وقد يكون هذا التعدد بعدد الأخطاء، فلكل «خطأ» اعتذاره الخاص، والمهم أن ينجح المخطئ المعتذر مع الطرف الآخر على معالجة الخطأ باعتذار مناسب لجنسه يبدأ أولاً بشرح وجهة نظره للمعتدى عليه، فالخطأ الأخلاقي الشخصي يناسب اعتذار مختلف عن اعتذار في مجال نشاط آخر كالعمل السياسي أو النشاط الرياضي، وبذلك فإن صيغ الاعتذار ليست واحدة وليست على نسق واحد حتى وإن تشابهت في إطارها اللغوي العام بقول المخطئ حين الاعتذار..

أنا أعتذر.

وأنا آسف.

واعتذر عما بدر مني.

وأرجو المسامحة.

وأقدم أسفي.

وكلمات مماثلة، وبأية لغة متداولة توحي بالندم والشعور بالخطأ، والرغبة في تصحيح السلوك.

وهكذا دواليك يعبر المخطئ المسيء ((المعتذر)) بهذه الكلمات، ويعبر كل مخطئ بأساليبه الذاتية ولغته الخاصة التي يتحدث بها في كل مكان، وفي أزمنة أو بكلمات مماثلة عن هذه الحالة الوجدانية – السلوكية.

***

الاعتذار بين المحفزات والتحذيرات:

إذا ما تأملنا النص التربوي الحسني موضوع مبحثنا في هذه الدراسة وجدناه متوازناً في قضية الاعتذار بين التحفيز والتحذير، فالنص المذكور يتجه إلى تحفيز الإنسان على ممارسة الاعتذار من قبل المخطئ أولاً، ثم – ثانياً – تشجيع الطرف الآخر الذي وقع عليه الخطأ على قبول الاعتذار لحل أية خصومة طارئة أو موقف سلوكي خاطئ متجذر، وحذره من عدم قبول اعتذار مسلم أو إنسان آخر.

وفي الوقت نفسه فإن النص لفت نظر الإنسان إلى التعجل في توقيع العقوبة قبل مبادرات الحل الودي، وفي صدارتها اعتذار المخطئ عمَّا بدر منه، وطلب العفو عنه، ومع أن هذه الإشارة واضحة في النص إلاَّ أنها خالية من تفاصيل موسعة، ولكنَّ إشارات مؤكدة من نصوص نبوية وأحاديث الأئمة المعصومين عليهم أفضل الصلوات والسلام

قد أبرزت موقفاً متوازناً ومعززاً للتحذيرات والمحفزات في آن واحد كما يتضح من بعض النصوص التي سنعرضها.

تقول بعض النصوص الشريفة من أحاديث نبوية وأقوال بعض الأئمة الهداة المعصومين بالأمرين معاً:

التحفيز للناس – فرادى وجماعات – وترغيبهم بممارسة الاعتذار من الآخرين عند إهانتهم والإساءة لهم.

والتحذير من عدم الاستجابة لقبول الاعتذار من الغير.

***

أولاً: نماذج من نصوص التحفيز

كثرت – في هذا الشأن – كلمات أقوال المعصومين عليهم السلام في هذا الشأن، وسنذكر كنموذج بعض أقوال الإمام علي عليه السلام بوصفه ولداً ومربياً لابنه الإمام الحسن الذي تأثر بمعارفه وقيمه واتجاهاته وسلوكياته.

قال الإمام علي:

«لا يعتذر إليك أحد إلاَّ قبلت عذره، وإنْ علمتَ أنه كاذب[١]».

«اقبل أعذار الناس تستمتع بإخائهم، وألقهم بالبشر تَمُتْ أضغانهم[٢]».

«أعقل الناس أعذرهم للناس[٣]».

---

(١) ميزان الحكمة، ج٦، باب الاعتذار ص ١١١.

(٢) المصدر السابق ص ١١٢

(٣) المصدر السابق ص ١١٢

«لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واترك بينهما للعفو موضعاً تحرز به الأجر والمثوبة[١]».

«إن شتمك رجل عن يمينك ثم تحوَّلَ إلى يسارك، واعتذر إليك فاقبل عذره[٢]».

«احمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة، وعند صدوده على اللطف والمقاربة... وعند جرمه على العذر حتَّى حتى كأنك له عبد، وكأنه ذو نعمة عليك[٣]».

«لا يكونَنَّ أخوك على الإساءة أقوى منك على الإحسان إليه[٤]»، وليكن قبول اعتذاره إحدى صيغ الإحسان إليه، وعدم معاجلة المخطئ المسيء بعقوبته وجَدَ عنها المعتدى مندوحة صيغة أخرى للإحسان.

***

ثانياً: نماذج من نصوص التحذير

وبمقابل نصوص التحفيز على ممارسة «الاعتذار» للناس عما بدر من أخطاء ضدهم جاءت نصوص تربوية مضادة تحذر من عدم قبول أعذار الناس لا لتشجيعهم فحسب على هذه العادة السلوكية الإيجابية والتربوية، بل كذلك تشجيع «الناس المعتدى عليهم «على صفاء نفوسهم وتنقية علاقاتهم بالآخرين.

جاء في حديثه ﷺ:

«من أتاه أخوه متنصلاً فليقبل ذلك منه، محقاً كان أو مبطلاً، فإنْ لم يفعل لم

(١) محمدي الري شهري، ميزان الحكمة، ج٦ ص ٣٩٢.
(٢) المصدر السابق ص ١١١
(٣) نهج البلاغة، كتاب ٣٣، وكتاب ميزان الحكمة، ميزان ٦، ص ١١١.
(٤) الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ج٢، ص ٣٣٤، رقم الحديث ٢١٦.

يرد عليَّ الحوض[١]».

وفي حديث نبوي آخر قال صلى الله عليه وآله: «**من اعتذر إليه أخوه المسلم من ذنب قد أتاه فلم يقبل منه لم يرد عليَّ الحوض[٢]**».

وقوله صلى الله عليه وآله: «**من لم يقبل العذر من متنصل صادقاً كان أو كاذباً لم ينل شفاعتي[٣]**».

ويقول الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في أحد أدعيته: «**اللهم إني أعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره... ومن مسيء أعتذر إليَّ فلم أعذره[٤]**».

ويؤكد أبو عبد الله جعفر بن محمد الإمام الصادق عليه السلام أن: «**أنقص الناس عقلاً من ظَلَمَ دونه، ولم يصفح عمَّن اعتذر إليه[٥]**».

«**أعظم الوزر منع قبول العذر[٦]**».

***

الاعتذارات غير المقبولة شرعاً:

لحظنا مما تقدم من نصوص تربوية إسلامية موقف الترغيب والتشجيع للمشرع الإسلامي من مسألة الاعتذار للناس وجعله سلوكاً شائعاً بينهم، إذ تنطوي هذه النصوص على حالة ترغيب عامة لممارسة عادة «الاعتذار» عن الأخطاء بحق الآخرين

(١) ميزان الحكمة، ج٦، باب الاعتذار ص ١١٢.
(٢) المصدر السابق ص ١١٢
(٣) محمدي الري شهري: ميزان الحكمة، ج٦ ص ١١٢
(٤) الإمام السجاد، الصحيفة السجادية، دعاء ٣٨، ميزان الحكمة، ج٦ ص ١١٣.
(٥) ميزان الحكمة، ج٦، باب الاعتذار ص ١١٢.
(٦) المصدر السابق ص ١١٣.

والإسـاءات لهم، كما انطوت هذه النصوص من زاويـة أخرى على تشجيع الناس بلا استثناء على قبولهم لاعتذارات الآخرين، إذ حذرت من تعنت بعض الناس في قبول«اعتذار» المسيئين، ورأينا في بعض كلمات النبي محمدﷺ تشدده فيمن لا يقبل عذر مسلم، بيد أن المشرع التربوي الإسلامي وضع في المقابل بعض النصوص يمنع فيها حالات من الاعتذارات، ونهى عن ممارستها، ومن تلك الاعتذارات غير المقبولة التي نهى عنها المشرع الإسلامي قد تجسدت في بعض نصوصه ومنها ما سنعرضه للحالات الأربع من الاعتذارات الممنوعة:

الحالة الأولى:

ويصور أحد هذه النصوص حالة مرضية وعصابية لدى بعض الأفراد ممن لا يحبون لطبع لئيم في أنفسهم عدم قبول«اعتذار» من الناس رغبة منهم في إذلالهم أو تشفياً بكراهيتهم أو تلذذاً ببغضهم، فمثل هؤلاء الناس يودون في داخلهم بقاء العدوانية ضد الناس، لذلك لا يقبل اعتذاراً، وفي مثل هذه الحالة جاء النهي بعدم الاعتذار لأشخاص لا يحبون أن تعتذر لهم لأنهم لن يقبلونه أبداً حتى لو تكرر مئات المرات، ومن هنا قال الإمام عليعليه السلام: «**لا تعتذر إلى من لا يُحب أن يجد لك عذراً**[1]».

***

الحالة الثانية:

وفي هذه الحالة يطلب من شخص أطاع الله في أمر تقديم اعتذاره، فعلى سبيل المثال كشف أحد الموظفين المتدينين الذين يخافون ربهم تعالى حالة تزوير وسرقة مال لأحد المسؤولين وأبلغ المعنيين بالمؤسسة فغضب عليه هذا المسؤول، وتوترت العلاقة

(١) الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ج٢ ص ٣٢٥، رقم الحديث ١٢٠.

بينهما، فاقترح وسيط ثالث إعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي وإلى سابق عهدها باعتذار الموظف للمسؤول عن فعله في اكتشاف سرقته للمال، والتعهد بعدم العودة إلى هذا الموقف النبيل.

فهنا يطلب المشرع التربوي الإسلامي رفض هذا النوع من الاعتذار لأن ما فعله الموظف هو امتثال لأوامر الله في تتبع الفساد ومحاربته، والاعتذار هو تراجع عن هذه الأوامر ومعصية لله سبحانه، لذلك جاء في أحد النصوص التربوية الإسلامية ما يمنع الاعتذار من أمر كان فيه لله طاعة والتزام بأوامره ونواهيه.

يقول الإمام علي في النص: «**لا تعتذر من أمر أطعت الله سبحانه فيه.. فكفى بذلك منقبة**[1]».

***

الحالة الثالثة:

يقول أحد النصوص الإسلامية أن بعض الناس يبخلون حتى بشيء يسير من العطاء، فيتعللون بالاعتذار، ويفهم من النص أن «الاعتذار» حالة مرضية في مجال العطاء المادي، إذ يتعلل بعض الناس بـ «الاعتذار» حين يراد منه تقديم عطاء يسير، وهنا يطالب أحد نصوص المشرع التربوي الإسلامي بأن يكون: «يسير العطاء خير من التعلل بالاعتذار[2]»، فالمشرع ممثلًا في قول الإمام علي عليه السلام يرفض من خلال هذا النص اختلاق أعذار للهروب من العطاء حتى لو كان يسيراً، ودعا الناس إلى العطاء حتى بمستواه اليسير فإنه خير كما قال من «التعلل بالاعتذار»الذي يمثل في هذا الموقف أو

(١) الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ج٢ ص ٣٣١، رقم الحديث ١٨٨.
(٢) الآمدي، ج٢، ص ٣٧٩، رقم الحديث ١٥.

في موقف آخر مماثل حالة مرضية، إذ تتخذ الأعذار – هنا – للتنصل والهروب من أداء المسؤولية الأخلاقية والاجتماعية.

إنَّ هذه الأنواع من الاعتذارات غير مقبولة من الناحية الشرعية الإسلامية، ومرفوضة من قبل علماء الأخلاق والمعالجين السلوكيين،، بل ولا تستجيب لمنطق العقلاء، وهي أحرى أن تتنافى مع دعوة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام في الاعتذار التي أرادها أن تكون فعلاً «عبادياً» يحقق للأفراد والجماعات غاياتهم النبيلة من حسن علاقات ونقاء مودة، وفهم وتقارب بينهم، وتصحيح أخطاء السلوك غير السوي.

***

الحالة الرابعة:

هناك أشخاص من يعبر عن هذه الحالة العصابية لأسباب عديدة بعضها متلبس بالنفاق، وبعضها الآخر يلف النفس بمرض نفسي كحالة الشعور بالنقص أو تلذذ بعض الناس في استصغار نفوسهم للآخرين ولاسيما العتاة الطغاة، وتتمثل هذه الحالة في اعتذار بعض الناس من غير حصول ذنب فعلي لأنَّ فعل ذلك يعني أن الفرد الذي يعتذر بلا ذنب قد أوجب على نفسه الذنب، فهذا النوع من الاعتذار يجسد حالة عصابية في معايير الصحة النفسية، وهو من الناحية الدينية محرَّم شرعاً، وقد عبرت كلمات أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب بدقة تامة عن الموقف الديني من جهة ومن موقف علماء العلاج النفسي فقال عليه السلام: «من اعتذر من غير ذنب أوجب على نفسه الذنب[1]».

طبيعة الإساءة وطبيعة الاعتذار

ليس الاعتذار حالة وجدانية محضة، بل موقف عقلي مصحوب بشحنة انفعالية

(١) ري شهري، محمدي، ميزان الحكمة، ج٦ ص ١١٥.

سوية أو مرضية، وطبيعة «الاعتذار» مرتبطة بطبيعة الفرد نفسه التي يحددها التعامل الشخصي بين المسيء والمعتدى عليه ' فإن كان المسيء المعتذر «لئيماً ومنافقاً» فطبيعة اعتذاره لؤم ونفاق وندم غير صادق، وحينما يكون المعتذر بسجية طيبة وخيرة فإن اعتذاره تعبير عن ندم سوي في داخله، وصادق يريد به تجاوز الخطأ ومحو آثار إساءة صدرت منه فاستشعر الندم، وهذا ما جعلنا نعتقد أن الاعتذار بهذه الحالة العقلية والوجدانية علامة نضج عقلي وانفعالي لأن داخل المسيء انطوى على اعتراف صادق فتبعته حالة ندم صحية وسوية تصاحبها توبة نصوح لله تعالى.

وفي سياق التركيبة الداخلية للمسيء المعتذر تتحدد استجابة المعتدى عليه إمَّا بقبول «اعتذاره»، ولن يتم ذلك إلاَّ حينما يتحسس الطرف المعتدى عليه ندماً فعلياً للمسيء، وإمَّا يرد «اعتذاره»، ويتحرك صوب العقوبة العاجلة حينما يتبيَّن له.. أي للشخص المعتدى عليه بإساءة.. لؤم المسيء ونفاقه وتكرار خطئه ضده، فالاعتذار المتكرر لشخص تمت الإساءة إليه هو في حقيقته لؤم ونفاق،وعدم شكر قبول المعتدى عليه الذي يعتبر «نعمة»منَّها الله على المسيء ففرَّط فيها، وعاد بلؤمه وتقصيره إلى تكرار إساءته بنحو فهمها المعتدى عليه وكل المحيطين به على أن تكرار إساءاته قد اصطبغ بالنفاق واللؤم، وهذه العلامة فارقة بين المؤمن والمنافق كما جاء على لسان الإمام الحسين عندما حذر وقال: «**إيَّاك وما تعتذر منه، فإنَّ المؤمن لا يسيء ولا يعتذر، والمنافق كل يوم يسيء ويعتذر**[1]»، أمَّا الإمام الحسن عليه السلام فيرى «**اللؤم أن لا تشكر النعمة**[2]»، والاعتذار أحد مصاديقه، فحين يقبل الناس منك اعتذاراً فاعلم بأن الله سبحانه منَّ عليك بـ «نعمة».

ويلحظ من التركيبة اللفظية للنص التربوي الحسني عن موضوع «الاعتذار» تأكيد

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول ص ١٧٨.
(٢) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٨.

الإمام الحسن السبط بصورة مباشرة على الطبيعة الخيرة للشخص المعتدى عليه، لذلك دعاه عليه السلام إلى استثمار هذا العنصر الإيجابي لديه في فحص موقف المسيء الذي يتراوح بين لؤم المنافقين وإخلاص النادمين، ومن هنا حث الإمام الحسن الشخص الذي تقع عليه الإساءة أن يتفهم بطبيعته الخيرة دوافع الإساءة ويتيح لصاحبها أن يراجع موقفه، ويمنحه فرصة الاعتذار لكشف نواياه الداخلية، فإذا ما ألف منه تكراراً في الإساءة إليه فهمه كشخص لئيم أو منافق أو عدواني، وأما إذا استطاع المسيء تجاوز إساءته بعلاقات جديدة خالية من الإساءة واللؤم والنفاق عرفه نادماً مخلصاً، وربما جعله صديقاً حميماً، وأعانه على تحسين سلوكه وتنمية شخصيته.

وربما هذا ما قصده وعناه الإمام الحسن السبط بن علي عليهما أفضل الصلاة والسلام في نصيحة مباشرة لبعض وِلْدِه: «**إذا استنبطت الخبرة، ورضيت العثرة، فآخه على إقالة العثرة،والمواساة في العسرة**[1]».

الاعتذار والعفو في حركة أخلاقية:

كما تقدم قوله فإن الاعتذار في معناه البسيط عملية إقرار من المسيء بخطئه وتحسسه داخلياً بالندم عمَّا صدر منه من ذنب، وسعيه لإنهاء الحساسية، وحالة الاستياء الناجمة عن التصرف الخاطئ، وهو، أي الاعتذار مقدمة أولية لاتخاذ قرار من الشخص الذي وقعت عليه الإساءة ينهي حالة الاستياء بما يسميه المشرع الإسلامي بالعفو أو الصفح، وإسقاط الضغائن بين الطرفين، وإذا كان الاعتذار ليس بالضرورة صادقاً، وهو أمر قد لا يؤدي إلى عفو نهائي فإن المشرع الإسلامي يدعو الطرفين إلى تقديم اعتذار صادق، وتحقق عفو فعلي.

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٨

وقد عزز المشرع التربوي الإسلامي كليهما بنصوصه الكثيرة، وأوردنا عن الاعتذار بعضها وترغيب المشرع فيها وتحذير من لا يفعل، أما العفو فهو سلوك روحي وأخلاقي بسط المشرع الإسلامي آيات القرآن والنصوص النبوية وأحاديث المعصومين ليعززه في نفوس الناس، ومن ثمّ يحقق العفو للمعتذر الصادق غايته التربوية المأمولة، ويغرس في نفوس العافين إحساسات العزة والكرامة ومشاعر الصفاء النفسي، وتنمية قدراتهم الروحية على كظم الغيظ، وتحسس محبة الله سبحانه لهم كما أفصحت عن ذلك آيات عديدة[1] من القرآن الكريم، فالاعتذار والعفو يتساندان في حركة أخلاقية موحدة أهداف النظرة العبادية التي يتوخاها المشرع من علاقة الناس مع بعضهم.

أما الجانب الروائي في موضوع العفو وثمراته النفسية والأخلاقية فقد سردت مصادر علم الحديث الكثير من الروايات نذكر منها – كنماذج – قول رسول الله صلى الله عليه وآله:

«**تعافوا تسقط الضغائن بينكم**».

وقوله: «**العفو لا يزيد العبد إلاَّ عزّاً، فاعفوا يعزكم الله**».

وقول الإمام علي عليه السلام: «**قلة العفو أقبح العيوب، والتسرع إلى الانتقام أعظم الذنوب**».

وفي نصر آخر: «**ولا تندمن على عفو، ولا تبجحنَّ بعقوبة**».

وقول الإمام الصادق عليه السلام: «**الصفح الجميل أن لا تعاقب على الذنب**».

---

(١) انظر على سبيل المثال ما جاء في سورة الشورى آيتي ٤٠، ٤١، وسورة النساء في آية ١٤٩، وسورة آل عمران آية ١٣٤، والبقرة رقم ١٠٩، والمائدة في آية ١٧، وآية ١٩٩ في سورة الأعراف، وآية ٢٣ من سورة الرعد، و٨٦ من سورة الحجر، وآية ٩٩ من سورة المؤمنون، والنور ٢٣، والفرقان ٦٥، والقصص ٥٥، والسجدة ٣٥، ٣٦، والزخرف ٩٠، والجاثية ١٤، والتغابن آية ١٥.

و قـول الإمـام الرضاعليه السلام: «**العفو مـن غير عـتـاب**» في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ﴾[1].

***

تأجيل العقوبة

تتجلى أمام الباحث والقارئ معاً في القسم الأول من النص الحسني المذكور دعوة واضحة ومكشوفة إلى ضرورة تأجيل العقوبة ضد المسيئين، وتتوقف عملية «تأجيل للعقوبة» على مسألة حيوية، وفي غاية الأهمية وهي ضرورة الاستماع للمسيء حتى يفهم منه عذره، فيقرر الطرف الآخر الذي تعرض للإساءة ما ينبغي له اتخاذه من قرار بعد استماعه للمسيء.. إمَّا بقبول اعتذاره أو مطالبته بحقه في الاعتذار إليه أو إتاحة فرصة له لتعديل سلوكه وتنقية العلاقات الأخوية بين الطرفين.

ويفهم من كلمات الإمام الحسن في القسم الأول من نصه المذكور، وكذلك يفهم من القسم الثاني القائل «واجعل بينهما طريقاً للاعتذار» أن المطالبة بعقوبة المسيء حق للمعتدى عليه، ولكن بعد الاستماع إليه ليفهم عذره، ويتاح للطرفين تفسير الموقف عن قرب، وتعبير «لا تعاجل الذنب بالعقوبة» هو في حقيقته إقرار «بمبدأ العقوبة» أولاً، وثانياً تأجيلها لإتاحة فرصة «اعتذار المسيء عن خطئه» والاستماع لوجهة نظره فيما بدر منه من إساءة، وبعملية التأجيل يتم تنقية العلاقات كخطوة أولية قبل تنفيذ العقوبة كخطوة لاحقة، فإن هذا المقطع من النص الحسني «لا تعاجل الذنب بالعقوبة» قد أقر في بنيته اللغوية وتركيبته اللفظية «أربع قضايا» أساسية واضحة ومتلازمة في ترتيبها الزمني والأخلاقي والقانوني، وقضية خامسة لم تذكر مباشرة.

---

(١) ميزان الحكمة، ج ٦، باب العفو ص ٣٦٥ – ٣٧٢.

وهذه القضايا هي كما يأتي:

- وقوع ذنب أو خطأ أو إساءة متعمدة أو غير متعمدة من شخص ضد شخص آخر أو جماعة أو من كليهما ضد شخص أو جماعة أخرى.

- استماع المعتدي عليه لوجهة «نظر المسيء» بعد صدور الإساءة منه، وكشف مسوغات الإساءة وبيان أسبابها.

- دعوة «لاعتذار المسيء» بعد أن يفسر موقفه ويشرح وجهة نظره في سلوكه الخاطئ من أجل إعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي.

- خيار «العقوبة» وهو قرار يتخذه من وقعت عليه الإساءة بعد مرور عملية الإساءة بخطوتين سابقتين هما:

أ- الاستماع لوجهة نظر المسيء.

ب- واعتذاره الفعلي.

أمَّا القضية الخامسة التي لم يذكرها النص أو لم يستبطنها مباشرة فهي «إثابة الطرفين» المسيء على جرأته في طلب الاعتذار ممن أخطأ بحقه، وإثابة الطرف الثاني المعتدى عليه لأنه استمع لوجهة نظر المسيء، وَقَبِلَ اعتذاره، وعفا عنه أو صفح عنه صفحاً جميلاً، وهذا ما أشار إليه نص مماثل لنص الإمام الحسن السبط، فكلمات تحمل المعنى ذاته وتتضمن القضايا الخمس، يقول والده الإمام علي عليه السلام: «**لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واترك بينهما للعفو موضعاً تحرز به الأجر والمثوبة**[1]»، وبهذا فإن الأمر

(١) محمدي ري شهري، ميزان الحكمة، ج ٦ ص ٣٩٢ نقلًا عن كتاب « غرر الحكم ودرر الكلم « للعلامة عبد الواحد الآمدي التميمي.

الوارد في النص بفعل معين، والنهي عن فعل آخر هو عملية عبادية من وجهة نظر المشرع التربوي الإسلامي، والامتثال في تنفيذ الأمر والنهي يترتب عليه إثابة وأجر للمكلف.. إنْ كان مسيئاً فاعتذر، وإنْ كان معتدى عليه فتقبل عن طيب خاطر وبنية القربى لله اعتذار المسيء، وبخلاف ذلك يتحول عدم الامتثال لله سبحانه لمعصية تستوجب العقوبة الإلهية.

***

المعاني الأخلاقية والتربوية والسيكولوجية للاعتذار:

تشتمل دعوة الإمام الحسن عليه السلام على ممارسة عادة «الاعتذار» و «تقبله من الطرف الآخر» على معانٍ مهمة ذات صلة بالنمو الشخصي للفرد، وتطوير أنماط العلاقات الاجتماعية بين المجتمع الإنساني، وهذا ما يمكن بيانه من وجهة نظر تربوية من ثمرات «الاعتبـار وتقبله» كمبدأ أخلاقي وروحي وسلوكي بين الأفراد والجماعات على حد سواء.

ومن هذه المعاني:

١. أنَّ الاعتذار وقبوله على حد سواء هو علامة على حالة نضج نفسي طبيعي للمخطئ المعتذر، والطرف الآخر الذي يتقبل الاعتذار لأن فعل الطرفين كان قراراً مستقلاً، وسيكون هذا القرار عقلانياً رشيداً وشجاعاً.

٢. أن الاعتذار يعني إقراراً من الأفراد بأن أي خطأ منهم لا يصلحه غير الاعتذار وتعديل السلوك بما يرضاه الطرفان (المخطئ، ومن وقع عليه الخطأ)، وفيها اختيار عقلي واضح لقرار سليم في إدارة السلوك مع نفسه.

٣. تعني عملية الاعتذار مراجعة ناقدة للسلوك الصادر عن الطرف المخطئ، كما

يعني من جهة أخرى تفهم نفسية الطرف الآخر حتى لا يتكرر الخطأ ذاته أو خطأ من نوع آخر من السلوك الإنساني.

٤. ويدل الاعتذار على قدرة بعض الأفراد الناضجين الذين يمتلكون الجرأة في الاعتذار على حسم موقف لحالة الصراع النفسي التي تكتوي بها نفوسهم، فالوقوع في الخطأ حتى إذا كان فاحشاً يُولِّد قلقاً داخل النفس ويوقعها في تدافع بين الرغبة في التكفير عن الخطأ وبين موانع الاعتراف بالتقصير أو صعوبة تفهم كوامن خطئه ضد الآخرين، وحين يتمكن الفرد من التغلب على هذه الحالة، وهو أمر ممكن، يكون حسمه موفقاً إزاحة الألم الداخلي عن نفسه، وإدخال السرور على قلب الآخر.

٥- وفق ما أسميناها العلاج بطريقة «الأضداد» يتقابل سلوك الاعْتِذَار من طرف مع سلوك «تقبل الاعتذار من طرف آخر» تمت الإساءة إليه، ويدل موقف الطرفين على رشد وتعقل ونضح نفسي، إذ قام المعتذر بتجاوز حالة «الخطأ» إلى حالة «الموقف الصحيح»، فإذا كان المعتذر قد ارتكب فعلاً خاطئاً كالسب والشتيمة والنميمة والقول القبيح ضد شخص فالاعتذار هنا ليس بلفظ محدد، وإنما بتحول نفسي وسلوكي يستأصل عاداته في السب والشتيمة وغيرها من كيانه النفسي، ويلتحم بالقول الليِّن والممارسة الصحيحة مع متطلبات الاعتذار كموقف سلوكي جديد بتقمص سلوك مضاد، وإذا لم يتمكن الفرد أو الشخص من حسم نزعته للإساءة للآخرين والاكتفاء بالاعتذار القشري الذي لا يسمن ولا يغني من جوع فإنه يتحول إلى منافق، ويصبغ نفسيته بالنفاق، ولهذا جاء في حديث للإمام الحسين بن علي عليهما السلام محذراً من تكرار اعتذارات ميتة في تأثيرها، ولا تجعل المسيء يغير من سلوكه، ولا يسمو بنفسه فقال ما نصَّه: «**إيَّاك وما تعتذر منه، فإن المؤمن لا يسيئ ولا يعتذر، والمنافق كل يوم يسيء**

ويعتذر[١]».

٦- يفترض في عملية «الاعتذار» تحرير النفس من مشاعر الإثم وحالة الاستياء الناجمة عن وقوع الخطأ، فقبول «مَنْ وقع عليه الخطأ» لاعتذار المخطئ يخفف غلواء هذه المشاعر ويريح نفسيته من ضغط الندم وتبكيت الضمير، كما أنَّ عملية التحرير الداخلي من وزر الخطأ وتداعياته على الحياة الشخصية وعلاقاته الاجتماعية تفتح المجال للتعامل من جديد مع المخزون القيمي للفرد، فيعود بعملية الاعتذار إلى الحب والمودة وصفاء النفس، والشعور بالانتصار على الذات وغيرها، فالنص الديني - كما تقدمت الإشارة هنا وهناك - يؤكد على استمتاع المعتذر بالإخاء الإنساني، ومن هنا قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الشأن: «**اقبل أعذار الناس تستمتع بإخائهم**[٢]».

٧- هناك أشخاص بين الناس تغلب عليهم مشاعر العزة بالإثم، وتتملكهم هذه الإحساسات المرضية بنحو يغلق طريق «الاعتذار» في بدايات الأمر، ولكن بتشجيع الأفراد على تغيير موقفهم من مسألة الاعتذار يحملهم تدريجياً على تقبل الاعتذار من المخطئ، ويفتح الاعتذار بعد تدربه عليه باباً للتخلص من تبعات الذنب والتخلص التدريجي من ضغوطات مشاعر العزة بالإثم ومقاومة رواسبها الساكنة في داخل النفس، فالاعتذار - كأية عادة سلوكية - أمره صعب، وبدايات الاستجابة له أكثر صعوبة، وهو لتعديل السلوك جهد نفسي صعب في أية بداية وممارسة، فالتغلب على الشحنات الانفعالية المقاومة للاعتذار ممكن كما تدل الوقائع، وكما تحث النصوص الدينية الإسلامية،ولهذا فإن الدعوة إليه واقعية.

---

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول ص ١٧٨.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٦ ص ١١٢.

٨- وبالمقابل فإنَّ تشجيع الناس على تقبل الاعتذار وتشجيع ممارسته كما دعا إلى ذلك الإمام الحسن السبط في نصه المتقدم هناك محاولة هادفة لتحرير النفس من أحقادها ومن التسرع المألوف في حياة كثير من الناس - بصورة انفعالية - في توقيع العقوبة بعد صدور كل خطأ أو ذنب، والنظر بواقعية بعيدة ما أمكن عن الرغبة المريضة في الانتقام كهدف أولي في حركة رد العدوان عن الذات من طرف خارجي عنها، والاعتذار كما نفهمه هو بوابة هذا التحرير وطريق وقف عملية توجيه اللوم إلى المسيء والحد من حالة التأزم بين المسيء والمعتدى عليه الذي وقعت عليه الإساءة.

٩- تحرير النفس من النفاق كما جاء في حديث الإمام الحسين السابق الذكر، فقد قال في تحذير واضح بعدم تكرار المسيء لأخطائه حتى لا يتحول اعتذاره إلى كذب ونفاق وهزء بالناس لا يتوقف، يقول عليه السلام: «**إياك وما تعتذر منه، فإن المؤمن لا يسيء ولا يعتذر، والمنافق كل يوم يسيء ويعتذر**[1]».

١٠- وهناك قيمة تربوية فعالة جديرة بالأهمية ولفت النظر إليها حتى وإن لم تبرز واضحة في باطن النص الحسني مباشرة وهي مسألة «الإثابة» للطرفين.. المسيء والمعتدى عليه بإساءة على حد سواء، وقد أشرنا إليها على عجل في كلام سابق، فـ «إثابة الطرفين» ومكافأتهم عملية معززة للسلوك الإيجابي وكف للاستجابة السلوكية الخاطئة غير المرغوبة في قوانين علم النفس الوضعي ولدى المشرع التربوي الإسلامي، وتعطى الإثابة للمسيء على جرأته في طلب الاعتذار ممن أخطأ بحقه وتعدّه النظرية التربوية عملاً عبادياً يقوم به المكلف، بينما يثاب الطرف الثاني المعتدى عليه لأنه قام هو الآخر بأفعال تعد في نظر المشرع الإسلامي سلوكاً عبادياً كالاستماع لوجهة نظر المسيء،

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٧٨.

وقبولَ اعتذاره، والعفو عنه أو الصفح عنه صفحاً جميلاً، وهو أخوه في الدين ونظيره في الخلق، وهذا – كما تقدم حديثنا – ما ذكرناه في نص مماثل لنص الإمام الحسن السبط وكلماته الحكيمة التي انطلقت من والده الذي احتضنه بالعلم والمعرفة وتعهده بالتربية الميدانية، فوالده الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال كلمات تحمل المعنى ذاته بما لفظه: «**لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واترك بينهما للعفو موضعاً تحرز به الأجر والمثوبة**» أو «**تحرز به الآخرة والمثوبة**»، وفي ذلك إشارة إلى القضايا الخمس التي أوضحتاها سابقاً وهي «وقوع الفعل المسيء، وتأجيل العقوبة، والاستماع لوجهة نظر المسيء، والاعتذار وقبوله، والإثابة» على الأفعال السوية من هذه القضايا، كما أن مضمون النص الحسني مستمد تماماً من قول الإمام علي عليه السلام، ويؤكد هذا التداخل الفظي على وحدة الشعور الوجداني والتفكير المعرفي والممارسة التربوية التطبيقية.

١١- تجنب العقاب الإلهي، وقد وردت نصوص مما تقدم تحذر من نتيجة غير مأمونة في الآخرة كعدم ورود الشخص الحوض على النبي وعدم نيل شفاعته، وتحذير هذه النصوص بأن من أعظم «الوزر منع قبول العذر».

***

الحلقة التاسعة

الانفعالات النفسية وآثارها

في خطاب الإمام الحسن عليه السلام التربوي

الانفعالات النفسية وآثارها
في خطاب الإمام الحسن التربوي

مدخل:

يشهد الأفراد على - مختلف أعمارهم وأعراقهم - في حياتهم اليومية استجاباتهم المتنوعة لمجموعة من الانفعالات السوية وغير السوية المرتبطة بسيكولوجيتهم الذاتية وبتكوينهم الداخلي، ويتقلبون في تشكيلاتهم بمثيرات متعددة، وهذه الحياة الانفعالية كما تثبت حياتنا اليومية لا تسير على وتيرة واحدة، ولا تنتظم على نمط معيَّن، فحياتنا الاجتماعية والوجدانية عبر تاريخ طويل مليئة بخبرات وتجارب مستمرة ومتكررة ومتنوعة، فالانفعالات النفسية أحوال وجدانية متبدلة وحالات شعورية متعددة تمر بها النفس البشرية من حزن وفرح وسرور وغضب وحنو ودهشة وغيرها، فكل انفعال من هذه الأنواع هو في حقيقته حالة شعورية واضحة لدى تجليها في الموقف الانفعالي بنحو واضح يدركه كل الناس فوراً كإدراكهم لمظاهر الفرح والحزن والغضب وغيرها بينهم، وبالتأكيد فإن لكل انفعال حالته الشعورية الخاصة به التي تميزه عن غيره، وعادة ما يصاحب كل حالة انفعالية تغيرات داخلية وفسيولوجية وخارجية ظاهرة ومؤثرة في شخصية الفرد، وتترك هذه التغيرات أثرها الإيجابي والسلبي على الأفراد في وظائفهم الداخلية وسلوكهم الخارجي مثل خفقان ضربات، وتعبيرات ملامح الوجه، وتصبب العرق، ورعشة اليدين، واضطراب عملية التنفس، وزيادة سرعته وارتفاع ضغط الدم، والتغيرات في نسبة السكر في الدم، وزيادة إفراز الغدد وغيرها من التغيرات الداخلية

والخارجية الشديدة والخفيفة على حد سواء.

ومما يلحظ أن التغيرات الجسمية المصاحبة للحالات والاستجابات السلوكية الانفعالية تتوزع على جوانب ثلاثة مترابطة كما يقول الأطباء وعلماء النفس المحدثين، وأول هذه الجوانب الجانب الشعوري لدى الفرد كإحساسه بانفعال معين مثل شعوره بالفرح أو الحزن أو الخوف أو البكاء، أما الجانب الآخر فهو ما يحدث في الجانب الفسيولوجي الداخلي من تغيرات كالتي تصيب وظائف الجسم الداخلية مثل اضطرابات دقات القلب وخفقانها بسرعة غير منتظمة، وما يتم في عملية تنفس الفرد، وغيرها من التغيرات المصاحبة للانفعال،وتظهر الاستجابة الانفعالية في جانبها الظاهري الخارجي كتعبيرات الوجه من ابتسامة وتجهم وإيماءات وتصبب العرق والتغير في ملامح الوجه، وغالباً ما تكون هذه التغيرات في هذا الجانب دليلاً على معرفة نوع الانفعال ومستوى شدته، فالناس يشاهدون الموقف الانفعالي في مشهد خارجي ملحوظ.

***

الانفعال في معجم لغوي:

بعض المعاجم اللغوية العربية التي بأيدينا لم تذكر هذا اللفظ و لم نعثر عليه لسوء الحظ، وقد يكون تقصيراً في جهدنا، أمَّا البعض الآخر من هذه المعاجم فذكر المصطلح هكذا «انفعل انفعالاً، اشتد تأثره[1]»، إذ ذكرته في صيغة المفعول المطلق، والمهم أنها أشارت إليه، بيد أن هذا اللفظ جاء في كلام للإمام الحسن بن علي حينما قال في دعائه: «**أنت المستعان، وعليك التوكل، وأنت وليُّ من توليت، لك الأمر كلّه، تشهد الانفعال**

(١) جبران مسعود، رائد الطلاب، باب انفعل، ص ١٦١.

وتعلم الاختلال[١]».

***

مفهوم الانفعال

حدد علماء النفس أسوة – بغيرهم من العلماء – المفاهيم التي يستخدمونها عادة في دراساتهم وأبحاثهم، ومن ذلك تعريفهم لمصطلح ومفهوم الانفعال بأنه مجموعة استجابات سيكولوجية وفسيولوجية وسلوكية ظاهرة تؤثر في جميع أوجه النشاط التي يقوم بها الكائن الحي، فالانفعال النفسي كما في تعريفات علماء النفس المعاصرين هو «تغير مفاجئ يصيب الكائن الحي فتظهر آثاره في وظائف جسمه الداخلية والخارجية، وتتجلى آثار الاضطراب والاستثارة على السلوك الخارجي للفرد»، فالانفعال النفسي في معناه العام هو كل: «تغير ملحوظ يصيب كل كائن حي فيترك بصماته على وظائفه الداخلية، ويتجلى في السلوك الخارجي الملحوظ للفرد» بنحو يكون قابلاً للمشاهدة والقياس والتحكم.

فحين يستثير شخص بوجود «مثير معيَّن» يجد نفسه أما خيارات متعددة من الاستجابات قد يتسم بعضها بطابع سوي ومناسب لنوع الموقف الانفعالي، وربما يأخذ بعضها طابعاً خاطئاً، فهناك من يختار موقف «الحليم» والسيطرة الداخلية على المثير كمواجهة مثير غاضب أو مثير حزين أو مبكي، بينما يستجيب آخر بحسب عادته في الميل لسلوك الحمقى بطريقة غير سوية، فيختار استجابة غير سوية، ويقيم الدنيا ولا يقعدها كرد فعل على ما أثار غضبه، ويملأها غضباً وحماقة وعدواناً، وهذا يختلف بالتأكيد عن غضب الإنسان للحق ومبادئه التي يؤمن بها، فمن لا يغضب لنفسه، ومن

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٥٦، ص ١٠٥.

جفوة الآخرين له فهو ذليل.

***

الانفعال طاقة سيكولوجية

زود الله سبحانه وتعالى عباده على مختلف أعراقهم وأجناسهم بمجموعة طاقات كالغرائز والدوافع والانفعالات اللازمة لنموهم الارتقائي، إذ تنتظم حياة الإنسان في تطوره النمائي والارتقائي على مقومات دفع وضبط ضرورية لاستمرار ديمومتها كالانفعالات بمختلف أنواعه وما استودعهم في فطرتهم من رصيد قيمي أخلاقي يوجه حركة هذه الانفعالات ويحكمها وقت الحاجة، فالانفعالات - كما نفهمها - هي طاقة نفسية تنشط سلوكنا كأفراد، فيزيد ذلك من خصوبة الخيال، ويمكنهم من تنشيط تفكيرهم، وتسهيل تدفق المعاني والأفكار كما في انفعال الفرح، وتنشيط الحركة والميل للعمل، وزيادة طلاقة اللغة كما في انفعال الغضب، وتنشيط قوة الإرادة والتصميم على تحدي المصاعب والعزم على تخطيها بالرغم من مخاطر الانفعالات النفسية أحياناً.

فالفرد لا يمكن أن يقوى على تلبية حاجته للطعام من دون انفعال الجوع، ولا يمكن مقاربة زوجته مجرداً من انفعال الحب والرغبة في الجنس، ولا تستطيع المرأة اشباع حاجتها للأمومة وتؤدي دورها في هذا المجال طالما أنها لا تستطيع الانفعال بحنو وحب وعطف على وليدها، فالانفعال طاقة فعالة ضرورية لحركة الكائن الحي وحياته، وهكذا فالحياة البشرية بدون طاقة الانفعالات - حتى بسلبياتها أحياناً - فهي رتيبة، وليست بذي قيمة، بل وتصبح جامدة، خالية من الاستثارة اللازمة للنشاط الإنساني سكوناً واضطراباً.

***

شروط تحقق الانفعال

اتفق علماء النفس على أن الانفعال لا يحدث من دون عناصر حيوية يعدونها شروطاً ثلاثة لحدوثه في حياتنا السيكولوجية وهي كما يأتي:

١. وجود مثير

وهو قوة داخلية أو خارجية تستثير شعورنا كأفراد، وتنبه وعينا لوقوع شيء ما كتذكره حادثة مؤلمة أو ظهور حيوان مفترس أمامنا يتهدد وجودنا بالخطر، ويتحدد نوع الاستجابة الانفعالية علي وفق لنوع الاستثارة وحسب الموقف النفسي للفرد ونوع القوة السيكولوجية لديه، بحيث تكون استجابة الهرب إنْ كان جباناً أو المواجهة إن كان شجاعاً أو يمتلك أدوات المواجهة كالسلاح، وقد يكون المثير ألماً من داخل جسد الفرد فيبدأ في الصراخ والألم وتحريك بعض أعضاء الجسم كاليدين والرجلين.

٢. جهاز عصبي لكائن حي

والشرط الثالث هو وجود كائن حي يملك جهازاً عصبياً يستقبل المثيرات، ويرسل الاستجابات الانفعالية، فالجمادات لا تنفعل ولا تستجيب لمثير ما، وكذلك النباتات، ولا تكون الجمادات والنباتات مهيأة ومستعدة لاستقبال مثير أو مستعدين لإرسال استجابة، فالكائنات الجامدة، والنباتات لا تمتلك جهازاً عصبياً قادراً على استقبال المثيرات الداخلية والخارجية، وإرسال الاستجابات الانفعالية، فالاستجابة السلوكية التي تحدث لدى الكائن الحي تمر من خلال الجهاز العصبي.

٣. استجابة انفعالية

ويسميها بعض علماء النفس المحدثين في كلماتهم، وبعض تعبيراتهم السيكولوجية بـ «رد الفعل» الصادر عن الكائن الحي بعد صدور المثير، فيتصرف الفرد بسلوك

معيَّن كالهرب من مواجهة أسد مفترس وهائج، ويصاحب هذه الاستجابات تغيرات شعورية كالشعور بالخطر، وكذلك تغيرات جسدية كخفقان دقات القلب، أو صدور سلوك خارجي معبِّر كخوف الفرد وصراخه استجابة استثارة انفعالية، فإذا ما اكتملت هذه العناصر في حركتها، وتفاعلت هذه الشروط مع بعضها حدث تحقق الانفعال النفسي بتشكيلات مختلفة ومتنوعة لتؤدي وظائفها في الحياة البشرية كإشباع حاجاتها عن طريق حركة الانفعالات، ويتم ذلك بجانبيها الإيجابي المفيد في نمو الشخصية، وجانبها السلبي الذي يتهددها ويعوق حركتها الطبيعية.

***

أنواع الانفعالات:

قسم بعض علماء النفس كالعالم الأمريكي واطسن الزعيم المؤسس للمدرسة السلوكية الانفعالات إلى أقلية فطرية وأغلبية مكتسبة، فالنوع الأول من الانفعالات، ونقصد الفطرية، يولد الكائن الحي مزوداً بها، وهي عامة مشتركة بين جميع أفراد النوع الإنساني، وهي محصورة ومحددة بعدد أقل من عدد أصابع اليدين لارتباطها بالدوافع الفطرية، ويدرج في هذا النوع ثلاثة انفعالات هي الخوف، والغضب والحب كما ذهب إلى ذلك واطسون الأمريكي مؤسس المدرسة السلوكية واعتبرها من الانفعالات الأساسية الفطرية أكثر من كونها مكتسبة.

أمَّا النوع الآخر فأغلب انفعالاته مكتسبة يتم تعلمها واكتسابها من البيئة ومؤسساتها وظروفها، فنحن كما يقول أنصار هذا الاتجاه نتعلم الفرح والحزن والغضب والتقزز من خبراتنا اليومية الأولى مع كثير من المواقف الجديدة اللاحقة لها التي لم تثر فينا الانفعال من قبل، وهي انفعالات تختلف باختلاف بيئات الأفراد وثقافاتهم، ولا يمكن حصرها

كالانفعالات الفطرية الثلاثة عند زعيم السلوكيين، حيث تختلف من بيئة إلى أخرى، وباختلاف الأفراد.

بيد أن هذا التقسيم الثنائي لم يتضح كصورة واحدة لدى غالبية علماء النفس، ولم يحظ بقبولهم بموافقة كاملة، بل أدرجه بعضهم ضمن عملية «نمو الانفعالات» لا تصنيفها كأنواع إلى فطرية ومكتسبة، لهذا لم يأخذ حظه في الانتشار العلمي بين مصادر الدراسات السيكولوجية، ولم يثبت كتصنيف علمي، بينما برز تقسيم آخر بنحو واضح وموسع وبارز بالنسبة للدوافع النفسية، لهذا لن نستخدمه في توزيع الانفعالات النفسية، ولكن علماء آخرين مهتمين بالدراسات النفسية قد قسَّموا الحالات الانفعالية الظاهرة في حياة الناس إلى نوعين أساسين، ويندرج في كليهما مظاهر انفعالية يطلقون عليها تسميات تميز كل انفعال عن غيره من الانفعالات الأخرى ولاسيما في ظروف الاختلال والاضطراب الانفعالي الذي يؤثر على راحة النفس واستقراها.

• انفعالات ثائرة ونشطة وقادرة على تهييج الحالة الشعورية وتنشيطها لدى الفرد ومن هذه الانفعالات النفسية كالغضب والفرح والسرور والبكاء، ما يترتب عنها من سلوك عنيف وتدميري أو غير منضبط كما في انفعال الفرح.

• والنوع الآخر من الانفعالات السيكولوجية ما يسميه بعض علماء النفس في مصادرهم وأدبياتهم بالانفعالات الفاترة، الخامدة التي تجعل الفرد منقبضاً في داخله، ومنكمشاً على نفسه، ومنكفئاً على ذاته كانفعالي الحزن والخوف، وما يترتب عنهما من تهيج انفعالي يرتد على الفرد في داخله فيتركه مشلولاً بقدر، وعاجزاً عن العمل الطبيعي، فاقداً للقدرة على مواجهة الأحداث والأمور حتى لو كان ذلك لمدة مؤقتة يمكن بعدها من العودة إلى وضعه الطبيعي متى تمكن من معالجة سلوكه بأداء أفضل.

أولاً: الانفعالات الثائرة النشطة

وهذا النوع يحدث لدى الكائن وبخاصة الإنسان تحت تأثير مثير قوي، ويحدث لديه استجابة نشطة، وسلوكاً مهيِّجاً يؤثر على تفكيره ومشاعره ورؤاه وجسمه، ويندرج تحت هذا النوع كما تقدم انفعال الفرح وما يتصل به من فرح وسعادة، وكذلك انفعال الغضب، والبكاء إذا أصبح عويلاً، ويصاحب هذه الانفعالات المهيِّجة كانفعال الفرد الذي يسيطر عليه التهيج[1] فيبرز في نشاط مخيلة الإنسان وجسمه وتفكيره، مما يجعله يؤدي إلى ظهور صور متنوعة ومعانٍ تفيد في توليد أفكار جديدة وإنتاجها قد تمهل السبيل للإتقان والاختراع والابتكار.

أما انفعال الغضب، وهو من الانفعالات الثائرة المدمرة الذي يحدث أثراً مهيَّجاً، وعند ظهوره وتهيَّجه خاصة في صورته العنيفة يخلو الذهن من الصور والمعاني الدقيقة الواضحة، ويؤثر على مخيلة الإنسان وتفكيره، ويصبح المرء الغضوب عاجزاً إلى حد ما عن التفكير المنظم، والقول والعمل الجيد، ويجعله عاجزاً عن الفهم للمواقف المحيطة به وإدراك الظروف المصاحبة لهذا الانفعال، وربَّما لا يتمكن من تذكر آثار ما فعله الفرد الغاضب أثناء مدة غضبه، وتتداخل معلوماته السابقة بالآنية حتى يهدأ ويستقر.

***

(١) يعتقد بعض علماء النفس النمو أن بداية نمو الحالة الانفعالية لدى الإنسان تكون من ظهور حالة انفعالية غير واضحة في أول أمرها، ويطلقون عليها اسم التهيج أو عدم الارتياح، ويعتبرونه تهيجاً عاماً وغي منظم فالأطفال يتميز بحالة من التميز العام، ثم يتفرع منهما انفعالات متضادان هما الانشراح والضيق، وبعد ذلك كما يرون ينقسم كل منهما لانفعالات نوعية أكثر، فمن الانشراح تكون المحبة والبهجة، بينما تكون انفعالات الغضب والاشمئزاز من انفعال عام هو الحسرة، ثم تأخذ الانفعالات الآخر في الظهور بعد.

ثانياً: الانفعالات الخامدة أو الفاترة

وهي كما ذكرنا انفعالات تجعل الفرد خامداً في سلوكه، منكمشاً على نفسه حينما يواجه الموقف الانفعالي الحزين أو حين ينتابه الخوف، إذ يصبح الفرد المنفعل خائفاً أو حزيناً في حالة جمود وركود فيبطئ تفكيره وتجمد حركاته وترتعد فرائصه، أو حين تنتابه الرعشة، وتزول عن ملامح الوجه تعابير الفطنة واليقظة، ويظهر المنفعل الحزين أو الخوف كالشخص التائه، وقد يظهر فاقداً للتفكير مؤقتً لحظة خوفه أو حزنه العميق.

ولهذا فإنَّ نفراً من الخائفين، ومن استبد بهم طوق الحزن في دائرتهم يبقون تحت وهج انفعالي الخوف والحزن وكأن الخطر يداهمهم ولا يفارقهم، ويتهددهم كل حين بالخطف بلا رحمة، ولا يعني هذا أنه لا وجود لانفعالات خوف وحزن حقيقية، وإنما للأسف تنحرف بوصلتها تحت تأثير عوامل عصابية، وذات طابع مرضي، فتظهر أشكال منها كالخوف من قط أو الخوف من رؤية مكان عالٍ، أو حزن على فقد مبلغ مالي بنحو مبالغ فيه، ومع فإنَّ الخوف والحزن[1] ليسا دائمًا انفعالين سلبيين كما يذهب في ذلك بعض علماء النفس التحليلي والمرضي، فثمة إيجابيات ينطوي عليهما هذان النوعان من انفعالاتنا البشرية، بل حتى الخوف في طابعه المعتدل يشجع الفرد من الاستجابة

(١) هناك بالتأكيد أنماط من الخوف والحزن ذات طابع سوي، تمكن الأفراد من تكوين استجابات صحيحة، فخوفهم من الله عز وجل وحزنهم على مستوى أدائهم العبادي يحملهم على ممارسة عملية نقد ذاتي لأنفسهم، والخائفون من ربهم يمتنعون عن فعل الأفعال الإجرامية في السر والعلن، ويحملهم التفكير الصحيح على الشعور بالخطر متى أدركوا أنهم ما يزالوا مقصرين في انجازاتهم العبادية تجاه الله سبحانه وتعالى، وتجاه عوائلهم والناس مجتمعين، فالخوف والحزن يساعدهم على توليد مواقف عمل تقدمية تزيد من حركتهم بإيجابية، وصناعة مستقبل أفضل، فالأمن والحزن محاولة لتأمين مستقبل مأمون، فهم حريصون على الاستمرار في تطوير أعمالهم العبادية والبلوغ بها للمستويات التي يرونها أكثر قرباً من الله، وأكثر ظهوراً في التعبير عن إمكانياتهم في خدمة أنفسهم والمجتمع وعامة الأفراد المحيطين بهم.

لفعل معين كهرب الفرد التي هي في نهايتها استجابة لنجاته على سبيل المثال، وطلب الحماية من خطر قاب قوسين أو أدنى، وبالتالي يدفع عن نفسه البلاء.

***

الانفعالات في نصوص الإمام الحسن عليه السلام :

وقد تسللت الثقافة الانفعالية بمختلف تشكيلاتها وأنواعها في مصادر ثقافية بشرية ودينية وفلسفية على امتداد التاريخ الإنساني، فلا يخلو مصدر من الإشارة إليها إجمالاً وتفصيلاً، فالحياة الانفعالية جزء من تكويننا الثقافي الإنساني، ولا يمكن إهمالها لا في مصدر ثقافي ولا دهاليز تاريخ او حياة شعب أو تجربة بشرية، ولا في نشاط عملي هنا وهناك.

وكانت إشارات الإمام الحسن عليه السلام إحدى مظاهر تراثه الثقافي والروحي والأخلاقي، وقد أشار عليه السلام في عدد من نصوصه التوجيهية إلى أنماط متنوعة من الانفعالات النفسية، وأنه أتى على ذكر هذه الأنماط من وحي علمه وخبرته بالنفس الإنسانية ومساربها، ومن تجارب حياته الشخصية في مجالاتها المختلفة، ومن تربيته الخاصة، فقد ذكر عليه السلام انفعالات الحب والحنو والفرح والسرور والغضب، وانفعالات الحزن والخوف والبكاء وغيرها، حيث جاءت في كلمات في خطاب روحي حيناً، أو في جمل أو مقاطع لغوية من نصوص قصيرة، وبيَّن فيها دور الانفعالات في تسيير الحياة الشخصية للفرد بصرف النظر عن نوعه وجنسه وبيئته والعوامل المؤثرة في نموه خلال مراحل من عمره.

***

مصطلح الانفعال في دعاء القنوت:

مصطلح «الانفعال» شائع في مصادر العلوم الإنسانية لاسيما في كتب علم النفس ودراساته المتعددة، وهو لفظ علمي متداول منذ تاريخ بعيد للدلالة على مفهوم محدد في ثقافتنا وفي ثقافتنا السيكولوجية المعاصرة، وحاولنا تتبع ذكره في بعض المصادر الروائية الإسلامية التي حفظت تراث الإمام الحسن عليه السلام، لكننا لم نعثر عليه سوى في نص واحد هو «دعاء القنوت»، وأنه لم يأت ذكره إلاَّ مرة واحدة في هذا الدعاء، وقد اقتطعنا الكلمات التالية من الدعاء المذكور،قال الإمام الحسن بن علي عليهما السلام في دعائه المذكور مخاطباً الله عزَّ وجل: «**أنت المستعان، وعليك التوكل، وأنت وليُّ من توليت، لك الأمر كلّه، تشهد الانفعال وتعلم الاختلال**[1]».

ويعني أن الله سبحانه وتعالى يشهد بإرادته كخالق لهذا الوجود بكل مكوناته انفعال جميع مخلوقاته بخاصة الحية وتأثرها بغيرها، فالله سبحانه رب العباد شاهد على انفعال جميع الكائنات، وهو يشهد على تأثرها به، وبما خلق من مخلوقات، ويشهد سبحانه على انفعال الناس به سبحانه، وبأنفسهم، وبالمخلوقات الحية، ويعلم عزَّ وجل بما يجري في هذا العالم والروحي من اختلال وعدم تآزر الظواهر في عالم الإنسان، وعالم الكون المادي، وإذا صحَّ فهمنا للمحتوى العقلي للعبارة أو الجملة السابقة فإنَّ مدلول لفظ «الانفعال» أوسع من معناه المتداول في مصادر حياتنا الثقافية وبخاصة كتب علم النفس، فكل الكائنات لها انفعال خاص يشهد عليها رب العباد، ولكن انفعال الكائنات الحية تختلف عن انفعال الكائنات الجماد العجماوات، ونحن لا نشهد ولا ندرك سوى الانفعال لدى الكائن الحي الذي نتحسسه بأنفسنا، أمَّا رب العباد سبحانه فشهادته حاضرة عزَّ وجل في كل زمان ومكان على جميع مخلوقاته حيَّة وجامدة على حد سواء، ومن ثم فكلام الإمام الحسن باجتهادنا الشخصي يمتد للكائنات والمخلوقات

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٥٦، ص ١٠٥.

بلا استثناء.

***

نماذج من الانفعالات في نصوص الإمام الحسن وكلماته:

ونقسم هذه النصوص القليلة المختارة لنوعين من الانفعالات النفسية في موضوعات مختلفة كمعرفة الله سبحانه وتعالى ومحبته، وعبادته وطاعته وبث الهموم إليه والاستعانة به، والزهد في ملذات الدنيا، وكذلك في قضايا التعلم الإنساني وقضاء حاجات المؤمنين المعوزين والتهنئة للآخرين بمواليدهم الجدد والمزاح والمدح وتمييز الآراء في مواقف الغضب والهدوء، فاختلطت إشاراته عن الانفعالات بحديثه عن هذه القضايا، فالمعرفة الإنسانية متشابكة ومتداخلة كدليل على وحدة التوجيه الحسني وترابطه وترابط الشخصية كوحدة، وقد وضعنا خطوط تحت الألفاظ التي تدل على الحالات الانفعالية سواء كانت من الانفعالات الثائرة والنشطة أو من الانفعالات الخامدة أو غير النشطة.

***

والنوعان الأساسيان للانفعالات النفسية هما:

أولاً: الانفعالات الثائرة أو النشطة

١. انفعال الفرح والسرور

قال عليه السلام:

• وعن فوائد الاختلاط بالعلماء وما ينتج عنها من بروز بعض الانفعالات النفسية قال الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال**

لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسرَّه ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما لا يعلم، وإفادة لما تعلم[١]».

• وفي نص عن موقف تطبيقي قال الإمام الحسن السبط بن علي عندما: «أتاه رجل في حاجة» وطلب معونته فقال عليه السلام له: «**اذهب فاكتب حاجتك في رقعة**[٢]، **وارفعها إلينا نقضها لك**، فرفع إليه حاجته فأضعفها له، فقال بعض جلسائه: ما أعظم

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٥٣، وكتاب الروائع المختارة للسيد الموسوي، رقم الحديث ٤٥، ص ١٣٤.

(٢) قدر الإمام الحسن بن علي عليه السلام أن طلب الحاجة وقضاؤها مباشرة وبلغة صريحة وعلنية أمر في غاية الصعوبة بالنسبة لإنسان كريم في نفسه، ورأى الإمام الحسن أن هذا الطلب ينطوي على حالة من الذل يجرح مشاعر الإنسان ويحط من كرامته وبخاصة إذا كان أمام الملأ، وتقديراً للسائل أو طالب الحاجة وحفاظاً على كرامته وستراً لمعاناته الخصوصية طلب عليه السلام من السائل أن يكتب ما يريد من حاجته في رقعة ليكون طلبه مخفياً عن علم الناس وأخبارهم وتطاول ألسنتهم، بحيث لا يعلمه سوى الله والإمام وطالب الحاجة نفسه، فامتثل السائل لأمره عليه السلام، فكتب حاجته، وبقي الطلب بينهما لا يعلمه سوى الله سبحانه وتعالى، وبهذه الطريقة ستر الله سبحانه وتعالى بتصرف الإمام على الرجل الذي أتاه في حاجته وأسدل عليه باباً منيعاً، وكف ألسن الناس عن القيل والقال، وحجب تماماً أية فرصة للمن والتعيير، وعلَّمهم أدب حفظ كرامة الناس لبعضهم بعضاً، كما قلَّل الإمام الحسن عليه السلام من تحسس طالب الحاجة للمذلة، وما بذله من إراقة ماء وجهه، وهي بالتأكيد مشاعر ثقيلة على سيكولوجية السائلين والمحتاجين، ومن ثم فإنَّ استخدام «الرقعة» كوسيلة إخفاء معاملة حققت غاياتها بحجب نوع الطلب للأبد عن الحاضرين الجالسين، وإبقائه مخفياً بين الرجل والإمام، وهذا يجعل الإحساس بالذل الناجم عن إراقة ماء وجهه لا وجود له أو في مستوى الصفر أو على أقل تقدير ضعيفاً يتفهم فيه السائل إنسانيته، وكان توجيه الإمام عليه السلام باستخدام الرقعة كآلية إنما لإضفاء النزعة الإنسانية على فعلنا تجاه من يطلب معونة من غيره، ولرفع الحرج تعدّ نفسيته، وقد جعلها تتحسس الشعور بالكرامة بديلاً عن تحسس مشاعر المذلة التي هي كما عبَّر الإمام تعتبر أعظم على نفس الإنسان السائل من أي معروف يبذل له ردَّاً على طلبه.

بركة الرقعة عليه يا بن رسول الله؟ فقال عليه السلام: **بركتها علينا أعظم حين جعلنا للمعروف أهلاً، أما علمت أنَّ المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة، فأما أعطيته بعد مسألة فإنما أعطيته بما بذل لك من ماء وجهه، وعسى أن يكون بات ليله متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته، أبكآبة الرد أم بسرور النُّجح؟ فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق، فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**[١]».

- وسئل الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام: ما الموت الذي جهلوه؟ قال: «**أعظم سرور يرد على المؤمنين إذا نقلوا عن دار النكد إلى نعيم الأبد، وأعظم ثبور يرد على الكافرين إذا نقلوا عن جهنَّم إلى نار لا تبيد ولا تنفذ**[٢]».

- «**إذا ولد لأحدكم غلام فأتيتموه فقولوا له: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، بلغ الله به أشده، ورزقك برَّه**[٣]».

- وقال الإمام الحسن عليه السلام في خطبة معروفة ينتقد فيها على خصومه من أهل الكوفة: «**وأيَّم الله لا رأيتم فرحاً، ولا عدلاً أبداً مع ابن آكلة الأكباد وبني أمية، وليسوا منكم سوء العذاب حتى تتمنوا أن يليكم عبد حبشي مجدع، فأفٍّ لكم، وبعداً، وترحاً يا عبيد الدنيا وموالي الحطام**[٤]».

- وانتقد الإمام الحسن السبط بن علي عليه السلام في نص من كلماته القصار سلوك

---

(١) معالي السبطين، للشيخ مهدي المازندراني ص ١٩، وكتاب « كلمة الحسن « للسيد الشيرازي ص ٢٣١ – ٢٣٢

(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٥٣.

(٣) الموسوي، الروائع المختارة رقم الحديث ١٤، ص ١٢٨.

(٤) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٢٣، ص ٤٨.

بعض الناس في الإكثار من المزاح كأحد مظاهر السلوك الساخر، فقال عليه السلام في تصوير هذا السلوك غير المرغوب فيه وطرح في باطنه علاجه : «**المزاح يأكل الهيبة، وقد أكثر من الهيبة الصامت**[١]».

• وسأل الإمام الحسن الزكي بن علي عليه السلام رجل أن يكون صديقاً له وجليساً فقال عليه السلام له: «**إيَّاك أن تمدحني، فأنا أعلم بنفسي منك أو تكذبني، فإنه لا رأي لمكذوب، أو تغتاب عندي أحداً**[٢]».

***

٢. انفعال البكاء

خطب الإمام الحسن مباشرة بعد استشهاد والده أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يرثيه، فذكر فضل أبيه، وبعد أن أنهى خطبته: «خنقه البكاء، فبكى وبكى الناس معه[٣]»، وفي رواية أخرى لناقلها قوله عنه: «وخنقته العبرة، فبكى وبكى الناس معه[٤]» أي غطَّ الإنسان بدمعته وحبست العبرة صوته.

***

٣. انفعال الغضب

بالرغم من شيوع العلاقة بين الغضب والتغيرات النفسية والعقلية والجسمية للفرد في مصادرنا الروائية إلاَّ أننا لسوء الحظ لم نعثر على نصوص عن الغضب وتأثيراته

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٣٦، ص ١٣٣.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٢٤، ص ١٣٠.
(٣) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٨، ص ٢٠.
(٤) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٩٨.

سوى نص واحد تناقله صاحب البحار، ثم نقله علماء آخرون بعده، وفي هذا الصدد قال الإمام الحسن بن علي عليه السلام في نص قصير ودقيق عن انفعال الغضب: «**لا يعرف الرأي إلاَّ عند الغضب**[١]».

***

ثانياً: الانفعالات الخامدة أو الفاترة

١. انفعال الخوف

• وقال الإمام الحسن عليه السلام عندما جاء إليه: «رجل من الأثرياء، فقال: يا بن رسول الله إني أخاف من الموت، فقال عليه السلام له: **ذاك لأنَّك أخَّرت مالك، ولو قدمته لسرَّك أن تلحق به**[٢]».

• وقال عليه السلام: «**لا تأتِ رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله، أو تخاف يده، أو تستفيد من علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه**[٣]».

• ومر عليه السلام على ميت يراد دفنه فقال: «**إن أمراً هذا آخره، لحقيق بأن يزهدَ في أوله، وإنَّ أمراً هذا أوله لحقيق أن يخاف من آخره**[٤]».

***

انفعال الحزن

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٤٣، ميزان الحكمة، ج ٧، ٢٤٣ نقلًا عن بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١١٣.

(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٢٠، ص ١٢٩.

(٣) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ١٩٨، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، رقم الحديث ٣١، ص ١٣٢.

(٤) كلمة الحسن ص ٥٣.

• وقال الإمام الحسن عليه السلام: «**من عرف الله أحبَّه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا تفكر حزِن**[١]».

• وقوله في رجل أتاه لطلب حاجة رداً على سؤال أحد الجالسين معه: «**وعسى أن يكون بات ليله متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته، أبكآبة الرد أم بسرور النُّجح؟ فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق، فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**[٢]».

• وفي علاقة بين الله سبحانه وعبده الإنسان قال الإمام الحسن بن علي عليه السلام عن عملية بث هموم الإنسان وأحزانه لله تعالى وإبداء الفاقة له من خلال الأدعية: «**يا بن آدم: من مثلك وقد خلَّى ربّك بينه وبينك؟ متى شئت أن تدخل إليه، توضأت، وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا بوَّاباً، تشكو إليه همومك وفاقتك، وتطلب منه حوائجك، وتستعينه على أمورك**[٣]».

***

أولاً: جدولة نماذج من الانفعالات النشطة أو الثائرة في نصوص الإمام

النص	نوع الانفعال
«**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه، وسرَّه ما وجد من الزيادة في نفسه**»	السرور والفرح

(١) الموسوي، روائع المختارة، رقم الحديث ١٨، ص ١٢٩.

(٢) الشيخ مهدي المازندراني، معالي السبطين، ص ١٩، وكتاب «كلمة الحسن» للسيد الشيرازي ص ٢٣١ – ٢٣٢

(٣) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٤١، ٢٤٦.

وعسى أن يكون (رجل أتاه في حاجة) بات ليله متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته، أبكآبة الرد أم بسرور النُّجح؟ فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق.	السرور، ويضم النص نوعين من الانفعالات الفاترة الخامدة (الكآبة أو الحزن أو الخوف)
شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، بلغ الله به أشده، ورزقك برَّه	الفرح بمولود
وقال الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «**المزاح يأكل الهيبة، وقد أكثر من الهيبة الصامت**».	المزاح نمط من الفرح والسخرية وأثره على وقار الشخص وهيبته
وسأله الإمام رجل أن يكون صديقاً له فقال له: «**إيَّاك أن تمدحني، فأنا أعلم بنفسي منك، فإنه لا رأي لمكذوب**».	المدح (الفرح)
خطب الإمام في فضل أبيه أمير المؤمنين بعد استشهاده، وبعد أن أنهى خطبته: «ثم خنقه البكاء، فبكى وبكى الناس معه»، وفي نص «خنقته العبرة».	انفعال البكاء
وقال عليه السلام: «**لا يعرف الرأي إلاَّ عند الغضب**»	انفعال الغضب

***

ثانياً: جدولة نماذج من الانفعالات الخامدة أو الفاترة في نصوص الإمام.

النص	نوع الانفعال
«**فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق**».	الخوف

«لا تـأتِ رجـلاً إلاَّ أن ترجو نواله، أو تخاف يـده، أو تستفيد من علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه».	الخوف
ومر عليه السلام على ميت يراد دفنه فقال: «إن أمراً هذا آخره، لحقيق بأن يزهدَ في أوله، وإنَّ أمراً هذا أوله لحقيق أن يخاف من آخره».	الخوف
«والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا تفكر حزِن».	الحزن
«يا بن آدم: من مثلك وقد خلَّى ربّك بينه وبينك؟ متى شئت أن تدخل إليه، توضأت، وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا بوَّاباً، تشكو إليه همومك وفاقتك، وتطلب منه حوائجك، وتستعينه على أمورك».	الهم والحزن
«وعسى أن يكون (رجل أتاه في حاجة) بات ليله متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته، أبكآبة الرد أم بسرور النُّجح»؟.	الحزن والسرور

***

تحليل عام للنصوص السابقة

تتكون عملية التحليل من خطوتين هما:

١. تسجيل ملاحظات على هذه النصوص الكريمة.

٢. تفسير المادة الثقافة والمعرفية ومعالجتها.

أولاً: ملاحظاتنا العامة على النصوص

سجلنا على المحتوى المعرفي العام للنصوص التي أخذناها من المصادر الروائية

لتراث الإمام الحسن الثقافي والأخلاقي بعض الملاحظات، وهي كما يأتي:

١. تمثيل هذه النصوص للنوعين الأساسيين سواء من الانفعالات الثائرة أو الخامدة على حد سواء، وقد تفرع عن كليهما انفعالات فرعية بنحو يتوافق مع ما عثرنا عليه من نصوص في انفعالات القسمين.

٢. أن أغلب انفعالاتنا في قائمة الانفعالات النفسية المشار إليها هي في عالم دنيانا القصير، بيد أن بعضها يمتد لعالمنا الآخر بعد مماتنا وفراقنا لهذه الدنيا، وذلك انسجاماً مع نظرة المسلم للدنيا والآخرة وامتدادهما مع بعضهما كزمان واحد، كقوله عليه السلام: «**أعظم سرور يرد على المؤمنين إذا نقلوا عن دار النكد إلى نعيم الأبد، وأعظم ثبور يرد على الكافرين إذا نقلوا عن جهنَّم إلى نار لا تبيد ولا تنفذ**[1]».

٣. بعض النصوص الحسنية في موضوع الانفعالات قد تداخلت فيها مجموعة الانفعالات الفرعية، فاشتمل بعض هذه النصوص على نوع واحد كما في حديث الغضب وحديثه عن محبة الله والزهد، واشتمل بعضها الآخر على أكثر من انفعال من القسمين كما في حديث خوف الرجل الثري من الموت، وقد اجتمعت بعض الانفعالات الفرعية في نص واحد، وبلغت ثلاثة انفعالات متنوعة كما في نص الرقعة لرجل أتاه في حاجة فأمره عليه السلام بكتابة ما يحتاجه في رقعة، وهي أشبه بورقة استمارة بحث.

٤. تعكس بعض نصوص الإمام الحسن بن علي عن الانفعالات علاقة إيجابية أو سلبية مع التغيرات الجسمية المصاحبة لوقوع الانفعالات وحدوثها كما يشير إلى ذلك حديث الإمام الحسن بن علي عليهما السلام لرجل أتاه في حاجة فطلب منه أن يكتب حاجته في رقعة ويرفعها إليه، وفي بكائه عليه السلام وبكاء الناس في رثاء أبيه الإمام علي بعد استشهاده

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٥٣.

المفجع في اليوم الواحد والعشرين من رمضان سنة ٤٠ من الهجرة الشريفة.

٥. جسد أحد النصوص من نصوص الإمام الحسن بن علي وأقواله انفعالاً خاصاً به عليه أفضل الصلاة والسلام، بينما اختصت نصوص أخرى بانفعالات خاصة بالناس وأصحابه القريبين منه، وكان حديث «بكائه» هو المعني بذلك.

٦. تضمنت كل النصوص المتقدمة شروط الموقف الانفعالي التي تحدث عنها علماء النفس، وإذا ما طبقنا ذلك على النص الذي أشار لانفعال بكاء الإمام على سبيل المثال وجدنا هذه الشروط متوافرة، فتذكره لأبيه وذكر سيرته هو مثير هذا الانفعال، وهو الشرط الأول، وان عملية بكاء الإمام على أبيه وبكاء أصحابه الذين استمعوا إلى لخطبته هو الشرط الثاني الذي يتمثل في صدور الاستجابة السلوكية الطبيعية عنه، أما الشرط الثالث فهو الجهاز العصبي لدى الإمام وأصحابه، واستقبال هذا الجهاز للمثيرات وإرسالها في شكل استجابات سلوكية هي «بكاؤهم» قد صدرت عن الإمام نفسه والمقربين من حوله، ودور جهازهم العصبي في عملية الربط بين المثيرات والاستجابات ليتم تكوين حالة انفعالية ملحوظة وظاهرة في انفعال البكاء الذي قام به الإمام الحسن ومن تأثر بموقفه الانفعالي.

٧. وفي مجموعة هذه النصوص عن الانفعالات النفسية ربط الإمام الحسن الزكي ابن علي عليه السلام الانفعالات التي ذكرها بأهداف عبادية توخاها عليه السلام في دنياه من أجل نيل رضا الله سبحانه وتعالى في جعل كل أنماط السلوك لدى المسلمين بهدف عبادي يتحقق برضا الله وطاعته، فليست هذه النصوص وسواها ليست سوى أداة لتحقيق هذا الهدف العبادي الرئيسي المرجو.

***

ثانياً: تفسير المادة الثقافية والمعرفية للنصوص

فضلاً عن إلى الملاحظات السابقة تتناول المادة الثقافية والمعرفية للنصوص التي قالها الإمام الحسن بن علي في موضوع الانفعالات ثلاث قضايا هي على النحو التالي:

١. فوائد الانفعالات في حياة الأفراد.

٢. العلاقة بين الانفعالات والتغيرات الجسدية.

٣. قياس السلوك الانفعالي.

***

١. فوائد الانفعال على نفسية بعض الأفراد

يُولِّد «الانفعال» لدى الكائن الحي كما في حالة الغضب حالة من التهيؤ للدفاع عن نفسه والتصدي لأي خطر يداهمه ليحمي نفسه منه، ويولد لديه حماسة لحفظ الذات والدفاع عن أهله ومجتمعه وعن الوطن والأمة، ويتمكن الفرد بتعرضه اليومي للانفعال لطلاقة لفظية تعينه على تنمية قدرته على التخاطب مع الآخرين، وفي بعض الانفعالات كالفرح يزداد خياله خصوبة، وتتدفق المعاني العقلية والأفكار بتنشيط عملية التفكير، أما انفعال السرور فيدفع الأفراد نحو العمل وتنشيط الحركة فيه، كما يعينه بعض الانفعالات إذا وعى فائدتها في ضبط نفسه والتحكم فيها والتغلب على أي سلوك بدائي غير مناسب لأخلاقياته، ويهيئ نفسه لتقبل بعض الأفكار الناقدة ومراجعتها والاستفادة منها، بل وتجنب الأمراض الناشئة عن الانفعالات الشديدة، كما تكون بعض الانفعالات محفزاً على مزيد من التعلم.

ويلحظ أن الفوائد لها دور وقائي، ودور آخر علاجي، وقد استنتجنا ذلك من

نصوص قدمها الإمام الحسن عليه السلام.

أولاً: الدور الوقائي

ويتمثل في عدة فوائد عدة نذكر منها بعض نماذج التأثير الوقائي لبعض الانفعالات التي ذكرها الإمام الحسن بن علي في أقواله ونصوصه، وهي متنوعة تهتم بحفظ الذات والدفاع عنها أو زيادة خبراتها وصقل إمكانياتها وإثبات قدرتها.

ومن فوائدها الوقائية – على سبيل المثال – ما يأتي:

١. دفع الإنسان الخطر عن ذاته من بطش بعض الناس ولاسيما الظالمين منهم وقسوتهم، وتجنب إيذاءهم، فيستخدم خوفه منهم لاتقاء خطرهم، يقول الإمام الحسن: «**لا تأت رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله أو تخاف يده، أو تستفيد من علمه، أو ترجو بركة دعائه، أو تصل رحماً بينك وبينه**[١]»، فالخوف من إيذاء هذا الرجل أو قسوة ذاك انفعال يحمل بعض الناس على الاتصال به اتقاء خطره وتجنب إيذاءه قبل أن يأكله بمظالم لا أول لها ولا آخر.

٢. تحويل الفرد بعض انفعالاته إلى أنماط عبادية وسوية من السلوك كتحويل حزنه إلى تفكير ومعرفة بنتيجة عمله ومتابعة أدائه، وممارسة عملية نقد ذاتي لسلوكه وفكره، وتحسسه بخوف طبيعي على مستقبله بخاصة فيما بعد الدنيا، أي يتحول الحزن والخوف إلى مواقف تفكير جادة يتم بها تعديل السلوك نحو الأفضل بما يتوافق مع محددات النظرة العبادية الإسلامية، وتعيد الأمور الخاطئة إلى نصابها الصحيح، يقول: «**والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا تفكر حزن**[٢]» لكنه حزن طبيعي ومنطقي، فالإنسان

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٣١، ص ١٣٢.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ١٨، ص ١٢٩.

بعد أن يتفكر في نفسه ويرى حالها يحزن على واقعها الذي لم يبلغ به الهدف فينتابه شعور بالتقصير في عمله، ويترتب عنه حزن الصادقين ورغبته في تعديل سلوكه باستمرار، كما أن خوف الفرد من رجل يأتيه هو نموذج آخر لتحويل مشاعر الخوف إلى قوة طبيعية لحماية للذات والدفاع عنها فقال: «**لا تأت رجلاً إلاَّ أن ترجو نواله أو تخاف يده**»، وفي قوله عليه السلام لرجل جاءه يبث حزنه وخوفه من الموت فقال له راجياً تعديل سلوكه في استخدام المال بما يرضي الله سبحانه: «ذاك لأنَّك أخَّرت مالك، ولو قدمته لسَّرك أن تلتحق به[1]».

٣. توظيف الانفعالات ذات الطبيعة الإيجابية كالسرور والفرح في إحداث تعلم جديد، وتتابع اكتساب خبراته، وفي تغيير سيكولوجية الفرد وتحسين سلوك الذات، وترتيب أمرها من مشاهدات يمكنها الاعتبار منها، وفي هذا الصدد نشير لحديث قاله الإمام يشجع الناس على مجالسة العلماء وحضور مجالسهم: «**من أكثر من مجالسة العلماء أطلق عقال لسانه، وفتق ما رتق من ذهنه**» ثم قال استكمالاً لما تقدم: «**وسرَّه ما وجد من الزيادة في نفسه**[2]»، ففي المقطع الأخير من النص المتقدم تأكيد من الإمام الحسن بن على العلاقة بين الانفعال ممثلاً في انفعال «السرور» وتحسين التعلم وتطويره، فنجاح الفرد في تعلم خبراته في مجالي القدرات اللغوية، والقدرات العقلية يعقبه حالة وجدانية مليئة بالسرور، والفرح، والسعادة، وهذا محفز هام في العملية التعليمية – التعلمية، ويُوِّلد مشاعر الثقة بالتأكيد لدى الفرد، والطمأنينة على مستقبله العلمي والمهني، والاستمرار في كسب المزيد من الخبرات التعليمية، فحالة السرور الناجمة عن نجاح تعلم الفرد يخلق فاعلية في نفسية الإنسان، فيركز جهوده في حاضره ومستقبله

(١) الموسوي ن الروائع المختارة، رقم الحديث ٢٠، ص ١٢٩.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٥، ص ١٣٤.

على تحقيق هدف معين والعمل على الوصول إليه.

***

ثانياً: الدور العلاجي

وكما للانفعال في النص الحسني بعض النماذج على أدوار وقائية فإنها كذلك تؤدي أدواراً علاجية تدخل تحسيناً على الصحة النفسية والعقلية للأفراد، وتؤدي إلى مراجعة السلوك الخاطئ وتعديله بما يؤدي تحقق الأهداف العبادية كما دلت على ذلك مضامين بعض النصوص والأقوال التي ينسبها الرواة للإمام الحسن بن علي عليهما السلام.

ومن النماذج الملحوظة في النص الحسني في مجال «الدور العلاجي «باستخدام السلوك لانفعالي عند الإمام الحسن ما يأتي:

١. التعبير عن هموم النفس، ومع أن المهمة قد تكون وقائية في بعض الأحيان إلاّ أن لها دور علاجي في تحسين الداخل النفسي للفرد، وتغيير واقع السيكولوجي إلى ما هو أفضل، وتحقيق بعض الاشباع لحاجاته، والاستعانة بقدرته لتحقيق أموره، ويمكننا أن نجد في أحد نصوص الإمام الحسن مثلاً على هذا الدور المزدوج وبخاصة الدور العلاجي، إذ قال الإمام الحسن عليه السلام: «**يا بن آدم: من مثلك وقد خلّى ربّك بينه وبينك؟ متى شئت أن تدخل إليه، توضأت، وقمت بين يديه، ولم يجعل بينك وبينه حجاباً ولا بوّاباً، تشكو إليه همومك وفاقتك، وتطلب منه حوائجك، وتستعينه على أمورك**[1]»، فالهموم قد تكون أحزاناً، وكآبات، والفاقة هو عجز الإنسان وحاجته، وقد تأخذ معنى مادياً، وقد تأخذ أحياناً معنى الحاجة للمعونة النفسية والفكرية كالمشورة وتقديم طرائق علاج نفسي لتعديل السلوك الخاطئ، ويستطيع الفرد المؤمن بالدعاء والانفتاح على ربه

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٤١، ٢٤٦.

في أشكال مختلفة من العبادات لتأمين هذا الدعم وتفريج الهموم، وتفريغ ما في النفس من متاعب وأحزان ونكبات وأحاسيس ضغط تجثم على كيان الإنسان وعواطفه.

٢. تقدم بعض نصوص الإمام وأقواله عليه السلام معالجة لحل حالات الصراع النفسي كما في حديث «الرقعة» لطالب الحاجة، وعرض الحديث أكثر من حالة صراع نفسي، وهو موقف سلوكي برزت فيه بعض الانفعالات، وكانت غايته عليه السلام أن يدرك الناس مواقف الصراع في الحياة السيكولوجية لآخرين، فيعينونهم على حل مواقف الصراع قبل وقوعها، ومعالجتها بعد أن تقع في النفوس، وفي هذا النص ثلاث حالات صراع داخلي وقدم الإمام الحسن تشخيصه للحالات الثلاث، وطالب معالجتها بالتكرم وتقديم المعروف وتغيير الواقع السيكولوجي لطالبي الحاجات وقضائها بالمعروف، ومع ذلك وجد الإمام الحسن أن ما عانه هؤلاء المحتاجون من تدافع نفسي بين يأس وأمل، ومعاناة المذلة، وحيرة تائهة هي أعظم من المعروف المقدم لهم، حيث قال: «**فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**»، لذلك اقترح على رجل أتاه في حاجة أن يسجل حاجته في رقعة أو استمارة لقضائها بدون مذلة.

٣. ومن النصوص التوجيهية التي يتجلى فيها الدور الوقائي والعلاجي على حد سواء ما قاله الإمام الحسن بن علي: «**المزاح يأكل الهيبة، وقد أكثر من الهيبة الصامت**[1]»، وكان غرض هذا التوجيه مزدوجاً، فتوصيته الإرشادية بأن لا تكثر من المزاح لأنه يحط من شأن الشخص ووقاره ويقلل من هيبته، وبالتأكيد ليس غرض هذا النص الحث على الإلغاء التام لهذا النمط من السلوك مادام في دوائره الصحيحة

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٣٦، ص ١٣٣.

التي تراعي قواعد المشرع التربوي الإسلامي، ولتعزيز القيمة التربوية لهذا التوجيه عرض في أثنائه نموذجاً للشخص الوقور وهو الصامت الذي يكثر من الهيبة، ووقاره بصمته، لكن أمور الناس لا تنتظم دائماً على هذه الوتيرة، حيث يميل كثير منهم للمزاح والإكثار منه، ودون التزام بمحددات إيمانية ولا بضوابط شرعية، ويسبب الإغراق في هذا السلوك مشكلة سلوكية اجتماعية أراد المشرع التربوي الإسلامي من خلال هذا التوجيه أن يعالجها بخطوات متتابعة.

أ. تعرض الإمام الحسن الزكي بن علي عليه السلام في الخطوة الأولى بالنقد لهذا السلوك سواء كان شخصياً كان أو اجتماعيا، والدعوة إلى التقليل من كثرة المزاح بخاصة حينما يكون غير منضبط بالقواعد الشرعية في الخطاب مع الآخر، وفي إدارة العلاقة معه، وهذه الخطوة ضرورية حتى يكون الفرد على وعي بمخاطر هذا السلوك وتجنبه، بل والقيام بمهام إعادة تدريبه على الصمت كسلوك عبادي مرغوب من أجل استرداد وقاره الاجتماعي وهيبته المفقودة.

ب. وفي الخطوة الثانية يحدد الإمام الحسن بن علي عليه السلام نتيجة لإغراق النفس في مزاح يلحق الضرر بالذات والآخرين، فالنتيجة المتوقعة من إكثار بعض الناس لمزاحهم بصورة غير سوية سقوط هيبة المرء، وتداعي وقاره الاجتماعي، واعتباره شخصاً ساقط الهيبة، يخلط الحق بالباطل، والجد بالهزل، فلا يتبين له عند الناس قدر من الحشمة والثقة به، وهي نتيجة خطرة ضد المكانة الاجتماعية للفرد حينما يصبح في موضع غير موثوق به وغير جدير بالاحترام.

ج. أمَّا ثالث خطوة في هذا التوجيه الإرشادي فيرتكز على عرض نموذج تطبيقي لمعالجة هذا السلوك المرضي أن يكفوا عن هذا السلوك، وأن يتعلموا فن الصمت، فقد

أكثر من الهيبة الصامت على حد قوله، وتقوم هذه الطريقة العلاجية لهذا السلوك في توصية الإمام الحسن الإرشادية على استخدام طريقة العلاج بالضد[1]، وهي طريقة تحاول علاج سلوك خاطئ متعلم من بيئة غير سوية كالرذائل أو الذنوب وغيرها بسلوك سوي مضاد يرتضيه المشرع التربوي الإسلامي، وبالتالي فإن توصيته الإرشادية بالتغلب على مشكلة كثرة المزاح بالصمت هم نموذج للطريقة العلاجية بأضداد السلوك، وذلك ليحتفظ الفرد بوقاره الاجتماعي وحسن الظن به، والنظر إلى مكانته الاجتماعية بعين الاعتبار والتقدير، فالصمت هو السمة المقابلة للسلوك المنبوذ، ونقصد إكثار بعض الناس من «المزاح» بصورة مرضية.

٤. وفي نموذج رابع يبين العلاقة بين (التفكير وانفعال الغضب) عالج النظرة الخاطئة عن دور الغضب في تدمير التفكير والاخلال بنشاطه ومساره في التوجيه، فمن هذا الانفعال أنه يثير حمية الفرد وتزداد حماسته وتنشط الحركة، وتزداد لغته طلاقة، وتقوى لدى الفرد قوة الإرادة والتصميم على التحدي ومواجهة الأحداث والأشياء، ولكن من جهة ثانية يؤثر سلبياً على التفكير وعملياته العقلية كتشويه الإدراك وتعطيل عمليات التذكر وتشتيت الفكر، وإضعاف قدرة الأفراد على ضبط النفس، واللجوء إلى التدمير والصياح والتلفظ بالقول الفاحش الذي يأباه وقت هدوئه، ومن هنا فالغضب أحد الانفعالات الثائرة التي تدمر أخلاقيات المرء، وربما يدفعه إلى الأفعال الانتقامية الإجرامية المؤذية للآخرين، بل من الملحوظ أن الغاضب لا يستمع لأحد، ولا يقبل في لحظة غضبه بالحكمة ولا بالموضوعية في إصدار الأحكام، وفي حديث الإمام الحسن:

---

(١) يمكن للقارئ الكريم الاطلاع على تفاصيل هذه الطريقة العلاجية وأسسها، وشروطها في كتابنا « العلاج النفسي وتعديل السلوك الإنساني بطريقة الأضداد «.

«**لا يعرف الرأي إلاَّ عند الغضب**[١]»، ويبين النص علاقة التفكير بانفعال الغضب بنظرة مخالفة لمعتقدات كثير من الناس، ويبدو من ظاهر النص السابق أن الإمام الحسن يتجه بنتائج العلاقة بينهما في اتجاه مضاد للعلاقة السلبية بين التفكير وانفعال الغضب، إذ حدد عليه السلام أنه لا يعرف «الرأي» الجيد الحكيم إلاَّ في المواقف الغاضبة، فالإمام الحسن ابن علي يدرك كغيره من الناس أن الغضب انفعال مدمر، وتأثيراته سلبية على الإدراك والتذكر وتشتت التفكير وتقبل النقد وإصدار الأحكام الموضوعية، ولكنه عليه السلام يطالب الناس بقلب هذه العلاقة النشاز بعلاقة إيجابية مضادة تقوم على استثمار قوة هذا الانفعال على عمليات التفكير، وفي السيطرة على النفس، والتحكم في الإرادة وضبط الأعصاب لدراسة ما يراد التوصل إلى أفكار بشأنه، وأن يتعلم المرء كيف يتدرب على التكيف في الموقف الانفعالي لتوليد أفكار صحيحة، وأن يتعلم كل إنسان التحكم في الانفعالات وعدم الاستسلام للانفعال الشديدة لتسيطر عليه فتمحق العقل وعملياته الداخلية، فـ «الراي» الصحيح يتولد من لحظة انفعال نشط بقوة انفعال الغضب بصورة معتدلة، فيزيد خيال الإنسان خصوبة، ويشعر صاحبه بالتحدي، ويصمم على إنتاج أفكار مفيدة تحت تأثير زيادة الخيال وطلاقة اللغة، ولهيب الإحساس بالتحدي، فالرأي العقلي في هذه الأجواء لا ينشأ عقيماً، بل قد يكون رأياً سديداً ومبدعاً، وهذا بخلاف ما هو مألوف في حياة الناس عن التأثير التدميري لانفعال الغضب على مستوى التفكير وعملياته العقلية، ومجالات اجتماعية أخرى، وثمة احتمال للمفهوم العام لهذا النص وهو أن الرأي السديد يتمايز عن غيره وقت الغضب، ولا ينجز هذا الرأي إلاَّ عن طريق إنسان قادر على ضبط نفسه بالحلم والسيطرة على انفعال غضبه وإدارة نفسه بعيداً عن الموقف الغاضب.

---

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٤٣.

***

٢. الصلة بين الانفعال والتغيرات الجسدية لدى الأفراد

ذكرنا أن ثمة علاقة بين الانفعالات وتغيرات تصاحبها في جوانبها الثلاثة التي أشرنا إليها ومنها الجانب الجسدي، وقد أوضحت كلمات مبثوثة في نصوص الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام، وتدل على هذه العلاقة بين الحالات الانفعالية وما يطرأ على الجسد من تغيرات في داخله وفي سلوك الأفراد الخارجي، وسنضع أمام القارئ مقاطع من هذه النصوص لتأكيد الصلة بين الانفعالات والتغيرات الجسدية.

وقبل عرض نموذجين للعلاقة بين الانفعال والتغيرات الجسدية اخترناهما من نصوص الإمام الحسن بن علي وتراثه الفكري والأخلاقي، وتختزن علاقة بينهما نود أن نضع أمام القارئ الكريم ملاحظتين:

١. أن الانفعال النفسي يتجلى في سلوك جسدي ملحوظ كما يختنق المرء في بكائه أو في شكل علاقة بين الانفعال والتغيرات الداخلية في الجسم كالعلاقة بين الانفعال والتعلم أو والتفكير وغيرهما.

٢. أنَّ الانفعال النفسي قد لا يكون دائماً سلوكاً ظاهرياً أمام طرف آخر كما في طلب صاحب الرقعة حينما قال الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام: «**فإذا أعطيته بعد مسألة** (أي قضاء حاجته بعد عرض حاجته) **فإنما أعطيته بما بذل لك من ماء وجهه، وعسى أن يكون بات ليله متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته، أبكآبة الرد أم بسرور النُّجح؟ فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق، فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**[1]»

(١) الشيخ المازندراني، معالي السبطين، للشيخ مهدي ص ١٩، وكتاب « كلمة الحسن « للسيد

أو يكون غير ظاهر كقوله عليه أفضل الصلاة والسلام في العلاقة بين التعلم الجيد وما يصاحبه من انفعال الفرح والسرور: «وسرَّه ما وجد من الزيادة في نفسه» فالسرور انفعال حدث كاستجابة سلوكية بعد ما حقق الفرد تعلم جيداً، ونجح في تعلمه وإتقانه للخبرات التربوية، فكانت نتيجة ذلك التوفيق، وما يسر قلب الفرد ويسعده، وليس من الضروري أن تظهر ابتسامته كل حين، ويكفي إظهار سعادته الداخلية التي تعبر عن سروره الذاتي بهذا النجاح في حركة جسمية أو إيماءة بدنية.

ولنتأمل المقاطع التالية:

الموقف الأول:

العلاقة بين انفعالي الحزن والسرور والتغيرات الجسدية

يعكس أحد النصين علاقة الحالة النفسية لطالب الحاجة وانفعالاتها من حزن وسرور بالتغيرات الجسدية المرتبطة بها، فقد أراق ماء وجهه، وشعر بالمذلة لقضاء حاجته، وربما كما قال الإمام عليه السلام قد بات ليله متململاً،وقلقاً أرقاً، وتتأرجح مشاعره الداخلية بين يأس من العطاء وأمل في نيله والحصول عليه، كما كشف النص عن حيرة واضحة في قصد طالب الحاجة للجهة التي يمكنها قضاء حاجته، بل وتتخاطر في ذهنه فكرتان تتصارعان في داخل نفسه، وهما مستمدتان من ردود فعل الناس المتوقعة في مواجهة طلبه قضاء حاجته، فهو لا يعلم برد الناس.. أبكابة الرد على حد تعبير الإمام الزكي، وهو رد سلبي يمكن أن يواجهه، أم بحصول استجابة ناجحة تملأ قلبه سروراً وسعادة أسماها الإمام: «سرور النُّجْح»، وفي النص المتقدم مشهدان.. في المشهد الأول وصف فيه الإمام الحسن عليه السلام طالب الحاجة بحالة نفسية أراق فيها ماء وجهه، وبات

الشيرازي ص ٢٣١ – ٢٣٢

ليله متململاً، قلقاً، أرقاً، حائراً، حزيناً، ويعيش في داخله صراع بين استجابة كئيبة أو استجابة ناجحة بقدر معيَّن، وتنازع في نفسه بين يأس وأمل، وقد يكتوي بناره لمرحلة ظهور استجابة الرد، أما المشهد الثاني من النص فيكشف عن علاقة واضحة بين حالته النفسية وبخاصة كآبته وحزنه وخوفه على رزقه ومن رد طلبه وما يحدث من تغيرات جسدية عبرت عنها كلمات الإمام بقوله: «**فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق**»، إذ ربط الإمام الحالة النفسية الموصوفة في المشهد الأول بالتغيرات الجسدية المصاحبة لانفعالات طالب الحاجة من حزن وكآبة ويأس وحيرة وصراع نفسي وأمل وسرور متوقع، فالكلمات التي تصف التغيرات الجسدية المتقدمة من رعشة في اليدين وزيادة في دقات القلب، وتغير في نبرة الصوت، وهذه التغيرات الجسدية مصاحبة لانفعالات كالحزن والكآبة والخوف، وقد تركت أثرها فكانت التغيرات الجسدية المذكورة، بل تنتابه كما وصف الإمام الحسن إحساسات مذلة لطالب الحاجة وصفها عليه السلام بأنها أعظم مما ناله من معروف الناس، فقال: «**فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**»، أمَّا حالة السرور فمرتبطة بتحصيل ما أسماه الإمام الحسن بالمعروف، أو قضاء الحاجة له مهما كان شكلها حتى وإن لم تعادل ما ناله من إراقة ماء وجهه.

***

الموقف الثاني:

العلاقة بين انفعال البكاء واحتباس مؤقت لصوت الإنسان

أما ما جاء في خاتمة خطبة للإمام الحسن عقب استشهاد أبيه وذكر أبيه وتذكر فضله انتحب الإمام لأجله وأبكى الناس من حوله حتى قال ناقل الخطبة: «ثم خنقه

البكاء فبكى، وبكى الناس معه»، فهذا المقطع من نهاية خطبته عبَّر عن انفعال طبيعي في السلوك الإنساني، فالبكاء سلوك فطري، وقد أقرب إلى التحقق حينما يغيب قريب وبخاصة إذا في مثل الإمام علي عن الدنيا ويرحل إلى بارئه سبحانه، ويتفاوت الناس بالتأكيد في نحيبهم لأغراض عديدة لسنا في محل مناقشتها، ولكن بعضهم منهم يشتد بكاؤه حتى تخنقه عبرته كانفعال نفسي فيؤدي إلى تغير في الصوت كاحتباسه أو انخفاض نبرته أو صعوبة النطق لحظة الانفعال الشديد، وكذلك بروز تعابير جسمية بتأثير الانفعال المذكور على ملامح الوجه كالحزن، والتجهم حتى لو كان راضياً بقدر الله وقضاؤه، وهمل دموع العين على وجنات وجه الفرد الحزين وأماكن من الوجه، ويدل المشهد الانفعالي كله على إمكانية ربط هذا التغير الانفعالي بتغيرات جسدية مصاحبة لها، وكذلك إمكانية قياس شدة مستوى الانفعال، وهنا انفعال البكاء، من بعض التعبيرات اللفظية كقوله ناقل الخطبة: «ثم خنقه البكاء» للإشارة على شدة الانفعال وقوة تأثيره سواء من ملاحظة بكاء الآخرين وملاحظة ذلك في تعبير وجوههم ونبرات أصواتهم، ونحيبهم الحزين، وإضافة إلى ذلك فإن الإمام كان يصف عملياً وبسلوكه حالته الانفعالية وهو يذكر والده في موقف انفعالي مؤثر وشديد القوة، وخلاصة القول إنَّ البكاء كأي انفعال إنساني يترك أثره في داخل الفرد وفي شكل تغيرات جسدية تبدو في جريان دموع الفرد من مقلتي عينيه، وفي تعابير وجهه، واحتباس مؤقت لصوته أو ضعف في النطق، أو تغير في نبرات الصوت، ويظل حتى يتم التخلص من انفعال البكاء وحدته وتأثيره الوجداني بصورة تدريجية، وعودة الإنسان إلى وضعه الانفعالي الطبيعي

***

٣. كيف يمكن التعرف على الانفعالات وقياسها

ليست مهمة الإمام الحسن كقائد للمسلمين ومرشد ديني أن يتحدث عن أدوات قياس للانفعالات النفسية، ولكن ثمة أدوات مألوفة في حياة الناس منذ تاريخ طويل في مسيرتهم الاجتماعية يمكن الاستفادة منها أو تساعدهم على استخدامهم في التعرف على بعض الانفعالات الظاهرة أمام أعينهم أو القريبة من أدوات فحصهم للسلوك الانفعالي.

وبالتأمل في التراث الثقافي والروحي للإمام الحسن والتركيز في مشاهد من مادته المعرفية وقفنا على بعض الأدوات التي تعين الأفراد على معرفة الانفعالات النفسية التي تواجههم في حياتهم اليومية التي ألفوها.

ومن تلك الأدوات.

١. الملاحظة الظاهرية كسماع صراخ فرد أو رؤيتنا لتعبيرات خارجية على وجه إنسان تدل على غضبه أو خوفه أو ارتعاش فرائصه، فهنا بالنسبة للفرد المشاهد يتم مشاهدة مباشرة لموقف انفعالي بأدوات الحس المادية المتوافرة بأيدي الناس، وهذه الظاهرة العلمية بطابعها التاريخي الطويل تمكننا كأفراد من قياس مقبول لحد ما للانفعال ومعرفة نوعه، وشدته وبخاصة في المواقف الانفعالية التي يشاهدها الناس في حركة حياتهم الاجتماعية اليومية ومن خلال تفاعلهم مع بعضهم، وهذا ما كان بعض علماء النفس يسمونه بطريقة «ملاحظة السلوك الانفعالي» في مواقف تثير الانفعالات حتى وإن ظهرت فيها بعض الفروق الفردية في طرائق تعبير الناس عن انفعالاتهم لتجعلهم متمايزين إلى حد ما في استجاباتهم الانفعالية، وينبغي أن ترتكز هذه الطريقة على مراقبة هيئة الجسد كملامح الوجه وتعبيراته، وحركات اليدين، ونبرات الصوت، ودموع العينين وغيرها، وهناك في تراث الإمام الحسن إشارات على اعتماد هذه الطريقة

في فهم المواقف الانفعالية وتفسيرها كقوله عليه السلام في رجل أتاه لطلب حاجة رداً على سؤال أحد الجالسين معه: «**وعسى أن يكون بات ليله متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته، أبكآبة الرد أم بسرور النُّجح؟ فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق، فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**[1]»، وما آل إليه أمره ومن استمع لخطبته بعد تذكر أبيه وفضله في حادثة استشهاده، حيث بكاه وخنقته عبرته وبكى الناس معه[2]، وفي كلمات مماثلة استبدل الراوي كلمة «عبرته» باستخدام لفظ «العبرة»، فقال الراوي في التعبير عن الحالة الرثائية ذاتها: «ثم خنقته العبرة فبكى، وبكى الناس معه[3]»، وفي هذا الموقف الانفعالي امتزج الحزن بالبكاء فغصَّ الإمام الحسن عليه السلام بدمعته وسالت من مقلتي عينيه فترك ذلك أثراً في حباله الصوتية فانعكست واضحة في نبرة الصوت وفي تجهم وجهه الكريم، وفي زمن الإمام الحسن عليه السلام لا توجد بالأكيد أجهزة لقياس الحالات الفسيولوجية والكشف عن الانفعالات الداخلية المرتبطة بها، لهذا اكتفى الناس بملاحظة التغيرات الجسدية ومراقبتها مثل النظر لملامح الوجه وتعبيراتها، وتحسس خفقان القلب وضرباته ودقاته التي تتسارع في اضطراب وعدم النظام، وكذلك عملية التنفس وارتعاش فرائص الفرد للتعبير عن خوفه وقلقه وهلعه، وتعبيرات الإمام الحسن في المقطع اللغوي المتقدم ما يؤكد ذلك، فكآبة الرد وسرور النجاح تعرف من ملامح الوجه، وارتعاد فرائص الفرد، ومعرفة خفقان قلب الفرد تدرك من خلال هيئة البدن وحركات اليدين وبعض أعضاء الجسم، ونبرة الصوت حدة وضعفاً، وخلاصة ما تقدمنا فالعلاقة بينة بين الانفعال

(١) الشيخ مهدي المازندراني، معالي السبطين ص ١٩، وكتاب « كلمة الحسن « للسيد الشيرازي ص ٢٣١ – ٢٣٢

(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٨، ص ٢٠.

(٣) الاربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٦٤.

وبعض التغيرات الجسدية سواء في داخل الفرد أو في خارج جسمه.

٢. وصف الشعور الذاتي، وهو إحساس خاص بالفرد نفسه، فيقوم الفرد بوصف أحاسيسه بنفسه من خلال مجموعة الأقوال التي يعبر فيها عن مواقفه الانفعالية التي مرَّت عليه في حياته الشخصية، وكانت هذه الطريقة تقليدية في تاريخهم الاجتماعي وتفاعلهم مع بعضهم، وهو أشبه بما يسميه علماء النفس بالاستبطان، فالفرد يستطيع – بكونه كائناً حياً – أقدر الناس على وصف حالته الانفعالية، وما يعانيه من ألم أو سرور أو حزن، فهو وحده يتحسس خفقان قلبه، ويشعر بضغط الألم الداخلي الذي يجثم عليه، ومع ذلك فتطور حياتهم جعل العلماء يضيفون إلى ذلك استخدام مقاييس لفظية، واستفتاءات لمعرفة استجابات الأفراد في المواقف الانفعالية وردود أفعالهم كحالات غضبهم وخوفهم، وغير ذلك .

٣. التحليل اللفظي، ومن خلال هذه الطريقة يتم معرفة انفعال شخص معين باستخدام اللغة التي ينطق بها، فكلماته تدل على مشاعر حزن أو خوف أو بكاء أو غضب أو سرور أو تدل على ارتباك أو استقرار وثبات عاطفي وسكينة نفسية، فيكون بعد ذلك متاحاً للقادرين على فهم كلام الناس تحليل ألفاظهم وفهم سلوكهم الانفعالي، وهذه الطريقة يقوم بها أفراد آخرون حتى في مواقف تفاعلهم الاجتماعي اليومي كمعرفة شخص من كلام آخر أنهم قد غضب عليه أو على ناس آخرين أو فرح من خبر سار باستخدام ألفاظها وتحليلها بطريقة سهلة وغير معقدة، فكما قال الإمام علي عليه السلام: «**الألفاظ قوالب المعاني**[1]».

دراسة محتوى النص، وهذه الدراسة التي بين يديك هي أحد مصادر معرفة

(١) محمدي، ري شهري، ميزان الحكمة، ج ٨ ص ٤٧٨.

السلوك الانفعالي في زمانه، ومع أنها لا تختلف كثيراً عن المواقف الانفعالية السائدة في عصرنا إلاَّ أنها مدخل لفهمها، ومعرفة أوجه التشابه والاختلاف، وما نفعله نحن في هذه المبحث من كتابنا هو مجرد محاولة لمعرفة دور النص الحسني في تعريفنا بالانفعالات النفسية وأنواعها، وقياسها، وعلاقة الانفعالات النفسية بالتغيرات الجسدية وتأثيراتها الايجابية والسلبية، وهو مظهر لقياس ما هو ظاهر من السلوك الانفعالي.

الموقف الأول:

العلاقة بين انفعالي الحزن والسرور والتغيرات الجسدية

يعكس أحد النصين علاقة الحالة النفسية لطالب الحاجة وانفعالاتها من حزن وسرور بالتغيرات الجسدية المرتبطة بها، فقد أراق ماء وجهه، وشعر بالمذلة لقضاء حاجته، وربما كما قال الإمام عليه السلام قد بات ليله متململاً،وقلقاً أرقاً، وتتأرجح مشاعره الداخلية بين يأس من العطاء وأمل في نيله والحصول عليه، كما كشف النص عن حيرة واضحة في قصد طالب الحاجة للجهة التي يمكنها قضاء حاجته، بل وتتخاطر في ذهنه فكرتان تتصارعان في داخل نفسه، وهما مستمدتان من ردود فعل الناس المتوقعة في مواجهة طلبه قضاء حاجته، فهو لا يعلم برد الناس.. أبكابة الرد على حد تعبير الإمام الزكي، وهو رد سلبي يمكن أن يواجهه، أم بحصول استجابة ناجحة تملأ قلبه سروراً وسعادة أسماها الإمام: «سرور النُّجْح»، وفي النص المتقدم مشهدان.. في المشهد الأول وصف فيه الإمام الحسن عليه السلام طالب الحاجة بحالة نفسية أراق فيها ماء وجهه، وبات ليله متململاً، قلقاً، أرقاً، حائراً، حزيناً، ويعيش في داخله صراع بين استجابة كئيبة أو استجابة ناجحة بقدر معيَّن، وتنازع في نفسه بين يأس وأمل، وقد يكتوي بناره لفترة ظهور استجابة الرد، أما المشهد الثاني من النص فيكشف عن علاقة واضحة بين حالته النفسية وبخاصة كآبته وحزنه وخوفه على رزقه ومن رد طلبه وما يحدث من تغيرات

جسدية عبرت عنها كلمات الإمام بقوله: «**فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق**»، حيث ربط الإمام الحالة النفسية الموصوفة في المشهد الأول بالتغيرات الجسدية المصاحبة لانفعالات طالب الحاجة من حزن وكآبة ويأس وحيرة وصراع نفسي وأمل وسرور متوقع، فالكلمات التي تصف التغيرات الجسدية المتقدمة من رعشة في اليدين وزيادة في دقات القلب، وتغير في نبرة الصوت، وهذه التغيرات الجسدية مصاحبة لانفعالات كالحزن والكآبة والخوف، وقد تركت أثرها فكانت التغيرات الجسدية المذكورة، بل تنتابه كما وصف الإمام الحسن إحساسات مذلة لطالب الحاجة وصفها عليه السلام بأنها أعظم مما ناله من معروف الناس، حيث قال: «**فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**»، أمَّا حالة السرور فمرتبطة بتحصيل ما أسماه الإمام الحسن بالمعروف، أو قضاء الحاجة له مهما كان شكلها حتى وإن لم تعادل ما ناله من إراقة ماء وجهه.

***

الموقف الثاني:

العلاقة بين انفعال البكاء واحتباس مؤقت لصوت الإنسان

أما ما جاء في خاتمة خطبة للإمام الحسن عقب استشهاد أبيه وذكر أبيه وتذكر فضله انتحب الإمام لأجله وأبكى الناس من حوله حتى قال ناقل الخطبة: «ثم خنقه البكاء فبكى، وبكى الناس معه»، فهذا المقطع من نهاية خطبته عبَّر عن انفعال طبيعي في السلوك الإنساني، فالبكاء سلوك فطري، وقد أقرب إلى التحقق حينما يغيب قريب وبخاصة إذا في مثل الإمام علي عن الدنيا ويرحل إلى بارئه سبحانه، ويتفاوت الناس بالتأكيد في نحيبهم لاعتبارات عديدة لسنا في محل مناقشتها، ولكن البعض منهم

يشتد بكاؤه حتى تخنقه عبرته كانفعال نفسي فيؤدي إلى تغير في الصوت كاحتباسه أو انخفاض نبرته أو صعوبة النطق لحظة الانفعال الشديد، وكذلك بروز تعابير جسمية بتأثير الانفعال المذكور على ملامح الوجه كالحزن، والتجهم حتى لو كان راضياً بقدر الله وقضاؤه، وهمل دموع العين على وجنات وجه الفرد الحزين وأماكن من الوجه، ويدل المشهد الانفعالي كله على إمكانية ربط هذا التغير الانفعالي بتغيرات جسدية مصاحبة لها، وكذلك إمكانية قياس شدة مستوى الانفعال، وهنا انفعال البكاء، من بعض التعبيرات اللفظية كقوله ناقل الخطبة: «ثم خنقه البكاء» للإشارة على شدة الانفعال وقوة تأثيره سواء من ملاحظة بكاء الآخرين وملاحظة ذلك في تعبير وجوههم ونبرات أصواتهم، ونحيبهم الحزين، وإضافة إلى ذلك فإن الإمام كان يصف عملياً وبسلوكه حالته الانفعالية وهو يذكر والده في موقف انفعالي مؤثر وشديد القوة، وخلاصة القول بأن البكاء كأي انفعال إنساني يترك أثره في داخل الفرد وفي شكل تغيرات جسدية تبدو في جريان دموع الفرد من مقلتي عينيه، وفي تعابير وجهه، واحتباس مؤقت لصوته أو ضعف في النطق، أو تغير في نبرات الصوت، ويظل حتى يتم التخلص من انفعال البكاء وحدته وتأثيره الوجداني بصورة تدريجية، وعودة الإنسان إلى وضعه الانفعالي الطبيعي

***

٤. كيف يمكن التعرف على الانفعالات وقياسها

ليست مهمة الإمام الحسن كقائد للمسلمين ومرشد ديني أن يتحدث عن أدوات قياس للانفعالات النفسية، ولكن ثمة أدوات مألوفة في حياة الناس منذ تاريخ طويل في مسيرتهم الاجتماعية يمكن الاستفادة منها أو تساعدهم على استخدامهم في التعرف على بعض الانفعالات الظاهرة أمام أعينهم أو القريبة من أدوات فحصهم للسلوك

الانفعالي.

وبالتأمل في التراث الثقافي والروحي للإمام الحسن والتركيز في مشاهد من مادته المعرفية وقفنا على بعض الأدوات التي تعين الأفراد على معرفة الانفعالات النفسية التي تواجههم في حياتهم اليومية التي ألفوها.

ومن تلك الأدوات.

١. الملاحظة الظاهرية كسماع صراخ فرد أو رؤيتنا لتعبيرات خارجية على وجه إنسان تدل على غضبه أو خوفه أو ارتعاش فرائصه، فهنا بالنسبة للفرد المشاهد يتم مشاهدة مباشرة لموقف انفعالي بأدوات الحس المادية المتوافرة بأيدي الناس، وهذه الظاهرة العلمية بطابعها التاريخي الطويل تمكننا كأفراد من قياس مقبول لحد ما للانفعال ومعرفة نوعه، وشدته وبخاصة في المواقف الانفعالية التي يشاهدها الناس في حركة حياتهم الاجتماعية اليومية ومن خلال تفاعلهم مع بعضهم، وهذا ما كان بعض علماء النفس يسمونه بطريقة «ملاحظة السلوك الانفعالي» في مواقف تثير الانفعالات حتى وإن ظهرت فيها بعض الفروق الفردية في طرائق تعبير الناس عن انفعالاتهم لتجعلهم متمايزين إلى حد ما في استجاباتهم الانفعالية، وينبغي أن ترتكز هذه الطريقة على مراقبة هيئة الجسد كملامح الوجه وتعبيراته، وحركات اليدين، ونبرات الصوت، ودموع العينين وغيرها، وهناك في تراث الإمام الحسن إشارات على اعتماد هذه الطريقة في فهم المواقف الانفعالية وتفسيرها كقوله عليه السلام في رجل أتاه لطلب حاجة رداً على سؤال أحد الجالسين معه: «**وعسى أن يكون بات ليله متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته، أبكآبة الرد أم بسرور النُّجح؟ فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق، فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم**

ممَّا نال من معروفك[١]»، وما آل إليه أمره ومن استمع لخطبته بعد تذكر أبيه وفضله في حادثة استشهاده، حيث بكاه وخنقته عبرته وبكى الناس معه[٢]، وفي كلمات مماثلة استبدل الراوي كلمة «عبرته» باستخدام لفظ «العبرة»، فقال الراوي في التعبير عن الحالة الرثائية ذاتها: «ثم خنقته العبرة فبكى، وبكى الناس معه[٣]»، وفي هذا الموقف الانفعالي امتزج الحزن بالبكاء فغصَّ الإمام الحسن عليه السلام بدمعته وسالت من مقلتي عينيه فترك ذلك أثراً في حباله الصوتية فانعكست واضحة في نبرة الصوت وفي تجهم وجهه الكريم، وفي زمن الإمام الحسن عليه السلام لا توجد بالأكيد أجهزة لقياس الحالات الفسيولوجية والكشف عن الانفعالات الداخلية المرتبطة بها، لهذا اكتفى الناس بملاحظة التغيرات الجسدية ومراقبتها مثل النظر لملامح الوجه وتعبيراتها، وتحسس خفقان القلب وضرباته ودقاته التي تتسارع في اضطراب وعدم النظام، وكذلك عملية التنفس وارتعاش فرائص الفرد للتعبير عن خوفه وقلقه وهلعه، وتعبيرات الإمام الحسن في المقطع اللغوي المتقدم ما يؤكد ذلك، فكآبة الرد وسرور النجاح تعرف من ملامح الوجه، وارتعاد فرائص الفرد، ومعرفة خفقان قلب الفرد تدرك من خلال هيئة البدن وحركات اليدين وبعض أعضاء الجسم، ونبرة الصوت حدة وضعفاً، وخلاصة ما تقدمنا فالعلاقة بينة بين الانفعال وبعض التغيرات الجسدية سواء في داخل الفرد أو في خارج جسمه.

٢. وصف الشعور الذاتي، وهو إحساس خاص بالفرد نفسه، حيث يقوم الفرد بوصف أحاسيسه بنفسه من خلال مجموعة الأقوال التي يعبر فيها عن مواقفه الانفعالية

---

(١) الشيخ مهدي المازندراني، معالي السبطين ص ١٩، وكتاب « كلمة الحسن « للسيد الشيرازي ص ٢٣١ – ٢٣٢

(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٨، ص ٢٠.

(٣) الاربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ ص ١٦٤.

التي مرَّت عليه في حياته الشخصية، وكانت هذه الطريقة تقليدية في تاريخهم الاجتماعي وتفاعلهم مع بعضهم، وهو أشبه بما يسميه علماء النفس بالاستبطان، فالفرد يستطيع – بكونه كائناً حياً – أقدر الناس على وصف حالته الانفعالية، وما يعانيه من ألم أو سرور أو حزن، فهو وحده يتحسس خفقان قلبه، ويشعر بضغط الألم الداخلي الذي يجثم عليه، ومع ذلك فتطور حياتهم جعل العلماء يضيفون إلى ذلك استخدام مقاييس لفظية، واستفتاءات لمعرفة استجابات الأفراد في المواقف الانفعالية وردود أفعالهم كحالات غضبهم وخوفهم، وغير ذلك .

٣. التحليل اللفظي، ومن خلال هذه الطريقة يتم معرفة انفعال شخص معين باستخدام اللغة التي ينطق بها، فكلماته تدل على مشاعر حزن أو خوف أو بكاء أو غضب أو سرور أو تدل على ارتباك أو استقرار وثبات عاطفي وسكينة نفسية، فيكون بعد ذلك متاحاً للقادرين على فهم كلام الناس تحليل ألفاظهم وفهم سلوكهم الانفعالي، وهذه الطريقة يقوم بها أفراد آخرون حتى في مواقف تفاعلهم الاجتماعي اليومي كمعرفة شخص من كلام آخر أنهم قد غضب عليه أو على ناس آخرين أو فرح من خبر سار باستخدام ألفاظها وتحليلها بطريقة بسيطة وغير معقدة، فكما قال الإمام علي عليه السلام: «**الألفاظ قوالب المعاني**[1]».

دراسة محتوى النص، وهذه الدراسة التي بين يديك هي أحد مصادر معرفة السلوك الانفعالي في زمانه، ومع أنها لا تختلف كثيراً عن المواقف الانفعالية السائدة في عصرنا إلاَّ أنها مدخل لفهمها، ومعرفة أوجه التشابه والاختلاف، وما نفعله نحن في هذه المبحث من كتابنا هو مجرد محاولة لمعرفة دور النص الحسني في تعريفنا بالانفعالات

(١) محمدي، ري شهري، ميزان الحكمة، ج ٨ ص ٤٧٨.

النفسية وأنواعها، وقياسها، وعلاقة الانفعالات النفسية بالتغيرات الجسدية وتأثيراتها الايجابية والسلبية، وهو مظهر لقياس ما هو ظاهر من السلوك الانفعالي.

الحلقة العاشرة

الأخلاق والصحة النفسية

في خطاب الإمام الحسن عليه السلام التربوي

الأخلاق والصحة النفسية في خطاب الإمام الحسن عليه السلام التربوي

منذ البدايات الأولى للتاريخ تفاعل الإنسان مع عناصر مؤثرة من داخله ومع قوى خارج كيانه الذاتي، فقد تفاعل مع الأخلاق وعقله الفطري أو مع ذكائه الموهوب وكلاهما من داخل ذاته ومن قواها الذاتية، وتفاعل في الوقت نفسه مع متغيرات خارجية كمتغيرات بيئته الطبيعية والاجتماعية، وظواهر الكون، وإذا انتقينا المؤثرات الكبرى فإنَّنا نرى أنها قوى ثلاث جوهرية في حركة الحضارات الإنسانية وهي الدين والعلم والأخلاق.

ونقصد بالعلم «حركة التفكير المنطقي السليم داخل العقل الإنساني الموهوب (الذكاء) وما أنتجه من أفكار صنعت حضارة نبيلة في أهدافها وأدواتها ونتائجها، فالعلم هو حصيلة ومنجزات التفكير المركز وعصف الذكاء الفطري أو العقل الموهوب كما جاء في أحد نصوص الإمام الحسن التعليمية في مواجهة المثيرات التي واجهته مع ذاته ومع العالم الخارجي».

وبعبارة أكثر تركيزاً تعد القوى الثلاث (العلم والدين والأخلاق) جوهر حركة الوجود الحضاري للإنسان وقلبه النابض، وقد ساعدته على صنع إنجازاته وإبداعاته، ويعزز هذه القوى مجموعة النعم الإلهية التي أسبغها الله سبحانه على عباده كخيرات الأرض والسماء، فهذه القوى – بطبيعتها النبيلة والخيرة – استخدمها الإنسان إلى تحقيق السعادة في حياة الإنسان، وتسخير إمكانيات العلم والأخلاق ووهج الدين وتأثيره

الروحي والذهني في تحقيق المعنى الحقيقي لوجود الإنسان في هذه الحياة وشعوره بالعزة والكرامة وقيمة الذات بنحو يمهد الطريق لتحقيق الصحة النفسية للفرد والجماعة.

***

والصحة النفسية بمسماها الجديد علم فرعي من علوم الثقافة السيكولوجية المعاصرة، وبالرغم من جذوره البعيدة في تاريخ الفكر البشري، ومن الإضافات التي قدمها المعالجون على مختلف مدارسهم في هذا الزمان فإن متفرقات معرفية مبثوثة في مصادر تراثنا الروائية تشكل ركائز مهمة في تاريخ نشأة علم الصحة والعقلية، فهذا الفن ممتد بجذوره في التاريخ الثقافي الإنساني، ويجد الباحثون والمتخصصون، بل وبعض قراء الثقافة النبهاء الملامح العامة والمجملة، والتفصيلية أحياناً لهذا العلم المتأصل في التاريخ الثقافي الإنساني كأفكار متفرقة وآراء جزئية بخاصة في كتب الدين والأخلاق وبعض العلوم ذات الصلة بالطابع الإنساني المحض كعلم التصوف وعلم الأخلاق والأدب والشعر وأقوال حكماء البشرية الذين أفرغوا بعض الحقائق السيكولوجية في مجالات علوم النفس المختلفة كل ما جعبتهم من اجتهادات وخبرات معرفية.

ومع ذلك فإن بعض علماء الصحة النفسية المعاصرين لا يعترفون بالجذور التاريخية لهذا العلم وصلته بالعلوم الإنسانية لا سيَّما علم الأخلاق والتصوف وعلم السلوك لدى رجالات الصوفية والأدباء والفلاسفة، فالصحة النفسية وإن كانت قد بلغت مستوىً تقدمياً في تطورها التاريخي إلاَّ أنها نتاج جهود تراكمية تداخلت فيها ثقافات الأديان والعلوم والخبرات الإنسانية على امتداد تاريخ طويل، وبذلك فإن الصحة النفسية هي كسائر العلوم ثمرة تجارب بشرية حيناً كما في تجارب علماء الأخلاق والتصوف والفلاسفة الأخلاقيين وغيرهم، ورؤى دينية حيناً آخر.

مفهوم الصحة النفسية

وضع لهذا المفهوم - كسائر المفاهيم السيكولوجية - تعريفات عدة، وقد عدَّد بعض علماء الصحة مفهومها بأكثر من تعريف لها مثل قولهم: «إنَّ الصحة هي الخلو أو البرْء من الأعراض المَرَضِيَّة[١]»، ويذهب تعريف آخر معتمداً على الطريقة الإيجابية لتحديد مفهومها إلى القول أنها: «توافق الفرد الاجتماعي[٢]» مع الآخرين والأشياء، وأنها «حالة ومستوى فاعلية الفرد الاجتماعية، وما تؤدي إليه من إشباع لحاجات الفرد[٣]»، أمَّا كيلاندر فيقول: «إنَّ الصحة النفسية للفرد تقاس بمدى قدرته على التأثير في بيئته، وقدرته على التكيف مع الحياة بما يؤدي بصاحبه إلى قدر معقول من الإشباع الشخصي والكفاءة والسعادة[٤]»، ويعرفها عالم النفس المصري الأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصي بأنها: «التكامل بين الوظائف النفسية المختلفة مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية التي تطرأ عادة على الإنسان، ومع الإحساس الإيجابي بالسعادة والكفاية[٥]».

***

العوامل المؤثرة على الصحة النفسية للفرد

كما للفرد صحة جسدية، فجسمه يمرض ويشفى فإنَّ صحته النفسية - كسائر

(١) عبد السلام عبد الغفار، مقدمة في الصحة النفسية، ص ١٨.
(٢) عبد السلام عبد الغفار، مصدر سابق ص ١٩
(٣) عبد السلام عبد الغفار، مصدر سابق ص ١٩.
(٤) عبد السلام عبدالغفار، مصدر سابق ص ٢٠.
(٥) عبد السلام عبدالغفار، مصدر سابق ص ٢١

مكونات الذات الإنسانية تخضع في نموها لعدد من العوامل التي تؤثر فيها، فهي الأخرى تختل وظائفها وتعتل وتحتاج لبرنامج علاج لإعادتها للصحة والشفاء، وبعد التأمل المعمق في المفردات اللفظية لبعض نصوص الإمام الحسن واستبصار محتواها المعرفي فاجتهدنا في فهمها ما أمكننا في ذلك، فالتحديد للعوامل المؤثرة على الصحة النفسية للفرد مجرد اجتهاد شخصي.

ويمكننا بإيجاز تحديد بعض العوامل التي تتأثر بها الصحة النفسية للفرد في عوامل أربعة، متداخلة ومترابطة التأثير، فهذه المكونات تترك أثرها على الصحة النفسية للفرد ومستوياتها، وهذه المكونات هي كما يأتي:

١. الدين.

٢. العلم.

٣. الأخلاق، وسنبحث تأثير هذا المكون ممثلاً في عدد من القيم لا تتجاوز أربع قيم من مكارم الأخلاق المقبولة لدى المشرع الإسلامي.

٤. قدرة الفرد وموقفه على التفاعل الإيجابي مع المكونات الثلاثة.

٥. الواقع الإنساني للفرد كالاحباطات، ويشير لذلك حديثه التالي: «اجعل ما طلبت من الدنيا، فلم تظفر به بمنزلة ما لم يخطر ببالك[١]».

وفي طوايا مباحث هذا الكتاب أشرنا لعدة مؤشرات للصحة النفسية مثل القدرة على اشباع الحاجات الإنسانية، واستمتاع الفرد بعلاقات جيدة مع الناس وقيامه بمسئولياته الشخصية والاجتماعية، وسمو السلوك الأخلاقي، والاتزان الانفعالي

(١) الموسوي، الروائع المختارة، حديث رقم ٣٤، ص ١٣٣.

والعاطفي، وتقبل الفرد لحدود إمكانياته بنفسه، وإتقانه الخبرات، وتنمية القدرات العقلية، وقواعد السلوك الاجتماعي.

***

فرضية العلاقة بين الأخلاق والصحة النفسية:

نحاول – ما أمكننا – في هذا المبحث من كتابنا مناقشة نظرية العلاقة بين الأخلاق وقيمها كمتغير مستقل فاعل وبين متغير آخر ناتج عن تأثيرها وهو «تحقق الصحة النفسية «للفرد، فالمفردات اللفظية لمجموعة النصوص المتوافرة والمنسوبة للإمام الحسن بن علي عليهما السلام في مصادر روائية تحتوي على علاقة مباشرة حيناً، وغير مباشرة حيناً آخر بين قيم الأخلاق كمكون أساسي في بنية الذات العربية – الإسلامية وبين الحالة النفسية والذهنية لها، وبصياغة ثانية لما سبق يمكن القول: بأنَّ ثمة علاقة بين هذا المكون الحيوي لدى الإنسان والصحة النفسية والعقلية لديه، ونبذل جهدنا بإثبات هذه العلاقة وتحليلها بنحو يقدم للقارئ فهماً وعلماً بالترابط بين الأخلاق وقيمها كمكون سالف الذكر وتحقق مستوى معقول من الصحة النفسية للفرد سواء كان متعلماً أو معلماً أو خارج عن دائرتهما التربوية، وفي نطاق أوسع من الحياة البشرية.

ونفترض بأن «الصحة النفسية» هو متغير تابع لأكثر من متغير مستقل هي.. الدين، الأخلاق، والعلم، فهذه العوامل تسهم بإيجابية في تكوين حالة جيدة من الصحة النفسية، وأن المعاني العقلية لنصوص الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام في قضايا التعلم والتفكير والأخلاق والحاجات تشير إلى حتمية تحسن تصاعدي في الحالة النفسية والانفعالية للأفراد وارتفاع معنوياتهم الروحية، ورأينا في مواضع متفرقة من مباحث متقدمة من كتابنا هذا تأكيدات على العلاقة بين هذه المكونات وصحة

الفرد نفسياً وذهنياً، وكان من المنطقي مناقشة تأثير المكونات الثلاثة.. الدين والعلم والأخلاق.

وفرضياتنا – لو كنَّا نريد البحث الموسع – هي كما يأتي:

- هناك ارتباطٌ بين «التعلم «كمفهوم إيجابي أكدت عليه نصوص الإمام الحسن وبين تحسن الحالة المعنوية وارتفاعها لدى الأفراد».
- أنّ هناك ارتباطاً بين المفاهيم الأخلاقية في نصوص الإمام الحسن وبين الحالة المعنوية للأفراد وتنشيط دافعيتهم في التعلم.
- وتوجد في إثناء النصوص التربوية في تراث الإمام الحسن بن علي ارتباطات إيجابية بين إشباع حاجاتنا البيولوجية والفسيولوجية والنفسية وبين تحقق قدر مقبول من «الصحة النفسية» للأفراد.
- أنَّ للعقل الإنساني قدراته التي تحقق الارتباط بين الصحة النفسية للأفراد وبين مفاهيم المشرع التربوي في مجالات الدين والأخلاق والعلم.
- ثمة ارتباط بين تحقيق مستوى مقبول من «الإشباع» بقيم أخلاقية وبين الصحة النفسية والذهنية.

بيد أننا لن نناقش الفرضيات جميعها، فهذا يحتاج لكتاب مستقل، بل سنبحث فرضية العلاقة بين بعض القيم الأخلاقية وتحسن الصحة النفسية.

وبالتأكيد لن تكون مناقشتنا للفرضية الأساسية المتقدمة إحصائية رقمية كما يفعل الباحثون في معالجة قضايا العلم والتربية والاجتماع الإنساني، وإنما ستسلك معالجتنا للفرضية منهجاً نظرياً يقوم على جمع بعض النصوص وترتيبها وتنظيمها وتحليلها

واستخدامها في مواضعها المناسبة واستخراج المعاني الرابطة بين الأخلاق وبين «تحسن الصحة النفسية للأفراد»، وستكون المعالجة في مناقشتنا لنماذج مختارة من نصوص الإمام الحسن في المجال الأخلاقي التي تضمنتها هذه النصوص الدينية، واكتفينا لإثبات هذه العلاقة بين الأخلاق والصحة النفسية بأربع من القيم ومكارم الأخلاق التي أشارت لها أقوال الإمام الحسن عليه السلام.

***

نماذج من نصوص الإمام الحسن في مجال الصحة النفسية:

كان التراث الثقافي والروحي والأخلاقي للإمام الحسن بن علي أحد مصادر التطور التاريخي للصحة النفسية ومفاهيمها أو على أقل تقدير إسهاماته في هذا المجال من نصوص وخطب وأدعية وكلمات قصار لتحديد بعض معايير الصحة النفسية ومفاهيمها المعرفية والإشارة إليها في بعض نصوصه التربوية والأخلاقية.

ومن المؤكد أن الصعوبة في حصر نماذج من هذا الإسهام في تطور الصحة النفسية لدى علماء المسلمين وعلمائهم هو أمر لا مفر منه لحفظ رؤية الإمام الحسن وتأصيلها في هذا المجال، ولاستخدامها في عملية تحليل النصوص التي استبطنت بعض الأفكار السيكولوجية في مجال الصحة النفسية، وسبب هذه الصعوبة أن هذه النصوص هي للأسف متناثرة في مصادر روائية عديدة، وموزعة في بعض المفقودة أو حتى التالفة، وهنا كما قلنا مكمن الصعوبة في جمع ما تركه الإمام الحسن عليه السلام من روايات وأقوال وحكم قصار ممن لها علاقة من قرب أو بعد بالصحة النفسية، ومع ذلك فعدد من النصوص المتوافرة بين أيدينا يمكن الاستفادة منها في صياغة نظرة عن «الصحة النفسية «للفرد ومحدداتها الإيمانية – التوافقية في فكر الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام.

وستأخذ عملية البحث عن النصوص ذات العلاقة بالصحة النفسية من منظور الإمام الحسن وفكره الإنساني مسارين أساسيين هما:

١. مسار جمع نصوص الإمام الحسن(عليه السلام) وترتيبها للإفادة منها في خطوات لاحقة من الدراسة وبخاصة في عملية التحليل لمعرفة معانيها وعلاقتها بمفاهيم الصحة النفسية.

٢. والمسار الآخر هو تفسير بعض النصوص لاسيّما المفاهيم الأخلاقية بما يتفق بحسب معايير الصحة النفسية – العقلية.

وسنذكر هنا – في هذا المبحث من كتابنا هذا – على عدد من هذه المفاهيم الأخلاقية– السيكولوجية وتحليلها واستنباط مكوناتها المعرفية والروحية والإرشادية، وقد فعلنا ذلك في معالجاتنا لبعض القضايا في المباحث الثمانية السابقة.

***

مجال العلاقة بين الأخلاق والصحة النفسية

هناك أكثر من سمة أخلاقية أقرها خطاب الإمام الحسن تحقق للأفراد صحتهم النفسية والعقلية، بل إن الوظيفة التربوية الأساسية لكل القيم الأخلاقية – بلا استثناء – بناء الشخصية الإنسانية وتكوين مفاهيمها الإيجابية عن نفسها، والمجتمع والكون والذات الإلهية، وقد وردت في توجيهات الإمام الحسن نصائحه(عليه السلام) لأفراد مجتمع عصره، وللناس فيما زمانه متحدثاً عن مجموعة من القيم الأخلاقية وبتفعيلها في حركة الحياة كي تحقق الذات أمنها الداخلي في الدنيا، وتجعل من أعمالها العبادية حصناً آمناً لها في عالم الآخرة.

ولكننا لن نستطيع في مبحث محدود المساحة معالجة الآثار السيكولوجية لكل القيم الأخلاقية التي جاءت في تراثه الفكري، فذاك جهد يحتاج لمهمة علمية أوسع، ولهذا فإننا سنضع أمام القارئ الكريم نماذج تتراوح بين نموذجين أو ثلاثة من القيم ومكارم الأخلاق تنطوي على دلالات إيجابية في حقل الصحة النفسية كـ (الزهد، العفة، والصبر) مع أن قائمة الفضائل والقيم الأخلاقية تتسع لشبكة متداخلة في خطاب الإمام الحسن عليه السلام كما في نص «تحديد المفاهيم الأخلاقية» المكون من (٢٧) مفهوماً أخلاقياً وسمة إدراكية، وهو مجموعة أسئلة من الإمام علي أجاب عنها بألفاظ دقيقة ومعبرة، وكما في النص التالي مشيراً لست قيم من مكارم الأخلاق:

«**أما الكرم فالتبرع بالمعروف، والإعطاء قبل السؤال، وأما النجدة فالذب عن المحارم، والصبر عند المكاره، وأما المروءة فحفظ الرجل دينه وإحراز نفسه من الدنس، وقيامه بأداء الحقوق وإفشاء السلام**[1]»، وقال عن الجود: «**الوعد مرض في الجود، والانجاز دواؤه**[2]».

***

السمة الأولى: الزهد

من السمات والقيم الأخلاقية الكبرى في خطابه الإنساني عليه الصلاة والسلام، وقد عثرنا على بعض النصوص التي تلفت أنظارنا إلى أهميتها في تربية الذات البشرية وتكوين سلوكها واتجاهاتها ومشاعرها، ولنقرأ بتمعن بعض النصوص عن مفهوم الزهد، ومن محتواها المعرفي وتركيبتها اللفظية نتعرف على آثار سمة الزهد ووظيفتها

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٩٢، ص ١٤١

(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٣٨، ١٣٣.

التربوية والإنسانية في تحقيق الصحة النفسية، وفي استعادة التوازن المفقود لدى الشخصية الإنسانية.

١. قال عليه السلام في الزهد كقيمة أخلاقية:

«**من عرف الله أحبَّه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا تفكر حزن**[١]» فهذا النص يشير للزهد كسمة أخلاقية – روحية لها دور كبير في تنظيم الاشباع للحاجات، ويربط بينها وبين محبة الله، فكل من عرف الله أحبه وضحى بملذات الدنيا من أجله، فالزهد يعني أخذ ما يحتاجه الفرد من ملذات الدنيا بمقدار ما يكفيه بطريقة حلال، والاستغناء الوعي، وبقناعة داخلية عن الاشباع فوق الزائد للحاجة بخاصة إذا نوع الاشباع محرماً، وغير سوي، لهذا قال الإمام الحسن بن علي في مقطع لفظي من نص آخر: «**وخذ منها ما يكفيك**».

٢. وعزز هذا الاتجاه الأخلاقي للزهد نص آخر يقوله فيه الإمام الحسن عليه السلام:

«**وأعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلاَّ كنت فيه خازناً لغيرك، وأعلم في حلالها حساباً، وفي حرامها عقاباً، وفي الشبهات عتاباً، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة، وخذ منها ما يكفيك، فإن كان حلالاً كنت قد زهدت فيها، وإن كان حراماً لم يكن فيه وزر، فأخذت كما أخذت من الميتة. وإن كان العتاب فإنَّ العتاب يسير**[٢]»، فهذا النص يجعل من ضبط الحاجة إلى التملك مدخلاً طبيعياً للسيطرة على إشباعها بالحلال، وتحذير الأفراد من إغراق النفس في شهوة جمع المال بالحلال والحرام على حد سواء، فقال المقطع الأول من النص: «**وأعلم أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك**

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ١٨، ص ١٢٩.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ١٢، ص ٢٨.

إلاَّ كنت فيه خازناً لغيرك»، وتلك محصلة نشاز لا ينتبه عليها كثير من الناس، فالإنسان بطبعه، بل وطمعه الزائد عن الحد يميل إلى جمع المال وتخزينه، ليستفيد منه ورثته،، وقد يكون من سوء حظ الموروث جامع المال قد ترك المال لوارث سيئ السلوك فيتصرف فيه بطريق غير شرعي فينال الموروث جانب من المسئولية، وقد يرثه وارث يحسن التصرف فيه فينال ثواب التصرف الشرعي بالمال، وكسب المال لدى المشرع ليس محرماً، ولكن المراد أن يتصرف فيه المرء كمستخلف، وفي خدمة هدف عبادي يحقق للفرد مهمته في الحياة كما أراد الله له وإلاَّ أصبح وبالاً عليه أو استثمره الوارث بنحو يرضي الله فينال جزاءه ومثوبته.

٣. وقوله في توجيه للناس في زمانه وفي العصور اللاحقة لهم: «**فازهدوا فيما يفنى، وارغبوا فيما يبقى، وخافوا الله في السر والعلن**[1]»، هنا يتقدم فكر الإمام الحسن بتوضيح أكثر للناس في تحديد الفائدة من استخدام سلوك الزهد، فأوضح الإمام عليه السلام أنَّ الزهد هو ضرورة لضبط السلوك والسيطرة على اشباع حاجات الإنسان ليس في مجال المال، بل في كل جوانب الحياة، وأشكال الحاجات البيولوجية الأكثر إلحاحاً على الناس، لهذا نبه الإمام بأن الزهد لا فكاك منه بالنسبة للعقلاء والأسوياء، وهو خطوة عملية للسيطرة على نوازع الشهوة الزائدة عن الحد، فقال عليه السلام في تعليل: «**ازهدوا فيما يفنى**»، فما يرغبنا فيه الإمام الحسن بالزهد فيه وصرف الرغبة عن أشياء تفنى، فالزهد فيما يفنى، فالمال يفنى، وكل الأشياء التي يسعى الإنسان لتملكها تفنى، فلماذا التمسك بها إذا كانت فانية؟، بل الإنسان نفسه يفنى ويترك ما خلَّفه لغيره، والغير وما ترك من مال وأشياء هي في نهاية الأمر تفنى، وأصبح المنطقي الزهد فيها، والرغبة فيما يبقى كالأعمال العبادية التي يكلف المرء بأدائها في دنياه، فاليوم عمل ولا حساب كما قال الإمام

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الخطبة ٣، ص ١٥

علي، وغداً حساب ولا عمل، وباختصار فهذا التوجيه ينطوي على نصيحة أخلاقية، وعملية تدريب للفرد على مواجهة شهوات النفس وإخضاعها لرشد العقل، مما يؤدي إلى طمأنينة لدى الزاهد وتحقيق استقرار وأمن داخلي لديه، واستعادة للتوازن النفسي حتى وإنْ كان قد فقد منه لفترة، وبالتالي فالزهد مفهوم أخلاقي واقعي وتقدمي لإدارة النفس بنظرة صحيحة، وضبط حركتها مع الشهوات، وفي تعاملها مع الأشياء دون متاعب مؤلمة للنفس، فالإنسان لن يستطيع الحصول على كل شيئ، ولن يتاح له تحقيق الاشباع لكل حاجة من حاجاته، وحتى لو تحقق فقد يتجاوز الإشباع حده الطبيعي والمنطقي فيتحول لإشباع زائد يلحق الضرر بالفرد، فلا مانع أن يتقلد الفرد منصباً أو يمتلك مالاً، أو يكون صاحب جاه ونفوذ، وأن يكون الخير بين يديه، وله الحق في امتلاك كل شيئ، ولكن لا حق له أن يكون مملوكاً لهذا النصب أو ذاك المال أو النفوذ والجاه، فإذا ما تطلبت الحاجة أن يتخلى عن هذا الاشباع سارع إلى التضحية، فالحسين كان يملك النفوذ والجاه، وبيده المال، ويتقلد منصب إمامة الناس، وحينما استوجب واجبه حماية الإسلام نزع عن نفسه، وقام بجرأته النادرة على فعل تضحيته التاريخية وقدم نفسه كبشاً للإسلام والإنسانية جمعاء، ومن هنا فالزهد لا أن لا تملك شيئاً، ولكن أن لا يملكك شيء كما قال أمير المؤمنين الإمام علي ابن أبي طالب.

٤. وفي نص سئل الإمام الحسن من والده الإمام علي عن الغنيمة، وفي رواية أخرى سأله عن الزهد فقال عليه السلام ضمن تحديد عدد من المفاهيم الأخلاقية: «**الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا**[1]»، ونلحظ أن هذا النص يساند النصوص المتقدمة، ويحدد طريقين للفرد ليكون العمل بهذا التوجيه مجدياً، وهو أن يرغب الإنسان في تقوى الله، وأن يمر

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول لابن شعبة الحراني، ص ١٦٤، والأربلي في كتابه (كشف الغمة في معرفة الأئمة)، ج٢ ص ١٩٤.

ذلك من بوابة الزهد في الأشياء الفانية، لهذا أراد الإمام لنا أن نزهد فيما يفنى، وأن نرغب فيما يبقى لنا بعد مماتنا فيكون حصيلة أعمالنا يوم نلقاه سبحانه فيثيبنا بشآبيب رحمته وفيوضاته الربانية.

٥. وفي نص ثالث قال الإمام الحسن الزكي أيضاً:

«**يا بن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً، وارض بما قسم الله تكن غنياً**[١]»، فهذا النص لم يأت على ذكر لفظ «الزهد» مباشرة، ولكن النص انطوى عليه في تركيبته، فالعفاف رغبة النفس في تحقيق اشباع منطقي بلا تدنيس للنفس أو هو بتعبير الإمام الحسن «**إحراز نفسه من الدنس**»، ولا يصاحبه من أو تعيير، وإذا كان الزهد كف النفس عن الاشباع الزائد حتى في الشيء الحلال فإن العفاف حركة النفس في تجنب محارم الله وضبطها على الاشباع السوي سواء بكفها عن الزائد من الحلال أو بمنعها من الاستجابة للمحرمات، فكلاهما يحققان للنفس أمناً داخلياً يجنبها الوقوع في حالة صراع نفسي قد يمهد للأمراض السيكولوجية والعقلية، وبتآزر قدرة الفرد في كف نفسه عن اشباع زائد مع قدرته على تجنب فعل المحارم يكون الفرد قد حقق العفاف الداخلي، ودخل في نطاق العابدين الآمنين يوم الحشر، أما المقطع الثاني من النص: «**وأرض بما قسم الله تكن غنياً**» فهي القناعة بعدالة التوزيع الإلهي بما قسمه للناس من أرزاق وأعمار ونعم متعددة بصرف النظر عن الزيادة والنقصان فيها،وتسبب هذه القناعة حالة من التوازن الداخلي وإحساساً بالأمن والطمأنينة وسيطرة كاملة للعقل على حركة الشهوات غير المنضبطة بقواعد المشرع التربوي الإسلامي، فالغنى هنا ليس تملكاً لأشياء فانية، وإنما امتلاكاً للأمن والطمأنينة والنهاية السعيدة بين يدي الله سبحانه، وبذلك تظهر حالة

(١) كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢ للأربلي، ص ١٩٨ – ١٩٩، وكتاب الروائع المختارة للموسوي، رقم الخطبة ٧، ص ١٩

الغني في أمرين أحدهما استقرار أمني بالدنيا يتمتع فيها الفرد بالصحة النفسية والعقلية والرضا النفسي، وتكون خالية من أمراض الطمع والقلق واللهث وراء الشهوات بلا فائدة، والبحث المجهد التائه عن ملذات وشهوات قد تكون بعيدة المنال، والثاني اطمئنانها على مصيرها السعيد في يوم الجزاء الأكبر.. يوم البعث.

***

المعاني التربوية والسيكولوجية للزهد

أمامنا خمسة نصوص ذكر مصطلح «الزهد» مباشرة في أربعة منها، واختفى المصطلح كلفظ في النص الخامس، ولكنه طوى معناه العقلي في تركيبته اللفظية، وفي كل النصوص أراد الإمام الحسن تأكيد بعض المعاني التربوية، وهي معاني ذات صلة بآثار سيكولوجية مؤثرة بإيجابية على الوظيفة العبادية للذات المسلمة، ومنها على:

١. تحقيق اشباع مناسب وسوي وبمقدار الحاجة، فـ «الزاهد ينظر إلى الحياة كمتاع عابر، ويعيش فيها بمفهوم قصر الأمل، ويكتفي عادة بإشباع على قدر حاجته،وربما إلى حد الكفاف، وهو بالتأكيد تأمين بسيط لمتطلبات الحياة، فهو لا يطلب داراً فخمة، ولا يلهث وراء جاه أو منصب أو مكانة اجتماعية أو عقار أو امتيازات[1]»، ويأخذ منها ما يكفيه ويسد رمقه ويعينه على انجاز مهمته العبادية في عالمه الدنيوي الفاني، وعادة ما يكون وراء ذلك دافع قوي كالرغبة في الإثابة الأخروية، والرغبة في تحقيق استقرار النفس في الدنيا.

٢. تدريب النفس المؤمنة على تقبل مبدأ الاحباطات المستمرة والمتراكمة أحياناً في حياة الإنسان، وفي هذا الصدد قال الإمام الحسن عليه السلام: «**اجعل ما طلبت من الدنيا، فلم**

(١) يوسف مدن، العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد ص ٣٥٦.

تظفر به بمنزلة ما لم يخطر ببالك[١]»، فقناعة الزاهد بإشباع على قدر الحاجة الإحباط، ويتفادى الوقوع في حالة صراع نفسي، فهو لا يصاب بإحباط لأنه لا يجري وراء اشباع زائد عن حاجته، ولا يعتريه صراع لأنه بزهده يتيح لنفسه هدوءًا وتوازناً داخلياً[٢]، وهذا بالتأكيد يحقق للإنسان الزاهد راحة داخلية تترك آثارها الإيجابية على شخصيته، ولهذا فإن خياره هنا بالزهد خير له من القلق والألم واللهاث وراء الشهوات بلا طائل.

٣. تقبل مبدأ ضبط الاشباع وتأجيله إلى حين اللحظة المطلوبة، ومواجهة الاشباع العاجل والتخلي عن الإشباع في اللحظة الحاضرة بانتهازية ونفعية لا تطابق محددات المشرع التربوي الإسلامي ولا تلتقي مع معايير الصحة النفسية، ولاسيّما إن كان محرماً وغير سوي، ومصحوباً بآثام دينية.

٤. تمكن الفرد من حسم حالة الصراع النفسي في داخل كيانه، وهيَّأ نفسه لحالة رضا داخلي يشعر فيها بغنى النفس مصداقاً لقوله عليه السلام: «**إنْ لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه مما تكره، فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى**[٣]»، وقد تقدمت إشارتنا إلى دور الزهد في التغلب تربية الشخصية وبنائها.

٥. إنَّ تحقيق الاشباع الزائد عن الحاجة بخلاف مفهوم الزهد ومعانيه الروحية والأخلاقية يجعل الاشباع سمة مرضية تؤدي إلى نشوء خلل في النفس، وقد أطلق المشرع الإسلامي على ذلك مصطلح «الرغبة»، أما المصطلح المضاد له فهو «الزهد» الذي له فاعلية كبيرة في تحقيق التوازن الداخلي للشخصية المؤمنة[٤].

---

(١) الموسوي، الروائع المختارة، حديث رقم ٣٤، ص ١٣٣.
(٢) يوسف مدن، العلاج النفسي وتعديل السلوك بطريقة الأضداد ص ٣٥٦.
(٣) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٥٠، ص ١٣٥.
(٤) يوسف مدن، العلاج وتعديل السلوك بطريقة الأضداد، ص ٣٥٦.

٦. يتمكن الإنسان المؤمن بزهده من تحقيق توازن داخلي فعال لشخصيته العبادية، فالزاهد قد حرر نفسه من ضغط الشهوات، ومن سيطرة الاستجابات الخاطئة لحاجاته، فهو يتحكم في إخضاع الأشياء التي يمتلكها، ويضعها تحت تصرفه، ويتغلب على سلطانها، وقد أشرنا لموقف الإمام الحسين، فكما تقدم «بمقدور الإنسان أن يملك» أن يملك الدار والمال والزوجة، ولكن هي جميعاً بيده لا أن تمتلكه، و«يتصرف بالزائد منها في سبيل تحقيق وإنجاز مهمته العبادية في الحياة[1]».

***

السمة الثانية: الصبر

الصبر ضمن «المنظومة القيمية» الفعالة في تنظيم السلوك الإنساني وتفعيله لدى الإمام الحسن وإحدى أهم مكارم الأخلاق في خطابه التربوي والثقافي والأخلاقي، وقد وردت في أكثر من نص يتفاوت في حجمه ومفرداته اللفظية ومعانيه العقلية، فالصبر قوة روحية تبنى إرادة الأفراد وتجعلهم يقاوم إحباطات الحياة وقسوة ظروفها، وتصنف بلغة علماء النفس المعاصرين قي قائمة السمات الوجدانية لارتباطها بالثبات العاطفي وتأثيراته الإيجابية على سلوك الأفراد وشخصياتهم الاجتماعية،وتوحي مفردات لفظية مباشرة بهذه السمة، بينما توحي كلمات أخرى غير مباشرة بالإشارة إلى هذه الصفة الحيوية في الشخصية الإنسانية.

ومررنا على بعض النصوص تحمل بين طياتها معاني الصبر والثبات النفسي في مواجهة الشدائد وأثره في بناء إرادة الإنسان وتكوين جانبه الوجداني ومدى ثباته العاطفي كقوله عليه السلام لنا في توجيه يستبطن الصبر والإرادة وتوجيه حركة النفس

(١) يوسف مدن، المصدر السابق ص ٣٥٦

ودوافعها الداخلية في مسار الخير والإرادة النبيلة وعدم الاستسلام لنوازعها غير الصحيحة كقوله: «**إنْ لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه مما تكره، فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى**[1]».

وسنعالج حديث الإمام الحسن لهذه الصفة الأخلاقية وأثرها في تحقيق القدر الطبيعي السوي من الصحة النفسية في نصين يمثل أحدهما مقطعاً من نص أطول، وهو توجيه عام لمقاومة صعاب الحياة والشدائد التي سمّاها الإمام بمصطلح «**المكاره**» الذي هو قدرنا كبشر في حياتنا التي نعيشها، أما النص الثاني فتوجيه خاص بالمجاهدين، ولكنه مصداق لمفهوم الصبر بمعناه العام وهو مسك النفس من داخلها عن الجزع والهلاك، وثباتها عن الانهيار النفسي، فكلا النصين يعطيان مفهوماً موحداً مع اختلاف بسيط في دلالتهما السيكولوجية.

***

من أقوال الإمام الحسن

يقول في صفة الصبر كإحدى القيم والسمات الوجدانية التي تنمي الثبات العاطفي وتقويه.

١. قال عليه السلام حينما تحدث عن مكارم الأخلاق: «**الصبر عند المكاره**[2]».

٢. وقال الإمام الحسن بن علي عليهما أفضل الصلاة والسلام في حديث ثانٍ وهو يحث المؤمنين أفراداً وجماعات على الجهاد: «**اصبروا.. فإن الله مع الصابرين، فلستم أيها**

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٥٠، ص ١٣٥.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٩٢ ص ١٤١.

الناس نائلين ما تحبون إلاَّ بالصبر على ما تكرهون[١]».

***

الدلالات السيكولوجية والتربوية للصبر

ثمة دلالات سيكولوجية ترتبط بحياة الصابرين، وتصبغ أنفسهم، فالصبر – كسمة أخلاقية – تؤثر في سلوك الناس الذين يتحلون بها، وتعطي نتائجها الإيجابية في حركة الحياة بنحو تجعل إدارة الأفراد لأنفسهم أكثراً تكيُّفاً وتوافقاً في مواجهة الأزمات والمحن، ومختلف الابتلاءات ومكاره الدنيا، ومن هذه الدلالات التي استخلصنا مضمونها القيمي والتربوي من النصين:

***

تحليل النص الأول

١. تضمن النص الأول «الصبر في المواطن عند المكاره» إشارة للصبر كـ «استجابات عقلية وعاطفية»، ومكاره في الدنيا تواجه الأفراد كمثيرات وتحديات كالشهوات، والمحن والابتلاءات كالأمراض والفقر والحروب والفتن الداخلية، ومشكل الأسرة والأبناء، وغير ذلك، وهذه المكاره تمثل بالنسبة للناس تحديات في حياتهم، يضعف بعضهم عنها ويقوى عليها آخرون، وهي بلغة علماء النظرية المدرسة السلوكية مثيرات تواجه استجابات سلوكية تستثير الأفراد، ويعبر عنها الأخلاقيون بـ «الصبر»، فالسلوك لدى السلوكيين علاقة إرتباطية بين مثيرات واستجابات، فإذا صدر مثير تبعته في الصدور استجابة سلوكية، فالأفراد وفقاً لمحددات النظرية السلوكية تعبر لدى بعض الأفراد عن صبرهم.

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٤٢ ص ٧٩

٢. أنه عندما يواجه الأفراد تحديات مختلفة الشدة والتأثير لا يبقى أما الأفراد سوى الاستجابة لمواجهة هذه التحديات، وهم الذين قلنا عنهم أنهم استقووا على مواجهة الأزمات بالصبر والثبات العاطفي وعدم اضطراب شخصياتهم، أما استجابات بعض الناس غير الصابرين فضعف وهزيمة واستسلام، فاستجابات الأفراد تتنوع في مواجهة الأزمات والشدائد إما معبرة عن جزعهم أو صبرهم وثبات إرادتهم، وحينما تتسم استجاباتهم بالنضج والثبات والصبر أمام شدائد الحياة ومحنها، فإن صور الانهزام وحالات الصراع النفسي والتبرم والجزع وإحساسات الفشل تختفي أو تضعف، ولهذا الثبات العاطفي والاتزان الانفعالي أثره الكبير في صقل شخصية الإنسان وتنمية قدرته على المقاومة النفسية وصموده، حقاً من هزم الجزع في داخله أنجاه صبره.

٣. يحقق الإنسان الصابر ثباتاً عاطفياً فيحفر الفرد في شخصيته سمة أخلاقية ووجدانية ذات أهمية بالغة لديه، إذ يتمكن الصابر من بلوغ مستوى ناضج من الاتزان الانفعالي يسمح للفرد المتزن من التعبير عن انفعالاته وهو في حالة «ضبط داخلي» لها حينما يواجه مشاكل الحياة ومصاعبها، فيصمد أمامها بالهدوء والثبات والتفكير الواقعي وليس بالبكاء والعويل، وتتحول هذه المشاكل إلى تحديات تستوجب تفكيراً أكثر نضجاً لمعالجتها بالذكاء وليس بالتسويف والتعليل، فالصبر بمسماه الإنساني القديم خيار الأفراد في مواجهة المشاكل، وخيارهم في معالجة أمورهم بنجاح.

٤. للصبر – كما يلحظه كل من يهتم بالشأن التربوي – طابع تعليمي فهو سلوك يتم اكتسابه من تربية اجتماعية وروحية والتدرب عليه في وسط مثيراتها، فالجزع مشهد انفعالي يدل على سوء تكيف الأفراد وعدم اتزانهم، ولمواجهة هذه الحالة يتعلم كل فرد كيفية التحكم في انفعالاته وعواطفه والتدرب على ضبط نفسه من التفاعل السلبي مع

مثيرات الحياة ومصاعبها، ولهذه الحالة أثرها التربوي كاستعداد الفرد لتقبل وتنمية السلوك المعتدل، وتحرير النفس من سيطرة الانفعالات والعواطف الإنسانية، ويمهد لإعداد أشخاص أسوياء وناضجين انفعالياً وعاطفياً، وواقعيين قادرين على مواجهة الحياة، والتكيف مع مثيراتها.

٥. ويتميز الإنسان الصبور والثابت أمام الأزمات والمحن بمستوى أفضل من الثقة بنفسه وبقدراته الذاتية، وبدرجة عالية وطبيعية على الاستقرار والتحرر من سطوة الاضطراب النفسي الذي يجعل الذات في حالة توتر وتأزم داخلي.

٦. ومن حقائق الحياة «أنَّ الشخص الجزع لا يتعامل مع نفسه كعابر سبيل في هذه الدنيا، لذلك ينافس أهلها في عزها، وقد لا يستطيع أن ينجح في هذه المنافسة، وفي الوقت نفسه يعجز عن أن يحرر نفسه من جزع ذلها، لذلك أبقى كيانه في توتر وصراع نفسي مأزوم، لا لأنه لم يتمكن من تجنب حالة الصراع في عمق الذات، بل لأنه لم يوفق في حسم صراعه الداخلي حسماً سوياً وإيجابياً من النظرة الإيمانية، أما الصبور فتأثيره في النفس مضاد تماماً لحالة الجزع، فهو ثبات النفس عاطفياً، وعدم اضطرابها في الشدائد، إذ تستوي عند الصبور مختلف حالات المواقف النفسية، وينظر إلى تقدير الله للأمور بعين الرضا، فلا يتبرم، ولا تضجر نفسه، ولا يلهث وراء إشباع عاجل لحاجات يعلم بأن الله عز وجل هو مصدر تأمينها للناس جميعها، فهو الرزاق، وهو وحده عز وجل الذي يعوض الصابرين، ويستبدل إشباعهم العاجل بآخر أسمى منه في دنياهم، وهو مطمئن إلى تأجيل إشباعه، وأجره في عالم الآخرة، فإذا فقد الإنسان الصبور عزيزاً احتسبه عند الله، وإن ضاع منه مال أو فقد داراً أو جاهاً فما عند الله خير وأبقى[1]».

---

(١) يوسف مدن، العلاج النفسي وتعديل السلوك الإنساني ص ٣٤٢.

٧. ونستبطن من سمة الصبر كسمة وجدانية وأخلاقية تأثيرها على النفس من حيث حمايتها من الأمراض النفسية وإخلائها من أجوائها المرضية كحالات الصراع النفسي الصعبة بين رغبات الغرد المتعارضة التي تسبب أزمة داخلية للذات البشرية، ومن ثم تعيش الشخصية في ظلال الرحمة الإلهية، والسكينة والطمأنينة والتوافق، فلا يرى الفرد في داخله: «تعارضاً بين إرادته وبين إرادة الله، وهذا عكس ما يشعر به الجزوع الذي يرى فعل الله مخالفاً لهواه، ويشعر بأن المجتمع يتهدده بالخطر[1]».

٨. يقدم الشخص الصبور نفسه في صورة جميلة للناس حتى وإن كان لا يقصد ذلك في داخله، فهو لا يبدو أمامهم جزوعاً، هلعاً، فاقداً للطمأنينة، فيكسب بصدقه وإخلاصه لقيمه ثقة الناس به، ويحظى بتقديرهم ومكانة مرموقة تستوجب التأسي به كقدوة حسنة، ولهذه الصورة دلالتها النفسية من حيث تدريب الشخصية على الصمود والثبات العاطفي، والنضج الإيماني بمعاييره العبادية النقية.

***

تحليل النص الثاني

وفي النص الآخر وهو يحمل في تركيبته اللفظية نفس معانيه الروحية والعقلية والجهادية: «**اصبروا.. فإن الله مع الصابرين، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلاَّ بالصبر على ما تكرهون**» إشارة إلى أهمية هذه السمة في تحقيق النصر بالنسبة للمجاهدين المقاتلين، ويبين النص اقتران النتائج المرجوة وما يحبه الأفراد بالصبر، وينطوي هذا النص على بعض الدلالات السيكولوجية والتربوية.

***

(١) يوسف مدن، المصدر السابق ص ٣٤٣.

ومن الدلالات المستفادة من النص الأخير ما يأتي، وهي تعزز الملاحظات التي سجلناها في تحليلنا للنص الأول.

١. عالج النص كذلك مسألة الصبر على مكاره الحياة كالنص الأول، لكن النص الثاني خص معالجته بقضية تقاعس الناس عن الجهاد، فأراد الإمام الحسن عليه السلام من خلال محتوى نصه الثاني إثارة همتهم الجهادية وتنشيطها وتفعيلها لخدمة الأهداف التي تساند الدولة التي يقودها الإمام عليه السلام.

٢. عرض النص القيمي نظرة علاجية واقعية، فإذا واجه الإنسان مشكلة ما كتقاعس الناس عن جهاد أعدائهم، فليس الحل التبرم والضجر والبكاء والتململ وإنَّما بالصبر حتى لو كرهوا الحرب أو الفعل الذي يقومون به لنيل ما يرغبون وما يحبون، فالصبر على المكاره كصبرهم الحروب ومعالجة التقاعس عنها، والقتال ببسالة والتخطيط للمبارزة القتالية هي همل واقعي يتطلب خطة فعلية لمواجهة المشكلة التي استشعرها الإمام الحسن عليه السلام من أتباعه المثخنين بجراح الحروب السابقة التي حدثت في عصره والده مع أتباع معاوية، وقد تضمن النص كما أشرنا لمعالجة عملية لمشكلة تقاعس الناس عن الحرب والجهاد، فالناس في زمانه وبعد سلسلة حروب مجهدة تعبوا فسئموا القتال، واستشعر الإمام رخاوتهم وقلة الناصر، فحثهم عليه السلام لنيل ما يحبون حتى لو كان عن طريق ما يكرهونه، وتحركت المعالجة بين محفزات الصبر، وتأكيد الإمام الحسن لنصر الله للمجاهدين، وحتمية تحقيق النصر لهم.

٣. انطوى النص الكريم في آن واحد على عنصرين مهمين هما التحفيز والتعزيز، فأما التحفيز فمهمته إثارة دافعية الناس نحو العمل الجهادي وتحقيق النصر بهذا الخيار وحده، فإن الناس كما قال الإمام ليسوا نائلين ما يحبون إلاَّ بما يكرهون وهو الحرب

والجهاد والقتال، وأما التعزيز فيتحقق في النص بمحفزات ثلاثة هي كما يلي:

أ. بالصبر ونتائجه المباشرة على الشخصية.

ب. من خلال الدعم الإلهي.. أي بعون الله للمجاهدين الصابرين في معاركهم مع أعدائهم وأعداء الدين، فالله معهم كما أوضح النص.

ج. وتحقيق النصر واستثمار نتائجه الإيجابية في النفوس.. أي نتائج الجهاد.

٤. أشار النص إلى التعزيز والحصول المؤكد على إثابة العمل الجهادي والصبر عليه بقوله عليه السلام: «**فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلاَّ بالصبر على ما تكرهون**»، وإذا كان ما يحبه المجاهدون هو النصر على أعدائهم في الحرب والقتال فإن ذلك لن ينال كثواب لهم إلاَّ بالصبر على ما يكرهون، فالثواب والتعزيز الطبيعي لسلوكهم الجهادي أوضحه النص الثاني بأن ما يرغبون في الحصول عليه ممن يحبونه هو تحقيق نصر الله تعالى لن يتم بغير الصبر والثبات العاطفي أمام الشدائد والأزمات، ويوحي النص المتقدم بأن الإثابة ليست فقط في تحقيق نصر مؤزر على الأعداء وإنما باكتساب عون الله سبحانه للمجاهدين وثقته بهم، وتأكيد مثوبته للمجاهدين، وقول الإمام الحسن بأن الله مع الصابرين ليس من أجل رفع معنويات المجاهدين فحسب وإنَّما لتأكيد الأجر الإلهي في يوم المعاد بعالم الآخرة، وهكذا فإنَّ معززات النص تتحرك بين عالمين.. دنيا الإنسان القصيرة وآخرته، فـ «**الدنيا مزرعة الآخرة**» كما في قول الإمام علي عليه السلام.

٥. كما يلحظ القارئ الكريم بأن النص التربوي الحسني قد انطوى في مفرداته اللفظية ومحتواه المعرفي على مقابلة واضحة بين نمطين من أنماط السلوك المتقابلة والمتضادة وهما «الحب والكراهية»، و«الجهاد والنكول عنه»، «واليأس والأمل» وغيرها، وقد ذكر الحب والكراهية بلفظ صريح، فالمحبوب هو تحقيق النصر في الحرب

إنْ كان المراد من المحتوى اللفظي للنص هو الثبات في الحرب، بيد أن الحروب مكروهة لدى كثير من الناس بخاصة ممن عاشوا الرخاوة في حياتهم، وهنا يقدم النص علاجاً لهذه الحالة التي قد تكون حالة مرضية لدى بعض الناس، وذلك بمعالجة ما يكره الناس بالصبر عليه لنيل المحبوب أو السلوك المرغوب.

***

السمة الثالثة: صفة الحلم

وعن الحلم – كصفة أخلاقية – قال الإمام الحسن الزكي بن علي عليه أفضل صلوات الله وسلامه وهو يجيب على تساؤلات أبيه:

١. ما الحلم فقال: «**كظم الغيظ وملك النفس**[١]»، واكتفينا في هذه المعالجة العلمية بمعرفة آثاره السيكولوجية على الصحة النفسية للفرد.

٢. قد سئل عن مفهوم «الصمت» فقال: «**هو ستر العي، وزين العرض، وفاعله في راحة، وجليسه في أمن**[٢]».

***

الحلم ومجالات السيطرة الأخلاقية على النفس:

ربما يكون من الصعوبة تحديد مجالات استخدام هذه الصفة بدقة في إدارة النفس وترتيب سلوكها في علاقتها مع الذات، ومع الآخر، ولكن يمكن حصر أبرز هذه المجالات، أو على أقل تقدير نواحي السيطرة الفاعلة لهذه الصفة الأخلاقية في توجيه

(١) ابن شعبة الحراني، تحف العقول ص ١٦٤، والسيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٥٩.

(٢) الأربلي، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢ ص ١٩٧، وكتاب الروائع المختارة، للموسوي، رقم الحديث ٢٩، ص ١٣٢

النفس وضبطها ومراقبتها بحركة الحياة التي تعيشها، وعلى أساس ذلك نجد أن الأهم في استخدام هذه الصفة بطريقة إيجابية في نواحي العملية التربوية للذات البشرية مع الاعتراف بأن الآخرين من الناس يمكنهم الإضافة والحذف والتعديل.

ومن مجالاتها ما يأتي:

١. مجال ضبط الداخل أو النية أو الإرادة القلبية من الانحراف، ولعل هذا من أكثر المهام الوظيفية لصفة الحلم.

٢. ضبط السلوك وتعديله وبخاصة الانفعالات والعواطف الثائرة.

٣. توجيه الاتجاهات النفسية والعقلية في مسارات مفيدة.

٤. السيطرة على اللغة وتوجيهها في مسار الهدف العبادي (كموقفه مع الشامي) ضمن معالجته بالأضداد.

***

الدلالات السيكولوجية للحلم وتأثيرها على الصحة النفسية للأفراد

إذا ما تأملنا بعمق في مفردات النص الأخلاقي الأول «**الحلم.. كظم الغيظ وملك النفس**» نجده قد استبطن في داخله بعض الدلالات التربوية والسيكولوجية ذات الأهمية البالغة في التربية الشاملة للشخصية الإنسانية وتحقيق صحتها النفسية والعقلية، ويمكننا في تأمل باطن النص استجلاء بعض الحقائق التي ينبغي للقارئ الكريم إدراكها وتفهمها وتمثلها كمعرفة وسلوك وقيم وجدانية حية، ومن هذه الدلالات:

١. كظم الغيظ تعبير أخلاقي يخص قدرة الفرد على تحقيق قدر مناسب من السيطرة على انفعال الغضب، وهو انفعال يصنفه علماء النفس كأحد الانفعالات الثائرة الظاهرة

في حياتنا البشرية، والكظم هو تعبير أخلاقي عن عملية «إبقاء الانفعال» المقصود هنا وهو انفعال «الغضب» سواء بإخفائه عن الناس أو إظهاره لهم بدون حدة انفعالية شديدة ومتطرفة تلحق الأذى بصاحبه وبالآخرين، والمراد هنا عملية الإخفاء الانفعالي أو السيطرة الانفعالية الهادفة المتقيدة بأدب الله كما فعل الإمام الحسن مع الرجل الشامي حين شتمه، ولهذا الإخفاء أثر سيكولوجي إيجابي كبير من حيث تجنب الحماقة والسلوك الأحمق في العلاقات البشرية القائمة في فكر الإمام الحسن على المحبة والتعاطف الإنساني النبيل.

٢. يتحدث علماء الطب السيكوسوماتيكي أو ما يسمى بـ «الطب الجسمي النفسي» عن علاقة سلبية بين الانفعالات الشديدة بخاصة الغضب والخوف وغيرهما ونشوء مجموعة من الأمراض العضوية الجسدية، فمن الحقائق الظاهرة في هذا المجال كما يقول هؤلاء العلماء أن كثرة الانفعالات وتراكمها يؤدي إلى نشوء بعض الأمراض العضوية الجسمية والنفسية، وقد اهتم علماء النفس وبعض الأطباء بدراسة هذه العلاقة بين الانفعالات ونشأة الأمراض العضوية والنفسية التي يشكو منها الناس، وقد أحصى بعض العلماء ثلاثين مرضاً جسدياً وعضوياً ناجمة عن تأثير الانفعالات كأمراض القلب لدى الإنسان والإمساك والإسهال والشلل والجلطة الدماغية والذبحة الصدرية، وقرحة المعدة، وقرحة الاثني عشر، والربو الشعبي، والسكر والضغط وغيرها، وهنا يكمن الدور الوظيفي للحلم كسمة أخلاقية في حياة الناس، وفي تحقيق قدر معقول من الصحة النفسية والجسدية والعقلية، فهذه الصفة تمكن الفرد من ضبط انفعالاته وتجعلها سلوكاً معتدلاً بنحو لا يسمح لظهور مثل هذه الأمراض في شخصيته لا جسدياً ولا نفسياً ولا ذهنياً.

٣. يمثل الحلم خلقاً إنسانياً نبيلاً قد تبنته الأديان السماوية، وارتضته الشرائع والفلسفات الوضعية والإيديولوجيات البشرية، وهو في نظر الأخلاقيين والتربويين منهجاً وقائياً فعالاً في تربية الإنسان، فإذا ما تمكن المربي من تربيته على هذا الخلق وتدريبه منذ الصغر على كظم الغيظ وملك النفس وإضعاف نزعة الغضب إلى حد غير فاعل فإن النتائج المستفادة ستكون باكتساب هذا الخلق من جهة، والسيطرة المبكرة على الانفعالات الشديدة التي تسبب الأمراض النفسية والجسدية، وربما العقلية، ومن ثمَّ تجنب نشوئها لدى الإنسان، كما ستتيح للإنسان فرص إشباع شوي وطبيعي لحاجاته في الانتماء والقبول الاجتماعي وتقدير الآخرين المحيطين بالشخص في وسطه الاجتماعي.

٤. والحلم الأخلاقي بمعانيه العبادية السامية يحقق للفرد إشباعاً سوياً وطبيعياً لبعض حاجاته القيمية والأخلاقية والاجتماعية عن طريق الوصول - بحلمه وضبط انفعالاته - إلى قلوب الناس، وتبوأ «مكانة اجتماعية» جيدة بينهم، وتشعره بالأهمية والتقدير والانتماء وقبول الناس لشخصيته، فالإنسان «الحليم» محبوب بين جموع الناس، ويجللونه بالاحترام، ويضفون عليه طابع «تقديرهم الاجتماعي» حتى وإن اختلفوا معه في فهم وتفسير قضايا معينة وتفسيرها يعيشونها جميعاً في وسط بيئة اجتماعية.

٥. يحقق الحلم «توازناً» بين سطوة الانفعالات النفسية وقوتها وبين إرادة الفرد، فيمكن للفرد أن يكتشف قدراته الذاتية الفاعلة لإدارة نفسه وتجنيبها مشاكل سيكولوجية واجتماعية باستخدامه لخلق «الحلم» وحكمة العقل، وبذلك يتيح لنفسه فرصة استعمال أفضل للعقل وتنمية قدراته المتمايزة بدلاً من صرف طاقته الذاتية في مواجهة غير مجدية مع الانفعالات الشديدة على مدار حياته.

٦. يتيح الحلم للعقل الإنساني الرشيد تقليل تأثير الانفعالات على الشخصية

ومكانتها الاجتماعية، فتنعكس السيطرة الانفعالية برشد التفكير على الانفعالات من حماية الشخصية وحفظ وقارها الاجتماعي بين الناس، فالوقار الاجتماعي بُعْد مهم للشخصية، فإذا ما خضع الفرد لانفعالاته واستجاب لها لأتفه الأسباب ومن دون تعقل يفقد تدريجياً وقاره الاجتماعي في الوسط الاجتماعي، وفقدان لمشاعر مودة الآخرين له، بل وتجنب إقامة علاقات معه إلاَّ إذا كانت عابرة لا تسمن ولا تغني من جوع، وهذا بكل تأكيد يؤثر سلباً على تكيف الفرد الاجتماعي واتزانه النفسي، لهذا نصح الإمام الحسن عليه السلام الناس بالحلم وكظم الغيظ وملك النفس للسيطرة عليها والتحكم في انفعالاتها وضبطها على معايير الصحة النفسية والمحددات الإيمانية العبادية التي أقرها المشرع الإسلامي في منهجه الأخلاقي، وأن الحلم يكسب الفرد تقديراً اجتماعياً يؤثر بإيجابية على صحته النفسية، فقال عليه السلام في إشارة إلى أثر الحلم كسمة أخلاقية في التقدير الاجتماعي للفرد: «**اعلموا** – وهو يخاطب أهل الكوفة – **أن الحلم زينة والوفاء مروءة**[1]»، وفي نص آخر قال عليه السلام والصلاة: «**اعلموا أن العقل حرز والحلم زينة والوفاء مروة**[2]».

٧. ليست دعوة الإمام الحسن عليه السلام بتمثل الحلم الأخلاقي كسلوك نبيل وكظم غيظنا وملك أنفسنا وإدارتها جيداً منع الانفعال التام، فالانفعال جزء من تركيبتنا الفطرية أو الاستعداد له على أقل تقدير، وإنما ينبغي السيطرة عليه وضبطه لإظهار حركة الفرد في أداء وظيفته العبادية أولاً، وظهار مقدرته على مواجهة انفعالاته الشديدة والمتطرفة بمنهج عقلاني رشيد ثانياً، وتوحي هذه الدعوة بأن الانفعالات هادئة وعنيفة هي حقيقة سيكولوجية، ولا يمكن إلغاؤها تماماً من تركيبتنا الآدمية، فنحن كبشر كائنات

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٧.

(٢) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٢

حية ولسنا كائنات عجماء، فمن الصوبة أن نميت نهائياً استعداداتنا للانفعال، ولكن من المستقبح ظهور استجابات انفعالية لأتفه سبب، ومن هنا ينبغي علينا أن ننفعل باعتدال وبنحو يفيد الإنسان، وبإمكانية السيطرة عليه والتحكم فيه.

٨. إنّ بعض الانفعالات في نظر الإمام الحسن ضرورية في الحياة البشرية كالغضب والحزن،، وهذا هو منطق الواقع، والعقلاء، فلا يعرف «الرأي» - وتمييزه عن الرأي الفاسد كما يقول - إلاَّ بالغضب[١] وتمييز القادر على التفكير والعاجز عنه لحظة انفعال الغضب، فالغضب لحظة حاسمة يفرز فيها بين صاحب فكرة، ومتمكن من السيطرة على نفسه وبين شخص آخر غير قادر على التفكير الصحيح وهو في لحظات الغضب بل إن من اللؤم من لا يغضب في مواقع الغضب، وعندما سئل الإمام عليه السلام عن الذل واللؤم فقال عن الذل: «**من لا يغضب من الجفوة**[٢]» أي يواجه بموقف عدائي مهين لكرامته، ولا يستثير فيه هذا الموقف المذل غضبه لنفسه ولا يحرك كرامته في داخله فيظل صامتاً يلعق عاره خانعاً، ولا يعني هذا أن يكون انفعاله ضجة وصراح، بل المطلوب الرد على الإهانة ، وإفهام الطرف الآخر بأن العدوان يرد بمثله، وعندما سئل عن اللؤم واللئيم قال عليه السلام من: «**لا يشكر النعمة**[٣]».

٩. وإذا كان النص الأول يوحي لنا في معنى الحلم بأنه حركة مقصودة للسيطرة على النفس بحكمة العقل ورشده لحظة انفعالاتها وبخاصة وقت الغضب فإن تعبير «ملك النفس» الوارد في آخر هذا المفهوم القصير يتجاوز لحظة الغضب إلى لحظة الهدوء، فالتعبير يبسط السيطرة على النفس وقت الغضب والهدوء ليتحقق لنا ما نراه

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٤٣.
(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦٤.
(٣) السيد حسن الشيرازي، مصدر سابق ص ٦٤.

مفهوماً كاملاً «للحلم» كصفة أخلاقية ذات أهمية بالغة في تحقيق قدر سوي من الصحة النفسية والعقلية، كما يجعل كل شيء لدى الإنسان ملكاً للشخص الحليم، ملك الكلمة، وملك الإرادة النية الداخلية القلبية، وملك القرار، والفعل والمشاعر.

***

الصفة الرابعة: فضيلة السخاء

وُصِفَ الإمام الحسن الزكي بن علي عليهما السلام في عدد من المصادر الروائية بصفة «كريم أهل البيت» وعرف بها على ألسنتهم، وتدل مواقفه السلوكية العملية كما مع الأعرابي والرجل الشامي، فضلاً عن أقواله وكلماته القصار على اتصافه بهذه الصفة الأخلاقية التي تمثل نبلاً وشرفاً في كيانه الإنساني، وكما تحدث عن الجود والكرم والسخاء فإن المصادر التي حفظت تراثه الفكري والأخلاقي تحدثت كذلك عن البخل والشح، وهذا منطقي ينسجم مع طريقته في مقابلة أضداد السلوك بما يناسبها من جنسها، فالبخل يقابله الكرم، والرغبة يقابلها الزهد، والكراهية يقابلها الحب، واليأس يواجه الرجاء، والنكول عن الحرب يقابله الصبر عليها، وهكذا يضع أنماط السلوك المتضادة مع بعضها حتى وإن كانت إشاراته متفرقة في بعض الأحيان، فالتقابل بين أضداد السلوك منهج أخلاقي وتربوي وعلاجي إسلامي قمنا بدراسته في كتاب مستقل[1].

***

(١) يوسف مدن، « العلاج النفسي وتعديل السلوك الإنساني بطريقة الأضداد «.

من نصوصه ومواقفه العملية وشعره في السخاء

وهي تقسم إلى قسمين.. معرفة نظرية، ومعرفة تطبيقية.

أولاً: المعرفة النظرية

يقول عليه السلام:

- «**أما الكرم فالتبرع بالمعروف، والإعطاء قبل السؤال، وأما النجدة فالذب عن المحارم، والصبر في المواطن عند المكاره، وأما المروءة فحفظ الرجل دينه وإحراز نفسه من الدنس، وقيامه بأداء الحقوق وإفشاء السلام**[١]».

- وفي نص أخلاقي قال جابر في مكارم الأخلاق: سمعت الحسن عليه السلام يقول: «**مكارم الأخلاق عشرة: صدق اللسان، وصدق البأس، وإعطاء السائل، وحسن الخلق، والمكافأة بالصنائع، وصلة الرحم، والتذميم على الجار ومعرفة الحق للصاحب، وقري الضيف، ورأسهن الحياء**[٢]».

- وقال عن الجود: «**الوعد مرض في الجود، والانجاز دواؤه**[٣]».

- وقال أيضاً: «**الانجاز دواء الكرم**[٤]».

- وفي نص آخر قال: «**المعروف ما لم يتقدمه مطل، ولا يتبعه منٌّ، والإعطاء قبل السؤال من أكبر السؤدد**[٥]».

(١) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٩٢، ص ١٤١

(٢) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٦١.

(٣) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٣، وكتاب الروائع المختارة للسيد مصطفى الموسوي، رقم الحديث ٣٨، ١٣٣.

(٤) الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٤٤.

(٥) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٣.

ثانياً: المعرفة التطبيقية

– وفي نص تطبيقي عندما «أتاه رجل في حاجة فقال عليه السلام له: «**اذهب فاكتب حاجتك في رقعة، وارفعها إلينا نقضها لك**، فرفع إليه حاجته فأضعفها له، فقال بعض جلسائه: ما أعظم بركة الرقعة عليه يا بن رسول الله؟ فقال عليه السلام: **بركتها علينا أعظم حين جَعِلْنَا للمعروف أهلاً، أما علمت أنَّ المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة، فأما أعطيته بعد مسألة فإنما أعطيته بما بذل لك من ماء وجهه، وعسى أن يكون بات ليله متململاً أرقاً يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته، أبكآبة الرد أم بسرور النُّجح؟ فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق، فإنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**[1]».

– وقف رجل على الحسن بن علي عليه السلام، وقال: يا بن رسول الله بالذي أنعم عليك بهذه النعمة التي لم تلِها منه بشفيع إليه، بل إنعاماً منه عليك إلاَّ ما أنصفتني من خصمي، فإنه غشوم ظلوم، لا يوقر الشيخ الكبير، ولا يرحم الطفل الصغير، وكان عليه السلام متوكئاً فاستوى جالساً، فقال عليه السلام له: «**ومن خصمك حتى انتصف لك منه**»؟ فقال: الفقر، فأطرق عليه السلام رأسه ساعة، ثم رفع رأسه إلى خادمه وقال له: «**أحضر ما عندك من موجود**»، فأحضر خمسة آلاف درهم، فقال: «**ادفعها إليه**، ثم قال عليه السلام: **بحق هذه الأقسام التي أقسمتَ بها عليَّ، متى أتاك خصمك جائراً إلاَّ ما أتيتني منه متظلماً**[2]».

– وجاء أعرابي إلى الحسن عليه السلام، فقال: «**أعطوه ما في الخزانة**»، فَوُجِد فيها عشرون ألف درهم، فدفعها إلى الأعرابي، فقال الأعرابي يا مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي

(١) الشيخ مهدي المازندراني، معالي السبطين، ص ١٩، وكتاب « كلمة الحسن « للسيد الشيرازي ص ٢٣١ – ٢٣٢

(٢) السيد شبر، جلاء العيون، ج١، ص ٣٢٧، وكلمة الحسن ص ٢٣٢.

وأنشـر مِدْحتي؟ فأنشأ الحسن:

نحـن أنـاس نـوالـنـا حنظـل ... يرتـع فيه الرجـاء والأمـل
تجـود قـبـل الـسـؤال أنفسنا ... خـوفـاً عـلى مـاء وجـه مـن يسل
لـو عـلـم الـبـحـر فـضْـلَ نائلنا ... لغاض من بعد فيضه خَجِلُ[1]

ومن شعره في فضيلة الكرم والسخاء قال عليه السلام:

خـلـقـت الـسـخـاء مـن قـدرة ... **فمنهم سخي ومنهم بخيل**
فـأمَّـا الـسـخـي فـفـي راحـة ... وأمَّـا البخيل فحزن طويل[2]

- وفي أبيات أخرى نظمها قال:

إنَّ السخاء على العباد فريضة ... لله يقـرأ في كـتـاب مُحْـكـم
وعـد العبـاد الأسخياء جنانـه ... وأعـدَّ للبخلاء نـار جهنَّم
من كان لا تنـدى يـداه بنائـل ... للراغبين فليس ذاك بمسلم[3]

***

شروط فضيلة الكرم كقيمة أخلاقية في النص الحسني

حددت نصوص الإمام وأقواله وكلماته التربوية والاجتماعية ومواقفه الأخلاقية من النوال وعطاء الناس بمعروفه أو كرمه مجموعة شروط استنبطنا ذلك من داخل هذه النصوص وتركيبتها اللفظية ومحتواها المحتوي المعرفي، ومن هذه الشروط:

١. أن يتم العطاء بنية القربى لله سبحانه وتعالى، فالعطاء بمفهوم الإمام فريضة

(١) السيد شبر، جلاء العيون، ج١ ص ٣٣٥، وكلمة الحسن ص ٢٣٢ - ٢٣٣.
(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢١٠
(٣) السيد حسن الشيرازي، المصدر السابق ص ٢١١.

دينية وأخلاقية، ويتطلب قبوله كعمل تعبدي أن يعقد الفرد نيته خالصة لله سبحانه وتعالى.

٢. أن تكون طريقة العطاء وآليته منسجمة مع الهدف العبادي كما في حكاية كتابة المسألة أو الحاجة بآلة لا تريق ماء الوجه كالكتابة على رقعة[١] دونما حاجة لإراقة ماء الوجه.

٣. الانجاز، ويراد به الممارسة الفعلية بالجود والسرعة المباشرة في التبرع به لأنه قد يتم الوعد بالعطاء ويؤخر بالمماطلة أو بسبب ما كالسهو والغفلة والتباطؤ، لهذا فإن الوعد مرض كما قال أحد أحاديث الإمام الحسن عليه السلام: «**الوعد مرض في الجود، والانجاز دواؤه**[٢]»، وفي نص آخر قال عليه السلام علاجاً لمرض الوعد: «**الانجاز دواء الكرم**[٣]».

٤. أن يتم العطاء مع احترام كامل لكرامة الإنسان وطالب الحاجة بنحو يخلو تماماً من المن والتعيير والإساءة.

٥. الجود قبل السؤال، بمعنى إعطاء السائل والتبرع إليه قبل أن يطلب حاجته أو يسأل إعطاءه، والمراد هنا كما أن لا يراق ماء وجه السائل، فالكرم كما قال الإمام الحسن بن علي عليهما السلام هو «**التبرع بالمعروف، والإعطاء قبل السؤال**[٤]».

٦. اليقين القلبي بجزاء العطاء والنوال لا بد أن يتفق مع الإيمان بحساب العباد يوم المعاد وأخذ أجرهم أو عقوبتهم فيه.

---

(١) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣١.
(٢) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٣٨، ١٣٣.
(٣) الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٤٤.
(٤) الموسوي، الروائع المختارة، رقم الحديث ٩٢، ص ١٤١

الفرق بين العطاء والمعروف أو الجود:

في حديث الإمام الحسن للكرم قال: «**فأما الكرم فالتبرع بالمعروف**»، وحينما طلب الإمام الحسن من السائل أن يكتب حاجته في رقعة قال عليه السلام لأحد جلسائه السائلين: «**جعلنا للمعروف أهلاً، أما علمت أن المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة**[١]» كما أن سلوك سام لا يتقدمه مماطلة، وليس مصحوباً بمن يتبعه، قال الإمام الحسن: «**المعروف ما لم يتقدمه مطل، ولا يتْبَعه منٌّ، والإعطاء قبل السؤال من أكبر السؤدد**[٢]».

أما العطاء فاستجابة متأخرة عن طلب السائل، أي يكون نوالاً بعد أن يطلب السائل المعونة، وقد يريق ماء وجهه من أجل تلبية طلبه، لهذا قال الإمام الحسن مميزا بين الكرم كمعروف يتبرع منه المسلم أو إنسان معين، وبين العطاء: «**أن المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة، فأما أعطيته بعد مسألة فإنَّما أعطيته بما بذل لك من ماء وجهه**[٣]».

***

الوظيفة التربوية لفضيلة الكرم في تحقيق الصحَّة النفسية

كالصفات الأخلاقية التي أشار إليها الإمام الحسن عليه السلام تترك فضيلة السخاء والكرم - كقيمة أخلاقية - آثارها في سيكولوجية الأفراد المتبرعين منهم بمعروفهم أو المحتاجين أو من ينالهم العطاء قبل السؤال وبعده، فهذه الصفة ذات علاقة بتحقق الصحة النفسية في حياة الأفراد كما وجدنا في النصوص السابقة وأبيات الشعر ومن مواقف العطاء في حياة الإمام الحسن بن علي، وهي دائماً آثار إيجابية، فالكرم والسخاء

(١) الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٣١.
(٢) السيد حسن الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٣.
(٣) الشيرازي، كلمة الحسن ص ٢٣١

يفعل سحره الإيجابي في النفوس، وهذا بخلاف النتائج السلبية التي تتركها رذيلة البخل في سيكولوجية البخلاء والآخرين الذين يحرمونهم من المال الذي بأيديهم.

وكما قدمنا فقد قسمنا النصوص ومواقف الإمام إلى قسمين، نظري اقتصرت على عدد قليل من أقواله وكلماته القصار، وقسم آخـر عملي فوجدنا العطاء وفيض كرمه ونواله حقيقة واقعة في سلوك الإمام نفسه، وعون مباشر للمحتاجين ومن شملهم عطاؤه الكريم، وإننا في التركيز على بعض الدلالات السيكولوجية المترتبة عن نصوص المعرفة النظرية والمواقف العملية سنحاول دمج هذه الدلالات في سياق واحد.

ومن هذه الدلالات السيكولوجية المؤثرة على الصحة النفسية للأفراد ما يأتي:

١. أن السخاء والكرم في نظر الإمام الحسن – كما في بعض أبياته الشعرية المشار إليها سابقاً – هي فريضة أو عمل عبادي فرضه الله على عباده المؤمنين، وأنه سبحانه وتعالى وعد الأسخياء منهم بالإثابة في اليوم الآخر، وأن تكون جناته مثواهم ودار سكناهم، وقد توعد الله عزَّ وجل البخلاء منهم بـ «نار جهنم» كما في مقطع من بعض أبياته الشعرية، بل يرى الإمام الحسن بن علي – كما في أحد مقاطعه الشعرية – أن من يحرم الناس الراغبين من نواله وعطائه فهو ليس بمسلم، والإيمان القلبي بأن الجود فضيلة دينية يحقق في داخل الإنسان وسيكولوجيته إحساساً سوياً بالرضا النفسي، وهذا أحد أهم أركان الشخصية السوية التي ترغب في تحقيق الرضا النفسي، والرضـا عن الذات.

٢. أن الله سبحانه وتعالى خلق السخاء والبخل كاستعداد داخل النفس الإنسانية، وأنَّ الناس انقسموا – بإراداتهم الذاتية – إلى سخي وبخيل وأن الأول منهما في راحة، والثاني في حزن طويل كما قال الإمام الحسن عليه السلام، وأن الخلق المقصود هنا في مدخل

أخذ الأبيات الشعرية للإمام الحسن هو التكوين الإلهي للاستعداد الفطري للسخاء والبخل، فكلاهما قابلية في تركيبتنا الآدمية، أما تنمية الاستعداد في سلوك من السخاء أو في سلوك من البخل فمن صنع الناس أنفسهم، فالإنسان بجهده الاجتماعي يضفي على نفسه الجود والكرم، أو يصبغها برذيلة البخل، لهذا يستحق السخي ثواباً، والبخيل نار جهنم لأن قرار الاختيار لهذا الفعل.. فضيلة أو رذيلة.. من نفسه وبإرادته الذاتية، والمفارقة بين إنسان سخي وبخيل يعني أن يضاعف الأول من جوده ونواله وكرمه، وأن يقوم الثاني بتعديل سلوكه بدافع تحقيق رضا الله ورضا النفس.

٣. والإنسان السخي يؤدي واجبه تجاه أوامر الله في البذل والإنفاق، وتعمير الكون، والحياة باستثمار ما استخلفه الله فيه، ويوفر لنفسه جزيل الأجر، ويبعد نفسه عن غضب الله عز وجل، ويشعر بالانسجام والتوافق، والرضا، هذا إذا كان السخي مؤمناً يتصرف فيما تحت يده من مال بسهولة، ولا يجد هناك شداً وجذباً خلال اتفاقه؛ لأنه هو الذي يتصرف في شهوته، وليست هي التي تحكم سلوكه، فعن طريق السخاء يحقق المسلم توازناً في شخصيته باسترضاء الله عز وجل، والبحث عن تقديره الذي لا حدود له، فليس المال الذي بيد الإنسان السخي ملكاً خاصاً به، بل هو مستخلف فيه، يؤجر عليه بسلامة نية الإنفاق، وبمقدار كيفية التصرف فيه، وليس للإنسان من حق سوى الإنفاق ليحقق الرضا في نفسه من خلال تطبيق مبدأ الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض، وموقف المجتمع من السخي يختلف عن موقفه من البخيل، فقد انتفت المعايرة التي كانت توجه دائماً للبخيل، وبرزت محلها البشاشة في وجه السخي، وتذكر الجميع له بالخير، وامتداحهم المستمر لخصاله الطيبة، بل إن هذا المدح يمتد إلى أكثر من جانب في شخصية السخي، فيغطي حتى عيوبه ومساويه، ومحاولة تفسيرها دائماً بشيء من حسن الظن، ومما لا شك فيه أن نفسية السخي لا تعرف القلق العصابي،

ولا تكتوي بشدة المرض النفسي الذي يعاني منه البخيل، لأنه لا وجود لمصادر القلق أبداً، فهو يعبد الله سبحانه بما يبذل مما استخلف فيه من المال، ويبحث عن تقدير الله عز وجل بالعطف على الفقراء والمساكين، وإكرام الضيف، وتوجيه المال في المشروع الخيِّر هنا وهناك، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، بل إن شخصية السخي تصل إلى قمة التوافق، والرضا النفسي بالإيثار، والجود بما عنده رغم الحاجة إليه[2]، وهذا ما أشار إليه الإمام الحسن السبط عليه السلام في أحد أبياته الشعرية بأن السخي في راحة، والبخيل في حزن طويل، وأنه جامع المساوئ والعيوب وقاطع جسر المودة بين القلوب.

٤. قدم الإمام الحسن بن علي عليه السلام مواقف تطبيقية لاحترام كرامة الإنسان وتقديره واحترام إنسانية، وتجنب أية إساءة مشينة تستغل حاجة المحتاجين أو الراغبين في طلب المال، ونقلنا ثلاثة نماذج من هذه المواقف التي انطوت على علاقة إيجابية بطابعها الإنساني النبيل بين صفة الكرم والجود والسجاد وارتفاع الروح المعنوية لدى الأفراد المحتاجين وتحسن حالتهم السيكولوجية، وارتفاع معنوياتهم، مما يسعدهم نفسياً، ويؤثر بإيجابية على صحتهم النفسية، فالنصوص الثلاثة التطبيقية تحدد لنا قواعد التبرع بالمعروف وإعطاء المحتاجين بنحو لا يسيء لأحد ولا يعايره، ولا يمن عليه بنواله وعطائه، وبتأمل بعض النصوص المتقدمة في مدخل الإشارة لصفة الكرم نجد في باطنها إشارات لهذه العلاقة التي تؤكد تحقق الصحة النفسية للأفراد بتأثير نبل هذه الفضيلة الأخلاقية.

٥. وإذا كان السخاء صفة تنمي الإحساس بالذات وترفع معنوياتها بنحو يساعد على تحقيق الصحة النفسية بمقدار معين فإن البخل بخلاف الكرم والجود يوجد نفوراً

(١) سورة الحشر، آية ٩، وسورة التغابن، آية ١٦.

(٢) يوسف مدن، العلاج النفسي وتعديل السلوك الإنساني، ص ٣٦٦ – ٣٦٧.

بين الناس ويضعف العلاقات بينهم ويدمرها، وبل يحقق للأفراد شعوراً طبيعياً بالأمن، فالبخل جامع للمساوئ، وقاطع المودة من قلوب الناس، ويجعل في أنفسهم موجدة ضد بعضهم بعضاً، فالإمام الحسن يقول عليه السلام في ذم البخل والتحذير منه: «**البخل جامع المساوئ والعيوب، وقاطع للمودات من القلوب**[1]»، بل إنَّ البخيل يرى أن ما ينفقه هو تلف وخسارة، وأن ما بيده من مال وأملاك هو شرف يفخر به قد خصه الله به دون الناس، وعندما سئل الإمام الحسن بن علي عليهما السلام عن معنى الشح فقال محدداً هذا المفهوم: «**أن ترى ما في يديك شرفاً، وما أنفقته تلفاً**[2]»، وهذا ما يجعله في حزن طويل كما قال الإمام الحسن في بيت من أبياته الشعرية إنْ تبرع بشيء من ماله كان تصرفه لأنه نظر لتبرعه كخسارة وتلف، وأن الشرف الذي بين يديك تناقص بتبرعه بقليل مما يراه شرفاً.

٦. تتعرض النفس الإنسانية لحالات مختلفة من المواجهة والصراع بين دافعين أو قوتين متقابلتين في داخل نفسية الفرد يعبر أحدهما عن اتجاه ما، ويعبر الآخر في اتجاه آخر، وينشأ عن ذلك صراع نفسي بين القوتين، وقد أشار عليه السلام في أحد نصوصه إلى ظاهرة الصراع النفسي في داخل الإنسان، وهي مرتبطة هنا – كما في النص – بمسألة ذوي السؤال وحاجتهم لمعونة الآخرين ودعمهم في مواجهة الفقر والتغلب عليه، فقد أتاه رجل في حاجة وطلب منه أن يكتب حاجته في رقعة ثم يرفعها إليه ليرفع عن نفسه الحرج النفسي وهو يطلب حاجته، وعندما طلب منه أحد جلسائه تفسير ذلك قال عليه الصلاة والسلام له: «**جُعِلْنا للمعروف أهلاً، أما علمت أن المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة، فأما أعطيته بعد مسألة فإنما أعطيته بما بذل لك من ماء وجهه،**

(١) الموسوي، كتاب الروائع المختارة، رقم الحديث ١٥، ص ١٢٨.
(٢) الشيرازي، كلمة الحسن ص ٥٩.

وعسى أن يكون بات ليله متململاً، أرقاً،يميل بين اليأس والرجاء، لا يعلم لما يتوجه من حاجته.. «أبكابة الرد أم بسرور النُّجْح» ؟، فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق، فإِنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك[1]». وفي النص ثلاث إشارات للصراع النفسي وهي:

أ. صراع في داخل نفسية السائل بين يأسه من تلبية طلبه وقضاء حاجته، وبين أمله في الحصول على حاجته بالعطاء أو اضطراره للحصول عليه بأساليب تهين كرامته وتريق ماء وجهه.

ب. حيرة لدى السائل في التوجه لجهة تحقق له حاجة، ويظل الشخص السائل في صراع بين إقدام وإحجام.. ويبقى أسيراً لصراع بين قوتين في كيانه الداخلي، بين إحساسه «بكآبة الرَّد» المتوقعة، وهي استجابة فشل متوقعة قد يواجهها السائل من الطرف المقصود، وبين دافع آخر هو «**سرور النُّجح**» كاستجابة إذا ما تمكن من تحقيق طلبه وقضاء بعض حاجته أو كلها بدافع نقي وسوي يخلو من المن والمطل، وهذه الحالة تعبر عن حالة إحجام بقوله: «**أبكابة الرد**» وحالة إقدام بقوله: «**أم بسرور النُّجْح**» الذي يعبر عن حالة تفاؤل واقعي جسدته حالات متعددة من مواقف الكرم والتبرع بمعروفه، فكلا الدافعين يتجاذبان نفسية السائل.

ت. صراع بين مشاعر نزعته فيما يبذل من ماء وجهه، وبين نتائج ما يحصله من معروف أو تبرع، وقد عبر الإمام الحسن بن علي عن ذلك بقوله عليه السلام: «**فيأتيك وفرائصه ترتعد، وقلبه خائف يخفق، فإِنْ قضيت له حاجة فيما بذل لك من ماء وجهه، فإنَّ ذلك أعظم ممَّا نال من معروفك**»، فالإحساس لدى السائل بأنه أراق من ماء وجهه أعظم

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن، ص ٢٣٢.

مما نال من معروف المتبرع له أو جود الآخر عليه، وتعبر هذه الحالة عن صراع إحجام – إحجام، حيث تتقاذف الفرد دافعان أحدهما الخوف وخفقان القلب وارتعاد الفرائص من الإقبال على طلب المعونة، والدافع الآخر هو أنه لا تقتضى حاجته حتى يريق ماء وجهه، وكلاهما منفران لنفسه، وثقيلان عليها.

ث. وما هي الآن آليات حل الصراع النفسي وإحداث توازن في سيكولوجية الفرد؟

١. الانجاز والسرعة في التبرع بالمعروف.. أي السرعة والمبادأة الفورية في انجاز الكرم وإبعاد «الوعد» الذي عدّه الإمام الحسن مرضاً في الجود كما تقدمت الإشارة، فـ «الوعد» كما قال الإمام «**مرض في الجود والانجاز دواؤه**[١]» أمَّا «**الانجاز دواء الكرم**[٢]».

٢. الإعطاء قبل سؤال السائل وطالب الحاجة، فالإعطاء قبل السؤال – كما جاء في نص قصير – **من أكبر السؤدد**[٣] ، وهنا يقوم مقدم المعرف والمتبرع بالخير للسائل بتفهم نفسيته، وإنهاء حيرته بمبادرة ذكية فيعطيه ويقضي حاجته قبل أن يقول كلمة.

٣. أو يستخدم الطرف المطلوب منه التكرم آلية مادية سامية ونبيلة كاستخدام الإمام لكتابة الحاجة في رقعة لرفع الحرج النفسي عن السائل، والمحافظة على كرامة السائل وتفيد هذه الخطوة بأنه من الأفضل أن تقدم الطلبات بطريقة موثقة ومؤسساتية وفي سجلات محفوظة.

٤. سمو الإعطاء بنية عبادية وأخلاقية.. نية القربى لله تعالى، وخلوه من نزعة

(١) كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٣

(٢) كلمة الإمام الحسن ص ٢٤٤.

(٣) كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٣

المن، والمعايرة، والغمز، فالمعروف كما جاء في توصية الإمام الحسن عليه أفضل الصلاة والسلام: «**ما لم يتقدمه مطل، ولا يتْبَعه منٌّ، والإعطاء قبل السؤال من أكبر السؤدد**[1]».

٥. اختيار الطرف الثاني المواجه للسائل استجابة «**سرور النُّجح**» على استجابة «**كآبة الرد**» ليرفع معنوياته النفسية، وتحقيق قدر معقول من التكيف النفسي والاجتماعي، وتعميق إحساسه بالأمن في مجتمعه، وتحسيسه بأنه منتمي لمجتمعه، ويتمتع بقدر من الحماية من الناس المحيطين به، فمن شأن هذه الخطوة مساعدته على التوافق النفسي، وإطلاق بسمة على ثغره.

٦. إن الخطوات السابقة في إبداء المعروف والتبرع به لقضاء حاجة السائل والتغلب على حيرته وحل ما يواجهه من حالات الصراع النفسي تحقق الكرم والتبرع بالمعروف لدى قاضي الحاجة، كما أن ذلك ينعكس أثره على سيكولوجية السائل، المحتاج أو طالب الحاجة، وتقديره اجتماعياً وبناء مشاعر الثقة بنفسه وبأهميته، وبأمنه النفسي الاجتماعي، وتعميق مشاعر الارتياح بحفظ كرامته، وغرس إحساسات حب الناس لنفسه، وهذه جميعاً مؤشرات عن دور «انجاز الكرم»والتبرع بالمعروف في تحقيق الصحة النفسية للأفراد.

٧. تمكن الإمام الحسن من حسم حالة الصراع النفسي حسماً موفقاً وسوياً يتوافق مع المحددات الإيمانية في تحقيق الصحة النفسية ومعاييرها، وهذا مشهد تربوي أراد الإمام الحسن أن يستفيد منه الناس في نشاطهم التعبدي اليومي وعلاقاتهم مع بعضهم، فأهل البيت ومنهم الإمام الحسن يخاف على إسالة ماء وجه السائل ويرغب في حفظ كرامته، لهذا فإنهم عليهم السلام تجود أنفسهم كما في أحد الأبيات الشعرية للإمام قبل أن يسألهم السائل ويذل نفسه، وحتى لو أدركهم سائل فسألهم حاجتهم فإنهم يستحون ويطرقون

(١) كلمة الإمام الحسن ص ٢٠٣.

برؤوسهم نحو الأرض ثم يقضون حاجاتهم، ومن ذلك قصة الإعرابي مع الإمام الذي دفع له الإمام مبلغاً قبل أن يسأله الإعطاء، فقال الإعرابي للإمام: «يا مولاي ألا تركتني أبوح بحاجتي وأنشر مدحتي[١]»، فأنشد يقول:

نحن أناس نوالنا حنظل ... يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا ... خوفاً على ماء وجه من يسَّلُ
لو علم البحر فضلَ نائلنا ... لغاض من بعد فيضه خَجِلُ[٢]

وكما في قصة الإمام الحسن عليه السلام مع صاحب الرقعة[٣] الذي أتاه فأمره بكتابة حاجته في رقعة (استمارة، ورقة)، وكما في قصة الرجل الذي وقف على الحسن بن علي عليهما السلام وقال: يا بن رسول الله بالذي أنعم عليك بهذه النعمة التي لم تلها منه بشفيع منك إليه، بل إنعاماً منه عليك إلاَّ ما نصفتني من خصمي، فإنه غشوم ظلوم، لا يوقر الشيخ الكبير، ولا يرحم الطفل الصغير، وكان عليه السلام متوكئاً فاستوى جالساً، فقال عليه السلام له: «**ومن خصمك حتى انتصف لك كمه**»؟ فقال: الفقر، فأطرق عليه السلام ساعة، ثم رفع رأسه إلى خادمه، وقال له: «**أحضر ما عندك من موجود**»، فأحضر خمسة آلاف درهم، فقال: «**ادفعها إليه**، ثم قال عليه السلام: **بحق هذه الأقسام التي أقسمت بها عليَّ، متى أتاك خصمك جائراً إلاَّ ما أتيتني منه متظلماً**[٤]».

(١) الشيرازي، كلمة الإمام الحسن ص ٢٣٢
(٢) السيد حسن الشيرازي، مصدر سابق ص ٢١٠، ٢٣٣.
(٣) السيد حسن الشيرازي، مصدر سابق ص ٢٣١.
(٤) السيد حسن الشيرازي، مصدر سابق ص ٢٣٢

المصادروالمراجع

مصادرُ الكتاب ومراجعُه

أولاً: الكتب الدينية المقدسة

القرآن الكريم.

- الأنصاري، ابراهيم بن عبد الله، إرشاد الحيران لمعرفة آي القرآن، تحقيق عبد الله ابن ابراهيم الأنصاري، مطابع قطر الوطنية، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار القلم، بيروت، لبنان، سنة طبعة الكتاب ١٩٣٩م.

***

ثانياً: الكتب الإسلامية

١- الأربلي، العلامة المحقق أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج٢، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، لبنـان، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

٢- المجلسي، محمد باقر، بحـار الأنوار، ج ١، ٧١، ٧٨، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٩٠م.

٣- الحراني، أبو علي الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة، تحف العقول عن آل

الرسول، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، سنة الطبعة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٤- التميمي، عبد الواحد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، (ج١، ٢)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٥- الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، تحقيق الأستاذ شيخ الأزهر الإمام محمد عبده، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠ م.

٦- الري شهري، محمدي، ميزان الحكمة (ج ١، ٣، ٦، ٧، ٨)، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ومؤسسة الإعلام الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٧ - الإمام زين العابدين السجاد، علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب،الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق (رقم ٣٨)، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٥م.

٨ - الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، شرح الصحيفة السجادية، شرح عز الدين الجزائري، بدون تحديد دار الطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة الطباعة ١٤٩٨هـ - ١٩٧٨م. . .

٩ - الموسوي، السيد مصطفى، الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن وكتبه ورسائله وكلماته القصار، تقديم مؤسسة الغري للمطبوعات، منشورات دار الكتاب

الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٠ - الشيرازي، العلامة الشهيد السيد حسن، كلمة الإمام الحسن، منشورات دار الصَّـادق للطبـاعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، سنة الطبعة، شوَّال ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

١١ - الطبرسي، العلاَّمة المحدث رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل، مكارم الأخلاق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، سنة الطبعة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

***

ثالثاً: الكتب التربوية الإسلامية

١ - مدن، يوسف،التعلم والتعليم في النظرية التربوية الإسلامية، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنـان، الطبعة الأولى، سنة الطبعة ٢٠٠٥م، ١٤٢٦هـ.

٢ - مدن، يوسف، العلاج النفسي وتعديـل السلوك الإنسـاني بطريقة الأضـداد، دار الهـادي للطبـاعة والتوزيع والنشر، بيروت، لبنـان، الطبعة الأولى، سنة الطبعة ٢٠٠٥م، ١٤٢٥هـ.

٣ - حسن عبد العال، فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة، مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض، المملكة العربية السعودية، طبعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤ - اقلاينة، المكي، النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى، سلسلة كتاب الأمة القطرية، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، العدد

الرابع والثلاثين، الطبعة الأولى، سنة الطبعة ١٩٩٢م – ١٤٠٢هـ.

٥ – القزويني، السيد علاء الدين بن السيد أمير بن السيد محمد، الفكر التربوي عند الشيعة الإمامية، مكتبة الفقيه، دولة الكويت، الطبعة الثانيَّة، سنة الطبعة ١٩٨٦م – ١٤٠٧هـ.

***

رابعاً: الكتب العلمية والتربوية

١ – أبو حطب، فؤاد، وآمال صادق، علم النفس التربوي، الناشر: دار النهضة العربية، جمهورية مصر العربية، سنة الطبعة ١٩٨٩م.

٢ – عبد القادر، محمود، وأحمد فائق، مدخل إلى علم النفس العام، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٤م.

٣ – خيري وآخرون، سيِّد محمد، علم النفس التربوي، مطبوعات جامعة الرياض، مدينة الرياض، المملكة العربية السعودية،الطبعة الأولى، سنة الطبع ١٩٧٥م – ١٣٩٥ هـ.

٤ – عبد الغفار، عبد الغفَّار، مقدمة في الصحة النفسية، الناشر: دار النهضة العربية، جمهورية مصر العربية، سنة الطبعة ١٩٩٠م.

***

خامساً: معاجم اللغة

١ – لسان العرب لابن منظور.

٢ – المستجد في اللغة والإعلام.

٣ - المعجم الوسيط، ج٢.

٤ - مسعود، جبران، رائد الطلاب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة عشر، سنة الطبعة ١٩٩٥م.

المحتويات

الإهـداء ٥

حكمة خالدة ٧

مقدمة الكتاب ٩

الحلقة الأولى

التعلم والتعليم في التراث التربوي عند الإمام الحسن عليه السلام ١٩

الحلقة الثانية

المباديءالتربوية في خطاب الإمام الحسن عليه السلام التربوية ٦٥

الحلقة الثالثة

الطرق التعليمية وأساليبها عند الإمام الحسن عليه السلام ١٠١

الحلقة الرابعة

التفكير والعملية التعليمية ١٤٧

الحلقة الخامسة

القدرات العقلية في خطاب الإمام الحسن عليه السلام ١٧٧

الحلقة السادسة

الحاجات الإنسانية في تراث الإمام الحسن عليه السلام ٢٢٥

الحلقة السابعة

أنواع الحاجات الإنسانية وتنظيم إشباعها ٢٦١

الحلقة الثامنة

فن الإعتذار مبدأ في العلاقات الإنسانية ٣٠٣

الحلقة التاسعة

الانفعالات النفسية وآثارها في خطاب الإمام الحسن عليه السلام التربوي ٣٤٧

الحلقة العاشرة

الأخلاق والصحة النفسيةفي خطاب الإمام الحسن عليه السلام التربوي ٣٩٣

مصادرُ الكتاب ومراجعُه ٤٣٩

المحتويات ٤٤٥